

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنعام

﴿ فصل في نزولها ﴾

روى مجاهد عن ابن عباس : أن (الأنعام) مما نزل بمكة . وهذا قول الحسن ، وقتادة ، وجابر بن زيد .

وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة (الأنعام) جملة ليلاً بمكة ، وحولها سبعون ألف ملك ^(١) .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هي مكية ، نزلت جملة واحدة ، ونزلت ليلاً ؛ وكتبوها من ليلتهم ، غير ست آيات وهي (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ كُفْرُكُمْ عَلَيْكُمْ ...) إلى آخر الثلاث آيات [الأنعام : ١٥١ - ١٥٣] وقوله : (وما قدروا الله حق قدره ...) الآية [الأنعام : ٩١] . وقوله : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي) إلى آخر الآيتين [الأنعام : ٩٣ ، ٩٤] . وذكر مقاتل نحو هذا . وزاد آيتين : قوله : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) [الأنعام : ١١٤] ، وقوله : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه ...) [الأنعام : ٢١] .

(١) ذكره ابن كثير ١٢٢/٢ عن الطبراني في « الكبير » وفيه علي بن زيد بن جدعان ، وهو ضيف ضعفه ابن سعد ، والامام أحمد ، وابن معين وغيرهم . وزاد السيوطي في « الدر المنثور » ٢/٣ نسبته لأبي عبيد ، وابن الضريس ، وابن المنذر ، وابن مردويه .

وروي عن ابن عباس ، وقناة فالأ : هي مكة ، إلا آيتين نزلتا بالمدينة ؛ قوله : (وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدره . . .) الآية [الأنعام : ٩١] . وقوله : (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات) [الأنعام : ١٤١] . وذكر أبو الفتح ابن شيطا : أنها مكة ، غير آيتين نزلتا بالمدينة (قل تعالوا . . .) والتي بعدها [الأنعام : ١٥١ ، ١٥٢] .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

فأما التفسير ، فقال كعب : فاتحة (الكهف) فاتحة (الأنعام) ، وخاتمتها خاتمة (هود) ؛ وإنما ذكر السموات والأرض ، لأنها من أعظم المخلوقات . والمراد « بالجعل » : الخلق . وقيل : إن « جعل » ههنا : صلة ؛ والمعنى : والظلمات . وفي المراد بالظلمات والنور ثلاثة أقوال . أحدها : الكفر والإيمان ، قاله الحسن . والثاني : الليل والنهار ، قاله السدي . والثالث : جميع الظلمات والأضواء .

قال قتادة : خلق الله السموات قبل الأرض ، والظلمات قبل النور ، والجنة قبل النار . قوله تعالى : (ثم الذين كفروا) يعني : المشركين بعد هذا البيان (برهم يعدلون) ، أي : يجعلون له عديلاً ، فيعبدون الحجارة الموات ، مع إقرارهم بأنه الخالق لما وُصف . يقال : عدلت هذا بهذا : إذا ساويته به . قال أبو عبيدة : هو مقدّم ومؤخّر ، تقديره : يعدلون برهم . وقال النضر بن شميل : الباء : بمعنى « عن » .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (هو الذي خلقكم من طين) يعني : آدم ، وذلك أنه لما شك

المشركون في البعث ، وقالوا : من يحيي هذه العظام ؟ أعلمهم أنه خلقهم من طين ، فهو قادر على إعادة خلقهم .

قوله تعالى : (ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) فيه ستة أقوال .

أحدها : أن الأجل الأول : أجل الحياة إلى الموت ، والثاني : أجل الموت إلى البعث ، روي عن ابن عباس ، والحسن ، وابن المسيب ، وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل .

والثاني : أن الأجل الأول : النوم الذي يُقْبَضُ فيه الروح ، ثم ترجع في حال اليقظة ؛ والأجل المسمى عنده : أجل موت الإنسان . رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أن الأجل الأول : أجل الآخرة متى يأتي ، والأجل الثاني : أجل الدنيا ، قاله مجاهد في رواية .

والرابع : أن الأول : خلق الأشياء في ستة أيام ، والثاني : ما كان بعد ذلك إلى يوم القيامة ، قاله عطاء الخراساني .

والخامس : أن الأول : قضاء حين أخذ الميثاق على خلقه ، والثاني : الحياة في الدنيا ، قاله ابن زيد ، كأنه يشير إلى أجل الذرية حين أحيام وخاطبهم .

والسادس : أن الأول : أجل من قدم مات من قبل ، والثاني : أجل من يموت بعد ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (ثم أتم) أي بعد هذا البيان (تمترون) وفيه قولان .

أحدهما : تشكّون ، قاله قتادة ، والسدي . وفيما شكوا فيه قولان . أحدهما :

الوحدانية ، والثاني : البعث .

والثاني : يختلفون : مأخوذ من المراء ، ذكره الماوردي .

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهو الله في السموات وفي الأرض) فيه أربعة أقوال .

أحدها : هو المعبود في السموات وفي الأرض ، قاله ابن الأنباري .

والثاني : وهو المنفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض ، قاله الزجاج .

والثالث : وهو الله في السموات ، ويعلم سركم وجهركم في الأرض ، قاله

ابن جرير .

والرابع : أنه مقدم ومؤخر . والمعنى : وهو الله يعلم سركم وجهركم في

السموات والأرض ، ذكره بعض المفسرين .

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا

مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ

مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) نزلت في كفار قريش .

وفي الآية قولان . أحدهما : أنها الآية من القرآن ، والثاني : المعجزة ، مثل انشقاق القمر

والمراد بالحق : القرآن . والأنباء : الأخبار . والمعنى : سيعطون عاقبة استهزائهم .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ

فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا

وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ

وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾

قوله تعالى : (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) القرن : اسم أهل كل عصر .

وسمّوا بذلك ، لاقتراحهم في الوجود . والمفسرين في المراد بالقرن سبعة أقوال .

أحدها : أنه أربعون سنة ، ذكره ابن سيرين عن النبي ﷺ .

والثاني : ثمانون سنة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : مائة سنة ، قاله عبد الله بن بشر المازني ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن .

والرابع : مائة وعشرون سنة ، قاله زُرارة بن أوفى ، وإياس بن معاوية .

والخامس : عشرون سنة ، حكاه الحسن البصري .

والسادس : سبعون سنة ، ذكره الفراء .

والسابع : أن القرن : أهل كل مدة كان فيها نبيٌ ، أو طبقة من العلماء ،

قلَّتِ السِّنُون ، أو كثرت ؛ بدليل قوله ﷺ : « خيركم قرني » يعني : أصحابي

« ثم الذين يلونهم » يعني : التابعين « ثم الذين يلونهم »^(١) يعني : الذين أخذوا عن

التابعين . فالقرن : مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان ، فهو في كل قوم على

مقدار أعمارهم ؛ واشتقاق القرن : من الاقتران . وفي معنى ذلك الاقتران قولان .

أحدهما : أنه سمي قرناً ، لأنه المقدار الذي هو أكثر ما يقترن فيه أهل

ذلك الزمان في بقائهم . هذا اختيار الزجاج .

(١) رواه بهذا اللفظ البخاري في « صحيحه » ، (١٩٠/٥) بشرح « الفتح » عن عمران

ابن حصين رضي الله عنه ، وتامه ، قال عمران : لا أدري أذكر النبي ﷺ بعد قرنين أو

ثلاثة ، قال النبي ﷺ : « إن بعدكم قوماً يخونون ولا يؤمنون ، ويشهدون ولا يستشهدون ،

ويندرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن » ورواه البخاري ١٩١/٥ ومسلم ١٩٦٣/٤ في

« صحيحهما » عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ « خير الناس قرني ، ثم الذين

يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » ورواه

مسلم ١٩٦٢/٤ بلفظ « خير أمتي قرني . . » وانظر الكلام على هذا الحديث في « فتح الباري » ٥/٧ .

والثاني : أنه سمي قرنًا ، لأنه يَقْرَنُ زمانًا بزمانٍ ، وأُمَّةٌ بأُمَّةٍ ، قاله ابن الأباري . وحكى ابن قتيبة عن أبي عبيدة قال : يرون أن أقل ما بين القرنين : ثلاثون سنة .

قوله تعالى : (مكناهم في الأرض) قال ابن عباس : أعطيناهم ما لم يُنْعَمِكم . يقال : مَكَّنْتُهُ ومَكَّنْتُ لَهُ : إذا أقدرنه على الشيء باعطاء ما يصح به الفعل من العدة . وفي هذه الآية رجوع من الخبر إلى الخطاب .

فأما السماء : فالمراد بها المطر . ومعنى « أرسلنا » : أنزلنا . و« المدرار » : مفعال ، من درَّ ، يَدِرُّ ؛ والمعنى : نرسلها كثيرة الدَّرِّ .

ومِفعال : من أسماء المبالغة ، كقولهم : امرأةٌ مذكارة : إذا كانت كثيرة الولادة للذكور ، وكذلك مثناة

فان قيل : السماء مؤنثة ، فلم ذكّر مدراراً ؟ !

فالجواب : أن حكم ما انعدل من النعوت عن منهاج الفعل وبنائه ، أن يلزم التذكير في كلِّ حال ، سواء كان وصفاً لمذكر أو مؤنث ؛ كقولهم : امرأةٌ مذكارة ، وممطار ؛ وامرأةٌ مذكورة ، ومؤنث ؛ وهي كفور ، وشكور . ولو بُنيت هذه الأوصاف على الفعل ، لثقل : كافرة ، وشاكرة ، ومُذَكِّرة ؛ فلما عدل عن بناء الفعل ، جرى مجرى ما يستغني بقيام معنى التأنيت فيه عن العلامة ؛ كقولهم : النمل لبستها ، والفأس كسرثها ، وكان إشارتهم التذكير للفرق بين المبني على الفعل ، والممدول عن مثله الأفاعيل . والمراد بالمدرار : المبالغة في اتصال المطر ودوامه ؛ يعني : أنها تَدِرُّ وقت الحاجة إليها ؛ لا أنها تدوم ليلاً ونهاراً ، فتفسد ، ذكره ابن الأباري .

﴿ وَكَوْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

قوله تعالى : (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس) سبب نزولها : أن مشركي مكة قالوا : يا محمد ، والله لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ، ومعه أربعة من الملائكة ، يشهدون أنه من عند الله ، وأنتك رسوله ، فزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب . قال ابن قتبية : والقرطاس : الصحيفة ، يقال للرامي إذا أصاب الصحيفة : قَرَطَسَ ^(١) . قال شيخنا أبو منصور اللغوي : القرطاس قد تكلموا به قديماً . ويقال : إن أصله غير عربي . والجمهور على كسر قافه ، وضما أبو رزين ، وعكرمة ، وطلحة ، ويحيى بن يعمر .

فأما قوله تعالى : (فلمسوه بأيديهم) فهو تأكيد لنزوله ، وقيل : إنما علته باللمس باليد إبعاداً له عن السحر ، لأن السحر يُتَخَيَّلُ في المراتيات ، دون الملهوسات . ومعنى الآية : إنهم يدفعون الصحيح .

﴿ وَقَالُوا كُونِ أَتُزَلَّ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَكَوْنُ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لِقُضِي
الْأَمْرِ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾

(١) اختصر المؤلف رحمه الله كلام ابن قتبية ، وإليك نصه بتمامه من « غريب القرآن » ، ١٥٠ :
(ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس) أي : صحيفة ، وكذلك قوله : (تجملونه قراطيس) أي :
صحفاً . قال المار .

عَقَّتِ الْمَنَازِلُ غَيْرَ مِثْلِ الْأَنْقَسِ بَعْدَ الزَّيْمَانِ عَرَفْتَهُ بِالْقِرْطَاسِ
فَوَقَّعَتْ تَعْتَرِفُ الصَّحِيفَةُ عَمَسَ الْكِتَابَ وَقَدْ بَرَى لَمْ يَمَسَسِ
والأنقس : جمع قس ، مثل قدح وأقدح وأقداح . أراد غير مثل النفس عرفته بالقرطاس ، ثم
قال : « فوققت تعترف الصحيفة » فأعلمك أن القرطاس هو الصحيفة ، ومنه يقال للرامي إذا
أصاب : قرطس ، إنما يراد أصاب الصحيفة .

قوله تعالى : (وقالوا لولا أنزلَ عليه ملكٌ) قال مقاتل : نزلت في النضر ابن الحارث ، وعبد الله بن أبي أمية ، ونوفل بن خويلد ؛ و « لولا » بمعنى « هلا » (أنزلَ عليه ملكٌ) نصدقه ؛ (ولو أنزلنا ملكاً) فعاينوه ولم يؤمنوا ، (لقضي الأمر) ؛ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المعنى : لما نوا ، ولم يؤمروا طرفة عين لتوبة ، قاله ابن عباس .
والثاني : لقامت الساعة ، قاله عكرمة ، وبجاهد .

والثالث : لعجل لهم العذاب ، قاله قتادة .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو جعلناه) أي : ولو جعلنا الرسول إليهم ملكاً ، لجعلناه في صورة رجل ، لأنهم لا يستطيعون رؤية الملك على صورته ، (وللبسنا عليهم) أي : لبسنا عليهم . يقال : ألبست الأمر على القوم ، ألبسه ؛ أي : شبهته عليهم ، وأشكلته . والمعنى : خلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حتى يشكوا ، فلا يدرون أم ملكٌ هو ، أم آدمي ؛ فأضللناهم بما به ضلوا ، قبل أن يبعث الملك . وقال الزجاج : كانوا يلبسون على ضعفهم في أمر النبي ﷺ ، فيقولون : إنما هذا بشر مثلكم ؛ فقال تعالى : لو رأوا الملك رجلاً ، لكان يلحقهم فيه من اللبس مثل ما لحق ضعفهم منه . وقرأ الزهري ، ومعاذ القاري ، وأبو رجا ، : « وللبسنا » ، بالشديد ، « عليهم ما يلبسون » ، مشددة أيضاً .

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾

قوله تعالى : (فحاق بالذين سخروا) أي : أحاط . قال الزجاج : الحيق في اللغة : ما اشتغل على الإنسان من مكروه فعله ، ومنه : (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) [فاطر : ٤٣] ؛ أي : لا ترجع عاقبة مكروهه إلا عليهم . قال السدي : وقع بهم العذاب الذي استهزؤوا به .

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْزِيََكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل لمن ما في السموات والأرض) المعنى : فان أجابوك ، وإلا ف (قل : لله ، كتب على نفسه الرحمة) قال ابن عباس : قضى لنفسه أنه أرحم الراحمين . قال الزجاج : ومعنى كتب : أوجب ذلك إيجاباً مؤكداً ، وجائز أن يكون كتب في اللوح المحفوظ ؛ وإنما خُوطِبَ الخلق بما يقولون ، فهم يقولون أن تأكيد الشيء المؤخر أن يحفظ بالكتاب . وقال غديره : رحمته عامة ؛ فمما تأخير العذاب عن مستحقه ، وقبول توبة العاصي .

قوله تعالى : (ليجمعنكم إلى يوم القيامة) اللام : لام القسم . كأنه قال : والله ليجمعنكم إلى اليوم الذي أنكرتموه . وذهب قوم إلى أن « إلى » بمعنى : « في » . ثم اختلفوا ، فقال قوم : في يوم القيامة . وقال آخرون : في قبوركم إلى يوم القيامة . قوله تعالى : (الذين خسروا أنفسهم) أي : بالشرك ، (فهم لا يؤمنون) ، لما سبق فيهم من القضاء . وقال ابن قتيبة : قوله : (الذين خسروا أنفسهم) مردود إلى قوله : (كيف كان عاقبة المكذبين) الذين خسروا

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

قوله تعالى : (وله ما سكن في الليل والنهار) سبب نزولها أن كفار مكة

قالوا للنبي ﷺ : قد علمنا أنه إنما يحملك على ما ندعونا إليه الحاجة ؛ فنحن نجعل لك نصيباً في أموالنا حتى تكون من أغنانا رجلاً ، وترجع عما أنت عليه ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس .

وفي معنى « سكن » قولان .

أحدهما : أنه من السكنى . قال ابن الأعرابي : « سكن » بمعنى حل .

والثاني : أنه من السكون الذي يضاد الحركة . قال مقاتل : من المخلوقات ما يستقر بالنهار ، وينتشر بالليل ؛ ومنها ما يستقر بالليل ، وينتشر بالنهار .

فان قيل : لم خص السكون بالذكر دون الحركة ؟ فغنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن السكون أعم وجوداً من الحركة .

والثاني : أن كل متحرك قد بسكن ، وليس كل ساكن يتحرك .

والثالث : أن في الآية إضماراً ؛ والمعنى : وله ما سكن وتحرك ؛ كقوله

(تقيمكم الحر) [النحل : ٨٢] أراد : والبرد ؛ فاختصر .

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَنْتَخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل أغير الله أنتخذ ولياً) ذكر مقاتل أن سبب نزولها ، أن

كفار قريش قالوا : يا محمد ، ألا ترجع إلى دين آبائك ؟ فنزلت هذه الآية . وهذا الاستفهام معناه الإنكار ؛ أي : لا أنتخذ ولياً غير الله أتولاه ، وأعبده ، وأستعينه .

قوله تعالى : (فاطر السموات والأرض) الجمهور على كسر راء « فاطر » . وقرأ

ابن أبي عبلة برفهما . قال أبو عبيدة : الفاطر ، مضاف : الخالق . وقال ابن

قتيبة : المبتدئ . ومنه « كل مولود يولد على الفطرة » ^(١) أي : على ابتداء الخلقة ، وهو الإقرار بالله حين أخذ العهد عليهم في أصلاب آبائهم . وقال ابن عباس : كنت لا أدري ما فطر السموات والأرض ، حتى أتاني أعرايان يختصمان في بشر ؛ فقال أحدهما : أنا فطرتهما ، أي : أنا ابتدأتهما . قال الزجاج : إن قيل : كيف يكون الفطر بمعنى الخلق ؛ والانفطار : الانشقاق في قوله تعالى : (إذا السماء انفطرت) [الانفطار : ١] فالجواب : إنما يرجعان إلى شيء واحد ، لأن معنى « فطرهما » : خلقهما خلقاً قاطعاً . والانفطار ، والفطور : تقطع ونشقق .

قوله تعالى : (وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ) قرأ الجمهور بضم الياء من الثاني ؛ ومعناه : وهو يرزق ولا يرزق ، لأن بعض المبيد يرزق مولاه . وقرأ عكرمة والاعمش « ولا يطعم » بفتح الياء . قال الزجاج : وهذا الاختيار عند البصريين بالبصرية ، ومعناه : وهو يرزق ويُطْعَمُ ولا يأكل .

قوله تعالى : (إني أمرت أن أكون أول من أسلم) أي : أول مسلم من هذه الأمة ؛ (ولا تكونن من المشركين) قال الأخفش : معناه : وقيل لي : لا تكونن ، فصارت : أمرت ، بدلاً من ذلك ؛ لأنه حين قال : أمرت ، قد أخبر أنه قيل له .

(١) البخاري (١٩٧/٣) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كمثل البهيمة تتجج البهيمة ، هل ترى فيها جدهاء » ورواه البخاري أيضاً (١٧٦/٣) ومسلم في « صحيحه » (٢٠٤٧/٤) بلفظ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » ثم يقول أبو هريرة : (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ...) الآية . ورواه أحمد في « المسند » عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه ، فإذا عبر عنه لسانه ، إما شاكراً ، وإما كفوراً » وفي رواية لمسلم (٢٠٤٨/٤) « ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة ، حتى يعبر عنه لسانه » وفي رواية له أيضاً « حتى يبين عنه لسانه » .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) زعم بعض المفسرين أنه كان يجب عليه أن يخاف عاقبة الذنوب ، ثم نسخ ذلك بقوله : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) [الفتح : ٣] والصحيح أن الآيتين خبر ، والخبر لا يدخله النسخ ، وإنما هو معلق بشرط ، ومثله : (لئن أشركت ليحبطن عملك) [الزمر : ٦٦] .

﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾

قوله تعالى : (من يصرف عنه) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم (من يُصْرَفْ) بضم الياء وفتح الراء ، يعنون : العذاب . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم (يَصْرَفْ) بفتح الياء وكسر الراء ؛ الضمير قوله : (إن عصيت ربي) ؛ ومما يحسن هذه القراءة قوله : (فقد رحمه) ، فقد اتفق إسناد الضميرين إلى اسم الله تعالى ، ويعني بقوله : (يصرف) العذاب (يومئذ) ، يعني : يوم القيامة ، (وذلك) يعني : صرف العذاب .

﴿ وَإِنْ يَتَسَنَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بَخِيرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (وإن يمسك الله بضر) الضر : اسم جامع لكل ما يتضرر به الإنسان ، من فقر ، ومرض ، وغير ذلك ؛ والخير : اسم جامع لكل ما ينتفع به الإنسان .

وللمفسرين في الضر والخير قولان .

أحدهما : أن الضر : السقم ؛ والخير : العافية

والثاني : أن الضر : الفقر ، والخير : الغنى .

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

قوله تعالى : (وهو القاهر فوق عباده) القاهر : الغالب ، والقهر : الغلبة .
والمعنى : أنه قهر الخلق فصرّفهم على ما أراد طوعاً وكرهاً ؛ فهو المستعلي عليهم ،
وهم تحت التسخير والتذليل .

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لَا تُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ
لِتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ
وَاحِدٌ وَإِنِّنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل أي شيء أكبر شهادة) سبب نزولها : أن رؤساء مكة
أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، ما نرى أحداً يصدّقك بما تقول ، ولقد
سألنا عنك اليهود والنصارى ، فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر ولا صفة ، فأرانا من
يشهد أنك رسول الله ؛ فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .
ومعنى الآية : قل لقريش : أي شيء أعظم شهادة ؛ فإن أجابوك ، وإلا فقل :
الله ، وهو شهيد بيني وبينكم على ما أقول .

وقال الزجاج : أمره الله أن يحتج عليهم بأن شهادة الله في نبوته أكبر
شهادة ، وأن القرآن الذي أتى به ، يشهد له أنه رسول الله ، وهو قوله : (وأوحى
إليّ هذا القرآن لا أنذركم به) ففي الإنذار به دليل على نبوته ، لأنه لم يأت أحد
بمثله ، ولا يأتي ؛ وفيه خبر ما كان وما يكون ؛ ووعد فيه بأشياء ، فكانت كما
قال . وقرأ عكرمة ، وابن السميع ، والجدري (وأوحى إليّ) بفتح الهمزة
والحاء (القرآن) بالنصب ؛ فأما « الإنذار » ، فمعناه : التخويف ، ومعنى (ومن بلغ)
أي : من بلغ إليه هذا القرآن ، فإني نذير له . قال القرطبي : من بلغه القرآن

فكأنما رأى النبي ﷺ ، وكلمه ^(١) . وقال أنس بن مالك : لما نزلت هذه الآية ، كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقبصر وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل . قوله تعالى : (أنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) هذا استفهام معناه الإنكار عليهم . قال الفراء : وإنما قال : « أخرى » ولم يقل : « آخر » لأن الآلهة جمع ؛ والجمع يقع عليه التأنيث ، كما قال : (والله الأسماء الحسنی) [الاعراف : ١٨١] وقال : (فإبال القرون الأولى) [طه : ٥٢] .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ
الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب) في الكتاب قولان .
أحدهما : أنه التوراة والإنجيل ؛ وهذا قول الجمهور .
والثاني : أنه القرآن .

وفي هاء « يعرفونه » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى النبي ﷺ ، قاله السدي . وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الله بن سلام : إن الله قد أنزل على نبيه بمكة (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) [البقرة : ١٤٧ ، والانعام : ٢١] فكيف هذه المعرفة ؟ فقال : لقد عرفته حين رأيته كما أعرب ابني ، ولأننا أشد معرفة بمحمد ﷺ مني بابي . فقال عمر : وكيف ذاك ؟ فقال : إني أشهد أنه رسول الله حقاً ، ولا أدري ما يصنع النساء .

(١) الطبري : ٢٩١/١١ دون قوله د وكلمه ، وفيه : ثم قرأ (ومن بلغ أنكم لتشهدون) ونسبه ابن كثير : ١٢٦/٢ إلى ابن أبي حاتم ، وقال : زاد أبو خالد - وهو أحد رواة الخبر - و ذلك .

والثاني : أنها ترجع إلى الدين والنبي . فالمعنى : يعرفون الإسلام أنه دين الله عز وجل ، وأن محمداً رسول الله ، قاله قتادة .

والثالث : أنها ترجع إلى القرآن . فالمعنى : يعرفون الكتاب الدال على صدقه ؛ ذكره الماوردي .

وفي (الذين خسروا أنفسهم) قولان .

أحدهما : أنهم مشركو مكة .

والثاني : كفار أهل الكتابين .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) أي : اختلق على الله

الكذب في ادعاء شريك معه . وفي « آياته » قولان .

أحدهما : أنها محمد والقرآن ، قاله ابن السائب . والثاني : القرآن ، قاله مقاتل .

والمراد بالظلم المذكور في هذه الآية : الشرك .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ابْنُكُمْ كَذَّابٌ أَفَتَعْمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً) اتصّب « اليوم » بمحذوف تقديره :

واذكر يوم نحشرهم . قال ابن جرير : والمعنى : لا يفلحون اليوم ، ولا يوم

نحشرهم . وقرأ يعقوب : (يحشرهم) (ثم يقول) بالياء فيها .

وفي الدين عى قولان .

أحدهما : المسلمون والمشركون . والثاني : المابدون والمعبودون .

ونوله : (أين شركاؤكم) سؤال توبيخ . والمراد بشركائهم : الأوثان ؛ وإنما أضافها إليهم لأنهم زعموا أنها شركاء لله .

وفي معنى (يزعمون) قولان . أحدهما : يزعمون أنهم شركاء مع الله . والثاني : يزعمون أنها تشفع لهم .

﴿ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فَتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

قوله تعالى : (ثم لم تكن فتنتهم) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « ثم لم تكن » بالناء ، « فتنتهم » بالرفع . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : « تكن » بالناء أيضاً ، « فتنتهم » بالنصب ؛ وقد رويت عن ابن كثير أيضاً . وقرأ حمزة ، والكسائي : « يكن » بالياء ، « فتنتهم » بالنصب . وفي « الفتنة » أربعة أقوال .

أحدها : أنها بمعنى الكلام والقول . قال ابن عباس ، والضحاك : لم يكن كلامهم . والثاني : أنها الممذرة . قال قتادة ، وابن زيد : لم تكن معذرتهم . قال ابن الأنباري : فالمعنى : اعتذروا بما هو مُهلكٌ لهم ، وسبب لفضيحتهم .

والثالث : أنها بمعنى البلية . قال عطاء الخراساني : لم تكن بليتهم . وقال أبو حبيد : لم تكن بليتهم التي ألزمتهم الحجة ، وزادتهم لائمة .

والرابع : أنها بمعنى الافتتان . والمعنى : لم تكن عاقبة فتنتهم .

قال الزجاج : لم يكن افتتانهم بشركهم ، وإقامتهم عليه ، إلا أن تبرؤوا منه . ومثل ذلك في اللغة أن ترى إنساناً يحب غاويًا ، فاذا وقع في هلكة تبرأ منه ؛ فيقول : ما كانت محبتك لفلان إلا أن اتفيت منه . قال : وهذا تأويل لطيف ، لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام ، وتصرف العرب في ذلك .

وقال ابن الأباري : المعنى : أنهم اقتنوا بقولهم هذا ، إذ كذبوا فيه ، وفتوا عن أنفسهم ما كانوا معروفين به في الدنيا .

قوله تعالى : (إِنْ أَنْ قَالُوا وَاللّٰهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « وَاللّٰهِ رَبِّنَا » بكسر الباء . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : بنصب الباء .

وفي هؤلاء القوم الذين هذا وصفهم قولان .

أحدهما : أنهم المشركون . والثاني : المناقون ^(١) .

ومتى يحلفون ، فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا من كان مسلماً ، قالوا : نعالوا نكابر عن شركنا ، فحلفوا ، قاله ابن عباس ^(٢) .

والثاني : أنهم إذا دخلوا النار ، ورأوا أهل التوحيد يخرجون ، حلفوا [واعتذروا] ، قاله سميد بن جبير ، ومجاهد .

(١) قال ابن كثير بد أن نقل هذا القول عن ابن عباس : وفيه نظر ، فإن هذه الآية مكية ، والمناقون إنما كانوا بالمدينة ، والتي نزلت في المنافقين آية [المجادلة : ١٨] (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له) .

(٢) الطبري ٣٠٢/١١ وذكره ابن كثير ١٢٧/٢ عن ابن أبي حاتم وإسناده حسن ، ونصه : عن سميد بن جبير قال : أتى رجل ابن عباس فقال : سمعت الله يقول : (والله ربنا ما كنا مشركين) وقال في آية أخرى : (ولا يكفون الله حديثاً) [النساء : ٤٣] قال ابن عباس : أما قوله : (والله ربنا ما كنا مشركين) فإنه لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام ، قالوا : نعالوا نجحد ، فقالوا : (والله ربنا ما كنا مشركين) فختم الله على أفواههم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم (ولا يكفون الله حديثاً) وفي رواية للطبري ٣٧٤/٨ تبين أن السائل هو نافع بن الأزرق ، وكان يأتي ابن عباس ليُلقي عليه متشابه القرآن .

زاد السير ٣ م (٢)

والثالث : أنهم إذا سئلوا : أين شركاؤكم ؟ تبرؤوا ، وحلفوا : ما كنا مشركين ، قاله مقاتل .

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (أنظر كيف كذبوا على أنفسهم) أي : باعتذارهم بالباطل .

(وضل عنهم ما كانوا يفترون) أي : ذهب ما كانوا يدعون ويختلقون من أن الأصنام شركاء لله ، وشفعائهم في الآخرة .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلَا يَرَوْنَ كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنُ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ومنهم من يستمع إليك) سبب نزولها : أن قرأ من المشركين ، منهم عتبة ، وشيبة ، والنضر بن الحارث ، وأمية وأبي ابنا خاف ، جلسوا إلى رسول الله ﷺ ، واستمعوا إليه ، ثم قالوا للنضر بن الحارث : ما يقول محمد ؟ فقال : والذي جعلها نبية ، ما أدري ما يقول ، إلا أني أرى تحريك شفثيه ، وما يقول إلا أساطير الأولين ، مثلما كنت أحدثكم عن القرون الماضية ؛ وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . فأما « الأكمة » ، فقال الزجاج : هي جمع كنان ، وهو النطاء ؛ مثل عنان وأعنة .

وأما : « أن يفقهوه » ، فنصوب على أنه مفعول له . المعنى : وجعلنا على قلوبهم أكنةً لكرهه أن يفقهوه ، فلما حذفت اللام ، نصبت الكراهة ؛ ولما حذفت الكراهة ، انتقل نصبها إلى « أن » .

« الوقر » : يُقْلُ السمع ، يقال : في أذنه وقر ، وقد وُقرتِ الأذن ، تُوقَر .

قال الشاعر :

وكلامُ سَيِّئٍ قد وُقرتِ أذُنِي عنه وما بي من صَمَمٍ^(١)

والوقر ، بكسر الواو ؛ أن يُحْمَلَ البصر وغيره مقدار ما يطيق ، يقال : عليه وقر ، ويقال : نخلة موقِر ، وموقِرَة ، وإنما قُل ذلك بهم مجازاة لهم بأقمتهم على كفرهم ، وليس المعنى أنهم لم يفقهوه ، ولم يسموه ؛ ولكنهم لما عدلوا عنه ، وصرفوا فكرهم عما عليهم في سوء العاقبة ، كانوا بمنزلة من لم يعلم ولم يسمع . (وإن يروا كل آية) أي : كل علامة تدل على رسالتك ، (لا يؤمنوا بها) .

ثم أعلم الله عز وجل مقدار احتجاجهم وجدلهم ، وأنهم إنما يستملون في الاحتجاج . أن يقولوا : (إن هذا) ، أي : ما هذا (إلا أساطير الأولين) وفيها قولان .

أحدهما : أنها ما سَطُر من أخبارهم وأحاديثهم . روى أبو صالح عن ابن عباس قال : أساطير الأولين : كذبهم ، وأحاديثهم في دهرهم . وقال أبو الحسن الأخفش : يزعم بعضهم أن واحدة الأساطير : أسطورة . وقال بعضهم : أساطيرة ؛ ولا أراه إلا من الجمع الذي ليس له واحد ، نحو عباديد ، ومذاكير ، وأبائيل . وقال ابن قتيبة : أساطير الأولين : أخبارهم وما سطر منها ، أي : ما كتب ، ومنه قوله : (رَ . والقلم وما يسطرون) [القلم : ٢٠١] أي : يكتبون ، واحداها سطر ،

(١) البيت للشبب البدي من قصيدة حكيمة جيدة أنبتها صاحب « الفضليات » ٢٩٣ .

ثم أسطار ، ثم أساطير جمع الجمع ، مثل قول ، وأقوال ، وأقوابل ^(١) .
والقول الثاني : أن معنى أساطير الأولين : الترهات . قال أبو عبيدة : واحد
الأساطير : أسطورة ، وإسطارة ، ومجازها مجاز الترهات . قال ابن الأنباري :
الترهات عند العرب : طرق غامضة ، ومسالك مشككة ، يقول قائلهم : قد أخذنا
في ترهات البساس ، يعني : قد عدلنا عن الطريق الواضح إلى المشكل ؛ وعما يعرف
إلى ما لا يعرف . و « البساس » : الصحاري الواسعة ، والترهات : طرق تشعب
من الطريق الأعظم ، فتكثر وتتشكل ، فجعلت مثلاً لما لا يصح وينكشف .
فإن قيل : لم عابوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، وقد سطر الأولون ما فيه
علم وحكمة ، وما لا عيب على قائله ؛ فنه جوابان .

أحدهما : أنهم نسبوه إلى أنه ليس بوحى من الله .

والثاني : أنهم عابوه بالإشكال والغموض ، استراحة منهم إلى البهت والباطل .
فعل الجواب الأول تكون « أساطير » من التسطير ، وعلى الثاني تكون بمعنى الترهات ،
وقد شرحنا معنى الترهات .

قوله تعالى : (وم ينهون عنه ويتأولون عنه) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن أبا طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ،
ويتباعدوا عما جاء به ، فنزلت فيه هذه الآية ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ،
وهو قول عمرو بن دينار ، وعطاء بن دينار ، والقاسم بن غيمرة ^(٢) . وقال مقاتل :

(١) « غريب القرآن » : ٣٧ .

(٢) هو أبو عروة القاسم بن غيمرة الهمداني الكوفي ، زيل دمشق ، ثقة فاضل مترجم
في « التهذيب » .

كان رسول الله ﷺ عند أبي طالب يدعو إلى الإسلام ، فاجتمعت قريش إلى أبي طالب يريدون بالنبي ﷺ سوءاً ، فسألوا أبا طالب أن يدفعه إليهم ، فيقتلوه ، فقال : مالي عنه صبر ؛ فقالوا : ندفع إليك من شبابنا من شئت مكان ابن أخيك ؛ فقال أبو طالب : حين تروح الإبل ، فإن حنت ناقة إلى غير فصيلها دفعته إليكم ، وقال :

وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ حَتَّى أَوْسَدَ فِي الثَّرَابِ دَفِينَا
فَأَصْدَعَ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاظَةٌ وَابْشِرْ وَقَرَّ بِذَلِكَ مِنْكَ عُيُونَا
وَعَرَضْتَ دِينًا لَا مَحَالَةَ أَنَّهُ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حَذَارِي سُبَّةٌ كَوَجَدْتَنِي سَمَحًا بِذَلِكَ مُبِينَا
فزلت فيه هذه الآية .

والثاني : أن كفار مكة كانوا يبهون الناس عن اتباع النبي ﷺ ، ويتباعدون بأنفسهم عنه ، رواه الوالي عن ابن عباس ، وبه قال ابن الحنفية ، والضحاك ، والسدي . فعلى القول الأول ، يكون قوله : « وهم » كناية عن واحد ؛ وعلى الثاني : عن جماعة .

وفي هاء « عنه » قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى النبي ﷺ . ثم فيه قولان . أحدهما : يبهون عن أذاه ؛ والثاني : عن اتباعه .

والقول الثاني : أنها ترجع إلى القرآن ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد . (وينأون) بمعنى يبعدون . وفي هاء « عنه » قولان . أحدهما : أنها راجعة إلى النبي ﷺ . والثاني : إلى القرآن .

قوله تعالى : (وإن يهلكون) أي : وما يهلكون (إلا أنفسهم) بالتباعد عنه (وما يشعرون) أنهم يهلكونها .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ تُؤْفَكُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا مُّردُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على النار) في معنى « وقفوا » ستة أقوال .
أحدها : حُبِسُوا عليها ، قاله ابن السائب . والثاني : عُرِضُوا عليها ، قاله مقاتل .
والثالث : عابوها . والرابع : وقفوا عليها وهي تحتم .
والخامس : دخلوا إليها فصرفوا مقدار عذابها ، تقول : وقفت على ما عند فلان ، أي : فهمته وتبيّنته ، ذكر هذه الأقوال الثلاثة الزجاج ، واختار الأخير .
وقال ابن جرير : « على » هاهنا بمعنى « في » .

والسادس : جملوا عليها وقفاً ، كالوقوف المؤبدة على سبيلها ، ذكره الماوردي .
والخطاب بهذه الآية للنبي ﷺ ، والوعيد للكفار ، وجواب « لو » عنف ، ومعناه : لو رأيتم في تلك الحال ، لرأيت عجباً .

قوله تعالى : (ولا نكذب بآيات ربنا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وأبو بكر ، عن عاصم برفع الباء من « نكذب » ، والنون من « نكون » .

قال الزجاج : والمعنى أنهم تمنّوا الرد ، وضمنوا أنهم لا يكذبون . والمعنى : يا ليتنا مُردُّ ، ونحن لا نكذب بآيات ربنا ، رُدُّنا أو لم مُردُّ ، ونسكون من المؤمنين ، لأننا قد عابنا ما لا نُكذِّبُ منه أبداً .

قال : ويجوز الرفع على وجه آخر ، على معنى « يا ليتنا نرد » ، يا ليتنا لا نكذب ، كأنهم تمنّوا الرد والتوفيق للتصديق .

وقال الأخفش : إذا رفعت جملته على مثل البين ، كأنهم قالوا : ولا نكذب
 - والله - بآيات ربنا ، ونكون - والله - من المؤمنين . وقرأ حمزة إلا المجلي^(١) ،
 وحذف عن عاصم ، ويعقوب : بنصب الباء من « نكذب » ، والنون من « نكون » .
 قال مكي بن أبي طالب : وهذا النصب على جواب التني ، وذلك باضمار
 « أن » ، حملاً على مصدر « زد » ، فأضمرت « أن » لتكون مع الفعل مصدراً ،
 فمطف بالواو مصدراً على مصدر . وتقديره : يا ليت لنا رداً ، وانتفاءً من التكذيب ،
 وكوناً من المؤمنين . وقرأ ابن عاصم برفع الباء من « نكذب » ، ونصب النون
 من « نكون » ؛ فالرفع قد بينا علته ، والنصب على جواب التني .

﴿ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا
 لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِفْكُنَا الدَّيْنِيَا
 وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾

قوله تعالى : (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) « بل » : ها هنا رد
 لكلامهم ، أي : ليس الأمر على ما قالوا من أنهم لو ردوا لآمنا .

وقال الزجاج : « بل » استدراك وإيجاب بمد نفي ؛ تقول : ما جاء زيد ، بل
 عمرو وفي معنى الآية أربعة أقوال .

أحدها : بدا ما كان يخفيه بعضهم عن بعض ، قاله الحسن .

والثاني : بدا بنطق الجوارح ما كانوا يخفون من قبل بالسنتهم ، قاله مقاتل .

والثالث : بدا لهم جزاء ما كانوا يخفونه ، قاله المبرد .

(١) هو أبو أحمد عبد الله بن صالح بن مسلم بن صالح المجلي الكوفي زيل بن داد ، مروي

مشهور ثقة ، أخذ القرامطة عرضاً عن حمزة الزيات ، وعن سليم عن حمزة أيضاً ، مات في
 حدود الشرين ومائتين .

والرابع : بدا للاتباع ما كان يُخفيه الرؤساء ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما أُنهوا عنه) قال ابن عباس : لعادوا إلى ما أُنهوا عنه من الشرك ، وإنهم لكاذبون في قولهم : (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) .

قال ابن الأنباري : كذبهم الله في إخبارهم عن أنفسهم ، أنهم إن ردّوا ، آمنوا ولم يكذبوا ، ولم يكذبهم في التخي .

قوله تعالى : (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا) هذا إخبار عن منكري البعث .

قال مقاتل : لما أخبر النبي ﷺ كفار مكة بالبعث ، قالوا هذا . وكان عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم يقول : هذا حكاية قولهم ، لو ردّوا لقالوه .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) قال مقاتل : عرّضوا على ربهم

(قال : أليس هذا) العذاب (بالحق) . وقال غيره : أليس هذا البعث حقاً ؛ فلي قول مقاتل : (بما كنتم تكفرون) بالعذاب ، وعلى قول غيره : (تكفرون) بالبعث .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قد خسر الذين كذبوا بقاء الله) إنما وُصفوا بالخسران ،

لأنهم باعوا الإيمان بالكفر ، فعظم خسرانهم .

والمراد بقاء الله : البعث والجزاء ؛ والساعة : القيامة ؛ والبغطة : المفاجأة .

قال الزجاج : كل* ما أتى فجأة فقد بنت ، يقال : قد بنته الأمر يَبْنَتْهُ
بَنْتًا وبَنْتَةً : إذا أتاه فجأة . قال الشاعر :
وَلَكِنَّهُمْ بَانُوا وَلَمْ أَحْشَ بَنْتَةً وَأَقْطَعُ شَيْءًا حِينَ يَفْجَأُكَ الْبَنْتُ^(١)
قوله تعالى : (يا حسرتنا) الحسرة : التلief على الشيء الفات ، وأهل التفسير
يقولون : يا ندامتنا .

فان قيل : ما معنى دعاء الحسرة ، وهي لا تميل ؟

فالجواب : أن العرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن عظيم ما تقع
فيه ، جملة نداء ، فتَدْخِلُ عليه « يا » للتنبيه ، والمراد تنبيه الناس ، لا تنبيه المنادي .
ومثله قولهم : لا أَرَيْتَكَ هَاهُنَا ، لفظه لفظ الناهي لنفسه ، والمعنى للمسي : ومن
هذا قولهم : يا خَيْلَ اللَّهِ اركبي ، يراد : يا فرسان خيل الله . وقال سيدي : إذا
قلت : يا عجباه ، فكأنك قلت : احضر وتعال يا عجب ، فهذا زمانك . فأما
التفريط فهو : التضييع .

وقال الزجاج : التفريط في اللغة : تقدمة العجز^(٢) . وفي المصنف عنه بقوله :
« فيها » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الدنيا ، فالمعنى : على ما ضيعنا في الدنيا من عمل الآخرة ،
قاله مقاتل .

(١) « مجاز القرآن » : ١/١٩٣ ، ود الكامل : ٨٧٨ ، ود اللسان : بنت ، وهو يزيد
ابن ضبة مولى لثيف ، واسم أبيه مقسم ، وضبة أمه ، ظلت على نسيه ، لأن أباه مات وخلفه
صغيراً . وهو شاعر إسلامي .

(٢) في « اللسان » وقال الزجاج : (وكان أمره فرطاً) ، أي : كان أمره التفريط ،
وهو تقديم العجز .

والثاني : أنها الصفة ، لأن الخسران لا يكون إلا في صفقة ، وترك ذكرها اكتفاءً بذكر الخسران ؛ قاله ابن جرير .

والثالث : أنها الطاعة ، ذكره بعض المفسرين .

فأما الأوزار ، فقال ابن قتيبة : هي الآثام ، وأصل الوزر : الحل على الظهر .

وقال ابن فارس : الوزر : الثقل . وهل هذا الحل حقيقة ؛ فيه قولان .

أحدهما : أنه على حقيقته . قال صير بن هاني : يحتر مع كل كافر عمله في صورة رجل قبيح ، كلباً كان هوّل عظمه عليه ، وزاده خوفاً ، فيقول : بنس المجلس أنت ، مالي ولك ؛ فيقول : أنا عمك ، طالما ركبتني في الدنيا ، فلا ركبتك اليوم حتى أخزبك على رؤوس الناس ، فيركبه ويتخطى به الناس حتى يقف بين يدي ربه ، فذلك قوله : (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) وهذا قول السدي ، وعمر بن قيس الملائي ^(١) ، ومقاتل .

والثاني : أنه مثل ، والمعنى : يحملون ثقل ذنوبهم ، قاله الزجاج . قال : فجعل ما ينالهم من العذاب بمنزلة أثقل ما يتحمل ، ومعنى (ألا ساء ما يزرون) : بنس الشيء شيئاً يزرونه ، أي يحملونه .

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَٰمِبٌ وَلَهُوٌ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما الحياة الدنيا إلا لمبٌ ولهوٌ) فيه ثلاثة أقوال .

(١) هو أبو عبادة عمرو بن قيس ، الملائي الكوفي ، ثقة فاضل متعب ، مترجم في « التهذيب » وغيره . وقد خرج الطبري أثره ٣٣٧/١١ ، وذكره السيوطي في « الدر المنثور » ، ٩/٣ وزاد نسبه لابن أبي حاتم ، وإسناده ابن أبي حاتم فيها رواه ابن كثير : ١٢٩/٢ : حدثنا أبو سعيد الأشج ، قال : حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمرو بن قيس الملائي عن أبي مرزوق .

أحدها : وما الحياة الدنيا في سرعة انقطاعها ، وقصر عمرها ، إلا كالشيء يلمب به .
والثاني : وما أمر الدنيا والعمل لها إلا لب ولهو ، فأما فعل الخير ، فهو
من عمل الآخرة ، لا من الدنيا .

والثالث : وما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لب ولهو ، لاشتغالهم عما أمروا
به . واللب : ما لا يُجدي نقماً .

قوله تعالى : (وللدار الآخرة خير) اللام : لام القسم ، والدار الآخرة : الجنة
(أفلا يعقلون) فيقولون لها . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحزرة ، والكسائي ،
« يعقلون » بالياء ، في (الانعام) و (الأعراف) و (يوسف) و (آيس) ،
وقرؤوا في (القصص) بئاته . وقرأ نافع كل ذلك بالياء ، وروى حفص ، عن حاصم
كل ذلك بئاته ، إلا في (آيس) (في الخلق أفلا يعقلون) [يس : ٦٧] ، بالياء .
وقرأ ابن عامر الذي في (آيس) بالياء ، والباقي بئاته .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ
لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾
قوله تعالى : (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون) .

في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أن رجلاً من قريش يقال له : الحارث بن عامر ، قال : والله يا محمد
ما كذبتنا قط فتسبمك اليوم ، ولكننا إن تسبمك نشتخطف من أرضنا ، فنزلت
هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . وقال مقاتل : كان الحارث بن عامر
يكذب النبي في الملاية ، فادخله مع أهل بيته ، قال : ما محمد من أهل الكذب ،
فنزلت فيه هذه الآية .

والثاني : أن المشركين كانوا إذا رأوا النبي ﷺ ، قالوا فيما بينهم : إنه كني ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح .

والثالث : أن أبا جهل قال للنبي ﷺ : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب الذي جئت به ، فنزلت هذه الآية ، قاله ناجية بن كعب ^(١) .

وقال أبو يزيد المدني : لقي رسول ﷺ أبا جهل ، فصافحه أبو جهل ، فقيل له : أنصافح هذا الصابي ؟ فقال : والله إني لأعلم أنه نبي ، ولكن متى كنا نبأ لبني عبد مناف ؟ فأنزل الله هذه الآية .

والرابع : أن الأحنس بن شريق لقي أبا جهل ، فقال الأحنس : يا أبا الحكم ، أخبرني عن محمد أصادق هو ، أم كاذب ؟ فليس هاهنا من يسمع كلامك غيري . فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء ، والسقاية ، والحجابة ، والنبوة ، فإذا يكون لسائر قريش ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله السدي ^(٢) . فأما الذي يقولون ، فهو التكذيب للنبي ﷺ ، والكفر بالله . وفي الآية تسلية للنبي ﷺ وتمزية عما يواجهون به .

قوله تعالى : (فانهم لا يكذبونك) قرأ نافع ، والكسائي : « يَكْذِبُونَكَ » بالتخفيف وتسكين الكاف . وفي معناها قولان .

(١) الطبري : ٣٣٤/١١ ، مرسل عن ناجية بن كعب الأسدي ، ورواه الترمذي ١٠٣/٤ عن علي ، ثم رواه مرسلًا من رواية ناجية بن كعب دون ذكر علي ، وقال : وهذا أصح ، ورواه الحاكم في « المستدرک » ٣١٥/٢ موصولًا بإسناد آخر غير إسناد الترمذي ، وصححه على شرط الشيخين ، قال الشيخ أحمد شاكر في « عمدة التفسير » (٢٥/٥) : فالوصل زيادة من تفتين ، فهي مقبولة على اليقين ، وقد تعقب الذهبي تصحيح الحاكم إياه « على شرط الشيخين » بأنها لم يخرجها لناجية شيئاً . وهذا صحيح ، فإن الشيخين لم يخرجها لناجية بن كعب الأسدي شيئاً ، ولكنه تابعي ثقة ، فالحديث صحيح ، وإن لم يكن على شرطها .

(٢) الطبري : ٣٣٢/١١ .

أحدهما : لا يُكْذِبُونَكَ كاذباً ؛ قاله ابن قتيبة .

والثاني : لا يكذبون الشيء الذي جئت به ، وإنما يحجدون آيات الله ، ويتعرضون لمعقوباته . قال ابن الأنباري : وكان الكسائي يحتج لهذه القراءة بأن العرب تقول : كذبتُ الرجل : إذا نسبته إلى الكذبِ وصنعة الأباطيل من القول ؛ وأكذبتُ : إذا أخبرت أن الذي يحدث به كذب ، ليس هو الصانع له . قال : وقال غير الكسائي : يقال : أكذبتُ الرجل : إذا أدخلته في جملة الكذابين ، ونسبته إلى صفتهم ، كما يقال : أبخلتُ الرجل : إذا نسبته إلى البخل ، وأجبتُ : إذا وجدته جباناً . قال الشاعر :

فَطَائِفَةٌ قَدْ أَكْفَرُوا نَبِيَّيْحُبُّكُمْ
وَطَائِفَةٌ قَالُوا مُسِيٍّ وَمُذْنِبٌ^(١)
وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحزمة ، وابن عامر : « يكذبونك »
بالتشديد وفتح الكاف ؛ وفي معناها خمسة أقوال .

أحدها : لا يكذبونك بحجة ، وإنما هو تكذيب عناد وبهت ، قاله قتادة ، والأسدي .

والثاني : لا يقولون لك : إنك كاذب ، لهمم بصدقك ، ولكن يكذبون ما جئت به ، قاله ناجية بن كعب .

والثالث : لا يكذبونك في السر ، ولكن يكذبونك في العلانية ، عداوة لك ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

والرابع : لا يقدرون أن يقولوا لك فيما أنبأت به مما في كتبهم : كذبت .

والخامس : لا يكذبونك بقلوبهم ، لأنهم يعلمون أنك صادق ، ذكر

القولين الزجاج .

(١) البيت للكتيب بن زيد الأسدي من قصيدته الرائعة في مدح آل البيت .

رقال أبو علي : يجوز أن يكون معنى القراءتين واحداً وإن اختلفت اللفظتان ، إلا أن « فَعَلْتُ » : إذا أرادوا أن ينسبوه إلى أمر أكثر من « أَفَعَلْتُ » . ويؤكد أن القراءتين بمعنى ، ما حكاه سيديوه أنهم قالوا : قَلَّلتُ ، وأَقَلَّلتُ ، وكَثَرْتُ ، وأَكثَرْتُ بمعنى .

قال أبو علي : ومعنى « لا يكذبونك » : لا يقدر أن ينسبك إلى الكذب فيما أخبرت به مما جاء في كتبهم ، ويجوز أن يكون معنى الحقيقة : لا يصادفونك كاذباً ، كما يقال : أهدت الرجل : إذا أصبته محمداً ، لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة (ولكن الظالمين بآيات الله يمحذون) بألسنتهم ما يعلمونه يقيناً ، لنادم . وفي « آيات الله » هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها محمد ﷺ ، قاله السدي .

والثاني : محمد والقرآن ، قاله ابن السائب .

والثالث : القرآن ، قاله مقاتل .

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِي الْمُرْسَلِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) هذه تمزية له على ما يلقي منهم . قال ابن عباس : (فصبروا على ما كُذِّبُوا) رجاء نوابي ، (وأودوا) حتى نُشِرُوا بالناشير ، وُحِرُوا بالنار (حتى أتاهم نصرنا) بتعذيب من كذبهم ^(١) .

(١) روى البخاري في « صحيحه » ، (٤٥٦/٦) و (١٢٦/٧) و (٢٨١/١٢) عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، قلنا : ألا تستنصرنا ؟ ألا تدعونا ؟ قال : « كان من قبلكم يؤخذ الرجل —

قوله تعالى : (ولا تبدل لكلمات الله) فيه خمسة أقوال .

أحدها : لا تخلف لمواعيده ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا تبدل لما أخبر به وما أمر به ، قاله الزجاج .

والثالث : لا تبدل لحكوماته ، وأقصيته النافذة في عبادته ، فعبّرت الكلمات

عن هذا المعنى ، كقوله : (ولكن حقت كلمة المذاب على الكافرين) [الزمر : ٧١]

أي : وجب ما قضى عليهم . فلي هذا القول ، والذي قبله ، يكون المعنى : لا تبدل

لحكم كلمات الله ، ولا ناقض لما حكم به ، وقد حكم بنصر أنبيائه بقوله : (لأغلبن

أنا ورسلي) [المجادلة : ٢١] .

والرابع : أن معنى الكلام معنى النهي ، وإن كان ظاهره الإخبار ، فالمعنى :

لا يُبدلَ أحد كلمات الله ، فهو كقوله : (لا ريب فيه) [البقرة : ٢] .

والخامس : أن المعنى : لا يقدر أحد على تبديل كلام الله ، وإن زخرف

واجتهد ، لأن الله تعالى صانه برصين اللفظ ، وقويم الحكم ، أن يختلط بألفاظ أهل

الزيغ ، ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن الأنباري .

قوله تعالى : (واقد جاءك من نبي المرسلين) أي : فيما صبروا عليه من

الآذى فتصروا . وقيل إن : « من » : صلة .

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ

تَبْتَغِي قَعْتًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ وَكُ

شَاءَ اللَّهُ لَجَمْعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

— فيحضر له في الأرض فيجمل فيها ، فيجاء بالنشار فيوضع على رأسه فيجمل نصفين ، ويمشط

بأمشاط الحديد من دون لجه وعظمه ، فما يصد ذلك عن دينه ، والله ليتن هذا الأمر حتى

يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستهجلون .

قوله تعالى : (وإن كان كبر عليك إعراسهم) سبب نزولها : أن الحارث ابن حامر أتى النبي ﷺ في نفر من قريش فقال : يا محمد ، انتسأ بآية كما كانت الأنبياء تأتي قومها بالآيات ، فإن فعلت آمنا بك ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . و « كبر » : بمعنى « عظم » . وفي إعراسهم قولان . أحدهما : عن استماع القرآن . والثاني : عن اتباع النبي ﷺ .

فأما « النفق » ، فقال ابن قتيبة : النفق في الأرض : المدخل ، وهو السرب . والسلم في السماء : المصعد . وقال الزجاج : النفق : الطريق النافذ في الأرض . والناقص ، ممدود : أحد جحرة اليربوع يخرقه من باطن الأرض إلى جلدة الأرض ، فإذا بلغ الجلدة أرقها ، حتى إن رآه ريب ، دفع برأسه ذلك المكان وخرج ، ومنه سمي المنافق ، لأنه أبطن غير ما أظهر ، كالناقص الذي ظاهره غير بين ، وباطنه خفي في الأرض .

و « السلم » مشتق من السلامة ، وهو الشيء الذي يسلمك إلى مصعدك . والمعنى : فإن استطعت هذا فافعل ، وحذف « فافعل » ، لأن في الكلام دليلاً عليه . وقال أبو عبيدة : السلم : السبب والمرقاة ، تقول : اتخذني سُلماً لحاجتك ، أي : سبباً .

وفي قوله : (فتأتيهم بآية) قولان .

أحدهما : بآية قد سألك إياها ، وذلك أنهم سألوا نزول ملك ، ومثل آيات الأنبياء ، كمصا موسى ، وناقة صالح . والثاني : بآية هي أفضل من آيتك .

قوله تعالى : (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لو شاء أن يطعمهم على الهدى لطعمهم .

والثاني : لو شاء لأنزل ملائكة تضطرم إلى الإيمان ، ذكرهما الزجاج .

والثالث : لو شاء لآمنوا كلهم ، فأخبر أنما تركوا الإيمان بمشيئته ، ونافذ قضائه .

قوله تعالى : (فلا تكونن من الجاهلين) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا تجهل أنه لو شاء لجمعهم على الهدى .

والثاني : لا تجهل أنه يؤمن بك بعضهم ، ويكفر بعضهم .

والثالث : لا تكونن ممن لا صبر له ، لأن قلة الصبر من أخلاق الجاهلين .

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ

إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (إنما يستجيب الذين يسمعون) أي : إنما يجيبك من يسمع ،

والمراد به سماع قبول .

وفي المراد بالموتى قولان .

أحدهما : أنهم الكفار ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، فيكون المعنى : إنما

يستجيب المؤمنون ؛ فأما الكفار ، فلا يستجيبون حتى يبعثهم الله ، ثم يحشرهم كفاراً ،

فيجيئون اضطراباً ^(١) .

(١) قال الطبري ٣٤١/١١ (والموتى يبعثهم الله) يقول : والكفار يبعثهم الله مع الموتى ،

فيجلسهم ، ثم ألى ذكره ، في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً ، ولا يفلون دعاءً ، ولا يفقهون

قولاً ، إذ كلوا لا يتدبرون حجج الله ، ولا يتدبرون آياته ، ولا يتذكرون فينزعرون عمام

عليه من تكذيب رسول الله وخلافهم .

والثاني : أنهم الموقى حقيقة ، ضربهم الله مثلاً ؛ والمعنى : أن الموقى لا يستجيبون حتى يمشهم الله ، فكذلك الذين لا يسمعون .

قوله تعالى : (ثم إليه يرجعون) يعني : المؤمنين والكافرين ، فيجازي الكل .
﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا لولا نُزِّلَ عليه آية من ربه) قال ابن عباس : نزلت في رؤساء قريش . و « لولا » : بمعنى « هلا » ؛ وقد شرحناها في سورة (النساء) .
وقال مقاتل : أرادوا بالآية مثل آيات الأنبياء . وقال غيره : أرادوا نزول ملك يشهد له بالنبوة .

وفي قوله تعالى : (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ثلاثة أقوال .

أحدها : لا يعلمون بأن الله قادر على إنزال الآية .

والثاني : لا يعلمون ما عليهم من البلاء في إنزالها ، لأنهم إن لم يؤمنوا بها ، زاد عذابهم .

والثالث : لا يعلمون المصلحة في نزول الآية .

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما من دابة في الأرض) قال ابن عباس : يريد كل ما دب على الأرض . قال الزجاج : وذكر الجناحين تأكيد ، وجميع ما خلق لا يخلو إما أن يدب ، وإما أن يطير .

قوله تعالى : (إلا أُمم أمثالكم) قال مجاهد : أصناف مصنفة .

وقال أبو عبيدة : أجناس يعرفون الله ويسبدونه .

وفي معنى « أمثالكم » أربعة أقوال .

أحدها : أمثالكم في كون بعضها يفقه عن بعض ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : في معرفة الله ، قاله عطاء .

والثالث : أمثالكم في الخلق والموت والبعث ، قاله الزجاج .

والرابع : أمثالكم في كونها تطلب الغذاء ، وتبثني الرزق ، وتوقى المهلك ،

قاله ابن قتبية . قال ابن الأباري : وموضع الاحتجاج من هذه الآية أن الله تعالى

ركب في المشركين عقولاً ، وجعل لهم أفهاماً ألزمهم بها أن يتدبروا أمر النبي ﷺ

ويتمسكوا بطاعته ، كما جعل للطير أفهاماً يعرف بها بعضها إشارة بعض ، وهدى

الدكر منها لإنيان الأثني ، وفي كل ذلك دليل على نفاذ قدرة المركب ذلك فيها .

قوله تعالى : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) في الكتاب قولان .

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ . روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس : ما تركنا

شيئاً إلا وقد كتبناه في أم الكتاب ، وإلى هذا المعنى ذهب قتادة ، وابن زيد .

والثاني : أنه القرآن . روى عطاء عن ابن عباس : ما تركنا من شيء إلا

وقد بيناه لكم . فعلى هذا يكون من العام الذي أريد به الخاص ، فيكون المعنى :

ما فرطنا في شيء بكم إليه حاجة إلا وبيناه في الكتاب ، إما نصاً ، وإما مجملأً ،

وإما دلالة ، كقوله تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب نبياً لكل شيء) [النحل : ٨٩]

أي : لكل شيء يحتاج إليه في أمر الدين .

قوله تعالى : (ثم إلى ربهم يحشرون) فيه قولان .

أحدهما : أنه الجمع يوم القيامة . روى أبو ذر قال : انتطعت شاتان عند النبي ﷺ فقال : يا أبا ذر ، أنتدري فيما انتطعتا ؟ قلت : لا . قال : لكن الله يدري ، وسيقضي بينهما ^(١) . وقال أبو هريرة : يحشر الله الخلق يوم القيامة ، البهائم والنبات والطير وكل شيء ، فيبلغ من عدله أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كوني ترابا ، فيقول الكافر : ياليتي كنت ترابا ^(٢) .

والثاني : أن منى عسرها : موتها ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبُكِّمُوا فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (والذين كذبوا بآياتنا) يعني ما جاء به محمد ﷺ (صم) عن القرآن لا يسمونه ، (وبككم) عنه لا ينطقون به ، (في الظلمات) أي : في الشرك والضلالة . (من يشاء الله يضلله) فيموت على الكفر ، (ومن يشاء يجعله على صراط مستقيم) وهو الإسلام .
﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغْبِرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل أرايتكم) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمة : « أرايتم » و « أرايتكم » و « أرايت » بالالف في كل القرآن

(١) « المسند » ٥ / ١٦٢ و ١٧٣ ، والطبري ١١ / ٣٤٨ .

(٢) الطبري ١١ / ٣٤٧ ، والحاكم ٢ / ٣١٦ وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي . وأورده ابن كثير في « تفسيره » ٢ / ١٣١ ثم قال : وقد روي هذا مرفوعا في حديث الصور ، وخرجه السيوطي في « الدر المنثور » ٣ / ١١ وزاد نسبه لأبي عبيد وابن المنذر ، وابن أبي حاتم . وروى مسلم في « صحيحه » ٤ / ١٩٩٧ عن أبي هريرة مرفوعا « لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » . والجلحاء : الشاة إذا لم تكن ذات قرن ، والقرناء : الشاة الكبيرة القرن .

مهموزاً ؛ وليسنّ الهمزة نافع في الكل . وقرأ الكسائي بغير همز ولا ألف . قال
الفراء : العرب تقول : أرايتك ، وهم يربدون : أخبرني .

فأما عذاب الله ، ففي المراد به هاهنا قولان .

أحدهما : أنه الموت ، قاله ابن عباس .

والثاني : العذاب الذي كان يأتي الأمم الخالية ، قاله مقاتل .

فأما الساعة ، فهي القيامة . قال الزجاج : وهو اسم للوقت الذي يصمق فيه
العباد ، وللوقت الذي ييشنون فيه .

قوله تعالى : (أغير الله تدعون) أي : أتدعون صنماً أو حجراً لكشف ما بكم ؛
فاحتج عليهم بما لا يدفعونه ، لأنهم كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله .

وقوله تعالى : (إن كنتم صادقين) جواب لقوله : « أرايتكم » ، لأنه بمعنى
أخبروا ، كأنه قيل لهم : إن كنتم صادقين ، فأخبروا من تدعون عند نزول البلاء بكم ؛
﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ
وَتَنْسَوْنَ مَا نُشِرْ كُونْ ﴾

قوله تعالى : (بل إياه تدعون) قال الزجاج : أعلمهم أنهم لا يدعون في
الشدائد إلا إياه ؛ وفي ذلك أعظم الحجج عليهم ، لأنهم عبدوا الأصنام .

(فيكشف ما تدعون إليه إن شاء) المعنى : فيكشف الضر الذي من أجله
دعوتهم ، وهذا على اتساع الكلام مثل قوله : (واسأل القرية) [يوسف : ٨٢] ، أي :
أهل القرية .

(وتنسون) : يجوز أن يكون بمعنى « تتركون » ؛ ويجوز أن يكون المعنى :
إنكم في ترككم دعاءهم بمنزلة من قد نسيم .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك) في الآية محنوف ، تقديره :
ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلاً فعالقوم ، فأخذناهم بالبأساء ؛ وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الزمانة والخوف ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها البؤس ، وهو الفقر ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : أنها الجوع ، ذكره الزجاج .

وفي الضراء ثلاثة أقوال .

أحدها : البلاء ، والجوع ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : النقص في الأموال والأنفس ، ذكره الزجاج .

والثالث : الأسقام والأمراض ، قاله أبو سليمان .

قوله تعالى : (لهم يتضرعون) أي : لكي يتضرعوا . والتضرع : التذلل

والاستكانة . وفي الكلام محنوف تقديره : فلم يتضرعوا .

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ

وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (فلولا) معناه : « فبلا » . والبأس : المذاب . ومقصود الآية :

أن الله تعالى أعلم نبيه ﷺ أنه قد أرسل إلى قوم قبله بلغوا من القسوة أنهم

أخذوا بالشدائد ، فلم يخضعوا ، وأقاموا على كفرهم ، وزين لهم الشيطان ضلالهم

فأصرروا عليها .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ۖ فَاذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾

قوله تعالى : (فلما نسوا ما ذكروا به) قال ابن عباس : تركوا ما وعظوا به .
 (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) يريد رخاء الدنيا وسرورها . وقرأ أبو جعفر ، وابن عامر : « فَتَحْنَا » بالتشديد هنا وفي (الأعراف) ، وفي (الأنبياء) : « مُتِفِحَتْ » ، وفي (القمر) : « فَتَحْنَا » ، والجمهور على تخفيفهن . قال الزجاج : أبواب كل شيء كان مغلقاً عنهم من الخير ، حتى إذا ظنوا أن ما كان نزل بهم ، لم يكن انتقاماً ، وما فُتح عليهم ، باستحقاقهم ، أخذناهم بغتة ، أي : فاجأهم عذابنا .
 وقال ابن الأنباري : إنما أراد بقوله « كل شيء » : التأكيد ، كقول القائل : أكلنا عند فلان كل شيء ، وكنا عنده في كل سرور ، يريد بهذا العموم تكثير ما يصفه والإطناب فيه ، كقوله : (وأوتيت من كل شيء) [النمل : ٢٣] .
 وقال الحسن : من وسَّع عليه فلم ير أنه لم يُمكر به ، فلا رأي له ؛ ومن قُتِر عليه فلم ير أنه ينظر له ، فلا رأي له ، ثم قرأ هذه الآية ، وقال : مُكر بالقوم ورب الكعبة ، أعطوا حاجاتهم ثم أخذوا ^(١) .

قوله تعالى : (فاذا هم مبلسون) في المبلس خمسة أقوال .

أحدها : أنه الآيس من رحمة الله عز وجل ، رواه الضحاك عن ابن عباس ؛ وقال في رواية أخرى : الآيس من كل خير . وقال الفراء : المباس : اليأس

(١) في « تفسير المنار » ٤١٤/٧ : والآية تنيد أن البأساء والضراء وما يقابلها من السراء والنماء ، مما يقرب ويتهذب به الموفقون من الناس ، وإلا كانت النعم أشد وبلاءً عليهم من النقم ، وهذا ثابت بالاختبار ، فلا خلاف في أن الشدائد مصلحة للفساد ، وأجدر الناس بالاستفادة من الحوادث المؤمن ، كما ثبت في حديث صهيب مرفوعاً في « صحيح مسلم » : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

المنقطع رجاءه ، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجه ، فلا يكون عنده جواب : قد أبلس . قال النجّاج :

يَا صَاحِبَ هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسًا قَالَ نَعَمْ : أَعْرِفُهُ : وَأُبْلَسًا ^(١)
أي : لم يحِرْ جواباً . وقيل : المكرس : الذي قد برت فيه الإبل ، وبوئت ، فتركب بعضه بعضاً .

والثاني : أنه المفتضح . قال مجاهد : الإبلاس : الفضيحة .

والثالث : أنه المهلك ، قاله السدي .

والرابع : أنه المجهود المكروب الذي قد نزل به من الشر ما لا يستطيعه ،
قاله ابن زيد .

والخامس : أنه الحزين النادم ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد لرؤبة :

وَحَضَرْتُ يَوْمَ الْخَيْسِ الْاِخْمَاسِ وَفِي الْوُجُوهِ صُفْرَةٌ وَإِبْلَاسٌ ^(٢)

أي : اكتئاب ، وكسوف ، وحزن .

وقال الزجاج : هو الشديد الحسرة ، الحزين ، اليأس . وقال في موضع آخر :

المبلس : الساكت المنحير .

﴿ قَطَّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (قَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا) قال ابن السائب : دابرهم :

(١) د مجاز القرآن ، ١٩٣/١ ، ود معاني القرآن ، لفراء : ٣٣٥ ، ود الطبري : ٣٦٣/١١ ،

ود الكامل : ٥٣٩ ، ود اللسان ، ود التاج : بلس .

(٢) ديوانه : ٦٧ ، ود مجاز القرآن : ١٩٢/١ ، ود اللسان : بلس ، ورواية

ديوانه : وعرفت يوم الخيس .

الذي يتخلف في آخرهم . والمعنى : أنهم استوصلوا . وقال أبو عبيدة : دابرهـم : آخرهم الذي يدبرهم . قال ابن قتيبة : هو كما يقال : اجْتُثَّ أصلهم .
قال المفسرون : وإنما حمد نفسه على قطع دابرهـم ، لأن ذلك إنعام على رسلهم الذين كذبوهم ، وعلم الحمد على كفايته شر الظالمين .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ تُصْرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ تُمْ بِصُدُفُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم) أي : أذهبها ، (وختم على قلوبكم) حتى لا تعرفون شيئاً (مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ) ؛ في هاء « به » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها تعود على الفعل ، والمعنى : يأتاكم بما أخذ الله منكم ، قاله الزجاج . وقال الفراء : إذا كنت عن الأنعام ، وإن كثرت ، وحدثت الكناية ، كقولك للرجل : إقبالك وإدبارك يؤذيني .

والثاني : أنها تعود إلى الهدى ، ذكره الفراء . فعلى هذا تكون الكناية عن غير مذكور ، ولكن المعنى يشتمل عليه ، لأن من أخذ سمعه وبصره وختم على قلبه لم يهتد .

والثالث : أنها تعود على السمع ، ويكون ما عطف عليه داخلاً معه في القصة ، لأنه مطوف عليه ، ذكره الزجاج . والجمهور يقرؤون : (مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ) بكسر هاء « به » . وروى المسيبي^(١) عن نافع : « به أنظر » :

(١) هو إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المسيب المدني ، إمام جليل ، عالم بالحديث ، قيم في قراءة نافع ، ضابط لها ، محقق ، فقيه . انظر « طبقات القراء » ١/ ١٥٧ .

بالضم . قال أبو علي : من كسر ، حذف الياء التي تليق الماء في نحو : بهي عيب ؛
ومن ضم ، فلي قول من قال : فحسبنا بهو وبدار هو الأرض ، فحذف الواو .

قوله تعالى : (أنظر كيف نصرف الآيات) قال مقاتل : يعني تكون العلامات
في أمور شتى ، فيخوفهم بأخذ الأسماع والأبصار والقلوب ، وبما صنع بالأئمة
الخطية (ثم هم يصدفون) ، أي : يعرضون فلا يعتبرون .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بِنْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ
يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل أرايتكم إن أنا كم عذاب الله بنتة أو جهرة) قال الزجاج :
البنتة : المفاجأة ؛ والجهرة : أن يأتيهم وهم يرونه . (هل يهلك إلا القوم الظالمون)
أي : هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم ، لأنكم كفرتم معاندين ، فقد علمتم أنكم ظالمون .
﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ
وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَبُوا
بِآيَاتِنَا يَمْسَهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين) أي : بالثواب ؛ ومنذرين
بالمقاب ، وليس إرسالهم ليأتوا بما يقترحونه من الآيات . ثم ذكر ثواب من صدق ،
وعقاب من كذب في تمام الآية والتي بعدها . وقال ابن عباس : يفسقون :
يعني يكفرون .

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ
وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَنْشِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ
يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله) سبب نزولها : أن أهل مكة قالوا : يا محمد ، لو أنزل الله عليك كنزاً فنتسني به ، فانك فقير محتاج ، أو تكون لك جنة تأكل منها ، فانك تجوع ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

قال الزجاج : وهذه الآية متصلة بقوله : (لولا أنزل عليه آية من ربه) ، فأعلمهم أنه لا يملك خزائن الله التي منها يرزق وبطني ، ولا يعلم الغيب فيخبرهم به إلا بوحى ، ولا يقول : إنه ملك ، لأن الملك يشاهد من أمور الله تعالى ما لا يشاهده البشر . وقرأ ابن مسعود ، وابن جبير ، وعكرمة ، والجدري : « إني ملك » بكسر اللام . وفي الأعمى والبصير قولان .

أحدهما : أن الأعمى : الكافر ، والبصير : المؤمن ، قاله ابن عباس ، وقتادة . والثاني : الأعمى : الضال ، والبصير : المهتدي ، قاله سميد بن جبير ، ومجاهد . وفي قوله تعالى : (أفلا تفكرون) قولان .

أحدهما : فيما بينكم لكم من الآيات الدالة على وحدانيته ، وصدق رسوله .

والثاني : فيما ضرب لكم من مثل الأعمى والبصير ، وأنها لا يستويان .

﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأنذر به) قال الزجاج : يعني بالقرآن ، وإنما ذكر الذين

يخافون الحشر دون غيرهم ، وإن كان مُنْذِرًا لجميع الخلق ، لأن الحجة على الخائفين الحشر أظهر ، لاعترافهم بالمداد ، فهم أحد رجلين : إما مسلم ، فيُنْذَرُ ليؤدي حق الله عليه في إسلامه ، وإما كفاي ، فأهل الكتاب مجمعون على البعث .

وذكر الولي والشفيع ، لأن اليهود والنصارى ذكرت أنها أبناء الله وأحبّاءه ، فأعلم عز وجل أن أهل الكفر ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع . وقال غيره : ليس لهم من دونه ولي ، أي : ليس لهم غير الله ولي ولا شفيع ، لأن شفاعة الشافعين بأمره .

وقال أبو سليمان الدمشقي : هذه الآية متعلقة بقوله : (وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به) [الأنعام : ١٩] .

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) روى سعد بن أبي وقاص قال : نزلت هذه الآية في ستة : فيّ ، وفي ابن مسعود ، وصهيب ، وعمار ، والمقداد ، وبلال . قالت قريش لرسول الله ﷺ : إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء ، فاطردهم عنك . فدخل على رسول الله من ذلك ما شاء الله أن يدخل ، فنزلت هذه الآية ^(١) .

وقال خباب بن الأرت : نزلت فينا ، كنا ضمفاء عند النبي ﷺ ، بعلنا بالغداة والعشي ما يتفنا ، فجاء الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، فقالا : إنا من أشراف قومنا ، وإنا نكره أن يرونا معهم ، فاطردهم إذا جالسناك . قال : « نعم » .

(١) رواه ابن ماجه ١٣٨٣/٢ ومسلم بنحوه مختصراً ١٨٧٨/٤ ورواه بنحوه الطبري ٣٧٨/١١ وأورده ابن كثير في « تفسيره » ١٣٥/٢ بنحوه عن سعد ، وقال : رواه الحاكم في « مستدركه » من طريق سفيان وقال : على شرط الشيخين ، وأخرجه ابن حبان في « صحيحه » من طريق القدام بن شريح به .

فقالوا : لا نرضى حتى تكتب بيننا كتاباً ، فأُتي بأديم ودواة ، ودعا علياً ليكتب ، فلما أراد ذلك ، ونحن قعود في ناحية ، إذ نزل جبريل بقوله تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) إلى قوله : (فتنا بعضهم ييمض) ، فرمى بالصحيفة ودعانا ، فأثنياه وهو يقول : (سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) . فدنونا منه يومئذ حتى وضعنا ركبنا على ركبته ^(١) . وقال ابن مسعود : مرّ الملا من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خبّاب ، وصهيب ، وبلال ، وعمار ، فقالوا : يا محمد ، رضيت بهؤلاء ، أتريد أن نكون تبعاً لهم ١٢ فنزلت : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) ^(٢) . وقال عكرمة : جاء عتبة ، وشيبة ابنا ربيعة ، ومطمع بن عدي ، والحارث بن نوفل ، في أشراف بني عبد مناف ، إلى أبي طالب فقالوا : لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وعبيدنا كان أعظم في صدورنا ، وأذى لاتباعنا إياه ، فأناه أبو طالب فحدثه بذلك ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون ، فنزلت هذه الآيات ، فأقبل عمر يعتذر من مقالته ^(٣) . وروى أبو صالح عن ابن عباس : أن هذه الآيات نزلت في الموالي ، منهم بلال ، وصهيب ، وخبّاب ، وعمار ، ومِهْجَعُ ، وسلمان ، وعامر ابن فهيرة ، وسالم مولى أبي حذيفة ؛ وأن قوله : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) نزلت فيهم أيضاً . وقد روى العوفي عن ابن عباس : أن ناساً من

(١) رواه ابن جرير الطبري في « تفسيره » ٣٧٦/١١ ، وأورده ابن كثير في « تفسيره » ١٣٤/٢ من رواية ابن أبي حاتم وقال : وهذا حديث غريب ، فان الآية مكية ، والأقرع بن حابس ، وعيينة ، إنما أسلما بعد الهجرة بدمر . ورواه ابن ماجه ١٣٨٣/٢ .

(٢) رواه أحمد في « المسند » رقم (٣٩٨٥) وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه عليه :

استناده صحيح ، ورواه الطبري ٣٧٤/١١ ، ٣٧٥ .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » ٣٧٩/١١ ، ٣٨٠ ، بأطول منه .

الأشراف قالوا للنبي ﷺ : نؤمن لك ، وإذا صلينا فأختر هؤلاء الذين معك ، فليصلوا خلفنا . فعلى هذا ، إنما سألوهم تأخيرهم عن الصف ، وعلى الأقوال التي قبله ، سألوهم طردهم عن مجلسه .

قوله تعالى : (يدعون ربهم) في هذا الدعاء خمسة أقوال .

أحدها : أنه الصلاة المكتوبة ، قاله ابن عمر ، وابن عباس . وقال مجاهد : هي الصلوات الخمس ؛ وفي رواية عن مجاهد ، وقتادة قالا : يعني صلاة الصبح والمصر . وزعم مقاتل أن الصلاة يومئذ كانت ركعتين بالفداة ، وركعتين بالعشي ؛ ثم فرضت الصلوات الخمس بعد ذلك .

والثاني : أنه ذكر الله تعالى ، قاله إبراهيم النخعي ، وعنه كالتقول الأول .

والثالث : أنه عبادة الله ، قاله الضحاك .

والرابع : أنه تعلم القرآن غدوة وعشية ، قاله أبو جعفر .

والخامس : أنه دعاء الله بالتوحيد ، والإخلاص له ، وعبادته ، قاله الزجاج .

وقرأ الجمهور : « بالفداة » ؛ وقرأ ابن عامر هاهنا وفي (الكهف) أيضاً : (بالفُدوة) بضم الفين وإسكان الدال وبندھا واو .

قال الفراء : والمرب لا تدخل الألف واللام على « الفدوة » ، لأنها معرفة بنير

ألف ولام ، ولا تضيفها العرب ؛ يقولون : أيتك غداة الخيس ، ولا يقولون : مُغدوة الخيس ، فهذا دليل على أنها معرفة .

وقال أبو علي : الوجه : الفداة ، لأنها تستعمل نكرة ، وتعرف باللام ؛ وأما

مُغدوة ، فمعرفة .

وقال الخليل : يجوز أن تقول : أيتك اليوم مُغدوة وبُكرة ، فجعلها بمنزلة

ضحوة ، فهذا وجه قراءة ابن عامر .

فان قيل : دعاه القوم كان متصلاً بالليل والنهار ، فلماذا خص الغداة والعشي ؟
 فالجواب : أنه نبه بالغداة على جميع النهار ، وبالعشي على الليل ، لأنه إذا كان
 عمل النهار خالصاً له ، كان عمل الليل أصفى .

قوله تعالى : (يريدون وجهه) قال الزجاج : أي يريدون الله ، فيشهد الله
 لهم بصحة النيات ، وأنهم مخلصون في ذلك .

وأما الحساب المذكور في الآية ، ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه حساب الأعمال ، قاله الحسن .

والثاني : حساب الأرزاق . والثالث : أنه بمعنى الكفاية ؛ والمعنى : ما عليك

من كفاتهم ، ولا عليهم كفاتك .

قوله تعالى : (فتكون من الظالمين) قال ابن الأنباري : عظم هذا الأمر على
 النبي ﷺ ، وخوف بالدخول في جملة الظالمين ، لأنه كان قد همّ بتقديم الرؤساء
 على الضمفاء .

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) المعنى : وكما ابتلينا قبلك النبي
 بالفقر ، ابتلينا أيضاً بعضهم ببعض . و « فتنا » بمعنى : ابتلينا واختبرنا ؛ (ليقولوا) ،
 يعني الكبراء ؛ (أهؤلاء) يمنون الفقراء والضمفاء (من الله عليهم) بالهدى ؛ وهذا
 استفهام مناه الانكار ، كأنهم أنكروا أن يكونوا سبقوهم بفضيلة .

قال ابن السائب : ابتلى الله الرؤساء بالموالي ؛ فاذا نظر الشريف إلى الوضيع

قد آمن قبله ، أنف أن يسلم ، ويقول : سبقي هذا ؟

قوله تعالى : (أليس الله بأعلم بالشاكرين) أي : بالذين يشكرون نعمته إذا منَّ عليهم بالمهداية . والمعنى : إنا يهدي الله من يعلم أنه يشكر . والاستفهام في « أليس » ، معناه التقرير ، أي : إنه كذلك .

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في رجال أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظيمة ، فسكت عنهم رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية ^(١) ، قاله أنس بن مالك .
والثاني : أنها نزلت في الذين نُهي عن طردهم ، فكان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام ، وقال : الحمد لله الذي جعل في أمي من أمرني أن أبدأهم بالسلام ، قاله الحسن ، وعكرمة .

والثالث : أنها نزلت في أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وحزرة ، وجعفر ، وعثمان بن مظعون ، وأبي عبيدة ، ومصعب بن عمير ، وسالم ، وأبي سلمة ، والأرقم ابن أبي الأرقم ، وعمار ، وبلال ، قاله عطاء .

والرابع : أن عمر بن الخطاب كان أشار على رسول الله ﷺ بتأخير الفقراء ،

(١) رواه الطبري في « تفسيره » ، ٣٩٠/١١ ، ٣٩١ من طريق مجمع بن صمان قال : سمعت ماهان . وذكره السيوطي في « الدر المنثور » ، وزاد نسبه إلى الفريابي وعبد بن حميد ، ومسدد ، وابن المنذر ، وأبي الشيخ ، وابن أبي حاتم . وماهان هو أبو سالم الكوفي الأعور ، ثقة عابد ، روى عن ابن عباس وأم سلمة ، قتله الحجاج سنة ثلاث وثمانين .

استمالة للرؤساء إلى الإسلام . فلما نزلت : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) ، جاء عمر يمتد من مقاتله ويستنفر منها ؛ فنزلت فيه هذه الآية ، قاله ابن السائب .
والخامس : أنها نزلت مبشرة بإسلام عمر بن الخطاب ؛ فلما جاء وأسلم ، تلاها عليه رسول الله ﷺ ، حكاها أبو سليمان الدمشقي .

فأما قوله تعالى : (يؤمنون بآياتنا) فعناه : يصدقون بحججنا وبراهيننا .
قوله تعالى : (قلل سلام عليكم) فيه قولان .

أحدهما : أنه أمر بالسلام عليهم تشريفاً لهم ؛ وقد ذكرناه عن الحسن ، وعكرمة .
والثاني : أنه أمر بإبلاغ السلام إليهم عن الله تعالى ، قاله ابن زيد . قال الزجاج : ومعنى السلام : دماء للانسان بأن يسلم من الآفات . وفي السوء قولان .
أحدهما : أنه الشرك . والثاني : المعاصي .

وقد ذكرنا في سورة (النساء) معنى « الجهالة » . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحزمة ، والكسائي : « إنه من عمل منكم سوءاً » « فانه غفور » بكسر الألف فيها . وقرأ حاصم ، وابن عامر : بفتح الألف فيها . وقرأ نافع : بنصب ألف « أنه » وكسر ألف « فانه غفور » . قال أبو علي : من كسر ألف « إنه » جعله تفسيراً للرحمة ؛ ومن كسر ألف « فانه غفور » فلأن ما بعد الفاء حكمه الابتداء ، ومن فتح ألف « أنه من عمل » جعل « أن » بدلاً من الرحمة ، والمعنى : كتب ربكم « أنه من عمل » ، ومن فتحها بعد الفاء ، أضمر خبراً تقديره : فله (أنه غفور رحيم) والمعنى : فله غفرانه . وكذلك قوله تعالى : (فإن له نار جهنم) [التوبة : ٦٣] ، معناه : فله أن له نار جهنم . وأما قراءة نافع ، فانه أبدل من الرحمة ، واستأنف ما بعد الفاء .
زاد المسير ٣ م (٤)

﴿ وَكَذَلِكَ مُقَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِنَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك تفصل الآيات) أي : وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا وأعلامنا على المشركين ، كذلك نبين لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل . قال ابن قتيبة : ومعنى تفصيلها : إتيانها متفرقة شيئاً بعد شيء .

قوله تعالى : (ولتستبين) وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « ولتستبين » بالياء ، « سبيل » بالرفع . وقرأ نافع ، وزيد عن يعقوب : بالياء أيضاً ، إلا أنها نصب السبيل . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « ولتستبين » بالياء ، « سبيل » بالرفع . فمن قرأ « ولتستبين » بالياء أو التاء ، فلأن السبيل تذكر وتؤنث على ما ينسأ في (آل عمران) ، ومن نصب اللام ، فالمعنى : ولتستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين . وفي سبيلهم التي بُيِّنَتْ له ، قولان .

أحدهما : أنها طريقهم في الشرك ، ومصيرهم إلى الخزي ، قاله ابن عباس .
والثاني : أنها مقصودهم في طرد الفقراء عنه ، وذلك إنما هو الحسد ، لا إضرار بمجاليسته واتباعه ، قاله أبو سليمان .

فان قيل : كيف انفردت لام « كي » في قوله : « ولتستبين » وسبيلها أن تكون شرطاً لفعل يتقدمها أو يأتي بعدها ؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري بجوابين .
أحدهما : أنها شرط لفعل مضمّر ، يراد به : وفعل ذلك لكي تستبين .

والثاني : أنها مطبوعة على لام مضمرة ، تأويله : تفصل الآيات لينكشف أمرهم ، ولتستبين سبيلهم .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ كُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل إني نهيئت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) يعني الأصنام .

وفي معنى « تدعون » قولان . أحدهما : تدعونهم آلهة .

والثاني : تعبدون ؛ قاله ابن عباس . وأهواؤهم : دينهم . قال الزجاج : أراد إنما عبدتموها على طريق الهوى ، لا على طريق اليقظة والبرهان . ومعنى « إذا » معنى الشرط ؛ والمعنى : قد ضللت إن عبدتها . وقرأ طلحة ، وابن أبي ليلي : « قد ضللت » بكسر اللام .

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْصُرُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل إني على بينة من ربي) سبب نزولها أن النضر بن الحارث وسائر قريش قالوا للنبي ﷺ : يا محمد اثنتا بالمذاب الذي تعدُّنا به ، استهزاء ؛ وقام النضر عند الكعبة وقال : اللهم إن كان ما يقول حقاً ، فاثنتا بالمذاب ؛ فنزلت هذه الآية ؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس . فأما البينة ، فهي الدلالة التي تفصل بين الحق والباطل . قال الزجاج : أنا على أمر بين ، لا متبع لهوى .

قوله تعالى : (وكذبتم به) في هاء الكناية ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى الرب . والثاني : ترجع إلى البيان . والثالث : ترجع إلى المذاب الذي طلبوه استهزاء .

قوله تعالى : (ما عندي ما تستعجلون به) أي : ما بيدي . وفي الذي استعجلوا

به قولان .

أحدهما : أنه المذاب ؛ قاله ابن عباس ، والحسن .

والثاني : أنه الآيات التي كانوا يقترحونها ؛ ذكره الزجاج .

قوله تعالى : (إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) فيه قولان .

أحدهما : أنه الحكم الذي يفصل به بين المختلفين بإيجاب الثواب والعقاب .

والثاني : أنه القضاء بأنزال العذاب على المخالف .

قوله تعالى : (يَقْضُ الْحَقُّ) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، ونافع « يَقْضُ الْحَقُّ »

بالصاد المشددة ، من القصص ؛ والمعنى : أنت كل ما أخبر به فهو حق . وقرأ

أبو عمرو ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي : « يقضي الحق » من القضاء ؛ والمعنى :

يقضي القضاء الحق .

﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي

وَبَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) أي : من العذاب (لقضي

الأمري بيني وبينكم) قال ابن عباس : يقول : لم أمهلكم ساعة ، ولا أهلككم .

قوله تعالى : (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) فيه قولان .

أحدهما : أن المعنى : إن شاء عاجلهم ، وإن شاء أخر عقوبتهم .

والثاني : أعلم بما يؤول إليه أمرهم ، وأنه قد يهتدي منهم قوم ، ولا يهتدي

آخرون ؛ فلذلك يؤخّرهم .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ رِيقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي

ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) قال ابن جرير : المفاتيح : جمع مفتاح ؛

يقال : مفتاح ومفتاح ، فن قال : مفتاح ، جمعه : مفاتيح . ومن قال : مفتاح ، جمعه : مفاتيح . وفي « مفاتيح الغيب » سبعة أقوال .

أحدها : أنها خمس لا يعلمها إلا الله عز وجل . روى البخاري في أفرادها من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ، لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ، ولا يعلم ما تفيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا تعلم نفس بأي أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى ينزل النيث إلا الله » ^(١) قال ابن مسعود : أوتي نبيكم علم كل شيء إلا مفاتيح الغيب ^(٢) .

والثاني : أنها خزائن غيب السموات من الأقدار والأرزاق ، قاله ابن عباس .
والثالث : ما غاب عن الخلق من الثواب والعقاب ، وما تصير إليه الأمور ، قاله عطاء .

والرابع : خزائن غيب العذاب ، متى ينزل ، قاله مقاتل .

(١) « المسند » : ٧/٧ ، والبخاري : ٢١٩/٨ ، « صحيح ابن حبان » : ٦٩/١ ، ٧٠ .
(٢) « الطبري » : ٤٠١/١١ ، ورواه أحمد في « المسند » : ٢٤١/٥ بلفظ « أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل النيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير) قال الشيخ أحمد شاكر في تطبيقه على « المسند » : إسناده صحيح ، وذكره ابن كثير في « التفسير » ٤٧٤/٦ عن هذا الموضع ، ثم قال : « وكذا رواه عن محمد بن جعفر عن شعبة عن عمرو بن مرة به وزاد في آخره : قال : قلت له : أنت سمعته من عبد الله ؟ قال : نعم أكثر من خمسين مرة ، ورواه أيضاً عن وكيع عن مسمر عن عمرو بن مرة به ، وهذا إسناد حسن على شرط « السنن » ولم يخرجوه . وهو أيضاً في « مجمع الزوائد » ٢٦٣/٨ ، وقال : رواه أحمد وأبو بلي ورجالها رجال الصحيح . ورواه أحمد أيضاً في « المسند » ٣١٧/٧ من حديث ابن عمر مرفوعاً بلفظ « أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس . . . » .

والخامس : الوصلة إلى علم الغيب إذا استُعلم ، قاله الزجاج .

والسادس : عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال .

والسابع : ما لم يكن ، هل يكون ، أم لا يكون ؛ وما يكون كيف يكون وما لا يكون ، إن كان ، كيف يكون ؛ فأما البر ، فهو القفر . وفي البحر قولان .

أحدهما : أنه الماء ، قاله الجمهور . والثاني : أنه القرى ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) قال الزجاج : المعنى : أنه يعلمها

ساقطة وثابتة ، كما تقول : ما يحيطك أحد إلا وأنا أعرفه ، ليس تأويله : أعرفه في حال مجيئه فقط . فأما ظلمات الأرض ، فالمراد بها بطن الأرض .

وفي الرطب واليابس ، خمسة أقوال :

أحدها : أن الرطب : الماء ، واليابس : البادية . والثاني : الرطب : ما يُنبِت ،

واليابس : ما لا يُنبِت . والثالث : الرطب : الحي ، واليابس : الميت . والرابع :

الرطب : لسان المؤمن يذكر الله ، واليابس : لسان الكافر لا يتحرك بذكر الله .

والخامس : أنها الشيء ينتقل من إحدى الحالتين إلى الأخرى ، فهو يعلمه رطباً ، ويعلمه يابساً ، وفي الكتاب المبين قولان .

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ ؛ قاله مقاتل . والثاني : أنه علم الله المتقن ؛

ذكره الزجاج . فأن قيل : ما الفائدة في إحصاء هذه الأشياء في كتاب ؛ فمعه

ثلاثة أجوبة ، ذكرهن ابن الأنباري .

أحدها : أنه أحصاها في كتاب ، لتقف الملائكة على نفاذ علمه .

والثاني : أنه به بذلك عباده على تعظيم الحساب ، وأعلمهم أنه لا يفوته

ما يصنعون ، لأن من ثبتت مالا ثواب فيه ولا عقاب ، فهو إلى إثبات ما فيه ثواب

وعقاب أسرع .

والثالث : أن المراد بالكتاب : العلم ؛ فالملئى : أنها مثبتة في علمه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ
ثُمَّ يَنْبِئُكُم بِهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ
يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي يتوفاكم بالليل) يريد به النوم ، لأنه يقبض الأرواح
عن التصرف بالنوم ، كما يقبض بالموت . وقال ابن عباس : يقبض أرواحكم في
منامكم . وجرحتم : بمعنى كسبتم . (ثم يبعثكم) أي : يوقظكم فيه ، أي : في
النهار . (ليُقضى أجل مسمى) أي : لتبلغوا الأجل المسمى لاتقطاع حياتكم ،
فدل باليقظة بعد النوم على البعث بعد الموت .

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ
إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾

قوله تعالى : (ويرسل عليكم حفظة) الحفظة : الملائكة ، واحدهم : حافظ ،
والجمع : حفظة ، مثل كاتب وكتبة ، وفاعل وفعله . وفيما يحفظونه قولان .
أحدهما : أعمال بني آدم ؛ قاله ابن عباس . والثاني : أعمالهم وأجسادهم ،
قاله السدي .

قوله تعالى : (توفته رسلنا) وقرأ حمزة : « توفاه رسلنا » وحجته أنه فعل مسند
إلى مؤنث غير حقيقي ، وإنما التأنيث للجمع ، فهو مثل : (وقال نوسة) [يوسف : ٣٠] .
وفي المراد بالرسل ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أعوان ملك الموت ، قاله ابن عباس . وقال النخعي : أعوانه
يتوفرون النفوس ، وهو يأخذها منهم .

والثاني : أن المراد بالرسل : مَلَك الموت وحده ، قاله مقاتل .

والثالث : أنهم الحفظة ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (وَمَا لَا يُفَرِّطُونَ) قال ابن عباس : لا يضيِّعون . فان قيل :

كيف الجمع بين قوله : (توفته رسلنا) وبين قوله : (قل يتوفاكم ملك الموت) ؟

[السجدة : ١١] فنه جوابان .

أحدهما : أنه يجوز أن يريد بالرسل مَلَك الموت وحده ، وقد يقع الجمع على الواحد .

والثاني : أن أعوان مَلَك الموت يفعلون بأمره ، فأضيف الكل إلى فعله .

وقيل : تَوَفَّي أعوان ملك الموت بالزرع ، وتوفّي ملك الموت بأن يأمر الأرواح

فتجيب ، ويدعوها فتخرج ، وتوفّي الله تعالى بأن يخلق الموت في الميت .

﴿ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ

أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ) يعني العباد . وفي متولي الرد قولان .

أحدهما : أنهم الملائكة ، رَدَّتْهم بالموت إلى الله تعالى .

والثاني : أنه الله عز وجل ، ردم بالبعث في الآخرة . وفي معنى ردم إلى

الله تعالى ، قولان .

أحدهما : أنهم رُدُّوا إلى المكان الذي لا يملك الحكم فيه إلا الله وحده .

والثاني : أنهم رُدُّوا إلى تديره وحده ؛ لأنه لما أنشأهم كان منفرداً بتديرهم ،

فلما مكَّنهم من التصرف ، صاروا في تدير أنفسهم ، ثم كفهم عنه بالموت ، فصاروا

مردودين إلى تديره .

قوله تعالى : (أَلَا لَهُ الْحُكْمُ) يعني القضاء . ويان سرعة الحساب ، في (البقرة)^(١) .

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُنْشَرَكُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل من ينجيكم) قرأ حاصم ، وحزة ، والكسائي ، وأبو جعفر :

(قل من ينجيكم) (قل الله ينجيكم) ، مشددّين . وقرأ يعقوب ، والقزاز عن عبد الوارث : بسكون النون وتحقيف الجيم . قال الزجاج : والمشددة أجود للكثرة . وظلمات البر والبحر : شداثدها ؛ والمرب تقول لليوم الذي تلقى فيه شدة : يوم مظلم ، حتى إنهم يقولون : يوم ذو كواكب ، أي : قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل . قال الشاعر :

فِدَى لِبَنِي دُهَلٍ بَنِ شَيْبَانَ نَافَتِي

إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْنَعًا^(٢)

(١) يعني : تقدم يان سرعة الحساب في سورة (البقرة) عند قوله تعالى : (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) .

(٢) البيت أنشده سيوبه في « الكتاب » ، ٢١/١ ، ونسبه لقاس العائذي ، وإسمه مسهر

ابن النعمان بن عمرو بن ربيعة بن تيم بن الحارث . . . وهو شاعر جاهلي كما نص عليه ابن دريد في « الاشتقاق » ، وذكر المرزباني أنه مخضرم . ورواية الشطر الثاني عند سيوبه : « إذا كان يوم ذو كواكب أشهب » .

وأورد بدمه لعمرو بن شأس بيتاً آخر هو :

بَنِي أَسَدٍ هَلْ تَطْلُونَ بِلَاءَنَا إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْنَعًا

فالمصنف لفق البيت من البيتين ، قال الأعمش : أراد : وقع يوم ، أو حضر يوم ، ونحو ذلك مما يقتصر فيه على الفاعل ، وأراد باليوم يوماً من أيام الحرب ، وصفه بالشدة ، فصله كالليل —

قوله تعالى : (تدعونه تضرعاً) أي : مظهرين الضراعة ، وهي شدة الفقر إلى الشيء ، والحاجة .

قوله تعالى : (وَخُفِيَ) قرأ عاصم إلا حفصاً : « وَخَفِيَّة » بكسر الخاء ؛ وكذلك في (الأعراف) . وقرأ الباقر بضم الخاء ، وهما لثتان . قال الفراء : وفيها لغة أخرى بالواو ، ولا تصلح في القراءة ، خِفْوَةٌ ، وَخَفْوَةٌ . ومعنى الكلام ، أنكم تدعونه في أنفسكم ، كما تدعونه ظاهراً : « لئن أَنجيتنا » ، كذلك قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو : « لئن أَنجيتنا » ، وقرأ عاصم ، وحمة ، والكسائي : « لئن أَنجانا » ، بألف ، لمكان النية في قوله : « تدعونه » . وكان حمزة ، والكسائي ، وخلف ، يُميلون الجيم .

قوله تعالى : (من هذه) يعني : في أي شدة وقتم ، قلتتم : « لئن أَنجيتنا من هذه » . قال ابن عباس : و « الشاكرون » هاهنا : المؤمنون . وكانت قریش تسافر في البر والبحر ، فإذا ضلوا الطريق وخافوا الهلاك ، دعوا الله مخلصين ، فأنجاهم . فأما « الكرب » فهو الغم الذي يأخذ بالنفس ، ومنه اشتقت الكربة . ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَنْبِئَكُمْ شَيْئًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) فيه قولان .

— تبدو فيه الكواكب ، ونسبه إلى الشبهة ، إما لكثرة السلاح الصقيلة فيه ، وإما لا ذكره من النجوم ، وذهل بن شيان من بني بكر بن وائل ، وكان مقاس نازلاً فيهم ، وأصله من قریش من عاتكة ، ومحي منهم .

أحدهما : أن الذي فوقهم : المذاب النازل من السماء ، كما حُصب قوم لوط ،
وأصحاب الفيل . والذي من تحت أرجلهم : كما حُسف بقارون ، قاله ابن عباس ،
والسدي ، ومقاتل . وقال غيرهم : ومنه الطوفان ، والريح ، والصيحة ، والرجفة .

والقول الثاني : أن الذي من فوقهم : من قبل أمرائهم . والذي من تحتهم :
من سفلتهم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال في رواية أخرى :
الذي من فوقهم : أئمة السوء ؛ والذي من تحت أرجلهم : عبيد السوء .

قوله تعالى : (أو يلبسكم شيعاً) قال ابن عباس : يَبُثُّ فيكم الأهواء المختلفة ،
فتصيرون فرقاً . قال ابن قتيبة : يلبسكم : من الالتباس عليهم ^(١) . والمعنى : حتى
تكونوا شيعاً ، أي : فرقاً مختلفين . ثم يذيق بعضهم بأس بعض بالقتال والحرب .
وقال الزجاج : يلبسكم ، أي : يخطط أمركم خلط اضطراب ، لا خلط اتفاق . يقال :
لبستُ عليهم الأمر ، ألبسه : إذا لم أيتنه . ومعنى شيعاً : أي يجعلكم فرقاً ، فإذا
كنتم مختلفين ، قاتل بعضهم بعضاً .

قوله تعالى : (ويذيق بعضهم بأس بعض) أي : يقتل بعضهم يد بعض .
وفيمعني هذه الآية ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها في المسلمين أهل الصلاة ، هذا مذهب ابن عباس ، وأبي العالية ،
وقتادة . وقال أبي بن كعب في هذه الآية : هن أربع خلال ، وكلهن عذاب ،
وكلهن واقع قبل يوم القيامة ، فضت اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس
وعشرين سنة ، ألبسوا شيعاً ، وأذيق بعضهم بأس بعض . وثنتان واقمتان لاحالة :
الخسف ، والرجم ^(٢) .

(١) في « غريب القرآن » : من الالتباس عليكم .

(٢) « المسند » : ١٣٤/٥ ، ١٣٥ ، والطبري : ٤٢٢/١١ ، وخرجه الميمني في « مجمع —

والثاني : أن المذاب للمشركين ، وباقي الآية للمسلمين ، قاله الحسن . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « سألت ربي ثلاثاً ، فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة ، سألته أن لا يصيبكم بمذاب أصاب به من كان قبلكم ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليكم عدواً يستبيح بيفضكم ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يلبسكم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض ، فمنعنيها ^(١) .

والثالث : أنها تهدد للمشركين ، قاله ابن جرير الطبري ، وأبو سليمان الدمشقي .

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ

بِوَكِيلٍ ﴾

قوله تعالى : (وكذب به قومك) في هاء « به » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها كناية عن القرآن . والثاني : عن تصريف الآيات . والثالث :

عن العذاب .

— الزوائد ٢١/٧ ، ثم قال : رواه أحمد ورجاله ثقات ، قلت : - أي الهيشمي- : والظاهر أن من قوله : « ففضت اقتتان إلى آخره » من قول رفيع (يعني أبا المالية) فإن أبي بن كعب لم يتأخر إلى زمن الفتنة . وقال الحافظ في « الفتح » ٢٢٠/٨ : وقد أعل هذا الحديث بأن أبي بن كعب لم يدرك سنة خمس وعشرين من الوفاة النبوية ، فكان حديثه انتهى عند قوله : « لا محالة » والباقي من كلام بعض الرواة ، وأعل أيضاً بأنه يخالف حديث جابر وغيره ، وأجيب بأن طريق الجمع أن الاعادة المذكورة في حديث جابر وغيره مقيدة بزمان مخصوص ، وهو وجود الصحابة ، والقرون الفاضلة ، وقد روى أحمد والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص قال : سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية (قل هو القادر) إلى آخرها فقال : أما إنها كائنة ، ولم يأت تأويلها بعد ، وهذا يحتمل أن لا يخالف حديث جابر بأن المراد بتأويلها ما يتعلق بالفتن ونحوها .

(١) « صحيح مسلم » ٢٢١٦/٤ عن سعد بن أبي وقاص ، و « المسند » : ٢٤٠/٥ ،

وابن ماجه : ١٣٠٣/٢ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وقال البوصيري في « زوائد » : إسناده صحيح ، رجاله ثقات .

قوله تعالى : (قل لست عليكم بوكيل) فيه قولان .
 أحدهما : لست حفيظاً على أعمالكم لأجازيكم بها ، إنما أنا منذر ، قاله الحسن .
 والثاني : لست حفيظاً عليكم ، أأخذكم بالإيمان ، إنما أدعوكم إلى الله ، قاله الزجاج .

﴿ فصل ﴾

وفي هذا القدر من الآية قولان .
 أحدهما : أنه اقتضى الاختصار في حقهم على الإنذار من غير زيادة ، ثم نسخ ذلك بآية السيف .
 والثاني : أن معناه : لست حفيظاً عليكم ، إنما أطلبكم بالظواهر من الإقرار والعمل ، لا بالأسرار ؛ فلي هذا هو محكم .

﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (لكل نبأ مستقر) أي : لكل خبر يخبر الله به وقت يقع فيه من غير خلف ولا تأخير . قال السدي : فاستقر نبأ القرآن بما كان يعدهم من العذاب يوم بدر . وقال مقاتل : منه في الدنيا يوم بدر ، وفي الآخرة جهنم .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
 حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ
 بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا) فيمن أريد بهذه الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : المشركون . والثاني : اليهود . والثالث : أصحاب الأهواء . والآيات : القرآن . وخوض المشركين فيه : تكذيبهم به واستهزاؤهم ، ويقاربه خوض اليهود ، وخوض أهل الأهواء بالمراء والخصومات .

قوله تعالى : (فأعرض عنهم) أي : فأترك مجالستهم ، حتى يكون خوضهم في غير القرآن . (وإما ينسبك) وقرأ ابن عامر : « يُنْسَبُكَ » ، بفتح النون ، وتشديد السين ، والنون الثانية . ومثل هذا : غَرَمْتُهُ وأَغْرَمْتُهُ . وفي التنزيل : (فمهل الكافرين أمهلهم) [الطارق : ١٧] . والمعنى : إذا أنساك الشيطان ، فقمعدت معهم ناسياً نهيناً لك ، فلا تقعد بعد الذكرى . والذكر والذكرى : واحد . قال ابن عباس : قم إذا ذكرته ، والظالمون : المشركون .

﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المسلمين قالوا : لئن كنا كلها استهزأ المشركون بالقرآن ، وخاضوا فيه ، فنحنهم ، لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام ، ولا أن نطوف بالبيت ، فنزلت هذه الآية .

والثاني : أن المسلمين قالوا : إنا نخاف الإثم إن لم ننهيهم عن الخوض ، فنزلت هذه الآية .

والثالث : أن المسلمين قالوا : لو قتنا عنهم إذا خاضوا ، فإنا نخشى الإثم في مجالستهم ، فنزلت هذه الآية . هذا عن مقاتل ، والأولان عن ابن عباس .

- قوله تعالى : (وما على الذين يتقون) فيه قولان .
 أحدهما : يتقون الشرك . والثاني : يتقون الخوض .
 قوله تعالى : (من حسابهم) يعني : حساب الخائضين . وفي « حسابهم » قولان .
 أحدهما : أنه كفرهم وآثامهم . والثاني : عقوبة خوضهم .
 قوله تعالى : (ولكن ذكرى) أي : ولكن عليكم أن تذكروهم . وفيما
 تذكروهم به ، قولان .
 أحدهما : المواعظ . والثاني : قيامكم عنهم . قال مقاتل : إذا قتم عنهم ،
 منعهم من الخوض الحياء منكم ، والرغبة في مجالستكم .
 قوله تعالى : (لعلهم يتقون) فيه قولان .
 أحدهما : يتقون الاستهزاء . والثاني : يتقون الوعيد .

﴿ فصل ﴾

وقد ذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة ، لأنها اقتضت جواز مجالسة
 الخائضين والاعتصار على تذكيرهم ، ثم نسخت بقوله : (وقد نزل عليكم في الكتاب
 أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم) [النساء : ١٤٠] .
 والصحيح أنها محكمة ، لأنها خبر ، وإنما دلت على أن كل عبد يختص بحساب
 نفسه ، ولا يلزمه حساب غيره .

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ
 الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ إِنَّ مُبْسَلَ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ

اللَّهُ وَلِيُّ لَا شَافِعَ وَإِنْ تَعَدَلْ كُلَّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ
الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ
بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : (وذُرِّ الدِّينِ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَهُوَ) فيهم قولان .

أحدهما : أنهم الكفار . والثاني : اليهود والنصارى .

وفي اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَهُوَ ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه استهزأهم بآيات الله إذا سمعوها .

والثاني : أنهم دانوا بما اشتبهوا ، كما يَلْهُونُ بما يشتهون .

والثالث : أنهم يحافظون على دينهم إذا اشتبهوا ، كما يلهون إذا اشتبهوا . قال

الفراء : ويقال : إنه ليس من قوم إلا ولهم عيد ، فهم يَلْهُونُ في أعيادهم ، إلا أمة
محمد ﷺ ، فإن أعيادهم صلاة وتكبير وبر وخير .

﴿ فصل ﴾

ولعلماء الناسخ والمنسوخ في هذا القدر من الآية ، قولان .

أحدهما : أنه خرج مخرج التهديد ، كقوله : (ذرني ومن خلقت وحيداً)

[الذثر : ١١] فعلى هذا ، هو محكم ، وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد .

والثاني : أنه اقتضى المسامحة لهم والإعراض عنهم ، ثم نسخ بآية السيف ؛ وإلى

هذا ذهب قتادة ، والسدي .

قوله تعالى : (وَذَكِّرْ بِهِ) أي : عِظْ بِالْقُرْآنِ . وفي قوله : (أَنْ تَبْسَلَ) قولان .

أحدهما : لثلاث بسل نفس ، كقوله : (أن تضلوا) [النساء : ١٧٦] .

والثاني : ذكرتم إبسال المبسلين بجناياتهم لهم يخافون .

وفي معنى « تبسل » سبعة أقوال .

أحدها : مُسَلَّم ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ،

والسدي . وقال ابن قتيبة : مُسَلَّم إلى الهلكة . قال الشاعر :

وإِسَالِي بَنِي بَغْيَرٍ جُرْمٍ بَعُونَاهُ وَلَا يَدَمِ مُرَاقٍ^(١)

أي : بغير جرم أجرمناه ؛ والبَعُونُ : الجناية . وقال الزجاج : مُسَلَّمٌ بعملها غير

قادرة على التخلص . والمستبسل : المستسلم الذي لا يعلم أنه يقدر على التخلص .

والثاني : مُنْفَضَح ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث : مُنْدَفِع ،

رواه الضحاك عن ابن عباس . والرابع : مُتَهَلِّكٌ ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والخامس : مُتَجَبِسٌ وَتُوْخِذُ ، قاله قتادة ، وابن زيد . والسادس : مُتَجَزَى ، قاله

ابن السائب ، والكسائي . والسابع : مُتَرْتَنٌ ، قاله الفراء . وقال أبو عبيدة :

مُتَرْتَنٌ وَتَسْلَمُ ؛ وأنشد :

هُنَالِكَ لَا أَرْجُو حَيَاةَ تَسْرُثْنِي سَمِيرَ اللَّيَالِي مُبْسَلًا بِالْجَرَائِرِ^(٢)

(١) البيت لمؤلف بن الأحوس الكلبي كما قال ابن قتيبة في « المعاني الكبير » ، ١١١٤/٢ ،

وهو في « نوادر أبي زيد » ، ١٥١ ، و « مجاز القرآن » ، ١٩٤/١ ، و « غريب القرآن » : ١٥٥ ،

و « الطبري » : ٤٤٥/١١ ، و « القرطبي » ، ١٦/٧ ، و « شواهد الكشاف » : ٣٠٠ ، و « اللسان » ، و « التاج » ،

« بسل » و « بعو » .

(٢) البيت للشَّنْفَرِي ، وهو شاعر جاهلي من صاليك العرب وقتناهم ، وهو في « المطرف » ،

٣٦ ، و « مجاز القرآن » : ١٩٥/١ ، و « الشمر والشمراء » ، ٢٦/١ ، و « الحاسة » ، شرح —

زاد المسير ٣ م (٥)

سمير الليالي : أبدَ الليالي . فأما الولي : فهو الناصر الذي يمنها من عذاب الله .
والعدل : الفداء . قال ابن زيد : وإن تقدر كلَّ فداء لا يقبل منها . فأما الحميم ، فهو
الماء الحار . قال ابن قتيبة : ومنه سمي الحمام .

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ
عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي
الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا قُلْ إِن
هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَأَنْ أَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل أدعو من دون الله) أي : أنبذ ما لا بضرنا إن لم نعبده ،
ولا ينفعنا إن عبدناه ، وهي الأصنام . (ونردُّ على أعقابنا) أي : نرجع إلى الكفر
(بعد إذ هدانا الله) إلى الإسلام ، فنكون (كالذي استهوته الشياطين) . وقرأ حمزة :
« استهواه الشياطين » ، على قياس قرأته : (توفاه رُسُلُنَا) . وفي معنى « استهواها » قولان .
أحدهما : أنها هوت به وذهبت ، قاله ابن قتيبة . وقال أبو عبيدة : مُتَشَبِّهَةٌ
له الشياطين ، فيحبها حتى تهوي به في الأرض ، فتُضَلُّه .

والثاني : زينت له هواه ، قاله الزجاج . قال : و « حيران » منصوب على
الحال ، أي : استهوته في حال حيرته . قال السدي : قال المشركون للمسلمين :
اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ، وَاثْرَكُوا دِينَ مُحَمَّدٍ ، فقال تعالى : (قل أدعو من دون الله ما لا ينفعنا
ولا يضرنا ، ونردُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله) فنكون كرجل كان مع قوم

— التبريزي ٢/٦٣ وشرح الفضليات ، ١٩٧ ، ووالطبري ١١/٤٤٦ ، و « اللسان » و « التاج » :
بسل : وقوله : سمر الليالي ، وروى « سحيس الليالي » وهما بمعنى : ومعنى « ميسلاً بالجزائر »
أنه أسلم إلى عدوه بما جنى عليهم .

على طريق ، فضل ، فحيرته الشياطين ، وأصحابه على الطريق يدعونه : يافلات هلم
إلينا ، فانا على الطريق ، فيأبى . وقال ابن عباس : نزلت هذه الآية في عبد الرحمن
ابن أبي بكر الصديق ، دعاه أبوه وأمه إلى الإسلام فأبى . قال مقاتل : والمراد
بأصحابه : أبواه .

قوله تعالى : (قل إن هدى الله هو الهدى) هذا رد على من دعا إلى عبادة
الأصنام ، وزجر عن إجابته كأنه قيل له : لا تفعل ذلك ، لأن هدى الله هو
الهدى ، لا هدى غيره .

قوله تعالى : (وأمرنا لنسلم) قال الزجاج : الرب تقول : أمرتك أن تفعل ،
وأمرتك لتفعل ، وأمرتك بأن تفعل . فن قال : « بأن » فالباء للالتصاق . والمعنى :
وقع الأمر بهذا الفعل ، ومن قال : « أن تفعل » فلي حذف الباء ؛ ومن قال : « لتفعل »
فقد أخبر بالعلة التي لها وقع الأمر . قال : وفي قوله : (وأن أقيموا الصلاة) وجهان .
أحدهما : أمرنا لأن نسلم ، ولأن نقيم الصلاة .

والثاني : أن يكون محمولا على المعنى ، لأن المعنى : أمرنا بالإسلام ،
وبإقامة الصلاة .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ
كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق) فيه أربعة أقوال .
أحدها : خلقها للحق . والثاني : خلقها حقاً . والثالث : خلقها بكلامه وهو
الحق . والرابع : خلقها بالحكمة .

قوله تعالى : (ويوم يقول كن فيكون) قال الزجاج : الأجود أن يكون منصوباً على معنى : واذكر يوم يقول كن فيكون ، لأن بعده (وإذا قال إبراهيم) فالمعنى : واذكر هذا وهذا . وفي الذي يقول له كن فيكون ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يوم القيامة ، قاله مقاتل . والثاني : ما يكون في القيامة .

والثالث : أنه الصور ، وما ذكر من أمر الصور يدل عليه ، قلها الزجاج .

قال : وخص ذلك اليوم بسرعة إيجاد الشيء ، ليدل على سرعة أمر البعث .

قوله تعالى : (قوله الحق) أي : الصدق الكائن للاحالة (وله الملك يوم ينفخ في الصور) . وروى إسحاق بن يوسف الأزرق عن أبي عمرو : « ينفخ » بنونين . ومعنى الكلام : أن الملوك يومئذ لا ملك لهم ، فهو المنفرد بالملك وحده ، كما قال : (والأمر يومئذ لله) [الانفطار : ١٩] . وفي « الصور » قولان .

أحدهما : أنه قرن ينفخ فيه ؛ روى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سأل رسول الله ﷺ عن الصور ، فقال : « هو قرن ينفخ فيه » ^(١) . وقال مجاهد : الصور كهيئة البوق . وحكى ابن قتيبة : أن الصور : القرن ، في لغة قوم من أهل اليمن ، وأنشد :

نَحْنُ نَطْحَنَاهُمْ غَدَاةَ الْجَمْعَيْنِ بِالضَّابِحَاتِ فِي مُغَارِ النَّقْعَيْنِ
نَطْحًا شَدِيدًا لَا كَنَطْحِ الصَّوْرَيْنِ ^(٢)

(١) « المسند » : ١٠/١٠ ، ١١ ، والترمذي : ٢٩٥/٣ ، وصححه ، وأبو داود في « سننه » : ٣٣٦/٤ ، ورواه الحاكم في « المستدرک » ٤٣٦/٢ ، ٥٠٦ ، و ٥٦٠/٤ ، وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢) الرجز في « غريب القرآن » : ٣٦ بدون نسبة ، والأول والثالث في « اللسان » (صور) والضايحات : الخيل الصالحة .

وأنشد الفراء :

لَوْلَا ابْنُ جَعْدَةَ لَمْ يُفْتَحْ تَهْتَدُزْكُمْ
وَلَا خُرَّاسَانُ حَتَّى يُنْفَخَ الصُّورُ^(١)

وهذا اختيار الجمهور .

والثاني : أن الصور جمع صورة ؛ يقال : صورة وصور ، بمنزلة سورة وسور ، كسورة البناء ؛ والمراد نفخ الأرواح في صُورِ الناس ، قاله قتادة ، وأبو عبيدة . وكذلك قرأ الحسن ، ومعاذ القاري ، وأبو مجلز ، وأبو المنوكل « في الصُور » بفتح الواو . قال ثعلب : الأجود أن يكون الصور : القرن ، لأنه قال عز وجل : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَحِّقْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) ؛ ثم قال : (ثم نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى) ؛ ولو كان الصُور ، كان : ثم نُفِخَ فِيهِ ، أو فيهن ؛ وهذا يدل على أنه واحد ؛ وظاهر القرآن يشهد أنه يُنْفَخُ في الصُور مرتين . وقد روى أهل التفسير عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الصور قرن يُنْفَخُ فيه ثلاث نفخات ؛ الأولى : نفخة الفزع ، والثانية : نفخة الصمق ، والثالثة : نفخة القيام لرب العالمين »^(٢) . قال ابن عباس : وهذه النفخة المذكورة في هذه الآية هي الأولى ، يعني : نفخة الصمق .

(١) البيت بدون نسبة في « معاني القرآن » للفراء ٢٤٠/١ ، و« العرب » للجواليقي : ٢٦٧ ، وابن جرير الطبري ٤٦٣/١١ ، و« نسب قريش » : ٣٤٥ ، و« اللسان » : صور . وابن جمعة : هو عبد الله بن جمعة بن هيرة الخزومي ، وكان أبوه جمعة بن هيرة على خراسان ولاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه . والتهندز ، بضم القاف والماء وسكون النون وضم الدال من لغة خراسان ، يعنون بها الحصن أو القلعة . وقد استشهد الفراء وابن جرير بالبيت على أن العرب تقول : نفخ في الصور ، ونفخ الصور .

(٢) هو قطعة من حديث طويل ساقه بطوله الحافظ ابن كثير في « التفسير » ١٤٦/٢ من —

قوله تعالى : (عالم الغيب) وهو ما غاب عن الباد مما لم يماينوه ، (والشهادة) وهو ما شاهدوه ورأوه . وقال الحسن : يعني بذلك السر والعلانية .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ وَتَقَوْمُكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى : (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) في « آزر » أربعة أقوال .

أحدها : أنه اسم أبيه ، روي عن ابن عباس ^(١) ، والحسن ، والسدي ، وابن إسحاق .

— طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني . قال الشيخ أحمد شاكر : هو حديث ظاهر النكارة ، وإسماعيل بن رافع راويه قال فيه ابن معين : ليس بشيء ، وقال أبو حاتم : هو منكر الحديث ، وقال ابن حبان في كتاب « المبروحين » ، ص : ٨٣ — ٨٤ (مخطوط مصور) كان رجلاً صالحاً إلا أنه يقلب الأخبار ، حتى صار الثالب على حديثه المناكير التي يسبق إلى القلب أنه كالتهمد لها . قلت : وروى البخاري : ٤٢٤/٨ ، ومسلم ٢٢٧٠/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً « ما بين النفضين أربعون » قالوا : يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال : آيت . قال : أربعون شهراً ؟ قال : آيت . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : آيت . ثم ينزل الله من السماء ماءً فيبتنون كما يبتن البقل . وقوله : « آيت » قال الحافظ : معناه : امتنعت عن القول بتعيين ذلك ، لأنه ليس عندي في ذلك توقيف . وقد رجح غير واحد من العلماء أنها نفخان فقط .

(١) قال الشيخ أحمد شاكر : أما أن اسم والد إبراهيم « آزر » فانه عندنا أمر قطعي اثبت بصريح القرآن في هذه الآية بدلالة الألفاظ على المعاني . وأما التأويل والتلاعب بالألفاظ ، فما هو إلا إنكار مقنع لضمون الكلام ومعناه ، وسواء أكان اسمه في قول أهل النسب نقلاً عن الكتب السابقة « تارح » ، أو لم يكن ، فلا أثر له في وجوب الإيمان بصدق ما نص عليه القرآن ، وبدلالة لفظ « لأبيه » على معناه الوضعي في اللغة ، والقرآن هو المهيمن على ما قبله من كتب الأديان السابقة . ثم يقطع كل شك ، ويذهب بكل تأويل الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ٢٧٦/٦ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر فترة وغبرة » ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ... إلى آخر الحديث وليس بعد هذا النص مجال للتلاعب .

والثاني : أنه اسم صنم ، فأما اسم أبي إبراهيم ، فتأرجح ، قاله مجاهد . فيكون المعنى : أنتخذ آزر أصناماً ؛ فكأنه جعل أصناماً بدلاً من آزر ، والاستفهام معناه الإنكار .
والثالث : أنه ليس باسم ، إنما هو سبب بعيب ، وفي معناه قولان . أحدهما : أنه أنه المعوج ، كأنه عابه بزيفه وتمويهه عن الحق ، ذكره الفراء . والثاني : أنه المخطئ ، فكأنه قال : يا مخطئ . أنتخذ أصناماً ؛ ذكره الزجاج .

والرابع : أنه لقب لأبيه ، وليس باسمه ، قاله مقاتل بن حيان . قال ابن الأنباري : قد يطلب على اسم الرجل لقبه ، حتى يكون به أشهر منه باسمه . والجمهور على قراءة « آزر » بالنصب . وقرأ الحسن ، ويعقوب بالرفع . قال الزجاج : من نصب ، فوضع « آزر » خفضاً بدلاً من أبيه ؛ ومن رفع فعلى النداء .

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونُ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك نري إبراهيم) أي : وكما أريناه البصيرة في دينه ، والحق في خلاف قومه ، نريه (ملكوت السموات والأرض) . وقيل : « نري » بمعنى أرينا . قال الزجاج : والملكوت بمنزلة الملك ، إلا أن الملكوت أبلغ في اللغة ، لأن الواو والتاء يزدانان للمبالغة ؛ ومثل الملكوت : الرغبة والرهبة . قال مجاهد : ملكوت السموات والأرض : آياتها ؛ تفرجت له السموات السبع ، حتى العرش ، فنظر فيهن ، وتفرجت له الأرضون السبع ، فنظر فيهن . وقال قتادة : ملكوت السموات : الشمس والقمر والنجوم ، وملكوت الأرض : الجبال والشجر والبحار . وقال السدي : أقيم على صخرة ، وفتحت له السموات والأرض ، فنظر إلى ملك الله عز وجل ، حتى نظر إلى العرش ، وإلى منزله من الجنة ، وفتحت له الأرضون السبع ، حتى نظر إلى الصخرة التي عليها الأرضون .

قوله تعالى : (وليكون من الموقنين) هذا عطف على المعنى ، لأن معنى الآية : نريه ملكوت السموات والأرض ليستدل به ، وليكون من الموقنين . وفي ما يوقن به ثلاثة أقوال .

أحدها : وحدانية الله وقدرته . والثاني : نبوته ورسالته . والثالث : ليكون موقناً يعلم كل شيء حساً ، لا خبراً .

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلما جنَّ عليه الليل) قال الزجاج : يقال : جنَّ عليه الليل ، وأجنه الليل : إذا أظلم ، حتى يستر بظلمته ؛ ويقال لكل ماستر : جنٌّ ، وأجنّ ، والاختيار أن يقال : جنَّ عليه الليل ، وأجنه الليل .

﴿ الإشارة إلى بدء قصة إبراهيم عليه السلام ﴾

روى أبو صالح عن ابن عباس قال : « ولد إبراهيم في زمن ثمرود ، وكان لثمرود كهّان ، فقالوا له : يولد في هذه السنة مولود يفسد آلهة أهل الأرض ، ويدعوهم إلى غير دينهم ، ويكون هلاك أهل بيتك على يده ، فمزل النساء عن الرجال ، ودخل آزر إلى بيته ، فوقع على زوجته ، فحملت ، فقال الكهّان لثمرود : إن النلام قد حمل به الليلة . فقال : كل من ولدت غلاماً فاقتلوه . فلما أخذ أم إبراهيم المخاض ، خرجت هاربة ، فوضعت في نهر يابس ، ولقته في خرقة ، ثم وضعت في حلفاء^(١) ، وأخبرت به أباه ، فأتاه ، فحفر له سرباً ، وسد عليه بصخرة ،

(١) في « اللسان ، الحلفاء : بنت أطرافه محدة ، كأنها أطراف سفن النخل والخوص ، ينبت في منابض الماء والتزوز ، الواحدة : حلقة ، مثل قصبة وقصباء ، وطرفة وطرفاء .

وكانت أمه تختلف إليه فترضه ، حتى شب وتكلم ، فقال لأمه : من ربي ؟
 فقالت : أنا . قال : فمن ربك ؟ قالت : أبوك . قال : فمن رب أبي ؟ قالت :
 اسكت . فسكت ، فرجعت إلى زوجها ، فقالت : إن النمل الذي كنا نتحدث
 أنه يغير دين أهل الأرض ، ابنك . فأتاه ، فقال له مثل ذلك . فلما جنَّ عليه الليل ،
 دنا من باب السرب ، فنظر فرأى كوكباً . قرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم
 « رأى » ، بفتح الراء والهمزة ؛ وقرأ أبو عمرو : « رأى » ؛ بفتح الراء وكسر الهمزة ،
 وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم . « رأى » ، بكسر الراء
 والهمزة ، واختلفوا فيها إذا لقيها ساكن ، وهو آت في ستة مواضع : (رأى
 القمر) (فلما رأى الشمس) وفي النحل (وإذا رأى الذين ظلموا) [النحل : ٨٥]
 (وإذا رأى الذين أشركوا) [النحل : ٨٦] وفي الكهف : (ورأى المجرمون
 النار) [الكهف : ٥٣] ، وفي الأحزاب : (ولما رأى المؤمنون) [الأحزاب : ٧٢] .
 وقرأ أبو بكر عن عاصم ، وحمزة إلا العبسي ، وخلف في اختياره : بكسر
 الراء وفتح الهمزة في الكل ، وروى العبسي كسرة الهمزة أيضاً ، وقرأ ابن
 كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ؛ وابن عامر ، والكسائي : بفتح الراء والهمزة .
 فان اتصل ذلك بمكني ، نحو : رآك ، ورآه ، ورآها ؛ فان حمزة ، والكسائي ، وخلف ،
 والوليد عن ابن عامر ، والمفضل ، وأبان ، والقزاز عن عبد الوارث ، والكسائي
 عن أبي بكر : يكسرون الراء ، ويعملون الهمزة .

و في الكوكب الذي رآه قولان .

أحدهما : أنه الزهرة ، قاله ابن عباس ، وقسادة . والثاني : المشتري ، قاله

مجاهد ، والسدي .

قوله تعالى : (قال هذا ربي) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه على ظاهره . روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، قال : هذا ربي ، فعبدته حتى غاب ، وعبد القمر حتى غاب ، وعبد الشمس حتى غابت ؛ واحتج أرباب هذا القول بقوله : (لئن لم يهديني ربي) وهذا يدل على نوع تحيير ، قالوا : وإنما قال هذا في حال طفولته على ما سبق إلى وهمه ، قبل أن يثبت عنده دليل . وهذا القول لا يرتضى ، والمتأهلون للنبوة محفوضون من مثل هذا على كل حال . فأما قوله : (لئن لم يهديني ربي) فما زال الأنبياء يسألون الهدى ، ويتضرعون في دفع الضلال عنهم ، كقوله : (واجنبي وبنّي أن نعبد الأصنام) [إبراهيم : ٣٥] ولأنه قد آتاه رشده من قبل ، وأراه ملكوت السموات والأرض ليكون موقناً ، فكيف لا يعصمه عن مثل هذا التحيير ؟

والثاني : أنه قال ذلك استدراجاً للحجة ، ليعيب آلهتهم ويرهم بغضها عند أفولها ، ولا بد أن يضر في نفسه : إما على زعمكم ، أو فيما تظنون ، فيكون كقوله : (أين شركائي) ، وإما أن يضر : يقولون ، فيكون كقوله : (ربنا تقبل منا) [البقرة : ١٢٧] ، أي : يقولان ذلك ، ذكر نحو هذا أبو بكر ابن الأنباري ، ويكون مراده استدراج الحجة عليهم ، كما نقل عن بعض الحكماء أنه نزل بقوم يعبدون صنماً ، فأظهر تعظيمه ، فأكرموه ، وصدروا عن رأيه ، فدعاهم عدو ، فشاوهم ملكهم ، فقال : ندعو آلئنا ليكشف ما بنا ، فاجتمعوا يدعونه ، فلم ينفع ، فقال هاهنا آله ندعوه ، فيستجيب ، فدعوا الله ، فصرف عنهم ما يحذرون ، وأسلموا .

والثالث : أنه قال مستهتماً ، تقديره : أهذا ربي ؟ فأضرت ألف الاستفهام ، كقوله : (أفان مت ، فهم الخالدون) [الأنبياء : ٣٤] ؛ أي : أفهم الخالدون ؟ قال الشاعر :

كَذَّبْتَكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَأَسِطٍ

غَلَسَ الظُّلَامَ مِنَ الرَّبِّابِ خِيَالًا ^(١)

أراد : أكذبتك ؛ قال ابن الأنباري : وهذا القول شاذ ، لأن حرف الاستفهام لا يضر إذ كان فارقاً بين الإخبار والاستخبار ؛ وظاهر قوله : (هذا ربي) أنه إشارة إلى الصانع . وقال الزجاج : كانوا أصحاب نجوم ، فقال : هذا ربي ، أي : هذا الذي يدبرني ، فاحتج عليهم أن هذا الذي تزعمون أنه مدبر ، لا نرى فيه إلا أثر مدبر . و « أفل » بمعنى : غاب ؛ يقال : أفل النجم يأفل ويأفل أفولاً .

قوله تعالى : (لا أحب الآفلين) أي : حبّ ربّ معبود ، لأن ماظهر وأفل

كان حادثاً مدبراً .

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَثْنٌ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (فلما رأى القمر) قال ابن قتبية : سمي القمر قرأ لبياضه ؛ والأقر : الأبيض ؛ وليلة قراء ، أي : مضية . فلما البازغ ، فهو الطالع . ومعنى (لثن لم يهديني) : لثن لم يثبتني على الهدى . فان قيل : لم قال في الشمس : هذا ، ولم يقل : هذه ؛ فنه أربعة أجوبة .

أحدها : أنه رأى ضوء الشمس ، لا عينها ، قاله محمد بن مقاتل . والثاني :

(١) البيت للأخطل من قصيدة يهجو بها جريراً ، وهو في ديوانه : ٤١ ، و د مجاز القرآن ، ٥٦/١ ، و د الكامل : ٦١١ ، والطبري ٣٦١/١ ، و د النهاية ، و د اللسان ، (كذب) وشواهد المتني : ٥٢ ، و د الخزانة : ٤١١/٢ ، ٤٥٢/٤ .

أنه أراد: هذا الطالع ربي ، قاله الاخفش . والثالث : أن الشمس بمعنى الضياء والنور ، فحمل الكلام على المعنى . والرابع : أن الشمس ليس في لفظها علامة من علامات التأنيت ، وإنما يشبه لفظها لفظ المذكر ، فجاز تذكرها . ذكره والذي قبله ابن الأنباري .

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (إني وجهت وجهي) قال الزجاج : جعلت قصدي بعبادتي وتوحيدي لله رب العالمين عز وجل . وباقى الآية قد تقدم .

وقوله تعالى : (وحاجه قومه) قال ابن عباس : جادلوه في آلهتهم ، وخوفوه بها ، فقال منكراً عليهم : (أتُحَاجُّونِي) . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحزرة ، والكسائي : (أتُحَاجُّونِي) و (تأمروني) [الزمر : ٦٤] بتشديد النون . وقرأ نافع ، وابن عامر بتخفيفها ، فحذفوا النون الثانية لالتقاء التونين . ومعنى (أتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ) أي : في توحيدهِ . (وقد هدان) ، أي : يبين لي ما به اهتديت . وقرأ الكسائي : « هداني » ، بامالة الدال . والإمالة حسنة فيما كان أصله الياء ، وهذا من هدى يَهْدِي .

قوله تعالى : (ولا أخاف ما تشركون به) أي : لا أرهب آلهتكم ، وذلك أنهم قالوا : نخاف أن تمسك آلهتنا بسوء ، فقال : لا أخافها لأنها لا تضر ولا تنفع (إلا أن يشاء ربي شيئاً) فله أخاف (وسع ربي كل شيء) أي : علمه علماً تاماً .

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكيف أخاف ما أشركتم) أي : من هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تخافون أنتم أنكم أشركتم بالله الذي خلقكم ورزقكم ، وهو قادر على ضرركم ونفعكم (ما لم ينزل به عليكم سلطاناً) أي : حجة . (فأَيُّ الفريقين أحق بالأمن) أي : بأن يأمن العذاب ، الموحد الذي يعبد من يده الضر والنفع ؛ أم المشرك الذي يعبد ما لا يضر ولا ينفع ؟ ثم بين الأحق من هو بقوله : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أي : لم يخلطوه بشرك . روى البخاري ، ومسلم في « صحيحيهما » من حديث ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ، شق ذلك على المسلمين ، فقالوا : يا رسول الله ، وأينا ذلك ؟ فقال : إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه : (إن الشرك لظلم عظيم) [لقمان : ١٣] ^(١) ؟

وفيمعنى هذه الآية ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إبراهيم وأصحابه ، وليست في هذه الأمة ، قاله علي بن أبي طالب . وقال في رواية أخرى : هذه الآية لإبراهيم خاصة ، ليس لهذه الأمة منها شيء . والثاني : أنه من هاجر إلى المدينة ، قاله عكرمة .

والثالث : أنها عامة ، ذكره بعض المفسرين . وهل هي من قول إبراهيم لقومه ، أم جواب من الله تعالى ؟ فيه قولان .

(١) « المسند » : ٢٠٧/٥ ، والبخاري : ٨١/١ ، ٢٢١/٨ ، ومسلم شرح النووي ١٤٢/٢ ،

﴿ وَنَبِّئَكَ حُبَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وتلك حجتنا) يعني ما جرى بينه وبين قومه من الاستبدلال على حدوث الكوكب والقمر والشمس ، وعيهم ، إذ سوا بين الصغير والكبير ، وعبدوا من لا ينطق ، وإلزامه بإمام الحجة . (آتيناه إبراهيم) أرشدناه إليها بالإلهام . وقال مجاهد : الحجة قول إبراهيم (فأَي الفريقين أحق بالأمن) ؟ .

قوله تعالى : (نرفع درجات من نشاء) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عمرو وابن عامر : (درجات من نشاء) ، مضافاً . وقرأ عاصم ، وحزرة ، والكسائي (درجات) ، منونا ، وكذلك قرؤوا في (يوسف) [يوسف : ٧٦] . ثم في المعنى قولان . أحدهما : أن الرفع بالعلم والفهم والمعرفة . والثاني : بالاصطفاء الرسالة .

قوله تعالى : (إن ربك حكيم) قال ابن جرير : حكيم في سياسة خلقه ، وتلقينه أنبياء الحج على أهمهم المكذبة (عليم) بما يؤول إليه أمر الكل .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَهُودًا وَكَوْنًا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (ووهبنا له إسحاق) ولداً لصلبه (ويعقوب) ولداً لإسحاق (كلا) من هؤلاء المذكورين (هدينا) أي : أرشدنا .

قوله تعالى : (ومن ذريته) في « هاء الكناية » ، قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى نوح ؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره الفراء ، ومقاتل ، وابن جرير الطبري .

والثاني : إلى إبراهيم ، قاله عطاء . وقال الزجاج : كلا القولين جائز ، لأن ذكرهما جميعاً قد جرى ، واحتج ابن جرير للقول الأول بأن الله تعالى ، ذكر في سياق الآيات لوطاً ، وليس من ذرية إبراهيم . وأجاب عنه أبو سليمان الدمشقي بأنه يحتمل أن يكون أراد : ووهبنا له لوطاً في المعاضدة والنصرة ، ثم قوله : (وكذلك نجزي المحسنين) من أبين دليل على أنه إبراهيم ، لأن افتتاح الكلام إنما هو بذكر ما أثاب به إبراهيم . فأما « يوسف » فهو اسم أعجمي . قال الفراء : « يوسف » . بضم السين من غير همز ، لغة أهل الحجاز ، وبعض بني أسد يقول : « يؤسف » ، بالهمز ، وبعض العرب يقول : « يوسِف » بكسر السين ، وبعض بني عُقيل يقول : « يوسَف » بفتح السين .

قوله تعالى : (وكذلك نجزي المحسنين) أي : كما جزينا إبراهيم على توحيدهِ ونباته على دينهِ ، بأن رفعنا درجته ، ووهبنا له أولاداً أنبياء أتقياء ، كذلك نجزي المحسنين . فأما عيسى ، وإلياس ، واليسع ، ولوطاً ، فأسماء أعجمية ، وجمهور القراء يقرؤون « اليسع » بلام واحدة مخففاً ، منهم ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو وابن عامر . وقرأ حمزة ، والكسائي هاهنا وفي (ص) : « إِلْيَسَع » بلامين مع التشديد . قال الفراء : وهي أشبه بالصواب ، وبأسماء الأنبياء من بني إسرائيل ، ولأن العرب لا تدخل على « يَفْعَل » ، إذا كان في معنى فلان ، ألفاً ولاماً ، يقولون :

هذا يسع قد جاء ، وهذا يعمر ، وهذا يزيد ، فهكذا الفصيح من الكلام .
وأنشدني بعضهم .

وَجَدْنَا الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ مَبَارَكًا شَدِيدًا بِأَحْنَاءِ الْخِلَافَةِ كَاهِلِهِ^(١)
فلما ذكر الوليد بالألف واللام ، أتبعه يزيد بالألف واللام ، وكل صواب . وقال
مكي : من قرأه بلام واحدة ، فالأصل عنده : يسع ، ومن قرأه بلامين ، فالأصل
عنده : لَيْسَعُ ، فأدخلوا عليه حرف التعريف . وبقي أسماء الأنبياء قد تقدم
يأتها ، والمراد بالمالين : عالمو زمانهم .

قوله تعالى : (ومن آباءهم وذرياتهم) « من » هاهنا للتبويض . قال الزجاج :
المعنى : هدينا هؤلاء ، وهدينا بعض آباءهم وذرياتهم . (واجتيناهم) مثل اخترناهم
واصطفيناهم ، وهو مأخوذ من جيت الشيء : إذا أخلصته لنفسك . وجيت الماء
في الخوض : إذا جمته فيه . فأما الصراط المستقيم ، فهو التوحيد .

﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ذلك هدى الله) قال ابن عباس : ذلك دين الله الذي هم عليه
(يهدي به من يشاء من عباده) . (ولو أشركوا) يعني الأنبياء المذكورين (لحبط)
أي : لبطل وزال عملهم ، لأنه لا يقبل عمل مشرك .

(١) البيت من قصيدة لابن ميادة الرماح بن أبرد يمدح فيها أبا العباس الوليد بن يزيد بن
عبد الملك بن مروان . وهو في « معاني القرآن » للفراء ٣٤٣/١ ، و« المعنى » : ٥٢ ، و« تاريخ
الخلفاء » للسيوطي : ٢٥٢ . وقوله : « بأحناء الخلافة » فالأحناء جمع الحنو وهو الجهة والجانب ،
ويقال : أحناء الأسور لا تشابه منها وأشكل المخرج منه . والكاهل : اسم لما بين الكتفين ،
ويمبر بشدة الكاهل عن القوة .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَانْحَكُمِ وَالتَّوْبَةُ فَإِنْ
يَكْفُرْ بِهَا هُوَ لَا فَقَدْ وَكُنَّا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾
قوله تعالى : (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) يعني الكتب التي أنزلها عليهم .
والحكمُ : الفقه ، والعلم (فان يكفر بها) يعني بآياتنا .

وفيمن أشير إليه بـ « هؤلاء » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أهل مكة ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وقتادة .
والثاني : أنهم قريش ، قاله السدي . والثالث : أمة النبي ﷺ ، قاله الحسن .
قوله تعالى : (فقد وكلنا بها) قال أبو عبيدة : فقد رزقناها قوماً . وقال
الزجاج : وكلنا بالإيمان بها قوماً . وفي هؤلاء القوم أربعة أقوال .
أحدها : أنهم أهل المدينة من الأنصار ، قاله ابن عباس ، وابن المسيب ،
وقتادة ، والسدي .

والثاني : الأنبياء والصالحون ، قاله الحسن . وقال قتادة : هم النبيون
التمانية عشر ، المذكورون في هذا المكان ، وهذا اختيار الزجاج ، وابن جرير .
والثالث : أنهم الملائكة ، قاله أبو رجا . والرابع : أنهم المهاجرون والأنصار .
﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ اِقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (أولئك الذين هدى الله) يعني النبيين المذكورين .

وفي قوله تعالى : (فبهدهم اقتده) قولان .

أحدهما : بشرائهم وبسنهم فاعمل ، قاله ابن السائب .

والثاني : اقتد بهم في صبرهم ، قاله الزجاج . وكان ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، يثبتون الهاء من قوله : « اقتده » في الوصل ساكنة . وكان حمزة ، وخلف ، ومقبوب ، والكسائي عن أبي بكر ، واليزيدي في اختياره ، يحذفون الهاء في الوصل . ولا خلاف في إثباتها في الوقف ، وإسكانها فيه .
قوله تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً) يعني على القرآن . والله كرى : العظة .
والعالمون هاهنا : الجن والإنس .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْمَلُونَهُ قَرَاطِيسَ مُبَدَّلُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ مُنَّمْ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾
قوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره) في سبب نزولها سبعة أقوال .

أحدها : أن مالك بن الصيف رأس اليهود ، أتى رسول الله ﷺ ذات يوم ، فقال له رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى ، أنجد فيها أن الله يبعث الخبر السمين ؟ » قال : نعم . قال : « فأنت الخبر السمين » . فغضب ، ثم قال : (ما أنزل الله على بشر من شيء) فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ وكذلك قال سميد بن جبير ، وعكرمة : نزلت في مالك بن الصيف .
والثاني : أن اليهود قالوا : يا محمد ، أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : « نعم » . قالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً ، فنزلت هذه الآية ، رواه الوابي عن ابن عباس .
والثالث : أن اليهود قالوا : يا محمد ، إن موسى جاء بألواح يحملها من عند الله ، فائتنا بآية كما جاء موسى ، فنزل : (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً

من السماء) ، إلى قوله : (عظيماً) [النساء : ١٥٣-١٥٦] . فلما حدثهم بأعمالهم الخبيثة ، قالوا : والله ما أنزل الله عليك ولا على موسى وعيسى ، ولا على بشر ، من شيء ، فنزلت هذه الآية ، قاله محمد بن كعب .

والرابع : أنها نزلت في اليهود والنصارى ، آتاهم الله علماً ، فلم ينتقموا به ، قاله قتادة .

والخامس : أنها نزلت في فتنخاص اليهودي ، وهو الذي قال : (ما أنزل الله على بشر من شيء) قاله السدي .

والسادس : أنها نزلت في مشركي قريش ، قالوا : والله ما أنزل الله على بشر من شيء ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد^(١) .

والسابع : أن أولها ، إلى قوله : (من شيء) في مشركي قريش . وقوله : (من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) في اليهود ، رواه ابن كثير عن مجاهد . وفي معنى (وما قدروا الله حق قدره) ثلاثة أقوال .

أحدها : ما عظموا الله حق عظمته ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والفراء ، وطلب ، والزجاج .

والثاني : ما وصفوه حق صفته ، قاله أبو العالية ، واختاره الخليل .

والثالث : ما عرفوه حق معرفته ، قاله أبو عبيدة .

(١) رجح هذا القول ابن كثير ، وقال : إنه الأصح ، لأن الآية مكية ، واليهود لا يتكرونها إزال الكتب من السماء ، وقريش والعرب قاطبة كانوا يسمدون إرسال رسول من البشر كما قال : (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) [يونس : ٢] . وقال تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله رسلاً قدامنا . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً) [الاسراء : ٩٤ ، ٩٥] .

قوله تعالى : (يحملونه قراطيس) معناه : يكتبونه في قراطيس . وقيل : إنما قال : قراطيس ، لأنهم كانوا يكتبونه في قراطيس مقطعة ، حتى لا تكون مجموعة ، ليخفوا منها ما شاؤوا .

قوله تعالى : (يبدونها) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « يحملونه قراطيس يبدونها » و « يخفون » بالياء فيهن . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي : بالتاء فيهن . فن قرأ بالياء ، فلأن القوم غيب ، بدليل قوله : (وما قدروا الله حق قدره) . ومن قرأ بالتاء ، فلي الخطاب ؛ والمعنى : تبدون منها ما تحبون ، وتخفون كثيراً ، مثل صفة محمد ﷺ ، وآية الرجم ، ونحو ذلك مما كتبه .

قوله تعالى : (وعُلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آبائكم) في المخاطب بهذا قولان . أحدهما : أنهم اليهود ، قاله الجمهور .

والثاني : أنه خطاب للمسلمين ، قاله مجاهد . فلي الأول : علمتموا ما في التوراة ؛ وعلى الثاني : علمتموا على لسان محمد ﷺ .

قوله تعالى : (قل الله) هذا جواب لقوله : (من أنزل الكتاب) وتقديره : فان أجابوك ، وإلا فقل : الله أنزله .

قوله تعالى : (ثم ذرهم) تهديد . وخوضهم : باطلهم . وقيل : إن هذا أمر بالإعراض عنهم ، ثم نسخ بآية السيف .

قوله تعالى : (وهذا كتاب أنزلناه) يعني القرآن . قال الزجاج : والمبارك الذي يأتي من قبله الخير الكثير . والمعنى : أنزلناه للبركة والإنذار .

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

قوله تعالى : (مصدّقُ الذي بين يديه) من الكتب .

قوله تعالى : (ولتنذر أم القرى) قرأ عاصم إلّا حفصاً : « ولينذر » بالياء ؛ فيكون الكتاب هو المنذر . وقرأ الباقون : بالناء ، على الخطاب للنبي ﷺ . فأما أم القرى ، فهي مكة . قال الزجاج : والمعنى : لتنذر أهل أم القرى .

وفي تسميتها بأُم القرى أربعة أقوال .

أحدها : أنها سميت بذلك ، لأن الأرض دُحيت من تحتها ، قاله ابن عباس .
والثاني : لأنها أقدمها ، قاله ابن قتيبة . والثالث : لأنها قبلة جميع الناس ، يؤمنونها .
والرابع : لأنها كانت أعظم القرى شأنًا ، ذكرها الزجاج .

قوله تعالى : (ومن حولها) قال ابن عباس : يريد الأرض كلها .

قوله تعالى : (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى القرآن .

والثاني : إلى النبي محمد ﷺ . والمعنى : من آمن بالآخرة آمن به ؛ ومن لم يؤمن به ، فليس إيمانه بالآخرة حقيقة ، ولا يستدّ به ، ألا ترى إلى قوله : (ومن على صلاتهم يحافظون) فدل على أنه أراد المؤمنين الذين يحافظون على الصلوات .
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي تَهْمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو قال أوحى إليّ)

اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أن أولها ، إلى قوله : (ولم يوحَ إليه شيء) نزل في مُسِيْلَمَة الكذاب .
 وقوله تعالى : (ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله) نزل في عبد الله بن
 سعد بن أبي سرح ، كان قد تكلم بالإسلام ، وكان يكتب لرسول الله ﷺ في
 بعض الأحيان ؛ فإذا أُملي عليه : « عزيز حكيم » كتب : « غفور رحيم » فيقول
 لرسول الله ﷺ : هذا وذاك سواء . فلما نزلت : (ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة
 من طين) أملاها عليه ، فلما انتهى إلى قوله : (خلقاً آخر) عجب عبد الله بن
 سعد ، فقال : (تبارك الله أحسن الخالقين) [المؤمنون : ١٢ - ١٤] فقال رسول الله ﷺ :
 « كذا أنزلت عليّ » ، فكتبها « فشك حينئذ ، وقال : لئن كان محمد صادقاً ، لقد أوحى إليّ
 كما أوحى إليه ، ولئن كان كاذباً ، لقد قلت كما قال ، رواه أبو صالح عن ابن عباس (١) .
 قال عكرمة : ثم رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة .

والقول الثاني : أن جميع الآية في عبد الله بن سعد ، قاله السدي .

والثالث : أنها نزلت في مسيْلَمَة ، والأسود المنسي ، قاله قتادة . فإن قيل :
 كيف أفرد قوله : (أو قال أوحى إليّ) من قوله : (ومن أظلم ممن افترى) وذاك
 مفترٍ أيضاً ؛ فمنه جوابان .

أحدهما : أن الوصفين لرجل واحد ، وصف بأمر بمد أمر ليدل على جرأته .
 والثاني : أنه خص بقوله : (أو قال أوحى إليّ) بمد أن عم بقوله : (افترى
 على الله) لأنه ليس كل مفترٍ على الله يدعي أنه يوحى إليه ، ذكرها ابن الأنباري .
 قوله تعالى : (سأُنزل مثل ما أنزل الله) أي : سأقول . قال ابن عباس :
 يمنون الشعر ، وهم المستهزؤون . وقيل : هو قول عبد الله بن سعد بن أبي سرح .
 قال الزجاج : وهذا جواب لقولهم : (لو نشاء لقلنا مثل هذا) .

(١) إسناده تالف هالك ، كما مر غير مرة .

قوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون) فيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قوم كانوا مسلمين بمكة ، فأخرجهم الكفار معهم إلى قتال بدر ، فلما أبصروا قلّة أصحاب رسول الله ﷺ رجعوا عن الإيمان ، فنزل فيهم هذا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم الذين قالوا : (ما أنزل الله على بشر من شيء) قاله أبو سليمان .
والثالث : الموصوفون في هذه الآية ، وهم المفترون والمدّعون الوحي إليهم ، ومماثلة كلام الله . قال الزجاج : وجواب « لو » محذوف ؛ والمعنى : لو تراهم في غمرات الموت لرأيت عذاباً عظيماً . ويقال لكل من كان في شيء كبير : قد غمر فلاناً ذلك . قال ابن عباس : غمرات الموت : سكراته . قال ابن الأنباري : قال اللغويون : سميت غمرات ، لأن أهوالها يغمرون من يقمن به .

قوله تعالى : (والملائكة باسطو أيديهم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : بالضرب ، قاله ابن عباس . والثاني : بالعذاب ، قاله الحسن ، والضحاك . والثالث : باسطوها لقبض الأرواح من الأجساد ، قاله الفراء .
وفي الوقت الذي يكون هذا فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : عند الموت . قال ابن عباس : هذا عند الموت ، الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وملك الموت يتوفّاهم .

والثاني : يوم القيامة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : في النار ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (أخرجوا أنفسهم) فيه إضمار « يقولون » وفي مناه قولان .
أحدهما : استنسلوها لإخراج أنفسهم .

والثاني : أخرجوا أنفسكم من العذاب إن قدرتم .

قوله تعالى : (تَجَزَوْنَ عَذَابَ الْهَوْنِ) قال أبو عبيدة : الهون : مضوم ، وهو الهوان ؛ وإذا فتجوا أوله ، فهو الرِّفْق والدَّعة . قال الزجاج : والمعنى : تجزَوْنَ العذاب الذي يقع به الهوان الشديد .

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَآخِوِلَنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى) سبب نزولها : أن النضر بن الحارث قال : سوف تشفع لي اللات والعزى ، فنزلت هذه الآية ، قاله عكرمة . ومعنى فرادى : وحداً . وهذا إخبار من الله تعالى بما يوبخ به المشركين يوم القيامة . قال أبو عبيدة : فرادى ، أي : فرد فرد . وقال ابن قتيبة : فرادى : جمع فرد .

والمفسرين في معنى « فرادى » خمسة أقوال متقاربة المعنى .

أحدها : فرادى من الأهل والمال والولد ، قاله ابن عباس . والثاني : كل واحد على حدة ، قاله الحسن . والثالث : ليس معكم من الدنيا شيء ، قاله مقاتل . والرابع : كل واحد منفرد عن شريكه في النفي ، وشقيقه ، قاله الزجاج . والخامس : فرادى من المعبودين ، قاله ابن كيسان .

قوله تعالى : (كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا مال ولا أهل ولا ولد . والثاني : حفاة عراة غرلاً . والنزل : القلف . والثالث : أحياء . وخولناكم : بمعنى ملكناكم . (وراء ظهوركم) أي :

في الدنيا . والمعنى : أن ما دأبتم في تحصيله في الدنيا في ، وبقي الندم على سوء الاختيار . وفي شفعاتهم ، قولان .

أحدهما : أنها الأصنام . قال ابن عباس : شفعاؤكم ، أي : آلهتكم الذين زعمتم أنهم يشفون لكم . و (زعمتم أنهم فيكم) أي : عندكم شركاء . وقال ابن قتيبة : زعمتم أنهم لي في خلقكم شركاء .

والثاني : أنها الملائكة ؛ كانوا يمتقدون شفاعتها ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (لقد تقطع بينكم) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحزمة ، وأبو بكر عن حاصم : بالرفع . وقرأ نافع ، والكسائي ، وحفص عن حاصم : بنصب النون على الظرف . قال الزجاج : الرفع أجود ، ومعناه : لقد تقطع وصلكم ، والنصب جائز ، ومعناه : لقد تقطع ما كنتم فيه من الشركاء بينكم . وقال ابن الأنباري : التقدير : لقد تقطع ما بينكم ، فحذف « ما » لوضوح معناها . قال أبو علي : الذين زعموه ، جملوه اسماً ، فأسندوا الفعل الذي هو « تقطع » إله ؛ والمعنى : لقد تقطع وصلكم . والذين نصبوا ، أضمرنا اسم الفاعل في « فما » ، المضمر هو الوصل ؛ فالتقدير : لقد تقطع وصلكم بينكم . وفي الذي كانوا يزعمون قولان . أحدهما : شفاعاة آلهتهم . والثاني : عدم البعث والجزاء .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ . قوله تعالى : (إن الله فالق الحب والنوى) في معنى الفلق قولان .

أحدهما : أنه بمعنى الخلق ، فالمعنى : خالق الحب والنوى ، رواه الموفى عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك ، ومقاتل .

والثاني : أن الفلق بمعنى الشق . ثم في معنى الكلام قولان .
أحدهما : أنه فلق الحبة عن السنبلة ، والنواة عن النخلة ، روى هذا المعنى
أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، والسدي ، وابن زيد .
والثاني : أنه الشقان اللذان في الحب والنوى ، قاله مجاهد ، وأبو مالك .
قال ابن السائب : الحب : ما لم يكن له نوى ، كالبربر والشعير ؛ والنوى : مثل
نوى النمر .

قوله تعالى : (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) قد سبق
تفسيره في (آل عمران) .
قوله تعالى : (فأنى تؤفكون) أي : كيف تصرفون عن الحق بعد هذا البيان .
﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

قوله تعالى : (فالق الإصباح) في معنى الفلق قولان قد سبقا . فأما الإصباح ،
فقال الأخفش : هو مصدر من أصبح . وقال الزجاج : الإصباح والصبح واحد .
وللفسرين في الإصباح ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ضوء الشمس بالنهار ، وضوء القمر بالليل ، رواه ابن أبي طلحة عن
ابن عباس .

والثاني : أنه إضاءة الفجر ، قاله مجاهد . وقال ابن زيد : فلق الإصباح من الليل .
والثالث : أنه نور النهار ، قاله الضحاك . وقرأ أنس بن مالك ، والحسن ،
وأبو مجلز ، وأيوب ، والجحدري : « فالق الأصباح » بفتح الهمزة . قال أبو عبيد :
ومعناه جمع صبح .

قوله تعالى : (وجاعل الليل سكناً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « جاعل » بألف . وقرأ عاصم ، وحزمة ، والكسائي : « وجعل » بغير ألف . « الليل » نصباً . قال أبو علي : من قرأ : « جاعل » فلاجل « فالتى » وهم يراعون المشاكلة . ومن قرأ : « جعل » فلائن « فاعلاً » هاهنا ، بمعنى : « فعل » بدليل قوله : (والشمس والقمر حسباناً) . فأما السكن ، فهو ما سكنت إليه . والمعنى : أن الناس يسكنون فيه سكون راحة . وفي الحسبان قولان .

أحدهما : أنه الحساب ، قاله الجمهور . قال ابن قتيبة : يقال : خذ من كل شيء بحسابه ، أي : بحسابه . وفي المراد بهذا الحساب ، ثلاثة أقوال . أحدها : أنها يجريان إلى أجل جعل لهما ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثاني : يجريان في منازلها بحساب ، ويرجمان إلى زيادة ونقصان ، قاله السدي . والثالث : أن جريانهما سبب لمعرفة حساب الشهور والأعوام ، قاله مقاتل .

والقول الثاني : أن معنى الحسبان : الضياء ، قاله قتادة . قال الماوردي ، كأنه أخذه من قوله تعالى : (ويرسل عليها حسباناً من السماء) [الكهف : ٤٠] أي : ناراً . قال ابن جرير : وليس هذا من ذلك في شيء .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي جعل لكم النجوم) جعل ، بمعنى خلق . وإنما امتن عليهم بالنجوم ، لأن سالكي القفار وراكبي البحار ، إنما يهتدون في الليل لمقاصد بهم .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْذَعٌ مُسْتَوْذَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة) يعني آدم (فستقر) .
 قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ويعقوب ، إلا رؤيساً : بكسر القاف . وقرأ نافع ،
 وابن عامر ، وعاصم ، وحزمة ، والكسائي : بفتحها . قال الزجاج : من كسر ،
 فالمعنى : « فنكم مستقر » ومن نصب ، فالمعنى : « فلنم مستقر » . فأما مستودع ،
 فبالفتح ، لا غير . ومعناه على فتح القاف : « ولكم مستودع » وعلى كسر القاف :
 « منكم مستودع » . وللمفسرين في هذا المستقر والمستودع تسعة أقوال .

أحدها : فستقر في الأرحام ، ومستودع في الأصلاب ، رواه العوفي عن
 ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعطاء ، والضحاك ، والنخعي ،
 وقتادة ، والسدي ، وابن زيد .

والثاني : المستقر في الأرحام ، والمستودع في القبر ، قاله ابن مسعود .
 والثالث : المستقر في الأوض ، والمستودع في الأصلاب ، رواه ابن جبير
 عن ابن عباس .

والرابع : المستقر والمستودع في الرحم ، رواه قابوس عن أبيه عن ابن عباس .
 والخامس : المستقر حيث يأوي ، والمستودع حيث يموت ، رواه مقسم عن
 ابن عباس .

والسادس : المستقر في الدنيا ، والمستودع في القبر .
 والسابع : المستقر في القبر ، والمستودع في الدنيا ، وهو عكس الذي
 قبله ، روي عن الحسن .

والثامن : المستقر في الدنيا ، والمستودع عند الله تعالى ، قاله مجاهد .
 والتاسع : المستقر في الأصلاب ، والمستودع في الأرحام ، قاله ابن بحر ،
 وهو عكس الأول .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّهْمَانِ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي أنزل من السماء ماء) يعني المطر (فأخرجنا به)

أي : بالمطر . وفي قوله تعالى : (نبات كل شيء) قولان .

أحدهما : نبات كل شيء من الثمار ، لأن كل ما ينبت ، فنباته بالماء .

والثاني : رزق كل شيء وغذاؤه . وفي قوله تعالى : (فأخرجنا منه) قولان .

أحدهما : من الماء ، أي : به .

والثاني : من النبات . قال الزجاج : الخَضِرُ بمعنى الأخضر ؛ يقال : اخضر ،

فهو أخضر ، وخَضِر ، مثل أعور ، فهو أعور ، وعَوِر .

قوله تعالى : (نخرج منه) أي : من الخضر (حبا متراكبا) كالسنبل والشمير .

والمترالكب : الذي بعضه فوق بعض .

قوله تعالى : (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) وروى الخفاف عن

أبي عمرو : « قنوان » بضم القاف ؛ وروى هارون عنه بفتحها . قال الفراء : ممناه :

ومن النخل ما قنوانه دانية ؛ وأهل الحجاز يقولون : « قنوان » بكسر القاف ؛ وقيس

يضمونها ؛ وضبة ، وتيمم يقولون : « قنيان » . وأنشدني المفضل عنهم :

فَأَنْتَ أَعَالِيهِ وَآدَتُ أَصُولُهُ وَمَالَ بَقِينِيَانٍ مِنَ الْبُسْرِ أَحْمَرَا ^(١)

(١) البيت لامرئ القيس ديوانه : ٦٧ ، و « اللسان » : قنا من قصيدته المستجادة ، وهو

من أولها يصف ظن الحي يشبهها بالنخل . وقوله : أنت أعاليه ، أي : عظمت والتفت من تقل

حملها . وقوله : آدت ، أي : كتنت ومالت .

ويجتمعون جميعاً ، فيقولون : « قِنُو » و « قُنُو » ولا يقولون : « قِنِي » ولا « قُنِي » وكلب يقولون : « ومال بِقِنِيان » . قال المصنف : والبيت لامرئ القيس ؛ ورواه أبو سعيد السكري : « ومال بِقِنِيان » مكسورة القاف مع الواو ، فقيه أربع لغات : قِنِيان ، وقُنِيان ، وقِنِيان ، وقُنِيان ؛ و « أنت » : كثرت ؛ ومنه : شبر أثبت . و « آدت » : اشتدت . وقال ابن قتيبة : القنوان : عنوق النخل ، واحدها : قنو ، جمع على لفظ ثنية ؛ ومثله : صِنُو وصِنِيان في الثنية ، وصِنِوان في الجميع . وقال الزجاج : قِنِيان : جمع قِنُو ، وإذا ثنيت فيها قِنِيان ، بكسر النون . ودانية ، أي : قرية المتناول ، ولم يقل : « ومنها قنوان بيده » لأن في الكلام دليلاً أن البميده السحيقة ؛ قد كانت غير سحيقة ، فاجتزأ . بذكر القرية عن ذكر البميده ؛ كقوله تعالى : (سرايل تقيمك الحر) [النحل : ٨١] . وقال ابن عباس : القنوان الدانية : قصار النخل اللاصقة عنوقها بالأرض .

قوله تعالى : (وجنات من أعناب) قال الزجاج : هو نسق على قوله : « خضرأ » (والزيتون والرمان) المعنى : وأخرجنا منه شجر الزيتون والرمان ؛ وقد روى أبو زيد عن الفضل : « وجنات » بالرفع .

قوله تعالى : (مشتبهاً وغير متشابه) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مشتبهاً في المنظر ، وغير متشابه في الطعم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : مشتبهاً ورقه ، مختلفاً ثمره ، قاله قتادة ، وهو في معنى الأول .

والثالث : منه ما يشبه بعضه بعضاً ، ومنه ما يخالف . قال الزجاج : وإنما

قرن الزيتون بالرمان ، لأنها شجرتان تعرف العرب أن ورقها يشتمل على النضن من أوله إلى آخره . قال الشاعر :

بُورِكَ الْمَيْتَ الْغَرِيبُ كَمَا بُوْرِكَ نَضْعُ الرِّثْمَانِ وَالزَّيْتُونِ
ومعناه : أن البركة في ورقه اشتماله على عوده كله .

قوله تعالى : (انظروا إلى ثمره) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن
عاصم ، وعاصم : (انظروا إلى ثمره) ، و (كلوا من ثمره) [الانعام : ١٤١] ، و (لياكلوا من
ثمره) [يس : ٣٥] : بالفتح في ذلك . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : بالضم فيهن . قال
الزجاج : يقال : ثَمَرَةٌ ، وَثَمَرٌ ، وَثِمَارٌ ، وَثَمْرٌ ؛ فمن قرأ : « إلى ثَمَرِهِ » بالضم أراد جمع
الجمع . وقال أبو علي : يحتمل وجهين . أحدهما هذا ، وهو أن يكون الثمر جمع ثمار .
والثاني : أن تكون الثمر جمع ثمرة ، وكذلك : أكمة ، وأكُم ، وخشبة وخُشْب .
قال الفراء : يقول : انظروا إليه أول ما يَحْقِدُ ، وانظروا إلى بنمه ، وهو نضجه
وبلوغه . وأهل الحجاز يقولون : يَنْعُ ، بفتح الياء ، وبمض أهل نجد يضمونها .
قال ابن قتيبة : يقال : يَنْعُ الثمرة ، وليْنَعُ : إذا أدركت ، وهو اليْنَعُ واليْنَعُ .
وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والأعمش ، وابن محيصن : « وَيُسْمِيهِ » بضم الياء .
قال الزجاج : لينع : النضج . قال الشاعر :

فِي قِبَابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ حَوَّلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنْمًا ^(١)

ويُسِّن الله تعالى لهم بتصريف ما خلق ، ونقله من حال إلى حال لا يقدر عليه المخلوق ،
أنه كذلك يسميهم .

(١) د الحيوان : ١٠/٤ ، ود الكامل : ٢٢٦/١ ، ود مجاز القرآن : ٢٠٢/١ ،
ود الطبري : ٥٨٠/١١ ، ود خزائن الأدب : ٢٧٩/٣ ، ود اللسان : ينع . قال المبرد :
قال أبو عبيدة : هذا الشعر مختلف فيه ، فبعضهم ينسبه إلى الأخوص ، وبعضهم ينسبه إلى
يزيد بن معاوية . وفي « اللسان » قال ابن بري : هو للأخوص ، أو يزيد بن معاوية ، أو
عبد الرحمن بن حسان ، ونسبه صاحب « اللسان » في مادة : « دسكر » إلى الأخطل . والدسكرة :
بناء كالقصر ، كانت الأعاجم تتخذها للشرب والملاهي .

قوله تعالى : (إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) قال ابن عباس : يصدقون أن لذي أخرج هذا النبات قادر على أن يحيي الموتى . وقال مقاتل : يصدقون بالتوحيد . ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (وجعلوا لله شركاء الجن) جعلوا ، بمعنى وصفوا . قال الزجاج : نصب « الجن » من وجهين .

أحدهما : أن يكون مفعولاً ، فيكون المعنى : وجعلوا لله الجن شركاء ؛ ويكون الجن مفعولاً ثانياً ، كقوله : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناناً) [الزخرف : ١٩] .

والثاني : أن يكون الجن بدلاً من شركاء ، ومفسراً للشركاء . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو عمران ، وأبو حيوة ، والجحدري : « شركاء الجن » برفع النون ؛ وقرأ ابن أبي عتبة ، ومعاذ القاري : « الجن » بخفض النون . وفي معنى جعلهم الجن شركاء ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أطاعوا الشياطين في عبادة الأوثان ، فجهلوا شركاء الله ، قاله الحسن ، والزجاج .

والثاني : قالوا : إن الملائكة بنات الله فهم شركاؤه ، كقوله : (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) [الصافات : ١٥٨] فسمى الملائكة جنّاً لاجتماعهم ، قاله قتادة ، والسدي ، وابن زيد .

والثالث : أن الزنادقة قالوا : الله خالق النور والماء والدواب والانعام ، وإبليس خالق الظلمة والنبع والحيات والمقارب ، وفيهم نزلت هذه الآية . قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (وخلقهم) في الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الجاعلين له الشركاء ، فيكون المنى : وجعلوا للذي خلقهم شركاء لا يخلقون .

والثاني : أنها ترجع إلى الجن ، فيكون المنى : والله خلق الجن ، فكيف يكون الشريك لله محدثاً ، ذكرها الزجاج .

قوله تعالى : (وخرقوا له بنين وبنات) وقرأ نافع : « وخرقوا » بالتشديد ، للمبالغة والتكثير ، لأن المشركين ادّعوا الملائكة بنات الله ، والنصارى المسيح ، واليهود عزيزاً . وقرأ ابن عباس ، وأبو رجا ، وأبو الجوزاء : « وخرقوا » بحاء غير ممجمة وبتشديد الراء وبالفاء . وقرأ ابن السميع ، والجحدري : « خارقوا » بألف وخاء ممجمة . قال السدي : أما « البنون » ، فقول اليهود : عزيز ابن الله ، وقول النصارى : المسيح ابن الله ؛ وأما « البنات » ، فقول مشركي العرب : الملائكة بنات الله . قال الفراء : خرقوا ، واخترقوا ، وخلقوا ، واختلقوا ، بمعنى افتروا . وقال أبو عبيدة : خرقوا : جعلوا . قال الزجاج : ومعنى : « بنير علم » : أنهم لم يذكروه من علم ، إنماذكروه تكذّباً .

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

قوله تعالى : (أنى يكون له ولد) قال الزجاج : أي : من أين يكون له ولد ،

والولد لا يكون إلا من صاحبة ١٢ واحتج عليهم في نفي الولد بقوله : (وخلق كل شيء) فليس مثل خالق الأشياء ، فكيف يكون الولد لمن لا مثل له ١٣ فإذا نسب إليه الولد ، فقد جعل له مثل .

﴿ لَا تُنْذِرُكُمْ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُنْذِرُكُمْ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

قوله تعالى : (لا تنذرکه الأبصار) في الإدراك قولان .

أحدهما : أنه بمعنى الإحاطة . والثاني : بمعنى الرؤية . وفي « الأبصار » قولان .

أحدهما : أنها البصيرة ، قاله الجمهور . والثاني : أنها العقول ، رواه عبد الرحمن

ابن مهدي عن أبي حصين القاري . وفي معنى الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : لا تحيط به الأبصار ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد

ابن المسيب ، وعطاء . وقال الزجاج : معنى الآية : الإحاطة بحقيقته ، وليس فيها

دفع للرؤية ، لما صح عن رسول الله ﷺ من الرؤية ^(١) ، وهذا مذهب أهل السنة

والعلم والحديث .

والثاني : لا تنذرکه الأبصار إذا تجلّى بنوره الذي هو نوره ، رواه عكرمة

عن ابن عباس .

والثالث : لا تنذرکه الأبصار في الدنيا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ،

وبه قال الحسن ، ومقاتل . ويدل على أن الآية مخصوصة بالدنيا ، قوله : (وجوه

(١) قال ابن كثير رحمه الله في « التفسير » ١٦١/٢ : قوّزت الأخبار عن أبي سعيد ، وأبي هريرة ،

وأنس ، وجابر ، وصيب ، وبلال ، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون الله

في الدار الآخرة في المرات ، وفي روضات الجنات ، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه .

يومئذ ناضرة . (إلى ربها ناظرة) [القیامة : ٢٢ ، ٢٣] فقیّد النظر إليه بالقیامة ، وأطلق في هذه الآية ، والمطلق يحمل على المقيد .

وقوله تعالى : (وهو يدرك الأبصار) فيه القولان . قال الزجاج : وفي هذا الإعلام دليل على أن خَلَقَهُ لا يدركون الأبصار ، أي : لا يعرفون حقيقة البصر ، وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينه ، دون أن يبصر من غيرهما من أعضائه ؛ فأعلم الله أن خلقاً من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ، ولا يحيطون بملئه ؛ فكيف به عز وجل ؟ إفاًما « اللطيف » ، فقال أبو سليمان الخطابي : هو البرّ بعباده ، الذي بلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويستبّ لهم مصالحهم من حيث لا يحسبون . قال ابن الأعرابي : اللطيف : الذي يوصل إليك أرَبَكَ في رفق ؛ ومنه قولهم : لطف الله بك ؛ ويقال : هو الذي لَطَّفَ عن أن يُدرك بالكيفية . وقد يكون اللطف بمعنى الدقة والعموض ، ويكون بمعنى الصغر في نموت الأجسام ، وذلك مما لا يليق بصفات الباري سبحانه . وقال الأزهري : اللطيف من أسماء الله ، معناه : الرفيق بعباده ؛ والخبير : العالم بكنه الشيء ، المطلع على حقيقته .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ قَنۢ أَنۢ أَبۡصَرَ فَلِنَنۢفَسِهٖ وَمَنۢ عَمِيَ فَعَلَيْهَا . وَمَا أَنَا عَلَيْكُمۢ بِحَفِيفٍ ﴾

قوله تعالى : (قد جاءكم بصائر من ربكم) البصائر : جمع بصيرة ، وهي الدلالة التي توجب البصر بالشيء والعلم به . قال الزجاج : والمعنى : قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر (فن أبصر فانفسه) نفع ذلك (ومن عمي) فلي نفسه ضرر ذلك ، لأن الله عز وجل غني عن خلقه . (وما أنا عليكم بحفيظ) أي : لست آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ والوكيل ، وهذا قبل الأمر بالقتال .

﴿ فصل ﴾

وذكر المفسرون أن هذه الآية نسخت بآية السيف . وقال بعضهم : معناها :
لست رقيباً عليكم ، أحصي أعمالكم ؛ فلي هذا لا وجه للنسخ .

﴿ وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك نصرف الآيات) قال الأخفش : « وكذلك » معناها :
وهكذا . وقال الزجاج : المعنى : ومثل مايتنا فيما نلي عليك ، « نبيين الآيات » .
قال ابن عباس : نصرف الآيات ، أي : نبينها في كل وجه ، ندعوهم بها مرة ،
ونخوفهم بها أخرى . (وليقولوا) يعني أهل مكة حين قرأ عليهم القرآن « دارست » .
قال ابن الأنباري : معنى الآية : وكذلك نصرف الآيات ، لنلزمهم الحجة ،
وليقولوا : دارست ؛ وإنما صرف الآيات ليسعد قوم بفهمها والعمل بها ، ويشقى
آخرون بالإعراض عنها ؛ فمن عمل بها سعد ، ومن قال : دارست ، شقي . قال الزجاج :
وهذه اللام في « ليقولوا » يسميها أهل اللغة لام الصيرورة . والمعنى : أن السبب
الذي أدام إلى أن قالوا : دارست ، هو تلاوة الآيات ، وهذا كقوله : (فالتقطه
آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) [القصص : ٨] وهم لم يطلبوا بأخذه أن يباديهم ،
ولكن كان عاقبة الأمر أن صار لهم عدواً وحزناً . ومثله أن تقول : كتب فلان الكتاب
لحقه ، فهو لم يقصد أن يهلك نفسه بالكتاب ، ولكن العاقبة كانت الهلاك .
فأما « دارست » فقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « دارست » بالالف وسكون السين
وفتح التاء ؛ ومعناها : ذاكرت أهل الكتاب . وقرأ عاصم ، وحزة ، والكسائي :

« درست » بسكون السين وفتح التاء ، من غير ألف ، على معنى : قرأت كتب أهل الكتاب . قال المفسرون : معناها : تعلمت من جبر ، ويسار . وسنين هذا في قوله : (إِنَّمَا يَلْمِزْهُ بِشَرِّ) [النحل: ١٠٣] إِن شَاءَ اللَّهُ . وقرأ ابن عامر ، ويعقوب : « درست » بفتح الراء والسين وسكون التاء من غير ألف . والمعنى : هذه الأخبار التي تلوها علينا قديمة قد درست . أي : قد مضت وامتحت . وجميع من ذكرنا فتش الدال في قراءته . وقد روي عن نافع أنه قال : « دُرِسَتْ » برفع الدال وكسر الراء وتحفيف التاء ، وهي قراءة ابن يصر ، ومعناها : قرئت . وقرأ أبي بن كعب : « دُرِسَتْ » بفتح الدال والسين وضم الراء وتسكين التاء . قال الزجاج : وهي بمعنى : « دَرَسَتْ » أي : امتحت ؛ إلا أن المضمومة الراء أشد مبالغة . وقرأ معاذ القاري ، وأبو العالمة ، ومورق : « دُرِسَتْ » برفع الدال ، وكسر الراء وتشديدها ساكنة السين . وقرأ ابن مسعود ، وطلحة بن مصرف : « دَرَسَ » بفتح الراء والسين بلا ألف ولا تاء . وروى عصمة عن الأعمش : « دارس » بألف .

قوله تعالى : (وَلَنَبِيْنَهُ) يعني : التصريف (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) ما تبين لهم من الحق فيقبلوه .

﴿ إِن تَبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾

قوله تعالى : (وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) قال المفسرون : نسخ بآية السيف .

قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) فيه ثلاثة أقوال حكاهما الزجاج .

أحدها : لو شاء لجعلهم مؤمنين . والثاني : لو شاء لأنزل آية تضطرم إلى الإيمان . والثالث : لو شاء لاستأصلهم ، فقطع سبب شركهم . قال ابن عباس : وباقي الآية نسخ بآية السيف .

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) في سبب نزولها قولان . أحدهما : أنه لما قال للمشركين : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) قالوا : لتنهين يا محمد عن سب آل هتنا وعيها ، أو لنهجون إلهك الذي نعبد ، فزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن المسلمين كانوا يسبون أوثان الكفار ، فيردون ذلك عليهم ، فهاهم الله تعالى أن يستسبوا لرهبهم قوما جهلة لا علم لهم بالله ، قاله قتادة . ومعنى « يدعون » : يعبدون ، وهي الأصنام . (فیسبوا الله) أي : فیسبوا من أمرک بعیها ، فيعود ذلك إلى الله تعالى ، لا أنهم كانوا يصرحون بسب الله تعالى ، لأنهم كانوا يقرئون أنه خالقهم ، وإن أشركوا به ^(١) .

وقوله تعالى : (عدواً بغیر علم) ، أي : ظلماً بالجهل . وقرأ یعقوب :

(١) ومن هذا القبيل — وهو ترك المصلحة لدرء مفسدة أرجح منها — ما رواه الانعام أحمد ٤٨/١٠ ، ٤٩ ، والبخاري ٣٣٨/١٠ ، ومسلم ٩٢/١ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

«عُدُّوْا» ، بضم العين والدال وتشديد الواو . والعرب تقول في الظلم : عدا فلان عَدَّوْا وَعُدُّوْا وَعُدُّوَانَا . وعدا ، أي : ظلم .

قوله تعالى : (كذلك زينا لكل أمة عملهم) أي : كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام ، وطاعة الشيطان ، كذلك زينا لكل جماعة اجتمعت على حق أو باطل عملهم من خير أو شر . قال المفسرون : وهذه الآية نسخت بتنبيه الخطاب في آية السيف .

﴿ وَأَتَّسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأتسموا بالله جهد أيمانهم) في سبب نزولها قولان . أحدهما : أنه لما نزل في (الشعراء : ٤) : (إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً) قال المشركون : أنزلها علينا حتى والله نؤمن بها ؛ فقال المسلمون : يا رسول الله ، أنزلها عليهم لكي يؤمنوا ؛ فنزلت هذه الآية ؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : أن قريشاً قالوا : يا محمد ، تخبرنا أن موسى كان معه عصى يضرب بها الحجر ، فينفجر منها اثنتا عشرة عيناً ، وأن عيسى كان يحيي الموتى ، وأن نوحاً كانت لهم ناقة ، فائتنا بمثل هذه الآيات حتى نصدقك ؛ فقال : « أي شيء تحبون ؟ » قالوا : أن تجعل لنا الصفا ذهباً . قال : « فان فملت تصدقوني ؟ » فقالوا : نعم ، والله لئن فعلت لتبعتنك أجمعين . فقام رسول الله ﷺ يدعو ، فجاءه جبريل فقال : إن شئت أصبح الصفا ذهباً ، ولكني لم أرسل آية فلم يصدق بها ، إلا أنزلت المذاب ، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم . فقال رسول الله ﷺ : « أتركهم حتى يتوب تائبهم » ، فنزلت هذه الآية إلى قوله : (يحجلون) ، هذا قول

محمد بن كعب القرظي^(١) . وقد ذكرنا معنى (جهد أيامهم) في (المائدة) ؛ وإنا حلفوا على ما اقترحوا من الآيات ، كقولهم : (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) [الاسراء : ٩٠] .

قوله تعالى : (قل إنا الآيات عند الله) أي : هو القادر على الإتيان بها دوني ودون أحد من خلقه . (وما يشعركم أنها) أي : يدريك أنها . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم ، وخلف في اختياره : بكسر الألف ، فعلى هذه القراءة يكون الخطاب بقوله « يشعركم » للمشركين ، ويكون تمام الكلام عند قوله : (وما يُشعِرُكم) ويكون المعنى : وما يدريك أنكم تؤمنون إذا جاءت ؛ وتكون « إنها » مكسورة على الاستئناف والإخبار عن حالهم . وقال أبو علي : التقدير : وما يُشعِرُكم إيمانهم ؛ فحذف المفعول . والمعنى : لوجاهت الآية التي اقترحوها ، لم يؤمنوا . فعلى هذا يكون الخطاب للمؤمنين . قال سيبويه : سألت الخليل عن قوله : (وما يشعركم إنها) ؛ فقلت : ما منها أن تكون كقولك : ما يدريك أنه لا يفعل ؛ فقال : لا يحسن ذلك في هذا الموضع ؛ إنا قال : (وما يشعركم) ثم ابتداء فأوجب ، فقال : (إنها إذا جاءت لا يؤمنون) ولو قال : (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) ؛ كان ذلك عذراً لهم . وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم ، وحزمة ، والكسائي : « أنها » ، بفتح الألف ؛ فعلى هذا ، المخاطب بقوله : (وما يشعركم) رسول الله ﷺ وأصحابه ؛ ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : وما يدريك لعلها إذا جاءت لا يؤمنون . وفي قراءة أبي : لعلها إذا

(١) « الطبري » : ٣٨/١٢ ، وقال ابن كثير بعد أن أورده : وهذا مرسل ، وله شواهد

من وجوه أخر .

جاءت لا يؤمنون . والعرب تجمل « أن » بمعنى « لعل » . يقولون : ائت السوق
أنك تشتري لنا شيئاً ، أي : لملك .

قال عدي بن زيد :

أَعَاذِلُ مَا يُدْرِيكَ أَنْ مَنِيتِي إِلَى سَاعَةٍ فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى غَدٍ^(١)
أي : لعل منيتي . وإلى هذا المعنى ذهب الخليل ، وسيبويه ، والفراء في توجيه
هذه القراءة .

والثاني : أن المعنى : وما يدريك أنها إذا جاءت يؤمنون ، وتكون « لا »
صلة ؛ كقوله تعالى : (ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك) [الاعراف : ١٢] وقوله
تعالى : (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) [الانبياء : ٩٥] ذكره الفراء
ورده الزجاج واختار الأول . والاكثرون على قراءة : « يؤمنون » بالياء ؛ منهم
ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ؛ وقرأ ابن
عمر ، وحزرة : بالياء ، على الخطاب للمشركين . قال أبو علي : من قرأ بالياء ،
فلأنّ الذين أقسموا غيبٌ ، ومن قرأ بالياء ، فهو انصراف من الغيبة إلى الخطاب .
﴿ وَتَقْلِبُ أَفْنِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

قوله تعالى : (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم) التقلب : تحويل الشيء عن وجهه .
وفي معنى الكلام ، أربعة أقوال .

أحدها : لو أتيناكم بآية كما سألوا ، لقلبنا أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان بها ،

(١) « جبهة أشجار العرب » : ١٧٩ ، و « الشر والشراء » ١٧٨/١ ، و « اللسان » :
أنن ، وغيرها ، من قصيدة له حكيمة .

وَحُلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْهَدَى ، فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما رأوا قبلها ، عقوبة لهم على ذلك . وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد .

والثاني : أنه جواب لسؤالهم في الآخرة الرجوع إلى الدنيا ؛ فالمعنى : لو ردُّوا حُلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْهَدَى كما حُلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَمِمَّا فِي الدُّنْيَا ، روى هذا المعنى ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : وتقلب أفتدة هؤلاء وأبصارهم عن الإيمان بالآيات كما لم يؤمنوا منهم من الأمم الخالية بما رأوا من الآيات ، قاله مقاتل .

والرابع : أن ذلك التقلب في النار ، عقوبة لهم ، ذكره الماوردي . وفي هام « به » أربعة أقوال . أحدها : أنها كناية عن القرآن . والثاني : عن النبي ﷺ . والثالث : عما ظهر من الآيات . والرابع : عن التقلب . وفي المراد بـ « أول مرة » ثلاثة أقوال . أحدها : أن المرة الأولى : دار الدنيا . والثاني : أنها معجزات الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم . والثالث : أنها صرف قلوبهم عن الإيمان قبل نزول الآيات أن لو نزلت ؛ والظن بالوعد والعهدة المذكوران في سورة (البقرة) .

﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) سبب نزولها : أن المستهزئين أنوار رسول الله ﷺ في رهط من أهل مكة ، فقالوا له : ابث لنا بض موتانا حتى نسألكم : أحق ما تقول ، أم باطل ؟ أو أرننا الملائكة يشهدون لك أنك رسول الله ، أو اثنتا بالله والملائكة قبيلاً ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . ومعنى الآية : ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة كما سألوا ، وكلمهم

الموتى ، فشهدوا لك بالنبوة (وحشرنا) أي : جمعنا (عليهم كل شيء) في الدنيا (قبلًا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) ، فأخبر أن وقوع الإيمان بعشيته ، لا كما ظنوا أنهم متى شأؤوا آمنوا ، ومتى شأؤوا لم يؤمنوا . فأما قوله : « قبلًا » ، فقرأ ابن عامر ، ونافع : بكسر القاف وفتح الباء . قال ابن قتيبة : معناها : معاينة . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحزمة ، والكسائي : « قبلًا » بضم القاف والباء . وفي معناها ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه جمع قبيل ، وهو الصِّنْف ؛ فالمعنى : وحشرنا عليهم كل شيء قبيلًا قبيلًا ، قاله مجاهد ، واختاره أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه جمع قبيل أيضاً ، إلا أنه : الكفيل ؛ فالمعنى : وحشرنا عليهم كل شيء ، فكفَّلَ بصحة ما تقول ، اختاره الفراء ، وعليه اعتراض ، وهو أن يقال : إذا لم يؤمنوا بانزال الملائكة ، وتكليم الموتى ، فلا تن لا يؤمنوا بالكفالة التي هي قول ، أولى . فالجواب : أنه لو كفَّلَت الأشياء المحشورة ، فنطق ما لم ينطق ، كان ذلك آية بينة .

والثالث : أنه بمعنى المقابل ، فيكون المعنى : وحشرنا عليهم كل شيء ، فقابلهم ، قاله ابن زيد . قال أبو زيد : يقال : لقيت فلاناً قبلاً وقبلاً وقبلاً وقبلاً وقبلياً ومقابلة ، وكله واحد ، وهو للمواجهة . قال أبو علي : فالمعنى في القرآن - على ما قاله أبو زيد - واحد ، وإن اختلفت اللفاظ .

قوله تعالى : (ولكن أكثرهم يجهلون) فيه قولان .

أحدهما : يجهلون أن الأشياء لا تكون إلا بعشيئة الله تعالى .

والثاني : أنهم يجهلون أنهم لو أوتوا بكل آية ما آمنوا .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً) أي : وكما جعلنا لك ولأمتك شياطين الإنس والجن أعداء ، كذلك جعلنا لمن تقدمك من الأنبياء وأئمتهم ؛ والمعنى : كما ابتليناك بالأعداء ، ابتلينا من قبلك ، ليعظم الثواب عند الصبر على الأذى . قال الزجاج : « وعدو » : في معنى أعداء ، و« شياطين الإنس والجن » : منصوب على البذل من « عدو » ، ومفسر له ؛ ويجوز أن يكون : « عدواً » منصوب على أنه مفعول ثانٍ ، المعنى : وكذلك جعلنا شياطين الإنس والجن أعداء لأئمتهم . وفي شياطين الإنس والجن ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم مرءة الإنس والجن ، قاله الحسن ، وقتادة . والثاني : أن شياطين الإنس : الذين مع الإنس ، وشياطين الجن : الذين مع الجن ، قاله عكرمة ، والسدي . والثالث : أن شياطين الإنس والجن : كفارهم ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (يوحى) أصل الوحي : الإعلام والدلالة بستر وإخفاء . وفي المراد به هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أن معناه : يأمر . والثاني : يوسوس . والثالث : يشير .

وأما (زخرف القول) ، فهو مأزيت منه ، وحسن ، وموه ، وأصل الزخرف : الذهب . قال أبو عبيدة : كل شيء حسنه وزينته وهو باطل ، فهو زخرف . وقال الزجاج : « الزخرف » في اللغة : الزينة ؛ فالمعنى : أن بعضهم يزيت لبعض الأعمال القبيحة ؛ و« غروراً » منصوب على المصدر ؛ وهذا المصدر

محمول على المعنى ، لأن معنى إيهاء الزخرف من القول : معنى الغرور ، فكأنه قال : يَغْرُونَ غُرُورًا . وقال ابن عباس : (زخرفَ القول غروراً) : الأمانى بالباطل . قال مقاتل : وَكَلَّ إبليسُ بالإنسِ شياطينَ يُضِلُّونَهُمْ . ، فإذا التقى شيطان الإنس بشيطان الجن ، قال أحدهما لصاحبه : إني أضلت صاحبي بكذا وكذا ، فأضل أنت صاحبك بكذا وكذا ، فذلك وحي بعضهم إلى بعض . وقال غيره : إن المؤمن إذا أعيا شيطانه ، ذهب إلى متهم من الإنس ، وهو شيطان الإنس ، فأغراه بالمؤمن ليفتنه . وقال قتادة : إن من الجن شياطين ، وإن من الإنس شياطين . وقال مالك بن دينار : إن شيطان الإنس أشد علي من شيطان الجن ، لأنني إذا تعوذت من ذلك ذهب عني ، وهذا يجزئي إلى المعاصي عياناً .

قوله تعالى : (ولو شاء ربك ما فعلوه) في هاء الكناية ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى الوسوسة . والثاني : ترجع إلى الكفر . والثالث : إلى الغرور ، وأذى النبيين .

قوله تعالى : (فذرهم وما يفترون) قال مقاتل : يريد كفار مكة وما يفترون من الكذب . وقال غيره : فذر المشركين وما يخاصمونك به مما يوحي إليهم أولياؤهم ، وما يختلفون من كذب ، وهذا القدر من هذه الآية منسوخ بآية السيف .
﴿ وَلِتَنْصَبْ أَلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولتصنئ إليه) أي : ولتميل ؛ والهاء : كناية عن الزخرف والغرور . والأفئدة : جمع فؤاد ، مثل غراب وأغربة . قال ابن الأثيري : فعلنا بهم ذلك لكي نصنع إلى الباطل أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، (وليرضوا) الباطل ، (وليقترفوا) أي : ليكتسبوا ، وليعلموا ما هم عاملون .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

قوله تعالى : (أفغير الله أبغني حكماً) سبب نزولها : أن مشركي قريش قالوا للنبي ﷺ : اجعل بيننا وبينك حكماً ، إن شئت من أجبار اليهود ، وإن شئت من أجبار النصارى ، ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك ، فزلت هذه الآية ، ذكره الماوردي . فأما الحكم ، فهو بمعنى الحاكم ؛ والمعنى : أفغير الله أطلب قاضياً بيني وبينكم ؛ أو « الكتاب » : القرآن ، و« الفصل » : المبين الذي بان فيه الحق من الباطل ، والأمر من النهي ، والحلال من الحرام .

(والذين آتيناهم الكتاب) فيهم قولان .

أحدهما : علماء أهل الكتابين ، قاله الجمهور . والثاني : رؤساء أصحاب النبي محمد ﷺ ، كأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وأشباههم ، قاله عطاء .
قوله تعالى : (يعلمون أنه منزل) قرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم : « منزل » بالتشديد ؛ وخففها الباقون .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

قوله تعالى : (وتمت كلمة ربك) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، ونافع : « كلمات » على الجمع ؛ وقرأ عاصم ، وحزمة ، والكسائي ، ويعقوب : « كلمة » على التوحيد ؛ وقد ذكرت العرب الكلمة ، وأرادت الكثرة ؛ يقولون : قال قس في كلمته ، أي : في خطبته ، وزهير في كلمته ، أي : في قصيدته .

وفي المراد بهذه الكلمات ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها القرآن ، قاله قتادة . والثاني : أفضيته وعداته . والثالث :

وعده ووعيده ، وثوابه وعقابه . وفي قوله : (صدقاً وعدلاً) قولان .

أحدهما : صدقاً فيما أخبر ، وعدلاً فيما قضى وقدر . والثاني : صدقاً فيما

وعد وأوعد ، وعدلاً فيما أمر ونهى . وفي قوله : (لا مبدل لكلماته) قولان .

أحدهما : لا يقدر المفترون على الزيادة فيها والنقصان منها .

والثاني : لا خلف لمواعيده ، ولا مغير لحكمه .

﴿ وَإِنْ تَطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

إِنْ يَنْتَبِهُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإن تطع أكثر من في الأرض) سبب نزولها : أن الكفار

قالوا للمسلمين : أنا نأكلون ما نقتلهم ، ولا نأكلون ما قتل ربكم ؛ فنزلت هذه الآية ،

ذكره الفراء . والمراد بـ (أكثر من في الأرض) : الكفار . وفي ماذا يطعمهم

فيه أربعة أقوال .

أحدها : في أكل الميتة . والثاني : في أكل ما ذبحوا للأصنام . والثالث :

في عبادة الأوثان . والرابع : في اتباع ملل الآباء ؛ و (سبيل الله) : دينه . قال

ابن قتيبة : ومعنى (يخرصون) : يحدسون ويوقعون ؛ ومنه قيل للحازر : خارص .

فان قيل : كيف يجوز تعذيب من هو على ظن من شره ، وليس على يقين

من كفره ؟ ! فالجواب : أنهم لما تركوا التماس الحجّة ، وانبعثوا أهواءهم ، واقتصروا

على الظن والجهل ، عذبوا ، ذكره الزجاج .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُتَعِدِّينَ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ) قال الزجاج : موضع
« مَنْ » رفع بالابتداء ، ولفظها لفظ الاستفهام ؛ والمعنى : إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ أَيُّ
الناس يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ . وقرأ الحسن : « مَنْ يُضِلُّ » بضم الياء وكسر الضاد ،
وهي رواية ابن أبي شريح . قال أبو سليمان : ومقصود الآية : لا تلتفت إلى قسم
من أئمتهم أنه يؤمن عند مجيء الآيات ، فلن يؤمن إلا من سبق له القدر بالإيمان .

﴿ فَكُلُّوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾
قوله تعالى : (فَكُلُّوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) سبب نزولها : أن الله تعالى لما حرم
الميتة ، قال المشركون للمؤمنين : إنيكم تزعمون أنكم تمبدون الله ، فاقول الله لكم
أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم ، يريدون الميتة ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح
عن ابن عباس .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ
فُصِّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنْ كُنْتُمْ
كَافِرِينَ بِآيَاتِهِمْ يَغْفِرْ لَكُمْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُتَعِدِّينَ ﴾
قوله تعالى : (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا) قال الزجاج : المعنى : وأي شيء يقع
لكم في أن لا تأكلوا ؛ وموضع « أَنْ » نصب ، لأن « فِي » سقطت ، فوصل
المعنى إلى « أَنْ » فنصبها .

قوله تعالى : (وَقَدْ فُصِّلَ لَكُمْ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر :
« فُصِّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ » مرفوعتان ؛ وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم ،

وبمقبوب ، والقزاز عن عبد الوارث : « فَصَّلَ » بفتح الفاء ، « ما حَرَّمَ » بفتح الحاء ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « فَصَّلَ » بفتح الفاء ، « ما حَرَّمَ » بضم الحاء . قال الزجاج : أي : فَصَّلَ لكم الحلال من الحرام ، وأحل لكم في الاضطرار ما حَرَّمَ . وقال سيبيد بن جبير : فَصَّلَ لكم ما حَرَّمَ عليكم ، يعني : ما بُيِّنَ في (المائدة) من الميتة ، والدم ، إلى آخر الآية . (وإن كثيراً لَيَضْلُونَ بأهوائهم) يعني : مشركي العرب يَضْلُونَ في أمر الذبائح وغيره . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « لَيَضْلُونَ » ، وفي (يونس : ٨٨) : (ربنا لَيَضْلُوا) وفي (إبراهيم : ٣٠) : (أُنَادُوا لَيَضْلُوا) وفي (الحج : ٩) : (ثاني عطفه لَيَضْل) وفي (لقمان : ٦) : (لَيَضْل عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بغير علم) وفي (الزمر : ٨) : (أُنَادُوا لَيَضْل) بفتح الياء في هذه المواضع الستة ؛ وضممت عاصم ، وحمزة ، والكسائي . وقرأ نافع ، وابن عامر : « لَيَضْلُونَ بأهوائهم » . وفي (يونس) : (لَيَضْلُوا) بالفتح ؛ وضما ^(١) الأربعة الباقية . فمن فتح ، أراد : أنهم هم الذين ضلوا ؛ ومن ضم ، أراد : أنهم أضلوا غيرهم ، وذلك أبلغ في الضلال ، لأن كل مُضِلٍّ ضَالٌّ ؛ وليس كل ضَالٍّ مُضِلًّا .

﴿ وَذَرُّوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَذَرُّوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ) في الإثم هاهنا ثلاثة أقوال . أحدها : أنه الزنا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ فملى هذا ، في ظاهره وباطنه قولان . أحدهما : أن ظاهره : الإعلان به ، وباطنه : الاستسرار ، قاله

(١) أي : نافع ، وابن عامر المتقدم ذكرهما .

الضحك ، والسدي . قال الضحاك : وكانوا يرون الاستسرار بالزنا حلالاً . والثاني : أن ظاهره نكاح المحرمات ، كالأمهات ، والبنات ، وما نكح الآباء . وباطنه : الزنا ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : أنه عام في كل إثم . والمعنى : ذروا الماضي ، سرّها وعلايتها ؛ وهذا مذهب أبي العالية ، ومجاهد ، وقتادة ، والرجاج . وقال ابن الأنباري : المعنى : ذروا الإثم من جميع جهاته .

والثالث : أن الإثم : المنصية ^(١) ، إلا أن المراد به هاهنا أمر خاص . قال ابن زيد : ظاهره هاهنا : نزع أنوبهم ، إذ كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وباطنه : الزنا .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ
وَالشَّيَاطِينِ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ
أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) سبب نزولها : مجادلة المشركين للمؤمنين في قولهم : أأأكلون مما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله ! على ما ذكرنا في سبب قوله تعالى : (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) [الانعام : ١١٨] هذا قول ابن عباس . وقال عكرمة : كتبت فارس إلى قريش : إن محمداً وأصحابه لا يأكلون ماذبحه الله ، ويأكلون ماذبحوه لأنفسهم ؛ فكتب المشركون إلى أصحاب النبي ﷺ بذلك ، فوقع في أنفس ناسٍ من المسلمين من ذلك شيء ، فنزلت هذه الآية .

(١) روى الامام أحمد في « المستد » ١٨٢/٤ ، ومسلم في « صحيحه » ١٩٨٠/٤ عن النواس بن سمعان الأنصاري ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والاثم ؟ فقال : « البر حسن الخلق ، والاثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطالع عليه الناس » .

وفي المراد بما لم يذكر اسم الله عليه أربعة أقوال .
 أحدها : أنه الميتة ، رواه ابن جبير عن ابن عباس .
 والثاني : أنه الميتة والمنخقة ، إلى قوله : (وما ذبح على النصب) [المائدة : ٣]
 روي عن ابن عباس .
 والثالث : أنها ذبائح كانت العرب تذبحها لأوثانها ، قاله عطاء .
 والرابع : أنه عام فيما لم يسم الله عند ذبحه ؛ وإلى هذا المعنى ذهب عبد الله
 ابن يزيد الخطمي ، ومحمد بن سيرين .

❦ فصل ❦

فإن نعمد ترك التسمية ، فهل يباح ؟ فيه عن أحمد روايتان . وإن تركها
 ناسياً أيسر . وقال الشافعي : لا يحرم في الحالين جميعاً . وقال شيخنا علي بن
 عبيد الله : فإذا قلنا : إن ترك التسمية عمداً يمنع الإباحة ، فقد نسخ من هذه
 الآية ذبائح أهل الكتاب بقوله : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) [المائدة : ٥]
 وعلى قول الشافعي : الآية محكمة .

قوله تعالى : (وإنه لفسق) يعني : وإن أكل ما لم يذكر عليه اسم الله
 لفسق ، أي : خروج عن الحق والدين . وفي المراد بالشياطين هاهنا قولان .

أحدهما : أنهم شياطين الجن ، روي عن ابن عباس .
 والثاني : قوم من أهل فارس ، وقد ذكرناه عن عكرمة ؛ فلي الأول :
 وحيمهم الوسوسة ، وعلى الثاني : وحيمهم الرسالة . والمراد بـ « أولياهم » الكفار
 الذين جادلوا رسول الله ﷺ في ترك أكل الميتة . ثم فيهم قولان .

أحدهما : أنهم مشركو قريش . والثاني : اليهود ؛ (وإن أظنتم) في استحلال الميتة (إنكم لمشركون) .

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال . أحدها : أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب ، وأبي جهل ، وذلك أن أبا جهل رى رسول الله ﷺ يفرث ، وحمزة لم يؤمن بعد ، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل ، فأقبل حتى علا أبا جهل بالقوس ، فقال له : أما ترى ما جاء به ؛ سفه عقولنا ، وسب آلهتنا ، فقال حمزة : ومن أسفه منكم ؛ تمبدون الحجارة من دون الله ؛ ! أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في عمار بن ياسر ، وأبي جهل ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة .

والثالث : في عمر بن الخطاب ، وأبي جهل ، قاله زيد بن أسلم ، والضحاك .

والرابع : في النبي ﷺ ، وأبي جهل ، قاله مقاتل .

والخامس : أنها عامة في كل مؤمن وكافر ، قاله الحسن في آخرين .

وفي قوله : (كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) قولان .

أحدهما : كان ضالاً فهديناه ، قاله مجاهد .

والثاني : كان جاهلاً ، فطَمَنَاهُ ، قاله الماوردي . وقرأ نافع : « مَيْتًا » بالتشديد .
قال أبو عبيدة : الميتة ، مخففة : من مَيْتَة ، والمعنى واحد . وفي « النور » ثلاثة أقوال .
أحدها : أنه الهدى ، قاله ابن عباس . والثاني : القرآن ، قاله الحسن .
والثالث : العلم . وفي قوله : (يمشي به في الناس) ثلاثة أقوال .

أحدها : يهتدي به في الناس ، قاله مقاتل . والثاني : يمشي به بين الناس
إلى الجنة . والثالث : ينشر به دينه في الناس ، فيصير كالماشي ، ذكرهما الماوردي .
قوله تعالى : (كمن مثله) المثل : صلة ؛ والمعنى : كمن هو في الظلمات .
وقيل : المعنى : كمن لو شُبَّه بشيء ، كان شبيهه مَنْ في الظلمات . وقيل :
المراد بالظلمات هاهنا : الكفر .

قوله تعالى : (وكذلك زين) أي : كما بقي هذا في ظلماته لا يتخلص منها ،
كذلك زين (للكافرين ما كانوا يعملون) من الشرك والمعاصي .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْنَكُرُوا
فِيهَا وَمَا يَمْنَكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك جعلنا في كل قرية) أي : وكما زينا للكافرين عملهم ،
فكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ، وقيل معناه : وكما جعلنا فُسَّاقَ مَكَّةَ
أكبرها ، فكذلك جعلنا فُسَّاقَ كل قرية أكبرها . وإنما جعل الأكابر فُسَّاقَ
كل قرية ، لأنهم أقرب إلى الكفر بما أعطوا من الرياسة والسعة . وقال
ابن قتيبة : تقدير الآية : وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر ؛ و«أكابر» لا ينصرف ،
ومع المظاء .

قوله تعالى : (ليمكروا فيها) قال أبو عبيدة : المكر : الخديعة ، والحيلة ،

والفجور، والغدر، والخلاف . قال ابن عباس : ليقولوا فيها الكذب . قال مجاهد :
أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة ، ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ ،
يقولون للناس : هذا شاعر ، وكاهن .

قوله تعالى : (وما يعكرون إلا بأنفسهم) أي : ذلك المكر بهم يحق .

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ، اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا جاءتهم آية) سبب نزولها : أن أبا جهل قال : زاحتنا
بنو عبد مناف في الشرف ، حتى إذا صرنا كفرسي رهان ، قالوا : من أنبي
يوحى إليه . والله لا تؤمن به ولا تتبعه أو أن يأتينا وحي كما يأتيه ، فنزلت
هذه الآية ، قاله مقاتل . قال الزجاج : الهاء والميم تعود على الأكابر الذين جرى
ذكرهم . وقال أبو سليمان : تعود على المجادلين في تحريم الميتة . قال مقاتل : والآية :
انشقاق القمر ، والبدخان . قال ابن عباس في قوله : (مثل ما أوتي رسل الله)
قال : حتى يوحى إلينا ، ويأتينا جبريل ، فيخبرنا أن محمداً صادق . قال الضحاك :
سأل كل واحد منهم أن يختص بالرسالة والوحي .

قوله تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقرأ ابن كثير ، وحفص عن
عاصم : « رسالته » بنصب التاء على التوحيد ؛ والمعنى : أنهم ليسوا لها بأهل ،
وذلك أن الوليد بن المغيرة قال : والله لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك ،
لأنني أكبر منك سنًا ، وأكثر منك مالاً ، فنزل قوله تعالى : (الله أعلم حيث
يجعل رسالته) . وقال أهل المعاني : الأبلغ في تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل

مبعثهم مطاعين في قومهم ، لأن الطمن كان يتوجه عليهم ، فيقال : إنما كانوا رؤساء فانشبعوا ، فكان الله أعلم حيث جعل الرسالة ليتيم أبي طالب ، دون أبي جهل ، والوليد ، وأكابر مكة .

قوله تعالى : (سيصيب الذين أجرموا صغار) قال أبو عبيدة : الصغار : أشد الل . وقال الزجاج : المعنى : هم ، وإن كانوا أكابر في الدنيا ، فسيصيبهم صغار عند الله ، أي : صغار ثابت لهم عند الله . وجائز أن يكون المعنى : سيصيبهم عند الله صغار . وقال الفراء : معناه : صغار من عند الله ، فحذفت « من » . وقال أبو روق : صغار في الدنيا ، وعذاب شديد في الآخرة .

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه) قال مقاتل : نزلت في رسول الله ﷺ ، وأبي جهل .

قوله تعالى : (بشرح صدره) قال ابن الأعرابي : الشرح : الفتح . قال ابن قتيبة : ومنه يقال : شرحت لك الأمر ، وشرحت اللحم : إذا فتحت . وقال : ابن عباس : « بشرح صدره » أي : بوسع قلبه للتوحيد والإيمان . وقد روى ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ : (فمن يرد الله أن يهديه بشرح صدره للإسلام) ، فقل له : يا رسول الله ، وما هذا الشرح ؟ قال : « نور يقذفه الله في القلب ، فينفخ القلب » . قالوا : فهل لذلك من أمانة ؟ قال : « نعم » . قيل : وما هي ؟

قال : « الإنبابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله » ^(١) .

قوله تعالى : (ضيقاً) قرأ الآكثرون بالتشديد . وقرأ ابن كثير : « ضَيْقاً » ، وفي (الفرقان : ١٣) : (مكاناً ضَيْقاً) بتسكين الياء خفيفة . قال أبو علي : الضَيْقُ ، والضَيْقُ : مثل الميت ، والميت .

قوله تعالى : (حرجاً) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي : (حَرَجاً) بفتح الراء . وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : بكسر الراء . قال الفراء : وهما لغتان . وكذلك قال يونس بن حبيب النحوي : هما لغتان ، إلا أن الفتح أكثر على ألسنة العرب من الكسر ، ومجراها مجرى الدَّئِفِ والدَّئِفِ . وقال الزجاج : الحرج في اللغة : أضيّق الضيق .

قوله تعالى : (كأنما يصاعد) قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي : « يصْعَد » بتشديد الصاد والعين وفتح الصاد من غير ألف . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « يصْاعِد » بتشديد الصاد وبعدها ألف . وقرأ ابن كثير : « يَصْعَد » بتخفيف الصاد والعين من غير ألف والصاد ساكنة . وقرأ ابن مسعود ، وطلحة : « نصْعَدُ » بتاء من غير ألف . وقرأ أبي بن كعب : « يتصاعد » بألف وتاء . قال الزجاج : قوله : (كأنما يصاعد في السماء) . و« يصْعَد » ، أصله : « يتصاعد » ، و« يتصعد » ، إلا أن التاء تدغم في الصاد

(١) « الطبري » ١٢ / ١٠٠ ، ١٠١ من طريقين عن عبد الله بن مسعود ، وكلاهما ضعيف ، وأورده ابن كثير ١٧٤ / ٢ ، بعد أن ذكره من طريق مرسل عن أبي جعفر الهاشمي ، وقال : فهذه طرق لهذا الحديث مرسله ومتصلة يشد بعضها بعضاً ، وانظر تطبيق الأستاذ محمود شاكر على الحديث في « تفسير الطبري » ٩٩ / ١٢ ، ١٠٣ .

لقربها منها ، والمعنى : كأنه قد كُلف أن يصنعَ إلى السماء إذا دعي إلى الإسلام من ضيق صدره عنه . ويجوز أن يكون المعنى : كأن قلبه يصعد في السماء بُنُوًّا عن الإسلام والحكمة . وقال الفراء : ضاق عليه المذهب ، فلم يجد إلا أن يصعد في السماء ، وليس يقدر على ذلك . وقال أبو علي : « يَصْعَدُ » و « وَيَصْأَعِدُ » : من المشقة ، وصعوبة الشيء ، ومنه قول عمر : ما تَصْعَدُنِي شيءٌ كما تَصْعَدُنِي خطبة النكاح ، أي : ما شق عليَّ شيءٌ مشقتها .

قوله تعالى : (كذلك) أي : مثل ما قصصنا عليك . (يَجْمَلُ الله الرجس) وفيه خمسة أقوال .

أحدها : أنه الشيطان ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . يعني : أن الله يسلطه عليهم .

والثاني : أنه المأثم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أنه مالا خير فيه ، قاله مجاهد .

والرابع : أنه العذاب ، قاله عطاء ، وابن زيد ، وأبو عبيدة .

والخامس : أنه اللعنة في الدنيا والمذاب في الآخرة ، قاله الزجاج . وهذه

الآية تقطع كلام القدريّة ، إذ قد صرحت بأن الهداية والإضلال متعلقة بإرادة الله تعالى .

﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهذا صراط ربك) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه القرآن ، قاله ابن مسعود . والثاني : التوحيد ، قاله ابن عباس .

والثالث : ما هو عليه من الدين ، قاله عطاء . ومعنى استقامته : أنه يؤدي بسالكه إلى الفوز . قال مكي بن أبي طالب : و«مستقيماً» : نصب على الحال من «صراط» ، وهذه الحال يقال لها : الحال المؤكدة ، لأن صراط الله ، لا يكون إلا مستقيماً ، ولم يؤت بها لتفرق بين حالتين ، إذ لا يتغير صراط الله عن الاستقامة أبداً ، وليست هذه الحال كالحال من قولك : « هذا زيد راكباً » ، لأن زيدا قد يخلو من الركوب .

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (لهم دار السلام) يعني الجنة . وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال . أحدها : أن السلام ، هو الله ، وهي داره ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : أنها دار السلامة التي لا تنقطع ، قاله الزجاج .

والثالث : أن نعمة أهلها فيها السلام ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

والرابع : أن يبع حالاتها مقرونة بالسلام ، ففي ابتداء دخولهم : (ادخلوها بسلام) [الحجر : ٤٦] ، وبعد استقرارهم : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليهم) [الرعد : ٢٣ ، ٢٤] . وقوله : (إلا قليلاً سلاماً سلاماً) [الواقعة : ٢٥] ، وعند لقاء الله (سلام قولاً من رب رحيم) ، [يس : ٥٨] ، وقوله : (تحييتهم يوم يلقونه سلام) [الأحزاب : ٤٤] . ومعنى : (عند ربهم) أي : مضمونة لهم عنده ، (وهو وليهم) أي : متولي إيصال المنافع إليهم ، ودفع المضار عنهم . (بما كانوا يعملون) من الطاعات .

﴿ وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً) يعني الجن والإنس . وقرأ حفص عن عاصم : « يحشرهم » بالياء . قال أبو سليمان : يعني : المشركين وشياطينهم الذين كانوا يوحون إليهم بالمجادلة لكم فيما حرّمه الله من الميتة .

قوله تعالى : (يامعشر الجن) فيه إضمار ، فيقال لهم : يامعشر ؛ والمعشر : الجماعة ، أمرهم واحد ، والجمع : الماشر .

وقوله : (قد استكثرتم من الإنس) أي : من إغوائهم وإضلالهم . (وقال أولياؤهم من الإنس) يعني الذين أضلهم الجن . (ربنا استمتع بعضنا ببعض) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن استمتع الإنس بالجن : أنهم كانوا إذا سافروا ، فنزلوا وادياً ، وأرادوا ميّتاً ، قال أحدهم : أعوذ بمظلم هذا الوادي من شر أهله ؛ واستمتع الجن بالإنس : أنهم كانوا يفخرون على قومهم ، ويقولون : قد سدنا الإنس حتى صاروا يموذون بنا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل ، والفرّاء .

والثاني : أن استمتع الجن بالإنس : طاعتهم لهم فيما يغرونهم به من الضلالة والكفر والمعاصي . واستمتع الإنس بالجن : أن الجن زيّنت لهم الأمور التي يهوّنونها ، وشهّوها إليهم حتى سهل عليهم فعلها ، روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس ، وبه قال محمد بن كعب ، والزجاج .

والثالث : أن استمتع الجن بالإنس : إغواؤهم إياهم . واستمتع الإنس بالجن : ما يثقلون منهم من السحر والكهانة ونحو ذلك . والمراد بالجن في هذه الآية : الشياطين .

قوله تعالى : (ولبئنا أجلنا الذي أجّلت لنا) فيه قولان .

أحدهما : الموت ، قاله الحسن ، والسني . والثاني : الحشر ، ذكره الماوردي .
قوله تعالى : (قال النار مثواكم) قال الزجاج : المثوى : المقام ؛ و« خالدين » منصوب على الحال . المعنى : النار مقامكم في حال خلود دائم (إلا ما شاء الله) هو استثناء من يوم القيامة ، والمعنى : (خالدين فيها) مذيبتون (إلا ما شاء الله) من مقدار حشرهم من قبورهم ، ومدتهم في عاصبتهم . ويجوز أن تكون (إلا ما شاء الله) أن يزيد من المذاب . وقال بعضهم : إلا ما شاء الله من كونهم في الدنيا بغير عذاب ؛ وقيل في هذا غير قول ، ستجدها مشروحة في (هود) . إن شاء الله .

﴿ وَكَذَلِكَ نُؤْتِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك نؤتي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) .
أحدها : نجعل بعضهم أولياء بعض ، رواه سعيد عن قتادة .

والثاني : مُتَّبِعُ بعضهم بعضاً في النار بأعمالهم من الموالاة ، وهي المتابعة ، رواه معمر عن قتادة .

والثالث : نسلط بعضهم على بعض ، قاله ابن زيد .

والرابع : نكل بعضهم إلى بعض ولا نعينهم ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (بما كانوا يكسبون) أي : من المعاصي .

﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم) قرأ الحسن ، وقطادة : « تأتكم » بالثاء ، (رسل منكم) . واختلفوا في الرسالة إلى الجن على أربعة أقوال .

أحدها : أن الرسل كانت نبئت إلى الإنس خاصة ، وأن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى الإنس والجن ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن رسل الجن ، هم الذين سمعوا القرآن ، فولسوا إلى قومهم منذرين ، روي عن ابن عباس أيضاً . وقال مجاهد : الرسل من الإنس ، والنذر من الجن ، وهم قوم يسمعون كلام الرسل ، فيبليغون الجن ما سمعوا .

والثالث : أن الله تعالى بعث إليهم رسلاً منهم ، كما بعث إلى الإنس رسلاً منهم ، قاله الضحاك ، ومقاتل ، وأبو سليمان ، وهو ظاهر الكلام .

والرابع : أن الله تعالى لم يبعث إليهم رسلاً منهم ، وإنما جاءتهم رسل الإنس ، قاله ابن جريج ، والفراء ، والزجاج . قالوا : ولا يكون الجمع في قوله : (ألم يأتكم رسل منكم) مانعاً أن تكون الرسل من أحد الفريقين ، كقوله تعالى : (يخرج منها للؤلؤ والمرجان) [الرحمن : ٢٢] ، وإنما هو خارج من الملح وحده .

وفي دخول الجن الجنة إذا آمنوا قولان .

أحدهما : يدخلونها ، ويأكلون ويشربون ، قاله الضحاك .

والثاني : أن ثوابهم أن يجادوا من النار ويصبروا تراباً ، رواه سفيان عن ليث .

فوله تعالى : (يَتَّبِعُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي) أي : يقرءون عليكم كتي . (وينذرونكم) أي : يخوفونكم يوم القيامة . وفي قوله : (شهدنا على أنفسنا) قولان . أحدهما : أقررنا على أنفسنا بأنذار الرسل لنا .

والثاني : شهد بضمنا على بعض بأنذار الرسل لإيام . ثم أخبرنا الله تعالى بحالهم ، فقال : (وغرَّتهم الحياة الدنيا) أي : بزينتها ، وإمهاهم فيها . (وشهدوا على أنفسهم) أي : أقرؤا أنهم كانوا في الدنيا كافرين . وقال مقاتل : ذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر .

﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُنْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾

فوله تعالى : (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم) قال الزجاج : ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل ، وأمر عذاب من كذب ، لأنه لم يكن ربك مهلك القرى بظلم ، أي : لا يهلككم حتى يبعث إليهم رسولا . قال ابن عباس : « بظلم » أي : بشرك (وأهلها غافلون) لم يأتهم رسول .

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

فوله تعالى : (ولكل درجات مما عملوا) أي : لكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات ، أي : منازل يبلغها بعمله ، إن كان خيراً فخيراً ، وإن كان شراً فشراً . وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانخفاض ، كتفاضل الدرج .

فوله تعالى : (عما يعملون) قرأ الجمهور بالياء ؛ وقرأ ابن عامر بالتاء على الخطاب .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَ كُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ . إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾

قوله تعالى : (وربك النفي) يريد : النفي عن خلقه (ذو الرحمة) قال ابن عباس : بأوليائه وأهل طاعته . وقال غيره : بالكل . ومن رحمته تأخير الانتقام من المخالفين . (إن يشأ يذهبكم) بالهلاك ؛ وقيل : هذا الوعيد لأهل مكة ؛ (وبستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم) أي : ابتداءكم (من ذرية قوم آخرين) يعني : آباءهم الماضين . (إن ما توعدون) به من مجيء الساعة والحشر (لآت وما أنتم بمعجزين) أي : بفائتين . قال أبو عبيدة : يقال : أعجزني كذا ، أي : فاني وسبقني .

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (على مكانتكم) وقرأ أبو بكر عن عاصم : « مكاناتكم » على الجمع قال ابن تتيبة : أي : على مواضعكم ، يقال : مكان ومكانة ، ومنزل ومنزلة . وقال الزجاج : اعملوا على تمكينكم . قال : ويجوز أن يكون المعنى : اعملوا على ما أنتم عليه . تقول للرجل إذا أمرته أن يثبت على حال : كن على مكانتك .

قوله تعالى : (إني عامل) أي : عامل ما أمرني به ربي (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : « تكون » بالياء . وقرأ حمزة ، والكسائي : بالياء . وكذلك خلافهم في (القصص : ٣٧) ، ووجه التأنيث ، اللفظ ، ووجه التذكير ، أنه ليس بتأنيث حقيقي . وعاقبة الدار : الجنة . والظالمون هاهنا : المشركون . فان قيل : ظاهر هذه الآية أمرهم بالاقامة على ما هم عليه ، وذلك لا يجوز . فالجواب : أن معنى هذا الأمر المبالغة في الوعيد ؛ فكأنه قال : أقيموا على ما أنتم عليه ، إن رضيت بالعذاب ، قاله الزجاج .

﴿ فصل ﴾

وفي هذه الآية قولان .

أحدهما : أن المراد بها التهديد ؛ فعلى هذا هي حكمة .

والثاني : أن المراد بها ترك القتال ؛ فعلى هذا هي منسوخة بآية السيف .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ) قال ابن قتيبة : ذرأ ، بمعنى خلق . (من الحرث) وهو الزرع . (والأنعام) : الإبل والبقر والغنم . وكانوا إذا زرعوا ، خطوا خطأ ، فقالوا : هذا لله ، وهذا لآلهتنا ، فاذا حصدوا ما جعلوه لله ، فوقع منه شيء فيما جعلوه لآلهتهم ، تركوه وقالوا : هي إليه محتاجة ؛ وإذا حصدوا ما جعلوه لآلهتهم ، فوقع منه شيء في مال الله ، أعادوه إلى موضعه . وكانوا يحملون من الأنعام شيئاً لله ؛ فاذا ولدت إناثها ميتة أكلوه ، وإذا ولدت أنعام آلهتهم ميتة عظموه فلم يأكلوه . وقال الزجاج : معنى الآية : وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، وجعلوا لشركائهم نصيباً ، يدل عليه قوله تعالى : (فقالوا هذا لله بزعْمِهِمْ وهذا لشركائنا) ، فدل بالإشارة إلى النصيبين على نصيب الشركاء ؛ وكانوا إذا زكا ما لله ، ولم يزك ما لشركائهم ، ردوا الزكاة على أصنامهم ، وقالوا : هذه أحوج ، والله غني ؛ وإذا زكا ما للأصنام ، ولم يزك ما لله ، أقروه على ما به . قال

المفسرون : وكانوا يَصْرِفُونَ ما جملوا لله إلى الضيفان والمساكين . فمضى قوله :
(فلا يصل إلى الله) أي : إلى هؤلاء . ويصرفون نصيب آلتهم في الزرع إلى
النفقة على جُذامها . فأما نصيبها في الأنعام ، ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان للنفقة عليها أيضاً . والثاني : أنهم كانوا يتقربون به ،
فيذبحونه لها . والثالث : أنه البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام . وقال الحسن :
كان إذا هلك مالا وثانهم غَرِمُوهُ ، وإذا هلك ما لله لم يَغْرَمُوهُ . وقال ابن زيد :
كانوا لا يأكلون ما جملوه لله حتى يذكروا عليه اسم أوثانهم ، ولا يذكرون الله
على ما جملوه للأوثان . فأما قوله : « بزعمهم » فقرأ الجمهور : بفتح الزاي ؛ وقرأ
الكسائي ، والأعمش : بضمها . وفي الزعم ثلاث لغات : ضم الزاي ، وفتحها ،
وكسرها . ومثله : السَّقَط ، والسَقَط ، والسَقَط ؛ والفَتَك ، والفَتَك ، والفَتَك ؛
والزَّعم ، والزَّعم ، والزَّعم . قال الفراء : فتح الزاي في الزَّعم ، لأهل الحجاز ؛
وضمها لأسد ؛ وكسرها لبعض قيس فيما يحكي الكسائي .

﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ
شُرَكَاءُهُمْ لِبُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك زين) أي : ومثل ذلك الفعل القبيح فيما قسموا بالجهل
زَيْنَ . قال ابن الأثير : ويجوز أن يكون « وكذلك » مستأنفاً ، غير مشارٍ به
إلى ما قبله ؛ فيكون المعنى : وهكذا زَيْنَ . وقرأ الجمهور : « زَيْنَ » بفتح الزاي
والياء ، ونصب اللام من « قَتَلَ » ، وكسر الدال من « أولادهم » ، ورفع
« الشركاء » ؛ وجه هذه القراءة ظاهر . وقرأ ابن عامر : بضم زاي « زَيْنَ » ،
زاد المير ٣ م (٩)

ورفع اللام [من « قتل »] ، ونصب الدال من « أولادهم » ، وخفض « الشركاء » .
قال أبو علي : ومعناها : قتل شركائهم أولادهم ؛ ففصل بين المضاف والمضاف
إليه بالمفعول به ، وهذا قبيح ، قليل في الاستعمال : وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ،
والحسن : « زَيْنَ » بالرفع ، « قتل » بالرفع أيضاً ، « أولادهم » بالجر ، « شركائهم »
رفعاً . قال الفراء : رفع القتل إذ لم يسم فاعله ؛ ورفع الشركاء بفعل نواه ، كأنه
قال : زينته لهم شركائهم . وكذلك قال سيبويه في هذه القراءة ؛ قال : كأنه قيل :
من زينته ؛ فقال : شركائهم . قال مكي بن أبي طالب : وقد روي عن ابن عامر
أيضاً أنه قرأ بضم الزاي ، ورفع اللام ، وخفض الأولاد والشركاء ؛ فيصير الشركاء
اسماً للأولاد ، لمشاركتهم للآباء في النسب والميراث والدين .

وللمفسرين في المراد بشركائهم أربعة أقوال .

أحدها : أنهم الشياطين ، قاله الحسن ، وبجاهد ، والسدي . والثاني : شركائهم
في الشرك ، قاله قتادة . والثالث : قوم كانوا يخدمون الأوثان ، قاله الفراء ،
والزجاج . والرابع : أنهم الغواة من الناس ، ذكره الماوردي . وإنما أضيف الشركاء
إليهم ، لأنهم هم الذين اختلقوا ذلك وزعموه .

وفي الذي زينوه لهم من قتل أولادهم قولان .

أحدهما : أنه وأد البنات أحياء خيفة الفقر ، قاله بجاهد .

والثاني : أنه كان يحلف أحدهم أنه إن ولد له كذا وكذا غلاماً أن ينحر أحدهم ،
كما حلف عبد المطلب في نحر عبد الله ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

قوله تعالى : (ليردوهم) أي : ليهلكوهم . وفي هذه اللام قولان .

أحدهما : أنها لام « كي » . والثاني : أنها لام العاقبة ، كقوله : (ليكون
لهم عدواً) [القصص : ٨] أي : آل أمرهم إلى الردى ، لا أنهم قصدوا ذلك .

قوله تعالى : (وَلْيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ) أي : ليخطوا . قال ابن عباس : ليُدخلوا عليهم الشك في دينهم ؛ وكانوا على دين إسماعيل ، فرجعوا عنه بتزيين الشياطين . قوله تعالى : (فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية إذا دفنوا بناتهم قالوا : إن الله أمرنا بذلك ؛ فقال : (فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) ؛ أي : يكذبون ؛ وهذا تهديد ووعيد ، فهو محكم . وقال قوم : مقصوده ترك قتالهم ، فهو منسوخ بآية السيف .

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرٌ) الحرت : الزرع ، والحجر : الحرام ؛ والمعنى : أنهم حرّموا أنعاماً وحرثوا جملوه لأصنامهم . قال ابن قتيبة : وإنما قيل للحرام : حجر ، لأنه حُجر على الناس أن يصيبوه . وقرأ الحسن ، وقتادة : « حُجْر » بضم الحاء . قال الفراء : يقال : حِجْر ، وحُجْر ، بكسر الحاء وضمتها ؛ وهي في قراءة ابن مسعود : « حرج » ، مثل : « جذب » و « جبذ » .

وفي هذه الأنعام التي جعلوها للأصنام قولان .

أحدهما : أنها البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام .

والثاني : أنها الذبائح التي للأوثان ؛ وقد سبق ذكرهما .

قوله تعالى : (لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ) هو كقولك : لا يذوقها إلا من يريد .
وفيمن أطلقوا له تناولها قولان .

أحدهما : أنهم منَعُوا منها النساء ، وجعلوها للرجال ، قاله ابن السائب .

والثاني : عكسه ، قاله ابن زيد . قال الزجاج : أعلم الله تعالى أن هذا التحريم زعم منهم ، لا حجة فيه ولا برهان .

وفي قوله : (وأنعام حُرِّمَتْ ظهورها) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الحام ، قاله ابن عباس . والثاني : البحيرة ، كانوا لا يحجون عليها ، قاله أبو وائل . والثالث : البحيرة ، والسائبة ، والحام ، قاله السدي .

قوله تعالى : (وأنعام لا يذكر اسم الله عليها) هي قربان آلهتهم ، يذكرون عليها اسم الأوثان خاصة . وقال أبو وائل : هي التي كانوا لا يحجون عليها ؛ وقد ذكرنا هذا عنه في قوله : (حُرِّمَتْ ظهورها) ، فعلى قوله ، الصفتان لموصوف واحد . وقال مجاهد : كان من إبلهم طائفة لا يذكر اسم الله عليها في شيء ؛ لا إن ركبوا ، ولا إن حملوا ، ولا إن حلبوا ، ولا إن تُتَجِّوا . وفي قوله : (اقتراء على الله) قولان . أحدهما : أن ذكر أسماء أوثانهم وترك ذكر الله ، هو الاقتراء .

والثاني : أن إضافتهم ذلك إلى الله تعالى ، هو الاقتراء ؛ لأنهم كانوا يقولون : هو حرم ذلك .

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كُفِّرْنَا وَحُرِّمَ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا ما في بطون هذه الأنعام) يعني بالأنعام : المحرمات عندهم ، من البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة . والمفسرين في المراد بما في بطونها ثلاثة أقوال . أحدها : أنه اللبن ، قاله ابن عباس ، وقتادة . والثاني : الأجنة ، قاله مجاهد . والثالث : الولد واللبن ، قاله السدي ، ومقاتل .

قوله تعالى : (خالصة لذكورنا) قرأ الجمهور : « خالصة » على لفظ التأنيث .
وفيها أربعة أوجه .

أحدها : أنه إنما أثبت ، لأن الانعام مؤنثة ، وما في بطونها مثلها ، قاله الفراء .
والثاني : أن معنى « ما » التأنيث ، لأنها في معنى الجماعة ؛ فكأنه قال :
جماعة ما في بطون هذه الانعام خالصة ، قاله الزجاج .

والثالث : أن الهاء دخلت للمبالغة في الوصف ، كما قالوا : « علامة » و « نسيابة » .
والرابع : أنه أُجري مجرى المصادر التي تكون بلفظ التأنيث عن الأسماء
المذكورة ، كقولك : عطائك عافية ، والرخص نمرة ، ذكرها ابن الأنباري . وقرأ
ابن مسعود ، وأبو العالية ، والضحاك ، والأعمش ، وابن أبي عملة : « خالص »
بالرفع ، من غير هاء . قال الفراء : وإنما ذكر لذكور « ما » . وقرأ ابن عباس ،
وأبو دزين ، وعكرمة ، وابن يمر : « خالصة » برفع الصاد والهاء على ضمير
مذكر ، قال الزجاج : والمعنى : ما خاص حياً . وقرأ قتادة : « خالصة » بالنصب .
فأما الذكور ، فهم الرجال ، والأزواج النساء .

قوله تعالى : (وإن يكن ميتة) قرأ الأكثرون : « يكن » بالياء ، « ميتة »
بالنصب ؛ وذلك مردود على لفظ « ما » . المعنى : وإن يكن ما في بطون هذه
الانعام ميتة . وقرأ ابن كثير : « يكن » بالياء ، « ميتة » بالرفع . وافقه ابن
عاصم في رفع الميتة ؛ غير أنه قرأ : « تكن » بالتاء . والمعنى : وإن تحدث وتقع ،
فجعل « كان » : تامة لا تحتاج إلى خبر . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « تكن »
بالتاء ، « ميتة » بالنصب . والمعنى : وإن تكن الانعام التي في البطون ميتة .

قوله تعالى : (فهم فيه شركاء) يعني الرجال والنساء . (سيجزيهم وصفهم)
قال الزجاج : أراد جزاء وصفهم الذي هو كذب .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

قوله تعالى : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم) وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : « قتلوا » بالتشديد . قال ابن عباس : نزلت في ريعة ، ومضر ، والذين كانوا يدفنون بناتهم أحياء في الجاهلية من العرب . وقال قتادة : كان أهل الجاهلية يقتل أحدهم بنته مخافة السبي والفاقة ، ويغذو كلبه . وقال الزجاج : وقوله : « سفهاً » منصوب على معنى اللام ، تقديره : للسفه ؛ تقول : فعلت ذلك حذر الشر . وقرأ ابن السميع ، والجحدري ، ومعاذ القاري : « سفهاء » برفع السين وفتح الفاء والهاء وبالمدة وبالنصب والهمز .

قوله تعالى : (بغير علم أي : كانوا يفعلون ذلك للسفه من غير أن أناهم علم في ذلك ، وحرّموا ما رزقهم الله من الأنعام والحرث ، وزعموا أن الله أمرهم بذلك . وهو الذي أنشأ جنّات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابهه كلوا من ثمره إذا أثمر وآثروا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي أنشأ جنّات معروشات وغير معروشات) فيه أربعة أقوال . أحدها : أن المعروشات ما انبسط على وجه الأرض ، فانتشر مما يعمّش ، كالكرم ، والقرع ، والبطيخ ؛ وغير معروشات : ما قام على ساق ، كالنخل ، والزرع ، وسائر الأشجار .

والثاني : أن المعروشات : ما أنبتته الناس ؛ وغير معروشات : ما خرج في البراري والجبال من الثمار ، روي عن ابن عباس .

والثالث : أن المروشات ، وغير المروشات : الكرم ، منه ما عرّش ، ومنه ما لم يعرّش ، قاله الضحاك .

والرابع : أن المروشات : الكروم التي قد عُرّشَ عنها ، وغير المروشات : سائر الشجر التي لا تُعْرّش ، قاله أبو عبيدة . والأُكُلُ : الثمر . (والزيتون والزمان متشابهان) ، قد سبق تفسيره .

قوله تعالى : (كلوا من ثمره إذا أثمر) هذا أمر إباحة ؛ وقيل : إنما قدّم الأكل لينهى عن فعل الجاهلية في زروعهم من تحريم بعضها .

قوله تعالى : (وآتوا حقه يوم حصاده) قرأ ابن عامر ، وعاصم ، وأبو عمرو : بفتح الحاء ، وهي لغة أهل نجد ، وتميم . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وحزرة ، والكسائي : بكسرهما ، وهي لغة أهل الحجاز ، ذكره الفراء .

وفي المراد بهذا الحق قولان .

أحدهما : أنه الزكاة ، روي عن أنس بن مالك ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والحسن ، وطاووس ، وجابر بن زيد ، وابن الحنفية ، وقتادة في آخرين ؛ فعلى هذا ، الآية محكمة .

والثاني : أنه حق غير الزكاة يُفرض يوم الحصاد ، وهو إطعام من حضر ، وترك ما سقط من الزرع والثمر ، قاله عطاء ، ومجاهد . وهل يُنسخ ذلك ، أم لا ؟ إن قلنا : إنه أمر وجوب ، فهو منسوخ بالزكاة ؛ وإن قلنا : إنه أمر استحباب ، فهو باقٍ الحكم .

فإن قيل : هل يجب إيتاء الحق يوم الحصاد ؟ فالجواب : إن قلنا : إنه إطعام من حضر من الفقراء ، فذلك يكون يوم الحصاد ؛ وإن قلنا : إنه الزكاة ، فقد ذُكرت عنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن الأمر بالإيتاء محمول على النخيل ، لأن صدقتها تجب يوم الحصاد .
فأما الزروع ، فالأمر بالإيتاء منها محمول على وجوب الإخراج ؛ إلا أنه لا يمكن
ذلك عند الحصاد ، فيؤخر إلى زمان التنقية ، ذكره بعض السلف .

والثاني : أن اليوم ظرف للحق ، لا للإيتاء ؛ فكأنه قال : وآتوا حقه الذي
وجب يوم حصاده بعد التنقية .

والثالث : أن فائدة ذكر الحصاد أن الحق لا يجب فيه بنفس خروجه
وبلوغه ؛ وإنما يجب يوم حصوله في يد صاحبه . وقد كان يجوز أن يتوهم أن الحق
يلزم بنفس نباته قبل قطعه ، فأفادت الآية أن الوجوب فيما يحصل في اليد ، دون
ما يتلف ، ذكر الجوابين القاضي أبو يعلى . وفي قوله : (ولا تسرفوا) ستة أقوال .
أحدها : أنه تجاوز المفروض في الزكاة إلى حدٍ يحجب به ، قاله أبو العالية ،
وابن جريج . وروى أبو صالح عن ابن عباس : أن ثابت بن قيس بن شماس
صرم خمسمائة نخلة ، ثم قسمها في يوم واحد ، فأمسى ولم يترك لأهله شيئاً ، فكره
الله تعالى له ذلك ، فنزلت : (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) .

والثاني : أن الإسراف : منع الصدقة الواجبة ، قاله سعيد بن المسيب .

والثالث : أنه الإلتفاف في المعصية ، قاله مجاهد ، والزهري .

والرابع : أنه إشراك الآلهة في الحرث والأنعام ، قاله عطية العوفي ،

وابن السائب .

والخامس : أنه خطاب للسلطان لئلا يأخذ فوق الواجب من الصدقة ، قاله ابن زيد .

والسادس : أنه الإسراف في الأكل قبل أداء الزكاة ، قاله ابن بحر .

﴿ وَمِنَ الْإِنْعَامِ حُمُولَةً وَفَرَشًا كُلُّوْا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

قوله تعالى : (ومن الأنعام حمولة وفرشا) هذا نسق على ما قبله ؛ والمعنى : أنشأ جنات ، وأنشأ حمولة وفرشا . وفي ذلك خمسة أقوال .

أحدها : أن الحمولة : ما حمل من الإبل ، والفرش : صنارها ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد ، وابن قتيبة .

والثاني : أن الحمولة : ما انتفعت بظهورها ، والفرش : الراعية ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : أن الحمولة : الإبل ، والخليل ، والبغال ، والحمير ، وكل شيء يحمل عليه . والفرش : النعم : رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والرابع : الحمولة : من الإبل ، والفرش : من النعم ، قاله الضحاك .

والخامس : الحمولة : الإبل والبقر . والفرش : النعم ، وما لا يحمل عليه من الإبل ، قاله قتادة . وقرأ عكرمة ، وأبو التوكل ، وأبو الجوزاء : « حُمولة » بضم الحاء .

قوله تعالى : (كلوا مما رزقكم الله) قال الزجاج : المعنى : لا تحرموا ما حرمتم مما جرى ذكره ، (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أي : طرده . قال : وقوله : (ثمانية أزواج) بدل من قوله : (حمولة وفرشا) . والزوج ، في اللغة : الواحد الذي يكون معه آخر . قال المصنف : وهذا كلام يقتدر إلى تمام ، وهو أن يقال : الزوج : ما كان معه آخر من جنسه ، فحينئذ يقال لكل واحد منهما : زوج .

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ
 اللَّهُ كَرِيمٌ حَرَّمَ أُمَ الْإِثْمَيْنِ أَمَّا اسْتَمْلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِثْمَيْنِ
 تَبَيَّنَ لِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ
 اثْنَيْنِ قُلْ اللَّهُ كَرِيمٌ حَرَّمَ أُمَ الْإِثْمَيْنِ أَمَّا اسْتَمْلَتْ عَلَيْهِ
 أَرْحَامُ الْإِثْمَيْنِ أَم كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَن أَظْلَمُ
 مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (من الضأن اثنين) الضأن : ذوات الصوف من الغنم ، والمعز :
 ذوات الشعر منها . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « المعز » بفتح
 العين . وقرأ نافع ، وحمة ، وعاصم ، والكسائي : بتسكين العين . والمراد بالإثمين
 الذكر والأنثى . (قل الذكراين) من الضأن والمعز حرم الله عليكم (أم الإثمين) منها .
 المعنى : فإن كان ما حرم عليكم الذكراين ، فكل الذكور حرام ، وإن كان حرم
 الإثمين ، فكل الإناث حرام ، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الإثمين ،
 فهي تشتمل على الذكور ، وتشتمل على الإناث ، وتشتمل على الذكور والإناث ،
 فيكون كل جنين حراماً . وقال ابن الأنباري : معنى الآية : ألحقكم التحريم من
 جهة الذكراين ، أم من جهة الإثمين ؟ فإن قالوا : من جهة الذكراين ، حرم عليهم
 كل ذكر ، وإن قالوا : من جهة الإثمين ، حرمت عليهم كل أنثى ؛ وإن قالوا :
 من جهة الرحم ، حرم عليهم الذكر والأنثى . وقال ابن جرير الطبري : إن قالوا :
 حرم الذكراين ، أوجبوا تحريم كل ذكر من الضأن والمعز ، وهم يستمتعون بلحوم
 بعض الذكراين منها وظهوره ، وفي ذلك فساد دعواهم . وإن قالوا : حرم الإثمين
 أوجبوا تحريم لحوم كل أنثى من ولد الضأن والمعز ، وهم يستمتعون بلحوم بعض ذلك

وظهوره . وإن قالوا : ما شملت عليه أرحام الاثنين ، فقد كانوا يستمتعون ببعض ذكورها وإناثها . قال المفسرون : فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الآية والتي بعدها ، لأنهم كانوا يحرّمون أجناساً من النعم ، بعضها على الرجال والنساء ، وبعضها على النساء دون الرجال .

وفي قوله : (آله كرين حرّم أم الاثنين) إبطال لما حرّموه من البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام .

وفي قوله : (أمّا شملت عليه أرحام الاثنين) ، إبطال قولهم : (ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) .

قوله تعالى : (نبئوني بعلم) قال الزجاج : المعنى : فسروا ما حرّمتم بعلم ، أي : أنتم لا علم لكم ، لأنكم لا تؤمنون بكتاب . (أم كنتم شهداء) أي : هل شاهدتم الله قد حرّم هذا ، إذا كنتم لا تؤمنون برسول ؟

قوله تعالى : (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم) قال ابن عباس : يريد عمرو بن لحي ، ومن جاء بعده . والظالمون هاهنا : المشركون . ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه) نبههم بهذا على أن التحريم والتحليل ، إنما يثبت بالوحي . وقال طاووس ، ومجاهد : معنى الآية : لا أجد محرماً مما كنتم تستحلون في الجاهلية إلا هذا . والمراد بالطاعم :

الآكل . (إلا أن يكون ميتة) أي : إلا أن يكون المأكول ميتة . قرأ ابن كثير ، وحمة : « إلا أن يكون » بالياء ، « ميتة » نصباً . وقرأ ابن عامر : « إلا أن تكون » بالتاء ، « ميتة » بالرفع ؛ على معنى : إلا أن تقع ميتة ، أو تحدث ميتة . (أو دماً مسفوحاً) قال قتادة : إنما حُرِّمَ المسفوحُ ، فأما اللحم إذا خالطه دم ، فلا بأس به . قال الزجاج : المسفوح : المصبوب . وكانوا إذا ذكَّروا يأكلون الدم كما يأكلون اللحم . والرجس : اسم لما يُستقذَر ، وللعذاب . (أو فسقاً) المعنى : أو أن يكون المأكول فسقاً . (أهل لغير الله به) أي : رفع الصوت على ذبحه باسم غير الله ، فسمي ما ذكر عليه غير اسم الله فسقاً ؛ والفسق : الخروج من الدين .

❦ فصل ❦

اختلف علماء النسخ والمنسوخ في هذه الآية على قولين . أحدهما : أنها محكمة . ولأرباب هذا القول في سبب إحكامها ثلاثة أقوال . أحدها : أنها خبر ، والخبر لا يدخله النسخ . والثاني : أنها جاءت جواباً عن سؤال سألوه ؛ فكان الجواب بقدر السؤال ، ثم حُرِّمَ بعد ذلك ما حُرِّمَ . والثالث : أنه ليس في الحيوان محرم إلا ما ذكر فيها . والقول الثاني : أنها منسوخة بما ذكر في (المائدة) من المنخقة والموقوذة ، وفي السُّنَّة من تحريم الجمر الأهلية ، وكل ذي ناب من السباع ، ومخلب من الطير ^(١) . وقيل : إن آية (المائدة) داخلة في هذه الآية ، لأن تلك الأشياء كلها ميتة .

(١) روى الامام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، عن أبي ثلبة الخثني ، قال : « وحرم —

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ
وَالْفِئَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا
أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

قوله تعالى : (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر) وقرأ الحسن ،
والأنعمش : « ظفر » بسكون الفاء ؛ وهذا التحريم تحريم بلوى وعقوبة .
وفي ذي الظفر ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ما ليس بمنفرج الأصابع ، كالإبل ، والنعام ، والإوز ، والبط ،
قاله ابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي .
والثاني : الإبل فقط ، قاله ابن زيد .

والثالث : كل ذي حافر من الدواب ، ومغلب من الطير ، قاله ابن قتيبة . قال :
وسمي الحافر ظفراً على الاستمارة ؛ والعرب تجعل الحافر والأظلاف موضع
القدم ، استمارة ؛ وأنشدوا :

سَأْمَنُهَا أَوْ سَوَفَ أَجْعَلُ أَمْرَهَا إِلَى مَلِكٍ أَظْلَافُهُ لَمْ تُشَقَّقْ ^(١)

— رسول الله ﷺ لحوم الحمر الأهلية ، وزاد أحمد ، ولحم كل ذي ناب من السباع ، وقد صح النهي
عن أكل لحوم الحمر الأهلية من حديث البراء بن عازب ، وابن عمر ، وأبي هريرة ، وزاهر
الأسدي ، وابن أبي أوفى . وروى الجماعة إلا البخاري والترمذي عن ابن عباس قال :
« نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مغلب من الطير » وروى مسلم
في « صحيحه » ١٥٣٤/٣ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كل ذي ناب من
السباع حرام » .

(١) البيت غير منسوب في « مشكل القرآن » ١١٦ ، و « الصناعتين » : ٣٠٩ ، و « الموازنة » ،
٤٤ ، و « الامالي » ١٢٠/٢ . وفي « السمط » ٧٤٦ : البيت لعفان بن قيس بن عاصم بن
عبيد البرجوعي ، وكان النعمان بن المنذر استعمل النلاق بن عمرو الرياحي على هجائن من —

أراد قدميه ؛ وإنما الأظلاف للشاة والبقر . قال ابن الأثيري : الظفر هاهنا ، يجري
بجرى الظفر للإنسان . وفيه ثلاث لغات . أعلامهن : مُظْفَرٌ ؛ ويقال : مُظْفَرٌ ،
وَأُظْفُورٌ . وقال الشاعر :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَوْتَ أَدْرَكَ مَنْ مَضَى فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ ذَا جَنَاحٍ وَذَا مُظْفَرٍ
وقال الآخر :

لَقَدْ كُنْتُ ذَا نَابٍ وَمُظْفَرٍ عَلَى الْمِدَى فَأَصْبَحْتُ مَا يَخْشَوْنَ نَابِي وَلَا مُظْفَرِي
وقال الآخر :

مَا بَيْنَ لَقْمَتِهِ الْأُولَى إِذَا انْحَدَرَتْ وَبَيْنَ أُخْرَى تَلِيهَا قَيْدُ أَظْفُورٍ^(١)
وفي شحوم البقر والنم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إنما حرّم من ذلك شحوم الثروب خاصة ، قاله قتادة .

والثاني : شحوم الثروب والكلى ، قاله السدي ، وابن زيد .

والثالث : كل شحم لم يكن مختلطاً بعظم ، ولا على عظم ، قاله ابن جريج .
وفي قوله : (إلا ما حملت ظهورهما) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ما علق بالظهر من الشحوم ، قاله ابن عباس . والثاني : الأليّة ،

قاله أبو صالح ، والسدي . والثالث : ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما ،

— يلي أرضه من الرب ، وكانت لعفان هذا هجائن ، فأخفاها ، فطلبها التلاق ، فمعد عققان
بإبله حتى أتى النمل ، فأجاره ولم يأخذ منها شيئاً . فقال قصيدة منها :

سواء عليكم شؤمها وهجائنها وإن كان فيها واضح اللون يرق

سأمنها - البيت - وهذه من أقبح الاستمارات ، وإنما يريد بقوله : أظلافه لم تشقق : أنه متمل
مترفه ، فلم تشقق قدماءه .

(١) البيت غير منسوب في «اللسان» و«أساس البلاغة» : ظفر ، وروايته فيهما :

ما بين لقمتها الأولى إذا ازدردت وبين أخرى تليها قيس أظفور

قاله قتادة . فأما الحوايا ، فملفّسرين فيها أقوال تتقارب معانيها . قال ابن عباس ، والحسن ، وابن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن قتيبة : هي المباعر . وقال ابن زيد : هي بنات اللبن ، وهي المرائب التي تكون فيها الأمعاء . وقال الفراء : الحوايا : هي المباعر ، وبنات اللبن . وقال الأصمعي : هي بنات اللبن ، واحدها : حاوية ، وحاوية ، وحاوية .

قال الشاعر :

أَفْتُلُّهُمْ وَلَا أَرَى مُعَاوِيَةَ الْجَاحِظَ الْعَيْنِ الْعَظِيمَ الْحَاوِيَةَ^(١)
وقال الآخر :

كَأَنَّ تَقِيْقَ الْحَبِّ فِي حَاوِيَانِهِ فَجِيحُ الْإِفَاعِي أَوْ تَقِيْقُ الْعَقَارِبِ^(٢)
وقال أبو عبيدة : الحوايا : ما تحوى من البطن ، أي : ما استدار منها . وقال الزجاج : الحوايا : اسم لجميع ما تحوى من الأمعاء ، أي : استدار . وقال ابن جرير الطبري : الحوايا : ما تحوى من البطن ، فاجتمع واستدار ، وهي بنات اللبن ، وهي المباعر ، وتسمى : المرائب ، وفيها الأمعاء : قوله تعالى : (أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ) فيه قولان .

أحدهما : أنه شحم البطن والأثنية ، لأنها على عظم ، قاله السدي . والثاني : كل شحم في القوائم ، والجنب ، والرأس ، والعينين ، والأذنين ، فهو مما اختلط بعظم ، قاله ابن جريج . واففقوا على أن ما حملت ظهورهما حلال ،

(١) البيت في « اللسان » : حوي ، منسوب لابي رضي الله عنه .

(٢) قاله جرير ، وهو في « ديوانه » : ٨٣ ، و « معجم مقاييس اللغة » : ١١٢/٢ ،

و « اللسان » : حوى .

بالاستثناء من التحريم : فأما ما حملت الحوايا ، أو ما اختلط بمظم ، ففيه قولان .
 أحدهما : أنه داخل في الاستثناء ، فهو مباح ؛ والمعنى : وأبيح لهم ما حملت
 الحوايا من الشحم وما اختلط بمظم ، هذا قول الأكثرين .
 والثاني : أنه نسق على ما حرّم ، لا على الاستثناء ؛ فالمعنى : حرّمنا عليهم
 شحومها ، أو الحوايا ، أو ما اختلط بمظم ، إلا ما حملت الظهور ، فإنه غير محرم ،
 قاله الزجاج . فأما « أو » المذكورة هاهنا ، فهي بمعنى الواو ، كقوله : (آتَمَّا
 أو كفوراً) [الأعر : ٢٤] .

قوله تعالى : (ذلك جزيناكم) أي : ذلك التحريم عقوبة لهم على بنيتهم .
 وفي بنيتهم قولان .

أحدهما : أنه قتلهم الأنبياء ، وأكلهم الربا . والثاني : أنه تحريم ما أحل لهم .
 ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ
 بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (فإن كذبوك) قال ابن عباس : لما قال رسول الله ﷺ
 للمشركين : « هذا ما أوحى إليّ أنّه محرّم على المسلمين وعلى اليهود » ، قالوا : فإنك
 لم تصب ، فنزلت هذه الآية . وفي المكذبين قولان .

أحدهما : المشركون ، قاله ابن عباس . والثاني : اليهود ، قاله مجاهد . والمراد
 بذكر الرحمة الواسعة ، أنه لا يمجّل بالمقوبة والبأس : العذاب .
 وفي المراد بالمجرمين قولان .

أحدهما : المشركون . والثاني : المكذبون .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

قوله تعالى : (سيقول الذين أشركوا) أي : إذا لزمتمهم الحجة ، وينقنوا باطل ما هم عليه من الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله (لو شاء الله ما أشركنا) ، فعملوا هذا حجة لهم في إقامتهم على الباطل ؛ فكأنهم قالوا : لو لم يرض ما نحن عليه ، لحال بيننا وبينه ؛ وإنما قالوا ذلك مستهزئين ، ودافعين للاحتجاج عليهم ، فيقال لهم : لم تقولون عن مخالفكم إلههم صالئون ، وإنما هم على المشيئة أيضاً ؛ فلا حجة لهم ، لأنهم تعلقوا بالمشيئة ، وتركوا الأمر ؛ ومشية الله نعمٌ جميع الكائنات ، وأمره لا يعم مراداته ، فعلى العبد اتباع الأمر ، وليس له أن يتعلل بالمشيئة بعد ورود الأمر .

قوله تعالى : (كذلك كذب الذين من قبلهم) قال ابن عباس . أي : قالوا لرسولهم مثلما قال هؤلاء الك ، (حتى ذاقوا بأسنا) أي : عذابنا . (قل هل عندكم من علم) أي : كتاب نزل من عند الله في تحريم ما حرّمتم (إن تتبعون إلا الظن) لا اليقين ؛ و « إن » بمعنى « ما » . و « تخرصون » : تكذبون .

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل لله الحجة البالغة) قال الزجاج : حجته البالغة : تبيينه أنه الواحد ، وإرساله الأنبياء بالحجج المعجزة . قال السدي : (فلو شاء لهداكم أجمعين) يوم أخذ الميثاق .

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾
قوله تعالى : (قل هلمَّ شهداءكم) قال الزجاج : زعم سيديوه أن « هلم »
هاء ضمت إليها « لَمْ » ، وجعلتا كالكلمة الواحدة ؛ فأكثر اللغات أن يقال : « هلمَّ » :
للواحد والاثني والجماعة ؛ بذلك جاء القرآن . ومن العرب من يشي ويجمع ويؤنث ،
فيقول للذكر : « هلمَّ » ، وللمرأة : « هلمتي » ، وللأثنين : « هلمَّا » ، وللثنتين :
« هلمَّا » ، وللجماعة : « هلموا » ، وللنساء : « هلمنَّ » . وقال ابن قتيبة :
« هلم » ، بمعنى : « تعال » . وأهل الحجاز لا يشئون ولا يجمعونها . وأهل نجد
يجمعونها من « هلممت » ، فيشئون ويجمعون ويؤنثون ؛ وتوصل باللام ، فيقال :
« هلم لك » ، « وهلم لكما » . قال : وقال الخليل : أصلها « لَمْ » ، وزيدت
الهاء في أولها . وخالفه الفراء ، فقال : أصلها « هل » ضمَّ إليها « أم » ،
والرفعة التي في اللام من همزة « أم » لما تركت انتقلت إلى ما قبلها ؛ وكذلك
« اللهم » يرى أصلها : « يا الله أَمِنَا بخير » فكثرت في الكلام ، فاختلطت ،
وتركت الهمزة . وقال ابن الأنباري : معنى « هلم » : أقبل ؛ وأصله : « أمَّ
يارجل » ، أي : « اقصد » ، فضموا « هل » إلى « أم » وجعلوها حرفاً واحداً ،
وأزالوا « أم » عن التصرف ، وحوَّلوا ضمة همزة « أم » إلى اللام ، وأسقطوا
الهمزة ، فانصلت الميم باللام . وإذا قال الرجل للرجل : « هلم » ، فأراد أن يقول :
لا أقبل ، قال : « لا أهلم » و « لا أهلم » . قال مجاهد : هذه الآية جواب
قولهم : إن الله حرم البحيرة ، والسائبة . قال مقاتل : الذين يشهدون أن الله حرم

هذا الحرث والآنعام ، (فان شهدوا) أن الله حرمه (فلا تشهد معهم) أي :
لا تصدق قولهم .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنزَلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا
بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ
نَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَلِأَهْلِهِمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
بَطْنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ
بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل تعالوا أنزل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً)
« ما » بمعنى « الذي » . وفي « لا » قولان .

أحدهما : أنها زائدة ، كقوله : « أن لا تسجد » [الاعراف : ١٢] .

والثاني : أنها ليست زائدة ، وإنما هي نافية ؛ فعلى هذا القول ، في تقدير
الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : أن يكون قوله : « أن لا تشركوا » ، محمولاً على المعنى ؛ فتقديره :
أنل عليكم أن لا تشركوا ، أي : أنل تحريم الشرك .

والثاني : أن يكون المعنى : أوصيكم أن لا تشركوا ، لأن قوله : (وبالوالدين
إحساناً) [الاسراء : ٢٣] محمول على معنى : أوصيكم بالوالدين إحساناً ، ذكرهما الزجاج .
والثالث : أن الكلام تم عند قوله : (حرم ربكم) . ثم في قوله :
« عليكم » قولان .

أحدهما : أنها إغراء ، كقوله : (عليكم أنفسكم) [المائدة : ١٠٥] . فالتقدير :
عليكم أن لا تشركوا ، ذكره ابن الأنباري .

والثاني : أن يكون بمعنى : مُفرض عليكم ، ووجب عليكم أن لا تشركوا .
وفي هذا الشرك قولان .

أحدهما : أنه ادعاء شريك مع الله عز وجل . والثاني : أنه طاعة غيره في معصيته .
قوله تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم) يريد دفن البنات أحياء . (من إهلاك)
أي : من خوف فقر .

قوله تعالى : (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) فيه خمسة أقوال .
أحدها : أن الفواحش : الزنا ، وما ظهر منه : الإعلان به ، وما بطن :
الاستسار به ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والسدي .

والثاني : أن ما ظهر : الخمر ، ونكاح المحرمات . وما بطن : الزنا ، قاله
سعيد بن جبير ، ومجاهد .

والثالث : أن ما ظهر : الخمر ، وما بطن : الزنا ، قاله الضحاك .

والرابع : أنه عام في الفواحش . وظاهرها : علانيتها ، وباطنها : سرها ،
قاله قتادة .

والخامس : أن ما ظهر : أفعال الجوارح ، وما بطن : اعتقاد القلوب ، ذكره الماوردي
في تفسير هذا الموضع ، وفي تفسير قوله : (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) [الانعام : ١٢٠] .

والنفس التي حرم الله : نفس مسلم أو معاهد . والمراد بالحق : إذن الشرع .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ
أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَفِيلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا
ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده)
 إنما خص مال اليتيم ، لأن الطمع فيه ، لقلّة مراعيه وضعف مالكه ، أقوى .
 وفي قوله : (إلا بالتي هي أحسن) أربعة أقوال .
 أحدها : أنه أكل الوصي المصلح للمال بالمعروف وقت حاجته ، قاله
 ابن عباس ، وابن زيد .

والثاني : التجارة فيه ، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك ، والسدي .
 والثالث : أنه حفظه له إلى وقت تسليمه إليه ، قاله ابن السائب .
 والرابع : أنه حفظه عليه ، وتثمينه له ، قاله الزجاج . قال : و « حتى »
 محمولة على المعنى ؛ فالمعنى : احفظوه عليه حتى يبلغ أشده ، فإذا بلغ أشده ، فادفعوه
 إليه . فأما الأشد ، فهو استحكام قوة الشباب والسن . قال ابن قتبية : ومعنى
 الآية : حتى يتناهى في النبات إلى حدّ الرجال . يقال : بلغ أشده : إذا انتهى منهاه
 قبل أن يأخذ في النقصان . وقال أبو عبيدة : الأشد لا واحد له منه ؛ فإن
 أكرهوا على ذلك ، قالوا : شدّ ، بمنزلة : صبّ ؛ والجمع : أضبّ . قال
 ابن الأنباري : وقال جماعة من البصريين : واحد الأشدّ : شدّ ، بضم الشين .
 وقال بعض البصريين : واحد الأشدّ : شدّة ، كقولهم : نعمة ، وأنعم .
 وقال بعض أهل اللغة : الأشدّ : اسم لا واحد له . وللمفسرين في الأشدّ
 ثمانية أقوال .

أحدها : أنه ثلاث وثلاثون سنة ، رواه ابن جبير عن ابن عباس .
 والثاني : ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .
 والثالث : أربعون سنة ، روي عن عائشة عليها السلام .

والرابع : ثمانى عشرة سنة ، قاله سعيد بن جبير ، ومقاتل .

والخامس : خمس وعشرون سنة ، قاله عكرمة .

والسادس : أربع وثلاثون سنة ، قاله سفيان الثوري .

والسابع : ثلاثون سنة ، قاله السدي . وقال : ثم جاء بعد هذه الآية :

(حتى إذا بانوا النكاح) [النساء : ٦] فكأنه يشير إلى النسخ .

والثامن : بلوغ الحُلُم ، قاله زيد بن أسلم ، والشعمي ، ويحيى بن يعمر ، وربيعة ، ومالك بن أنس ، وهو الصحيح . ولا أظن بالذين حكينا عنهم الأقوال التي قبله فسروا هذه الآية بما ذكر عنهم ، وإنما أظن أن الذين جمعوا التفسير ، نقلوا هذه الأقوال من تفسير قوله تعالى : (ولما بلغ أشده) [يوسف : ٢٢ ، والقصص : ١٤] إلى هذا المكان ؛ وذلك نهاية الأشد ، وهذا ابتداء تمامه ؛ وليس هذا مثل ذاك . قال ابن جرير : وفي الكلام مخوف ، ترك ذكره اكتفاءً بدلالة ما ظهر عما حُذِف ، لأن المعنى : حتى يبلغ أشده ؛ فإذا بلغ أشده ، فآلستم منه رشداً ، فادفعوا إليه ماله .

قال المصنف : إن أراد بما ظهر ما ظهر في هذه الآية ، فليس بصحيح ؛ وإنما استفيد إيناس الرشد والإسلام من آية أخرى ؛ وإنما أُطلق في هذه الآية ما قيّد في غيرها ، فحُمل المطلق على المقيد .

قوله تعالى : (وأوفوا الكيل) أي : أتموه ولا تنقصوا منه . و (الميزان) أي : وزن الميزان . والقسط : العدل . (لا تكلف نفساً إلا وسعها) أي : ما يسعها ، ولا تضيق عنه . قال القاضي أبو بطل : لما كان الكيل والوزن يتعذر فيها التحديد بأقل القليل ، كُلفنا الاجتهاد في التحري ، دون تحقيق الكيل والوزن .

قوله تعالى : (وإذا قلم فاعدلوا) أي : إذا تكلمتم أو شهدتم ، فقولوا الحق ،

ولو كان الشهود له أو عليه ذا قرابة . وعهد الله يشتمل على ما عهده إلى الخلق وأوصام به ، وعلى ما أوجبه الإنسان على نفسه من نذر وغيره . (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) أي : لتذكروهم وتأخذوا به . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « تذكرون » [الانعام : ١٥٣] و « يذكرون » [الانعام : ١٢٦] و « يذكّر الإنسان » [مريم : ٦٧] و « أن يذكّر » [الفرقان : ٦٢] ، و « ليدّ كروا » [الاسراء : ٤١] مشدداً ذلك كله . وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم ، وابن عامر كل ذلك بالتشديد ، إلا قوله : (أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ) [مريم : ٦٧] فأنهم خففوه . روى أبان ، وحفص عن عاصم : « يذكرون » خفيفة الذال في جميع القرآن . قرأ حمزة ، والكسائي : « يذكرون » مشدداً إذا كان بالياء ، وخففاً إذا كان بالتاء . ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ قوله تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيماً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو : « وأن » بفتح الألف مع تشديد النون . قال الفراء : إن شئت جعلت « أن » مفتوحة بوقوع « أنل » عليها ؛ وإن شئت جعلتها خفصاً ، على معنى : ذلكم وصاكم به ، وبأن هذا صراطي مستقيماً . وقرأ ابن عامر بفتح الألف أيضاً ، إلا أنه خفف النون ، فجعلها مخففة من الثقيلة ؛ وحكم إعرابها حكم تلك . وقرأ حمزة ، والكسائي : بتشديد النون مع كسر الألف . قال الفراء : وكسر الألف على الاستئناف . وفي الصراط قولان .

أحدهما : أنه القرآن . والثاني : الإسلام . وقد بينا إعراب قوله : « مستقيماً » أيضاً . فأمّا « السبيل » ، فقال ابن عباس : هي الضلالات ^(١) . وقال مجاهد :

(١) روى الامام أحمد في « المسند » ، ١٨٢/٤ ، ١٨٣ ، والحاكم في « المستدرک » ، ٧٣/١ —

البدع والشبهات . وقال مقاتل : أراد ما حرموا على أنفسهم من الأنعام والحرم .
(ففترق بكم عن سبيله) أي : فضليكم عن دينه .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّاهُمْ بَلِغَاءَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (ثم آتينا موسى الكتاب) قال الزجاج : « ثم » هاهنا للمطف على معنى التلاوة ؛ فالمعنى : أنزل ما حرم ربكم ، ثم أنزل عليكم ما آناه الله موسى .
وقال ابن الأنباري : الذي بعد « ثم » مقدم على الذي قبلها في النية ؛ والتقدير : ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل أنزلنا القرآن على محمد ﷺ .

قوله تعالى : (تماماً على الذي أحسن) في قوله : « تماماً » قولان .
أحدهما : أنها كلمة متصلة بما بعدها ؛ تقول : أعطيتك كذا تماماً على كذا ،
وتامماً لكذا ، وهذا قول الجمهور .

والثاني : أن قوله : « تماماً » كلمة قائمة بنفسها ، غير متصلة بما بعدها ؛

— عن الثواس بن صمان الأنصاري عن رسول الله ﷺ قال : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران ، بهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تموجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب ، قال : ويحك لا تفتح ، فانك إن تفتحته تلجه ، والصراط : الاسلام ، والسوران : حدود الله تعالى ، والأبواب المفتحة : محارم الله تعالى ، وذلك الداعي على رأس الصراط : كتاب الله ، والداعي فوق الصراط : واعظ الله في قلب كل مسلم ، وخرجه ابن كثير في التفسير ، ثم قال : إسناده حسن صحيح . وقوله : « تموجوا ، قال القاري في شرح المشكاة : بتشديد الجيم من الاعوجاج ، كذا في نسخة السيد وغيره ، وفي نسخة : بتشديد الواو على حذف إحدى التاءين ، وهو تأكيده لا قبله ، أي : لا تميلوا إلى الأطراف . قلت : ووقع في « المسند » « ولا تفرجوا » وهو تحريف .

والتقدير : آتينا موسى الكتاب تماماً ، أي : في دفعة واحدة ، لم نفرّق إنزاله كما
فَرّقَ إنزال القرآن ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

وفي المشار إليه بقوله : « أحسن » أربعة أقوال .

أحدها : أنه الله عز وجل . ثم في معنى الكلام قولان . أحدهما : تماماً
على إحسان الله إلى أنبيائه ، قاله ابن زيد . والثاني : تماماً على إحسان الله تعالى إلى
موسى ؛ وعلى هذين القولين ، يكون « الذي » بمعنى « ما » .

والقول الثاني : أنه إبراهيم الخليل عليه السلام ؛ فالمعنى : تماماً للنعمة على
إبراهيم الذي أحسن في طاعة الله ، وكانت نبوءة موسى نعمة على إبراهيم ، لأنه
من ولده ، ذكره الماوردي .

والقول الثالث : أنه كل محسن من الأنبياء ، وغيرهم . وقال مجاهد : تماماً
على المحسنين ، أي : تماماً لكل محسن . وعلى هذا القول ، يكون « الذي » بمعنى
« مَنْ » ، و « على » بمعنى لام الجر ؛ ومن هذا قول العرب : أتم عليه ، وأتم له .
قال الراعي :

رعته أشهراً وخلا عليها ^(١)

أي : لها .

قال ابن قتيبة : ومثل هذا أن تقول : أوصي بمالي الذي غزا وحج ؛ تريد :

للغازين والحاجين .

(١) تمامه : فطار الشيء فيها واستنار . وهو في « أدب الكاتب » لابن قتيبة : ٤٠١

من أبيات يصف بها ناقة ذات سم . قال الجواليقي : رعته ، أي : رعت هذه الناقة هذا
النبات أشهراً ، ونمّلت به ، لم يرهه غيرها . وطار الي ، أي : ارتفع الشعير ، واستنار ،
أي : هبط فيها ودخل .

والقول الرابع : أنه موسى . ثم في معنى : « أحسن » قولان .
أحدهما : أحسنَ في الدنيا بطاعة الله عز وجل . قال الحسن ، وقتادة :
تماماً لكرامته في الجنة إلى إحسانه في الدنيا . وقال الربيع : هو إحسان موسى
بطاعته . وقال ابن جرير : تماماً لنعمنا عنده على إحسانه في قيامه بأمرنا ونهينا .
والثاني : أحسنَ من العلم وكتب الله القديعة ؛ وكأنه زيد على
ما أحسنه من التوراة ؛ ويكون « التمام » بمعنى الزيادة ، ذكره ابن الأنباري .
فعلى هذين القولين ، يكون « الذي » بمعنى : « ما » . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ،
وأبو رزين ، والحسن ، وابن يعمر : « على الذي أحسنُ » ، بالرفع . قال الزجاج :
معناه : على الذي هو أحسن الأشياء . وقرأ عبد الله بن عمرو ، وأبو المتوكل ،
وأبو العالية : « على الذي أحسنَ » برفع المهدزة وكسر السين وفتح النون ؛
وهي تحتمل الإحسان ، وتحتمل العلم .

قوله تعالى : (وتفضيلاً لكل شيء) أي : نبينا لكل شيء من أمر شريعتهم
مما يحتاجون إلى علمه ، لكي يؤمنوا بالبعث والجزاء .

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) يعني القرآن ، (فاتبعوه
واتقوا) أن تحالفوه (لعلمكم ترحمون) . قال الزجاج : لتكونوا راجين للرحمة .

﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا
وَلَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (أن تقولوا) سبب نزولها : أن كفار مكة قالوا : قاتل الله

اليهود والنصارى ، كيف كذبوا أنبياءهم ؛ فوالله لو جاءنا نذير وكتاب ، لكننا أهدى منهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل . قال الفراء : « أن » في موضع نصب في مكانين . أحدهما : أنزلناه لثلاثا تقولوا . والآخر : من قوله : واتقوا أن تقولوا . وذكر الزجاج عن البصريين ، أن معناه : أنزلناه ، كراهة أن تقولوا ؛ ولا يميزون إضمار « لا » . فأما الخطاب بهذه الآية ، فهو لأهل مكة ؛ والمراد إثبات الحجة عليهم بانزال القرآن كي لا يقولوا يوم القيامة : إن التوراة والإنجيل أنزلا على اليهود والنصارى ، وكنا غافلين عما فيها . و « دراستهم » : فراءتهم الكتب . قال الكسائي : (وإن كنا عن دراستهم لغافلين) لانظم ما هي ، لأن كتبهم لم تكن بلغة ، فأنزل الله كتابا بلغتهم لتقطع حججهم .

﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (لكننا أهدى منهم) قال الزجاج : إنما كانوا يقولون هذا ، لأنهم مدّثلون بالأذهان والأفهام ، وذلك أنهم يحفظون أشعارهم وأخبارهم ، وهم أمّيون لا يكتبون . (فقد جاءكم بينة) أي : ما فيه البيان وقطع الشبهات . قال ابن عباس : (فقد جاءكم بينة) أي : حجة ، وهو النبي ، والقرآن ، والهدى ، والبيان ، والرحمة ، والنعمة . (فمن أظلم) أي : أكفر . (ممن كذب بآيات الله) يعني محمداً والقرآن . (وصدف عنها) : أعرض فلم يؤمن بها . وسوء العذاب : قبيحه .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (هل ينظرون) أي : ينتظرون (إلا أن تأتيهم الملائكة) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « تأتيمهم » بالثاء . وقرأ حمزة ، والكسائي : « يأتيمهم » بالياء . وهذا الإتيان لقبض أرواحهم . وقال مقاتل : المراد بالملائكة : ملك الموت وحده .

قوله تعالى : (أو يأتي ربك) قال الحسن : أو يأتي أمر ربك^(١) وقال الزجاج : أو يأتي إهلاكه وانتقامه ، إما بمذاب عاجل ، أو بالقيامة . قوله تعالى : (أو يأتي بعض آيات ربك) وروى عبد الوارث إلا القزاز : بتسكين ياء « أو يأتي » ، وفتحها الباقون . وفي هذه الآية أربعة أقوال .

أحدها : أنه طلوع الشمس من مغربها ، رواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ^(٢) ، وبه قال ابن مسعود . وفي رواية زرارة بن أوفى عنه ، وعبد الله ابن عمرو ، ومجاهد وقتادة ، والسدي . وقد روى البخاري ، ومسلم في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس ، آمن من عليها ، فذلك حين لا ينفع نفساً

(١) خرج ابن الجوزي هنا على مذهب السلف في هذا النقل .

(٢) « المسند » ٣/٣١ ، و « الطبري » ١٢/٢٤٧ ، و « الترمذي » : ١٣٣/٢ . وفي مسنده عطية الموفى ، وهو ضعيف .

إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً» ^(١) . وروى عبد الله ابن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ، طُبع على كل قلب بما فيه ، [و] كفي الناس العمل » ^(٢) .

والثاني : أنه طلوع الشمس والقمر من مغربها ، رواه مسروق عن ابن مسعود .
والثالث : أنه إحدى الآيات الثلاث ، طلوع الشمس من مغربها ، والدابة ، وفتح يأجوج ومأجوج ، روى هذا المعنى القاسم عن ابن مسعود .
والرابع : أنه طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض ، قاله أبو هريرة ؛ والأول أصح . والمراد بالخير هاهنا : العمل الصالح ؛ وإِنَّمَا لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذ ، لظهور الآية التي تضطرم إلى الإيمان . وقال الضحاك : من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه ، قبل منه ، كما يقبل منه قبل الآية . وقيل : إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها ، أن الملحدة والمنجمين ، زعموا أن ذلك لا يكون ، فيريهم الله قدرته ، ويطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق ، ولتحقق عجز نمرود حين قال له إبراهيم : (فأْت بها من المغرب ، فبهت) [البقرة : ٢٥٨] .

(١) « المسند » رقم (٧١٦١) والبخاري ٢٢٣/٨ ، ومسلم ١٩٤/٢ ، وأبو داود ١٦٣/٤ وابن ماجه ٢٣٥٢/٢ . وخرجه السيوطي في « الدر المنثور » ٥٧/٣ وزاد نسبه إلى عبد بن حميد ، وعبد الرزاق ، والنسائي ، وابن المنذر ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « البعث » والطبراني ، وابن أبي عدي .

(٢) « المسند » ١٣٣/٣ ، والطبري ٢٥٣/١٢ وخرجه الميمني في « مجمع الزوائد » ٢٥٠/٥ وقال : رجال أحمد ثقات . وقال ابن كثير بعد أن ذكره ١٩٥/٢ : هذا الحديث حسن الاسناد ، ولم يخرج أحد من الكتب الستة .

﴿ فصل ﴾

وفي قوله : (قل انتظروا إنا منتظرون) قولان .

أحدهما : أن المراد به التهديد ، فهو محكم .

والثاني : أنه أمر بالكف عن القتال ، فهو منسوخ بآية السيف .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو :

« فرقوا » مشددة . وقرأ حمزة ، والكسائي : « فارقوا » بألف . وكذلك قرؤوا

في (الروم : ٣٢) ؛ فن قرأ : « فرقوا » ، أراد : آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض .

ومن قرأ : « فارقوا » ، أراد : باينوا . وفي المشار إليهم أربعة أقوال .

أحدها : أنهم أهل الضلالة من هذه الأمة ، قاله أبو هريرة .

والثاني : أنهم اليهود والنصارى ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي .

والثالث : اليهود ، قاله مجاهد .

والرابع : جميع المشركين ، قاله الحسن . فلي هذا القول ، دينهم : الكفر

الذي يمتقدونه ديناً ، وعلى ما قبله ، دينهم : الذي أمرهم الله به . والشيع : الفرق

والأحزاب . قال الزجاج : ومعنى « شيعت » في اللغة : اتبعت . والمرب تقول :

شاعكم السلام ، وأشاعكم ، أي : تبعكم .

قال الشاعر :

أَلَا يَا نَخْلَةَ مَنْ ذَاتِ عِرْقٍ بِرُودِ الظِّلِّ شَاعَكُمْ السَّلَامُ^(١)
وتقول : أئينتك غداً ، أو شِيعَةً ، أي : أو اليوم الذي يتبعه . فمضى الشيعة : الذين
يتبع بعضهم بعضاً ، وليس كلهم متفقين .

وفي قوله تعالى : (لست منهم في شيء) قولان .

أحدهما : لست من قتالهم في شيء ؛ ثم نسخ بآية السيف ، وهذا مذهب السدي .
والثاني : لست منهم ، أي : أنت بريء منهم ، وهم منك براء ، إنما أمرهم
إلى الله في جزائهم ، فتكون الآية محكمة .

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقرأ يعقوب ، والقزاز عن
عبد الوارث : « عَشْرُ » بالتنوين ، « أَمْثَالُهَا » بالرفع . قال ابن عباس :
يريد : من عملها ، كتبت له عشر حسنات . (ومن جاء بالسئية فلا يجزى إلا)
جزاء (مثلاً) . وفي الحسنة والسئية هاهنا قولان .

أحدهما : أن الحسنة : قول لا إله إلا الله . والسئية : الشرك . قاله ابن مسعود ،
ومجاهد ، والنخعي .

والثاني : أنه عام في كل حسنة وسئية . روى مسلم في « صحيحه » من
حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله
عشر أمثالها أو أزيد » ، ومن جاء بالسئية فجزاء سيئة مثلاً أو أغفر . فان قيل :

(١) البيت غير منسوب في « أساس البلاغة » و « اللسان » : شيع .

إذا كانت الحسنة كلمة التوحيد ، فأى مثل لها حتى يجعل جزاءُ قائلها عشر أمثالها ؛
 فالجواب : أن جزاء الحسنة معلوم القدر عند الله ، فهو يجازي فاعلها بعشر أمثاله ،
 وكذلك السيئة . وقد أشرنا إلى هذا في (المائدة) عند قوله : (فكأنما قتل
 الناس جميعاً) [المائدة : ٣٢] . فان قيل : المثل مذكّر ، فلم قال : (عشر أمثالها)
 والهاء إنما تسقط في عدد المؤنث ؛ فالجواب : أن الأمثال خلقت حسنات مؤنثة ؛
 ونلخص المعنى : فله عشر حسنات أمثالها ، فسقطت الهاء من عشر ، لأنها عدد
 مؤنث ، كما تسقط عند قولك : عشر نعال ، وعشر جباب .

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ
 إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل إني هداني ربي إلى صراط مستقيم) قال الزجاج : أي : دلّني
 على الدين الذي هو دين الحق . ثم فسر ذلك بقوله : (ديناً قِيَمًا) قرأ ابن كثير ، ونافع ،
 وأبو عمرو : « قِيَمًا » مفتوحة القاف ، مشددة الياء . والقيم : المستقيم ، وقرأ
 عاصم ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي : « قِيَمًا » بكسر القاف وتخفيف الياء .
 قال الزجاج : وهو مصدر ، كالصَغَر والكِبَر . وقال مكي : من خففه بناء على
 « فِعْل » وكان أصله أن يأتي بالواو ، فيقول : « قِوَمًا » كما قالوا : عِوَض ،
 وحنِوَل ، ولكنه شذ عن القياس . قال الزجاج : ونصب قوله : (ديناً قِيَمًا)
 محمول على المعنى ، لأنه لما قال : « هداني » دل على عرفتي ديناً ؛ ويجوز أن
 يكون على البدل من قوله : (إلى صراط مستقيم) ، فالمعنى : هداني صراطاً مستقيماً
 ديناً قِيَمًا . و « حنيفاً » منصوب على الحال من إبراهيم ، والمعنى : هداني ملّة إبراهيم في
 حال حنيفيته .

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .
لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

قوله تعالى : (قل إن صلاتي) يريد : الصلاة المشروعة . والنسك : جمع نسيكة .
وفي النسك هاهنا أربعة أقوال .

أحدها : أنها الذبائح ؛ قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ،
وابن قتيبة . والثاني : الدين ، قاله الحسن . والثالث : العبادة .

قال الزجاج : النسك كل ما تُقَرَّب به إلى الله عز وجل ، إلا أن الغالب
عليه أمر الذبيح .

والرابع : أنه الدين ، والحج ، والذبائح ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .
قوله تعالى : (ومحياي ومماتي) الجمهور على تحريك ياء « محياي » ، وتسكين
ياء « مماتي » . وقرأ نافع : بتسكين ياء « محياي » ، ونصب ياء « مماتي » ، ثم
للمفسرين في معناه قولان .

أحدهما : أن معناه : لا يملك حياتي ومماتي إلا الله .

والثاني : حياتي لله في طاعته ، ومماتي لله في رجوعي إلى جزائه . ومقصود
الآية أنه أخبرهم أن أفعالي وأحوالي لله وحده ، لا لغيره كما تشركون
أنتم به .

قوله تعالى : (وأنا أول المسلمين) قال الحسن ، وقتادة : أول المسلمين
من هذه الأمة .

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل أغير الله أبني رباً) سبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ : ارجع عن هذا الأمر ، ونحن لك الكفلاء ، بما أصابك من نعمة ، فزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (ولا تكسب كل نفس إلا عليها) أي : لا يؤخذ سواها بعملها . وقيل : المعنى : إلا عليها عقاب معصيتها ، ولها ثواب طاعتها .

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) قال الزجاج : لا تؤخذ نفس آتمة بأثم أخرى . والمعنى : لا يؤخذ أحد بذنب غيره . قال أبو سليمان : ولما ادّعت كل فرقة من اليهود والنصارى والمشركين أنهم أولى بالله من غيرهم ، عرفهم أنه الحاكم بينهم بقوله : (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) ونظيره (إن الله يفصل بينهم يوم القيامة) [الحج : ١٧] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض) قال أبو عبيدة : الخلائف جمع خليفة .

قال الشياخ :

تُصِيبُهُمْ وَتُخْطِئُ الْمَنَآيَا وَأَخْلَفُ فِي رُبُوعٍ عَنْ رُبُوعٍ^(١)

والمفسرين فيمن خلفوه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم خلفوا الجن الذين كانوا سكان الأرض ؛ قاله ابن عباس .

والثاني : أن بعضهم يخلف بعضاً ؛ قاله ابن قتيبة .

والثالث : أن أمة محمد خلفت سائر الأمم ، ذكره الزجاج .

قوله تعالى : (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أي : في الرزق ، والعلم ، والشرف ، والقوة ، وغير ذلك (ليلبئوكم) أي : ليختبركم ، فيظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب .

قوله تعالى : (إن ربك سريع العقاب) فيه قولان .

أحدهما : أنه سماه سريعاً ، لأنه آتٍ ، وكل آتٍ قريبٌ .

والثاني : أنه إذا شاء العقوبة ، أسرع عقابه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأعراف

﴿ فصل في نزولها ﴾

روى الموفي ، وابن أبي طلحة ، وأبو صالح عن ابن عباس ، أن سورة (الأعراف) من المكي ، وهذا قول الحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، وجابر بن زيد ، وقتادة . وروي عن ابن عباس ، وقتادة أنها مكية ، إلا خمس آيات ؛ أولها قوله تعالى : (واسألهم عن القرية) . وقال مقاتل : كلها مكية ، إلا قوله : (واسألهم عن القرية) إلى قوله : (وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) [الأعراف : ١٦٣ - ١٧٢] فانهن مدنيات .

﴿ المص ﴾

فأما التفسير ، فقوله تعالى : (المص) قد ذكرنا في أول سورة (البقرة) كلاماً بجملاً في الحروف المقطعة أوائل السور ، فهو يعم هذه أيضاً . فأما ما يختص بهذه الآية ففيه سبعة أقوال .

أحدها : أن معناه : أنا الله أعلم وأفضل ، رواه أبو الضحى عن ابن عباس .

والثاني : أنه قَسَمُ أقسم الله به ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .
 والثالث : أنها اسم من أسماء الله تعالى ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .
 والرابع : أن الألف مفتاح اسمه « الله » ، واللام مفتاح اسمه « لطيف » ،
 والميم مفتاح اسمه « مجيد » ، والصاد مفتاح اسمه « صادق » ، قاله أبو العالية .
 والخامس : أن (المص) اسم للسورة ، قاله الحسن .
 والسادس : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .
 والسابع : أنها بعض كلمة . ثم في تلك الكلمة قولان .
 أحدهما : المصور ، قاله السدي . والثاني : المصير إلى كتاب أنزل إليك ،
 ذكره الماوردي .

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ
 لَتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾
 قوله تعالى : (كتاب أنزل إليك) قال الأخفش : رفع الكتاب بالابتداء .
 ومذهب الفراء أن الله اُكْتَفَى في مَفْتَحِ السور ببعض حروف المعجم عن جميعها ،
 كما يقول القائل : « ا ب ت ث » ثمانية وعشرون حرفاً ؛ فالمعنى : حروف
 المعجم : كتاب أنزلناه إليك . قال ابن الأثير : ويجوز أن يرتفع الكتاب
 باضمار : هذا الكتاب . وفي الحرج قولان .

أحدهما : أنه الشك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقاتدة ، والسدي ، وابن قتيبة .
 والثاني : أنه الضيق ، قاله الحسن ، والزجاج . وفي هاء « منه » قولان .
 أحدهما : أنها ترجع إلى الكتاب ؛ فملى هذا ، في معنى الكلام قولان .
 أحدهما : لا يضيقت صدرك بالإبلاغ ، ولا تخافن ، قاله الزجاج . والثاني : لا تشككن
 أنه من عند الله .

والقول الثاني : أنها ترجع إلى مضر ، وقد دل عليه الإنذار ، وهو التكذيب ، ذكره ابن الأنباري . قال الفراء : فغنى الآية : لا يضيقت صدرك أن كذبوك . قال الزجاج : وقوله تعالى : (لتنذر به) مقدم ؛ والمعنى : أنزل إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين ، فلا يكن في صدرك حرج منه . (وذكرى) يصلح أن يكون في موضع رفع ونصب وخفض ؛ فأما النصب ؛ فعلى قوله : أنزل إليك لتنذر به ، وذكرى للمؤمنين ، أي : ولتذكّر به ذكرى ، لأن في الإنذار معنى التذكير . ويجوز الرفع على أن يكون : وهو ذكرى ، كقولك : وهو ذكرى للمؤمنين . فأما الخفض ، فعلى معنى : لتنذر ، لأن معنى « لتنذر » : لأن تنذر ؛ المعنى : للإنذار والذكرى ، وهو في موضع خفض .

﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) إن قيل : كيف خاطبه بالإنفراد في الآية الأولى ، ثم جمع بقوله : « اتبعوا » ؟ فمنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه لما علم أن الخطاب له ولأئمة ، حسن الجمع لذلك المعنى .

والثاني : أن الخطاب الأول خاص له ؛ والثاني محمول على الإنذار ، والإنذار

في طريق القول ، فكأنه قال : لتقول لهم منذراً : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) ، ذكرها ابن الأنباري .

والثالث أن الخطاب الثاني للمشركين ، ذكره جماعة من المفسرين ؛ قال :

والذي أنزل إليهم القرآن . وقال الزجاج : الذي أنزل : القرآن وما أتى عن النبي ﷺ ، لأنه مما أنزل عليه ، لقوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه ،

وما نهاكم عنه فانتهوا) [الحشر : ٧] . (ولا تتبعوا من دونه أولياء) أي :
لا تتولوا من عدل عن دين الحق ؛ وكل من ارتضى مذهباً فهو ولي أهل المذهب .
وقوله تعالى : (قليلاً ما نذكركون) ما : زائدة مؤكدة ؛ والمعنى : قليلاً تذكرون .
قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : « تذكرون »
مشددة الدال والكاف . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « تذكرون »
خفيفة الدال مشددة الكاف . قال أبو علي : من قرأ « تذكرون » بالتشديد ،
أراد « تذكرون » فأدغم التاء في الدال ، وإدغامها فيها حسن ، لأن التاء مهموسة ،
والدال مجهورة ؛ والمجهور أزيد صوتاً من المهموس وأقوى ؛ فأدغام الانقاص في
الأزيد حسن . وأما حمزة ومن وافقه ، فانهم حذفوا التاء التي أدغمها هؤلاء ،
وذلك حسن لاجتماع ثلاثة أحرف متقاربة . وقرأ ابن عامر : « يتذكرون » بياء
وتاء ، على الخطاب للنبي ﷺ ؛ والمعنى : قليلاً ما يذكر هؤلاء الذين ذكروا
بهذا الخطاب .

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ
قَائِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكم من قرية أهلكناها) « كم » تدل على الكثرة ، و« رب » :
موضوعة للقلّة . قال الزجاج : المعنى : وكم من أهل قرية ، فحذف الأهل ، لأن
في الكلام دليلاً عليه .

وقوله تعالى : (فجاءها بأسنا) محمول على لفظ القرية ؛ والمعنى : فجاءهم بأسنا
غفلة وهم غير متوقعين له ؛ إما ليلاً وهم نائمون ، أو نهراً وهم قائلون . قال
ابن قتيبة : بأسنا : عذابنا . وبيانا : ليلاً . وقائلون : من القائلة نصف النهار . فإن
قيل : إنما أتاهم البأس قبل الإهلاك ، فكيف يقدم الهلاك ؛ فمنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن الهلاك والبأس يقعان معاً ، كما تقول : أعطيتني فأحسننت ؛
وليس الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله ، وإنما وقعا معاً ، قاله الفراء .

والثاني : أن الكون مضمّر في الآية ، تقديره : أهلكتناها ، وكان بأسنا قد
جاءها ، فأُضمِر الكون ، كما أُضمِر في قوله : (واتبعوا ما اتلوا الشياطين) [البقرة : ١٠٢] ،
أي : ما كانت الشياطين تتلوه . وقوله تعالى : (إن يسرق) [يوسف : ٧٧] ،
أي : إن يكن سرق .

والثالث : أن في الآية تقديم وتأخير ، تقديره : وكم من قرية جاءها بأسنا
بيانا ، أو هم قائلون فأهلكناها ، كقوله تعالى : (إني متوفيك ورافعك إليّ)
[آل عمران : ٥٥] ، أي : رافعك ومتوفيك ، ذكرهما ابن الأنباري .

قوله تعالى : (أو هم قائلون) قال الفراء : فيه واو مضمرّة ؛ والمعنى : فجاءها
بأسنا بيانا ، أو هم قائلون ، فاستثقلوا نسقا على نسق ^(١) .

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا
كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (فما كان دعواهم) قال اللغويون : الدعوى هاهنا بمعنى الدعاء
والقول . والمعنى : ما كان قولهم وتداعيهم إذ جاءهم العذاب إلا الاعتراف بالظلم .
قال ابن الأنباري : والدعوى في الكلام موضعان .
أحدهما : الإدعاء . والثاني : القول والدعاء .

(١) وتام كلام الفراء في « معاني القرآن » ، ٣٧٢ : ولو قيل لكان جائزا ، كما تقول
في الكلام : أتيتني واليا ، أو وأنا مزول ، وإن قلت : أو أنا مزول ، فانت مضمّر للواو .

قال الشاعر :

إِذَا مَدَلْتُ رَجُلِي دَعْوَتَكَ أَشْتَقِي بِدَعْوَاكَ مِنْ مَدَلٍ بِهَا فِيهِونَ^(١)
 ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلُنَّ الْمُرْسَلِينَ .
 فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلنسالن الذين أرسل إليهم) يعني : الأئمة يسألون : هل بلغكم الرسل ، وماذا أجبتهم ، ويسأل الرسل : هل بلغتكم ، وماذا أجبتهم ؟ .
 (فلنقصن عليهم) أي : فلنخبرتهم بما عملوا بعلم منا (وما كنا غائبين) عن الرسل والأئمة . وقال ابن عباس : يوضع الكتاب ، فيتكلم بما كانوا يعملون .
 ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ قَنَ نَقُلْتُ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (والوزن يومئذ الحق) أي : العدل . وإنما قال : « موازينه » لأن « من » في معنى جميع ، يدل عليه قوله : (فأولئك) . وفي معنى (يظلمون) قولان . أحدهما : يمجدون . والثاني : يكفرون .

قال الفراء : والمراد بموازينه : وزنه . والعرب تقول : هل لك في درهم بميزان درهمك ، ووزن درهمك ، ويقولون : داري بميزان دارك ، ووزن دارك ؛ ويريدون : حذاء دارك .

(١) البيت الكثير غزوة ، ديوانه : ٢٤٥/٢ ، و « الطبري » : ٣٠٤/١٢ ، و « نهاية الأرب » :

١٢٥/٢ ، واللسان : مدل . ومدلت رجله مدلاً بفتح وسكون ، ومدنت : خدعت ، وكانوا يزعمون أن المرء إذا خدعت رجله ، ثم دعا باسم من أحب ، زال خدرها .

قال الشاعر :

قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذَا مِرَّةٍ عِنْدِي لِكُلِّ مُخَاصِمٍ مِيزَانُهُ ^(١)
يعني : مثل كلامه ولفظه .

❦ فصل ❦

والقول بالميزان مشهور في الحديث ، وظاهر القرآن ينطق به . وأنكرت
المعتزلة ذلك ، وقالوا : الأعمال أعراض ، فكيف توزن ؟ فالجواب : أن الوزن
يرجع إلى الصحائف ، بدليل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ
أنه قال : « إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الناس يوم
القيامة ، فيثمر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كُلُّ سَجَلٍ مَدُّ البصر ، ثم يقول
له : أتُنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب . فيقول : ألك
عذر أو حسنة ؟ فيبتهت الرجل ، فيقول : لا يارب ؛ فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة
واحدة ، لا تُظلم عليك اليوم ، فيُخرج له بطاقة فيما : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد
أن محمداً عبده ورسوله ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ؛ قال :
فطاشت السجلات وتقلت البطاقة » أخرجه أحمد في « مسنده » ، والترمذي ^(٢) .
وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « يؤتى بالرجل الطويل الأكول

(١) في « اللسان » : والميزان : المقدار ، أنشد ثعلب :

قد كنت
.....

(٢) « المسند » ١٩٧/١١ ، و « سنن الترمذي » ٣٦٧/٣ ، وابن ماجه ١٤٣٧/١ ،

والحاكم في « المستدرک » ٥٢٩/١ . قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب . وقال الحاكم :
هذا حديث صحيح الاسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

الشروب ، فلا يزن جناح بموضة «^(١) ، فعلى هذا يوزن الإنسان . قال ابن عباس : توزن الحسنات والسيئات في ميزان ، له لسان وكفتان . فأما المؤمن ، فيؤتى بعمله في أحسن صورة ، فيوضع في كفة الميزان ، فتثقل حسناته على سيئاته ، وأما الكافر ، فيؤتى بعمله في أقبح صورة ، فيوضع في كفة الميزان ، فيخف وزنه «^(٢) . وقال الحسن : للميزان لسان وكفتان . وجاء في الحديث : أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان ، فأراه إياه ؛ فقال : يا إلهي ، من بقدر أن يملأ كفتيه حسنات ؛ فقال : ياداود ، إني إذا رضيت عن عبدي ، ملأته بتمرة . وقال حذيفة : جبريل صاحب الميزان يوم القيامة ، فيقول له ربه : زن بينهم ، وُردَّ من بعضهم على بعض ؛ فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة . فإن لم تكن له حسنة ، أخذ من سيئات المظلوم ، فرد على سيئات الظالم ، فيرجع وعليه مثل الجبال .

فان قيل : أليس الله يعلم مقادير الأعمال ، فما الحكمة في وزنها ؛ فالجواب أن فيه خمسة حكم .

إحداها : امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا . والثانية : إظهار علامة السعادة والشقاوة في الآخرة . والثالثة : تعريف العباد ما لهم من خير وشر . والرابعة : إقامة الحجة عليهم . والخامسة : الإعلام بأن الله عادل لا يظلم . ونظير هذا أنه أثبت الأعمال في كتاب ، واستنسخها من غير جواز النسيان عليه .

(١) ذكره ابن كثير في « التفسير » ١٠٧/٣ من طريق ابن أبي حاتم عن أبي هريرة بلفظ : « يؤتى بالرجل الأكل والشروب العظيم فيوزن بحجة فلا يزنها » . وروى البخاري ٣٢٤/٨ ، ومسلم ٢١٤٧/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » وقال : « اقرؤوا : (فلا تقيم لهم يوم القيامة وزنا) » [الكهف : ١٠٥] .

(٢) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » بأطول مما هنا ، ونسبه إلى البيهقي في « شعب الإيمان » .

﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد مكناكم في الأرض) فيه قولان .

أحدهما : مكناكم إياها . والثاني : سهّلنا عليكم التصرف فيها .
وفي المعاش قولان .

أحدهما : ما يمشون به من المطاعم والمشارب .

والثاني : ما يتوصلون به إلى المعاش ، من زراعة ، وعمل ، وكسب .
وأكثر القراء على ترك الهمز في « معاش » وقد رواها خارجة عن نافع مهموزة .
قال الزجاج : وجميع النحويين البصريين يزعمون أن همزها خطأ ، لأن الهمز إنما يكون في الياء الزائدة ، نحو صحيفة وصحائف ؛ فصحيفة من الصحف ؛ والياء زائدة ، فأما معاش ، فمن العيش ؛ فالياء أصلية .

قواه تعالى : (قليلاً ما تشكرون) أي : شكركم قليل . وقال ابن عباس : يريد أنكم غير شاكرين .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِنْ صَوْرَتِنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) فيه ثمانية أقوال .

أحدها : ولقد خلقناكم في ظهر آدم ، ثم صورناكم في الأرحام ، رواه عبد الله بن الحارث عن ابن عباس .

والثاني : ولقد خلقناكم في أصلاب الرجال ، وصورناكم في أرحام النساء ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة .

والثالث : « ولقد خلقناكم » ، يعني آدم ، « ثم صورناكم » ، يعني ذريته من بعده رواه العوفي عن ابن عباس .

والرابع : « ولقد خلقناكم » ، يعني آدم ، « ثم صورناكم » في ظهره ، قاله مجاهد .
والخامس : « خلقناكم » نطفاً في أصلاب الرجال ، وثرائب النساء ، « ثم صورناكم » عند اجتماع النطف في الأرحام ، قاله ابن السائب .

والسادس : « خلقناكم » في بطون أمهاتكم ، « ثم صورناكم » فيما بعد الخلق بشق السمع والبصر ، قاله معمر .

والسابع : « خلقناكم » ، يعني آدم خلقناه من تراب ، « ثم صورناكم » ، أي : صورناه ، قاله الزجاج ، وابن قتبية . قال ابن قتبية : فجعل الخلق لهم إذ كانوا منه ؛ فن قال : عني بقوله « خلقناكم » آدم ، فممناء : خلقنا أصلكم ؛ ومن قال : صورنا ذريته في ظهره ، أراد إخراجهم يوم الميثاق كهيئة الذر .

والثامن : « ولقد خلقناكم » يعني الأرواح ، « ثم صورناكم » يعني الأجساد ، حكاه القاضي أبو يعلى في « المتمد » . وفي « ثم » المذكورة مرتين قولان .
أحدهما : أنها بمعنى الواو ، قاله الأخفش . والثاني : أنها للترتيب ، قاله الزجاج .

﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾

قوله تعالى : (ما منك ألا تسجد) « ما » استفهام ، ومعناها الإنكار . قال الكسائي : « لا » هاهنا زائدة . والمعنى : ما منك أن تسجد ؟ . وقال الزجاج : موضع « ما » رفع . والمعنى : أي شيء منك من السجود ؟ و « لا » زائدة

مؤكَّدة ؛ ومثله : (لئلا يعلم أهل الكتاب) [الحديد : ٢٩] . قال ابن قتيبة :
وقد تزايد « لا » في الكلام . والمعنى : طرحها لإبائه في الكلام ، أو جحد ،
كهذه الآية . وإنما زاد « لا » لأنه لم يسجد . ومثله : (أنها إذا جاءت لا يؤمنون)
[الانعام : ١٠٩] على قراءة من فتح « أنها » ، فزاد « لا » لأنهم لم يؤمنوا ؛
ومثله : (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) [الأنبياء : ٩٥] . وقال
الفراء : « لا » هاهنا جحد محض ، وليست بزائدة ، والمنع راجع إلى تأويل القول ،
والتأويل : من قال لك : لا تسجد ؛ فأحل المنع محل القول ، ودخلت بعده « أن »
ليدل على تأويل القول الذي لم يتصرح لفظه . وقال ابن جرير : في الكلام محذوف ،
تقديره : ما منعك من السجود ، فأحوجك أن لا تسجد ؛ . قال الزجاج : وسؤال
الله تعالى لإبليس « ما منعك » توبيخ له ، وليظهر أنه معاند ، ولذلك لم يتب ،
وأتى بشيء في معنى الجواب ، ولفظه غير جواب ، لأن قوله : (أنا خير منه)
إنما هو جواب ، أي كما خير ؛ ولكن المعنى : منعي من السجود فضلي عليه .
ومثله قولك للرجل : كيف كنت ؟ فيقول : أنا صالح ؛ وإنما الجواب : كنت
صالحاً ، فيجيب بما يحتاج إليه وزيادة . قال المصنف : وقع الخطأ من إبليس حين
قاس مع وجود النص ، وخفي عليه فضل الطين على النار ؛ وفضله من وجوه .
أحدها : أن من طبع النار الطيش والالتهاب والمجلة ، ومن طبع الطين

الهدوء والرزانة .

والثاني : أن الطين سبب الإنبات والإيجاد ، والنار سبب الإعدام والإهلاك .

والثالث : أن الطين سبب جمع الأشياء ، والنار سبب تفريقها .

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ ﴾

﴿ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (فاهبط منها) في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى السماء ، لأنه كان فيها ، قاله الحسن .

والثاني : إلى الجنة ، قاله السدي .

قوله تعالى : (فما يكون لك أن تتكبر فيها) إن قيل : فهل لأحد أن

يتكبر في غيرها ؟ فالجواب : أن المعنى : ما لل متكبر أن يكون فيها ، وإنما المتكبر

في غيرها . وأما الصاغر ، فهو الذليل . والصغار : الذل . قال الزجاج : استكبر

إبليس بابائه السجود ، فأعلمه الله أنه صاغر بذلك .

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ . قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾

قوله تعالى : (قال أنظرني) أي أهمني وأخبرني (إلى يوم يبعثون) ، فأراد

أن يعبر قطرة الموت ؛ وسأل الخلود ، فلم يجبه إلى ذلك ، وأنظره إلى النفخة

الأولى حين يموت الخلق كلهم . وقد بين مدة إيماله في (الحجر) بقوله : (إلى

يوم الوقت المعلوم) [الحجر : ٣٨] . وفي ما سأل الإمهال له قولان .

أحدهما : الموت . والثاني : العقوبة . فان قيل : كيف قيل له : (إنك من

المنظرين) وليس أحد أنظر سواه ؟ فالجواب : أن الذين تقوم عليهم الساعة منظرون

إلى ذلك الوقت بأجلهم ، فهو منهم .

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

قوله تعالى : (فبما أغويتني) في معنى هذا الإغواء قولان .

أحدهما : أنه بمعنى الإضلال ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

الثاني : أنه بمعنى الإهلاك ، ومنه قوله : (فسوف يلقون غيا) [مريم : ٥٩] ،

أي : هلاكاً ، ذكره ابن الأنباري . وفي معنى « فبما » قولان .

أحدهما : أنها بمعنى القسم ، أي : فباغوائك لي .

والثاني : أنها بمعنى الجزاء ، أي : فبأنك أغويتني ، ولاجل أنك أغويتني

(لا تمدن لهم صراطك المستقيم) . قال الفراء ، والزجاج : أي على صراطك .

ومثله قولهم : ضُرب زيد الظهر والبطن . وفي المراد بالصراط هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه طريق مكة ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، وسعيد بن جبير ؛

كأن المراد صدقهم عن الحق .

والثاني : أنه الإسلام ، قاله جابر بن عبد الله ، وابن الحنفية ، ومقاتل .

والثالث : أنه الحق ، قاله مجاهد .

﴿ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ الْبَيْنُ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ

وَعَنْ شِمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ الْبَيْنُ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ

شِمَائِلِهِمْ) فيه سبعة أقوال .

أحدها : « من بين أيديهم » أشككم في آخرتهم ، « ومن خلفهم » أرغبهم

في دنياهم ، « وعن أيمانهم » أي : من قبل حسناتهم ، « وعن شمائلمهم » من قبل

سيئاتهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : مثله ، إلا أنهم جعلوا « من بين أيديهم » الدنيا ، « ومن خلفهم »

الآخرة ، قاله النخعي ، والحكم بن عتيبة .

والثالث : مثل الثاني ، إلا أنهم جعلوا « وعن أيمانهم » من قبل الحق

أصدقهم عنه ، « وعن شمائلمهم » من قبل الباطل أردتهم إليه ، قاله مجاهد ، والسدي .

والرابع : « من بين أيديهم » من سبيل الحق ، « ومن خلفهم » من سبيل

الباطل ، « وعن أيمانهم » من قبل آخرتهم ، « وعن شمائلهم » من أمر الدنيا ، قاله أبو صالح .

والخامس : « من بين أيديهم » « وعن أيمانهم » من حيث يبصرون ، « ومن خلفهم » « وعن شمائلهم » من حيث لا يبصرون ، تقل عن مجاهد أيضاً .
والسادس : أن المعنى : لأنصرفن لهم في الإضلال من جميع جهاتهم ، قاله الزجاج ، وأبو سليمان الدمشقي . فلي هذا ، يكون ذكر هذه الجهات ، للمبالغة في التأكيد .

والسابع : « من بين أيديهم » فيما بقي من أعمارهم ، فلا يقدمون فيه على طاعة ، « ومن خلفهم » فيما مضى من أعمارهم ، فلا يتوبون فيه من معصية ، « وعن أيمانهم » من قبل النسي ، فلا ينفقونه في مشكور ، « وعن شمائلهم » من قبل الفقر ، فلا يتمتعون فيه من محظور ، قاله الماوردي .

قوله تعالى : (ولا نجد أكثرهم شاكرين) فيه قولان .

أحدهما : موحدين ، قاله ابن عباس .

والثاني : شاكرين لنعمتك ، قاله مقاتل . فان قيل : من أين علم إيليس ذلك ؟ فقد أسلفنا الجواب عنه في سورة (النساء) .

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ . وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَثْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (قال اخرج منها مذؤوماً) وقرأ الأعمش : « مذؤوماً » بضم الذال

زاد السير ٣ م (١٢)

من غير همز. قال الفراء : الذَّآمُ : الذَّمُّ ؛ يقال : ذأمتُ الرجلَ ، أذأمتُه ذأماً ؛ وذمته ، أذمته ذمّاً ؛ وذمته ، أذمته ذيماً ؛ ويقال : رجل مذؤوم ، ومذموم ، ومذيم ، بمعنى . قال حسان بن ثابت :

وأقاموا حتى أبليروا جميعاً في مقامٍ وكلّهم مذؤوم^(١)

قال ابن قتيبة : المذؤوم : المذموم بأبلغ الهم . والمدحور : المقصي البعد . وقال الزجاج : معنى المذؤوم كمنى المذموم ، والمدحور : البعد من رحمة الله . واللام من « لأملائن » : لام القسم ؛ والكلام بمعنى الشرط والجزاء ، كأنه قيل له : من تبعك ، أعذبه ، فدخلت اللام للمبالغة والتوكيد . فلام « لأملائن » هي لام القسم ، ولام « لمن تبعك » توطئة لها . فأما قوله : « منهم » فقال ابن الأنباري : الهاء والميم عائدتان على ولد آدم ، لأنه حين قال : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) [الاعراف : ١١] كان مخاطباً لولد آدم ، فرجع إليهم ، فقال : (لمن تبعك منهم) فجعلهم غائبين ، لأن مخاطبتهم في ذا الموضع توقع لبساً ؛ والعرب ترجع من الخطاب إلى النيبة ، ومن النيبة إلى الخطاب . ومن قال : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) خطاب لآدم ، قال : أعاد الهاء والميم على ولده ، لأن ذكره يكفي من ذكرهم ؛ والعرب تكتفي بذكر الوالد من ذكر الأولاد إذا انكشف المعنى وزال اللبس . قال الشاعر :

أرى الخطفى بَدَّ الفرزدقُ شِعْرَهُ ولكنَّ خيراً من كُليبٍ مُجاشِعُ

أراد : أرى ابن الخطفى ، فاكتمى بالخطفى من ابنه .

قوله تعالى : (لأملائن جهنم منكم) يعني أولاد آدم المخالفين وقرناءهم من الشياطين .

(١) « سيرة ابن هشام ، ١٥٠/٢ ، وفيها : « حتى أيحوا . . . وكلهم مذموم ، والبيت

من قصيدة يذكر فيها عدة أصحاب اللواء يوم أحد .

﴿ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (فوسوس لهما الشيطان) قيل : إن الوسوسة : إخفاء الصوت . قال ابن فارس : الوسواس : صوت الخلي ، ومنه وسواس الشيطان . و « لهما » بمعنى « إليهما » ، (ليبدى لهما) أي : ليظهر لهما (ما ووري عنهما) أي : ستر . وقيل : إن لام « ليبدى » لام العاقبة ؛ وذلك أن عاقبة الوسوسة أدت إلى ظهور عورتهما ، ولم تكن الوسوسة لظهورها .

قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ) قال الأخفش ، والزجاج : معناه : مانهاكما إلا كراهة أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ . وقال ابن الأنباري : المعنى : إِلَّا أَنْ لَا تَكُونَا ، فاكتمى بـ « أَنْ » من « لَا » فأسقطها . فان قيل : كيف انقاد آدم لإبليس ، مستشفراً إلى أَنْ يكون مَلَكًا ، وقد شاهد الملائكة ساجدة له ؛ فمنه جوابان . أحدهما : أنه عرف قريبهم من الله ، واجتماع أكثرهم حول عرشه ، فاستشفرف لذلك ، قاله ابن الأنباري .

والثاني : أن المعنى : إِلَّا أَنْ تَكُونَا طَوِيلَي الْعَمَرِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ (أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) لاعموتان أبداً ، قاله أبو سليمان الدمشقي . وقد روى يعلى بن حكيم عن ابن كثير : « أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ » بكسر اللام ، وهي قراءة الزهري .

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فَدَلَّيَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ

وَأَقْبَلَ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا
 أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَنْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .
 قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
 وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا
 تُخْرَجُونَ ﴿

قوله تعالى : (وقاسمها) قال الزجاج : حلف لهما ، فدلاهما في المصيبة بأن غرهما .
 قال ابن عباس : غرهما باليمين ، وكان آدم لا يظن أن أحداً يحلف بالله كاذباً .

قوله تعالى : (فلما ذاقا الشجرة) أي : فلما ذاقا ثمر الشجرة . قال الزجاج :
 وهذا يدل على أنها إنما ذاقاها ذواقاً ، ولم يبالغا في الأكل . والسوأة كناية عن
 الفرج ، لا أصل له في تسميته . ومعنى (طفقا) أخذاً في الفعل ؛ والأكثر : طفق
 يَطْفُقُ ؛ وقد رويت : طفقَ يَطْفِقُ ، بكسر الفاء ، ومعنى (يَخِصِفَان) يَجْمَلَان
 ورقة على ورقة ، ومنه قيل الذي يرقع النمل : خصاف .

وفي الآية دليل على أن إظهار السوأة قبيح من لدن آدم ؛ ألا ترى إلى قوله :
 (لييدي لهما ماووري عنهما من سوءاتهما) فانهما بادرا يستتران لقبح التكشف .
 وقيل : إنما سميت السوأة سوءة ، لأن كشفها يسوء صاحبها . قال وهب بن منبه :
 كان لباسها نوراً على فروجها ، لا يرى أحدهما عورة الآخر ؛ فلما أصابا الخطيئة ،
 بدت لهما سوءاتهما . وقرأ الحسن : « سوءاتهما » على التوحيد ؛ وكذلك قرأ :
 « يَخِصِفَان » بكسر الياء وانحاء مع تشديد الصاد . وقرأ الزهري : بضم الياء
 وفتح الخاء مع تشديد الصاد . وفي الورد قولان .

أحدهما : ورق التين ، قاله ابن عباس .

والثاني : ورق الموز ، ذكره المفسرون . وما بعد هذا قد سبق تفسيره إلى قوله : (قال فيها تحيون) يعني الأرض . واختلف القراء في تاء « تخرجون » ؛ فقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو : بضم التاء وفتح الراء ، هاهنا ؛ وفي الروم : (وكذلك تُخرجون) [الروم : ١٩] . وفي الزخرف : (كذلك تُخرجون) [الزخرف : ١١] . وفي الجاثية : (لا يُخرجون منها) [الجاثية : ٣٥] . وقرأهن حمزة ، والكسائي : بفتح التاء وضم الراء . وفتح ابن عامر التاء في (الاعراف) فقط . فأما التي في (الروم) (إذا أنتم تخرجون) [الروم : ٢٥] ، وفي (سأل سائل) (يوم يخرجون) [المارج : ٤٣] ففتوحتان من غير خلاف .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً) سبب نزولها : أن ناساً من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد . وقيل : إنه لما ذكر عري آدم ، منّ علينا باللباس . وفي معنى (أنزلنا عليكم) ثلاثة أقوال . أحدها : خلقنا لكم . والثاني : ألهمناكم كيفية صنعه . والثالث : أنزلنا المطر الذي هو سبب نبات ما ينخذ لباساً . وأكثر القراء قرؤوا : « وريشاً » . وقرأ ابن عباس ، والحسن ، وزرّ بن حبيش ، وقتادة ، والمفضل ، وأبان عن عاصم : « ورياشاً » بألف . قال الفراء : يجوز أن تكون الرياش جمع الريش . ويجوز أن تكون بمعنى الريش كما قالوا : لبس ، ولباس .

قال الشاعر :

فلما كَشَفْنَ اللَّيْسَ عَنْهُ مَسَحْنَهُ بِأَطْرَافِ طَفْلِ زَانَ غَيْلاً مُوشِماً^(١)
قال ابن عباس ، ومجاهد : « الرياش » : المال ؛ وقال عطاء : المال والنعيم .
وقال ابن زيد : الريش : الجمال ؛ وقال معبد الجني : الريش : الرزق ؛ وقال
ابن قتيبة : الريش والرياش : ما ظهر من اللباس . وقال الزجاج : الريش : اللباس
وكل ما ستر الإنسان في جسمه ومعيشته . يقال : تريش فلان ، أي : صار له
ما يعيش به . أنشد سيدييه :

رياشي منكم وهواي معكم وإن كانت زيارتكم لئاما^(٢)

وعلى قول الأكثرين : الريش والرياش بمعنى . قال قطرب : الريش والرياش واحد .
وقال سفيان الثوري : الريش : المال ، والرياش : الثياب .

قوله تعالى : (ولباس التقوى) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمة :
« ولباسُ التقوى » بالرفع . وقرأ ابن عامر ، ونافع ، والكسائي : بنصب اللباس .
قال الزجاج : من نصب اللباس ، عطف به على الريش ؛ ومن رفعه ، فيجوز أن
يكون مبتدأ ، ويجوز أن يكون مرفوعاً باضمار : هو ؛ المعنى : وهو لباس التقوى ،
أي : وستر المودة لباس المتقين . والمفسرين في لباس التقوى عشرة أقوال .

(١) البيت لحيد بن ثور الهلالي ، ديوانه ١٤ ، و « معاني القرآن » للفراء : ٣٧٥/١ ،
و « الطبري » : ٣٦٤/١٢ ، و « المختص » ٣٥/٤ ، و « اللسان » : لبس ، و « طفيل » .
الطفل : البتان الناعم ، أراد : مسحته بأطراف بنان طفل . والنيل : الساعد الريان الممتلئ .
والموشم : عليه الوشم . والوشم : زينة الجاهلية ، وقد أبطلها الاسلام ، ولعن فاعلها .

(٢) البيت لجرير ، ديوانه ٥٠٦ مدح هشام بن عبد الملك ، وأنشده سيدييه ٤٥/٢ ونسبه
للراعي . والدام : الشيء اليسير ، وهو أيضاً : الزيادة في النوم ، وأصله من ألم بالنزول : إذا
نزل به ثم رحل .

أحدها : أنه السمت الحسن ، قاله عثمان بن عفان ؛ ورواه الذئبال بن عمرو عن ابن عباس . والثاني : العمل الصالح ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثالث : الإيثار ، قاله قتادة ، وابن جريج ، والسدي ؛ فملئ هذا ، سمي لباس التقوى ، لأنه يقي العذاب . والرابع : خشية الله تعالى ، قاله عروة بن الزبير . والخامس : الحياة ، قاله معبد الجهنبي ، وابن الأنباري . والسادس : ستر المورة للصلاة ، قاله ابن زيد . والسابع : أنه الدرع ، وسائر آلات الحرب ، قاله زيد بن علي . والثامن : العفاف ، قاله ابن السائب . والتاسع : أنه ما يُتَّقَى به الحر والبرد ، قاله ابن بحر . والعاشر : أن المعنى : ما يَنْبَسُه المتقون في الآخرة ، خير مما يلبسه أهل الدنيا ، رواه عثمان ابن عطاء عن أبيه .

قوله تعالى : (ذاك خير) قال ابن قتيبة : المعنى : ولباس التقوى خير من الثياب ، لأن الفاجر ، وإن كان حسن الثوب ، فهو بادي المورة ؛ و« ذلك » زائدة . قال الشاعر في هذا المعنى :

إِنِّي كَأَنِّي أَرَى مَنْ لَاحِيَاءَ لَهُ وَلَا أَمَانَةَ وَسَنَطَ الْقَوْمِ عُرْيَانَا

قال ابن الأنباري : ويقال : لباس التقوى ، هو اللباس الأول ، وإنما أعاده لما أخبر عنه بأنه خير من التعمري ، إذ كانوا يتعبدون في الجاهلية بالتعمري في الطواف . قوله تعالى : (ذلك من آيات الله) قال مقاتل : يعني : الثياب والمال من آيات الله وصنمه ، لكي يذكروا ، فيعتبروا في صنمه .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان) قال المفسرون : هذا الخطاب للذين كانوا يطوفون عراة ؛ والمعنى : لا يخدعنكم ولا يضلنكم بفروره ، فيزين لكم كشف عوراتكم ، كما أخرج أبوكم من الجنة بفروره . وأضيف الإخراج ونزع اللباس إليه ، لأنه السبب . وفي « لباسها » أربعة أقوال .

أحدها : أنه النور ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ وقد ذكرناه عن ابن منبه .
والثاني : أنه كان كالظفر ؛ فلما أكلا ، لم يبق عليهما منه إلا الظفر ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، وابن زيد .
والثالث : أنه التقوى ، قاله مجاهد .

والرابع : أنه كان من ثياب الجنة ، ذكره القاضي أبو يعلى .

قوله تعالى : (ليريهما سوءتهما) أي : ليري كل واحد منهما سوءة صاحبه .
(إنه يراكم هو و قبيله) قال مجاهد : قبيله : الجن والشياطين . قال ابن عباس : جعلهم الله يجررون من بني آدم مجرى الدم ، وصدور بني آدم مساكن لهم ، فهم يرون بني آدم ، وبني آدم لا يرونهم .

قوله تعالى : (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) قال الزجاج : سلطانهم عليهم ، يزيدون في غيهم . وقال أبو سليمان : جعلناهم موالين لهم .

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ اللَّهَ لَآيَأُ مُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا فعلوا فاحشة) فيمن عني بهذه الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة . والفاحشة : كشف العورة ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وزيد بن أسلم ، والسدي .

والثاني : أنهم الذين جعلوا السائبة والوصيلة والحام وتلك الفاحشة ، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أنهم المشركون ؛ والفاحشة : الشرك ، قاله الحسن ، وعطاء .
قال الزجاج : فأعلمهم عز وجل أنه لا يأمر بالفحشاء ، لأن حكته تدل على أنه لا يفعل إلا المستحسن . والقسط : العدل . والعدل : ما استقر في النفوس أنه مستقيم لا ينكره مميّز ، فكيف يأمر بالفحشاء ، وهي ما عظم قبحه ١٢ .

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾
قوله تعالى : (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) فيه أربعة أقوال .

أحدها : إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد ، فصلّوا فيه ، ولا يقولنّ أحدكم : أصلي في مسجدي ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، واختاره ابن قتيبة .
والثاني : توجهوا حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة ، قاله مجاهد ، والسدي ، وابن زيد .

والثالث : اجعلوا سجودكم خالصاً لله تعالى دون غيره ، قاله الربيع بن أنس .
والرابع : اقصدا المسجد في وقت كل صلاة ، أمراً بالجماعة لها ، ذكره الماوردي . وفي قوله : (وادعوه) قولان .

أحدهما : أنه العبادة . والثاني : الدعاء . وفي قوله : (مخلصين له الدين) قولان .
أحدهما : مفتردين له العبادة . والثاني : موحّدين غير مشركين .
وفي قوله : (كما بدأكم تعودون) ثلاثة أقوال .

أحدها : كما بدأكم سعداء وأشقياء ، كذلك تبغثون ، روى هذا المعنى

علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والقرظي ، والسدي ، ومقاتل ، والفراء .

والثاني : كما خَلَقْتُمْ بِقَدْرَتِهِ ، كذلك يعيدكم ، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وابن زيد ، والزجاج ، وقال : هذا الكلام متصل بقوله : (فيها تحيون وفيها تموتون) [الاعراف: ٢٥] .

والثالث : كما بدأكم لا تملكون شيئاً ، كذلك تمودون ، ذكره الماوردي .
﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (فريقاً هدى) قال الفراء : نصب الفريق بـ « تمودون » .
وقال ابن الأنباري : نصب « فريقاً » و « فريقاً » على الحال من الضمير الذي في « تمودون » ، يريد : تمودون كما ابتدأ خلقكم مختلفين ، بعضهم سعداء ، وبعضهم أشقياء .

قوله تعالى : (حق عليهم الضلالة) أي : بالكلمة القديمة ، والإرادة السابقة .
﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

قوله تعالى : (يا بني آدم خذوا زينتكم) سبب نزولها : أن ناساً من الأعراب كانوا يطوفون بالبيت عمراً ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تطلق على فرجها سيوراً ، وتقول :

اليوم يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أَحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية ^(١) قاله ابن عباس . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : كانوا إذا حجوا ، فأفاضوا من منى ، لا يصلح لأحد منهم في دينه الذي اشترعوا أن يطوف في ثوبيه ، فيلقبها حتى يقضي طوافه ، فنزلت هذه الآية . وقال الزهري : كانت العرب تطوف بالبيت عمرة ، إلا الحمس ، قريش وأحلافها ، فمن جاء من غيرهم ، وضع ثيابه وطاف في ثوبي أحمس ، فإن لم يجد من يُعيره من الحمس ، ألقى ثيابه وطاف عرياناً ، فإن طاف في ثياب نفسه ، جعلها حراماً عليه إذا قننى الطواف ، فلذلك جاءت هذه الآية . وفي هذه الزينة قولان .

أحدهما : أنها الثياب . ثم فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أنه ورد في ستر العورة في الطواف ، قاله ابن عباس ، والحسن في جماعة . والثاني : أنه ورد في ستر العورة في الصلاة ، قاله مجاهد ، والزجاج . والثالث : أنه ورد في التزين بأجل الثياب في الجمع والأعياد ، ذكره الماوردي .

والثاني : أن المراد بالزينة : المشط ، قاله أبو رزين .

قوله تعالى : (وكلوا واشربوا) قال ابن السائب : كان أهل الجاهلية لا يأكلون في أيام حجهم دَسَمًا ، ولا ينالون من الطعام إلا قوتاً ، تسيئاً لحجهم ، فنزل قوله : (وكلوا واشربوا) . وفي قوله : (ولا تسرفوا) أربعة أقوال .

أحدها : لا تسرفوا بتحريم ما أحل لكم ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا تأكلوا حراماً ، فذلك الإسراف ، قاله ابن زيد .

(١) مسلم في صحيحه ، ٢/٤٠٣ من طريق غندر عن شعبة ، و « الطبري » ، ١٢/٣٩٠ . ورواه الحاكم في « المستدرک » ، ٢/٣١٩ - ٣٢٠ من طريق أبي داود الطيالسي عن شعبة ، ولكن قال : نزلت هذه الآية : (قل من حرم زينة الله) . ثم قال الحاكم : حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

والثالث : لا تشركوا ، فعنى الإسراف هاهنا : الإشراف ، قاله مقاتل .

والرابع : لا تأكلوا من الحلال فوق الحاجة ، قاله الزجاج .

ونقل أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق ، فقال لملي بن الحسين بن واقد :

ليس في كتابكم من علم الطب شيء ، فقال ملي : قد جمع الله تعالى الطب في نصف آية من كتابنا . قال : ماهي ؟ قال : قوله تعالى : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) .

قال النصراني : ولا يؤثر عن نبيكم شيء من الطب ، فقال : قد جمع رسولنا علم الطب في ألفاظ يسيرة . قال : وما هي ؟ قال : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وعودوا كل بدن ما اعتاد » ^(١) . فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم الجالينوس طباً .

قال المصنف : هكذا نقلت هذه الحكاية ، إلا أن هذا الحديث المذكور فيها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يثبت . وقد جاءت عنه في الطب أحاديث قد ذكرتها في كتاب « لقط المنافع في الطب » .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل من حرم زينة الله) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

(١) ذكره الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » وقال : لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ، أو غيره . نعم عند ابن أبي الدنيا في الصمت من جهة وهب بن منبه قال : أجمت الأطباء على أن رأس الطب الحمية ، وأجمت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت . وللخلال من حديث عائشة : « الأزم دواء ، والمعدة داء ، وعودوا بدنا ما اعتاد » . وأورد الفزالي في « الاحياء » من المرفوع : « البطنة أصل الداء ، والحمية أصل الدواء ، وعودوا كل بدن بما اعتاد » . وقال مخرجه : « لم أجد له أصلاً » .

أحدها : أن المشركين عَيَّرُوا المسلمين، إذ لبسوا الثياب في الطواف، وأكلوا الطيبات، فنزلت، رواه أبو صالح عن ابن عباس .
 والثاني : أنهم كانوا يُحَرِّمون أشياء أحلَّها الله، من الزروع وغيرها، فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .
 والثالث : نزلت في طوافهم بالبيت عرَاءً، قاله طاووس، وعطاء .
 وفي زينة الله قولان .

أحدهما : أنها ستر المورة؛ فالمعنى : من حرم أن تلبسوا في طوافكم ما يستركم؟ .
 والثاني : أنها زينة اللباس . وفي الطيبات قولان .
 أحدهما : أنها الحلال . والثاني : المستند . ثم في ما عني بها ثلاثة أقوال .
 أحدها : أنها البجائر، والسوائب، والوصائل، والحوامي التي حرَّموها، قاله ابن عباس، وقتادة .

والثاني : أنها السَّمْنُ، والألبان، واللحم، وكانوا حرَّموه في الإحرام، قاله ابن زيد . والثالث : الحرث، والأنعام، والألبان، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة) قال ابن الأنباري : « خالصة » نَسَبٌ على الحال من لام مضمره، تقديرها : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة، وهي لهم في الآخرة خالصة، فحذفت اللام لوضوح معناها، كما تحذف العرب أشياء لا يُلْبِسُ سقوطها .

قال الشاعر :

تَقُولُ ابْنَتِي لَمَّا رَأَتْني شَاحِبًا كَأَنَّكَ يَحْنِينُكَ الطَّعَامَ طَيِّبُ
 تَسَابِعُ أَحْدَاثٍ تَحْرَمُنَ إِخْوَتِي فَشَيْبَنَ رَأْسِي، وَالْغُطُوبُ تُشَيِّبُ

أراد : فقلت لها : الذي أكسبني مآتين ، تتابع أحداث ، فحذف لاكتشاف المعنى .
قال المفسرون : إن المشركين شاركوا المؤمنين في الطيبات ، فأكلوا ولبسوا
ونكحوا ، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للمؤمنين ، وليس للمشركين فيها شيء .
وقيل : خالصة لهم من ضرر أو إثم . وقرأ نافع : « خالصة » بالرفع . قال الزجاج :
ورفعها على أنه خبر بعد خبر ، كما تقول : زيد عاقل لبيب ؛ والمعنى : قل هي ثابتة
لذين آمنوا في الدنيا ، خالصة يوم القيامة .

قوله تعالى : (كذلك تفصل الآيات) أي : هكذا نبينها .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل إنما حرم ربي الفواحش) قرأ حمزة : (ربي الفواحش)
باسكان الياء : (ماظهر منها وما بطن) فيه ستة أقوال .

أحدها : أن المراد بها الزنا ، ماظهر منه : علانيته ، وما بطن : سره ، رواه
ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير .

والثاني : أن ماظهر : نكاح الأمهات ، وما بطن : الزنا ، رواه سعيد بن جبير
عن ابن عباس ، وبه قال علي بن الحسين .

والثالث : أن ماظهر : نكاح الأبناء نساء الآباء ، والجمع بين الأختين ، وأن
تنكح المرأة على عمتها أو خالتها ، وما بطن : الزنا ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والرابع : أن ماظهر : الزنا ، وما بطن : الغزل ، قاله شريح .

والخامس : أن ماظهر : طواف الجاهلية عراة ، وما بطن : الزنا ، قاله مجاهد .

والسادس : أنه عامٌ في جميع المعاصي . ثم في « ما ظهر منها وما بطن » قولان . أحدهما : أن الظاهر : العلانية ، والباطن : السر ، قاله أبو سليمان الدمشقي . والثاني : أن ما ظهر : أفعال الجوارح ، والباطن : اعتقاد القلوب ، قاله الماوردي . وفي الإثم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الذنب الذي لا يوجب الحدَّ ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، والفراء . والثاني : المعاصي كلها ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه الحر ، قاله الحسن ، وعطاء . قال ابن الأنباري : أنشدنا رجل في مجلس نعلب بمحضرة ، وزعم أن أبا عبيدة أنشده :

نَشْرَبُ الْإِثْمَ بِالصُّوَاعِ جِهَارًا وَنَرَى الْمُتَّكَ يَتَنَا مُسْتَعَارًا^(١)

فقال أبو العباس : لا أعرفه ، ولا أعرف الإثم : الحر ، في كلام العرب . وأنشدنا رجل آخر :

شَرِبْتُ الْإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي كَذَلِكَ الْإِثْمُ تَذَهَبُ بِالْمَقُولِ

قال أبو بكر : وما هذا البيت معروفًا أيضًا في شعر من يحتج بشعره ، وما رأيت أحدًا من أصحاب الغريب أدخل الإثم في أسماء الحر ، ولا سمّتها العرب بذلك في جاهلية ولا إسلام .

فإن قيل : إن الحر تدخل تحت الإثم ، فصواب ، لا لأنه اسم لها .

فإن قيل : كيف فصل الإثم عن الفواحش ، وفي كل الفواحش إثم ؟

فالجواب : أن كل فاحشة إثم ، وليس كل إثم فاحشة ، فكان الإثم كل

فعل مذموم ؛ والفاحشة : العظيمة . فأما البغي ، فقال الفراء : هو الاستطالة على الناس .

(١) البيت غير منسوب في « اللسان » ، أثم . و « التاج » ، منك . والمتك : الأترج .

قوله تعالى : (وَأَنْ تَشْرَكُوا) قال الزجاج : موضع « أَنْ » نصب ؛ فالمعنى : حرّم الفواحش ، وحرّم الشرك . والسلطان : الحجة .
قوله تعالى : (وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) عام في تحريم القول في الدين من غير يقين .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولكل أمة أجل) سبب نزولها : أنهم سألوا النبي ﷺ العذاب ، فأُنزلت ، قاله مقاتل . وفي الأجل قولان .
أحدهما : أنه أجل العذاب . والثاني : أجل الحياة . قال الزجاج : الأجل : الوقت المؤقت . (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة) المعنى : ولا أقل من ساعة . وإنما ذكر الساعة ، لأنها أقل أسماء الأوقات .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَإِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَا مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (يا بني آدم إنما يأتينكم رسل منكم) قال الزجاج : أضر : « فأطيعوهم » . وقد سبق معنى « إما » في سورة (البقرة : ٣٨) ؛ والباقي ظاهر إلى قوله : (ينالهم نصيبهم من الكتاب) ففي معناه سبعة أقوال .

- أحدها : ما قَدَّرَ لهم من خير وشر ، رواه مجاهد عن ابن عباس .
- والثاني : نصيبهم من الأعمال ، فَيُجْزَوْنَ عليها ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .
- والثالث : ما كُتِبَ عليهم من الضلالة والهدى ، قاله الحسن . وقال مجاهد ، وابن جبير : من السعادة والشقاوة .
- والرابع : ما كتب لهم من الأرزاق والأعمار والأعمال ، قاله الربيع ، والقرظي ، وابن زيد .
- والخامس : ما كتب لهم من العذاب ، قاله عكرمة ، وأبو صالح ، والسدي .
- والسادس : ما أخبر الله تعالى في الكتب كلِّها : أنه من اقترى على الله كذبا ، اسودَّ وجهه ، قاله مقاتل .
- والسابع : ما أخبر في الكتاب من جزائهم ، نحو قوله : (فَأَنْذَرْتُمْ نَاراً تَلْظَى) [البقرة : ١٤] ، قاله الزجاج . فاذن في الكتاب خمسة أقوال .
- أحدها : أنه اللوح المحفوظ . والثاني : كُتِبَ اللهُ كلُّها . والثالث : القرآن . والرابع : كتاب أعمالهم . والخامس : القضاء .
- قوله تعالى : (حتى إذا جاءتهم رسلنا) فيهم ثلاثة أقوال .
- أحدها : أنهم أعوان ملك الموت ، قاله النخعي . والثاني : ملك الموت وحده ، قاله مقاتل . والثالث : ملائكة العذاب يوم القيامة .
- وفي قوله : « يتوفَّونهم » ثلاثة أقوال .
- أحدها : يتوفَّونهم بالموت ، قاله الأكثرون . والثاني : يتوفَّونهم بالحشر
- زاد السير ٣ م (١٣)

إلى النار يوم القيامة ، قاله الحسن . والثالث : يتوفونهم عذاباً ، كما تقول : قتلت فلاناً بالمذاب ، وإن لم يمت ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (أين ما كنتم تدعون) أي : تعبدون (من دون الله) ، وهذا سؤال تبكيت وتقريع . قال مقاتل : المعنى : فليمنعوكم من النار . قال الزجاج : ومعنى (ضلّوا عنا) : بطلوا وذهبوا ، فيمترفون عند موتهم أنهم كانوا كافرين . وقال غيره : ذلك الاعتراف يكون يوم القيامة .

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ ضَلُّونَا فَأَتَيْنَاهُمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (قال ادخلوا) إن الله تعالى يقول لهم ذلك بواسطة الملائكة ، لأن الله تعالى لا يكلّم الكفار يوم القيامة . قال ابن قتيبة : و« في » بمعنى : « مع » . وفي قوله : (قد خلت من قبلكم) قولان . أحدهما : مضت إلى العذاب .

والثاني : مضت في الزمان ، يعني كفار الأمم الماضية . قوله تعالى : (كلما دخلت أمة لعنت أختها) وهذه أخوة الدين والملة ، لا أخوة النسب . قال ابن عباس : يلعنون من كان قبلهم . قال مقاتل : كلما دخل أهل ملة ، لعنوا أهل ملّتهم ، فيلعن اليهودُ اليهودَ ، والنصارى النصارى ، والمشركون المشركين ، والأتباع القادة ، ويقولون : أثم ألقينمونا هذا الملقى حين أطعناكم . وقال الزجاج : إنما تلعنوا ، لأن بعضهم ضلّ باتباع بعض .

قوله تعالى : (حتى إذا أدركوا) قال ابن قتيبة : أي : تداركوا ، فأدغمت التاء في الدال ، وأدخلت الألف ليَسْتَلَمَ السكون لما بعدها ، يريد : تسابموا فيها واجتمعوا .

قوله تعالى : (قالت أخراهم لأولآم) فيه ثلاثة أقوال .
أحدها : آخر أمة لأول أمة ، قاله ابن عباس . والثاني : آخر أهل الزمان لأوليسهم الذين شرعوا له ذلك الدين ، قاله السدي . والثالث : آخرم دخولا إلى النار ، وهم الاتباع ، لأولهم دخولا ، وهم القادة ، قاله مقاتل .
قوله تعالى : (هؤلاء أضلونا) قال ابن عباس : شرعوا لنا أن نتخذ من دونك إلهآ .

قوله تعالى : (فآتهم عذابا ضمفاً) قال الزجاج : أي : عذابا مضاعفاً .
قوله تعالى : (قال لكلٍ ضعف) أي : عذاب مضاعف ولكن لا تعلمون .
قرأ أبو بكر ، والمفضل عن عاصم : « يعلمون » ، بالياء . قال الزجاج : والمعنى : لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر . وقرأ الباقر : « تعلمون » بالتاء ، وفيها وجهان ذكرهما الزجاج .

أحدهما : لا تعلمون أيها المخاطبون ما لكل فريق من العذاب .
والثاني : لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ذلك ، وقيل : إنما طلب الاتباع مضاعفة عذاب القادة ، ليكون أحد المذابين على الكفر ، والثاني على إغرائهم به ، فأجيبوا (لكلٍ ضعف) أي : كما كان للقادة ذلك ، فلكم عذاب بالكفر ، وعذاب بالاتباع . قوله : (فما كان لكم علينا من فضل) فيه قولان .

أحدهما : في الكفر ، نحن وأنتم فيه سواء ، قاله ابن عباس .
والثاني : في تخفيف العذاب ، قاله مجاهد .

﴿ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرِهِمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (بما كنتم تكسبون) قال مقاتل : من الشرك والتكذيب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ
أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ
الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا) أي : بحجبنا وأعلامنا التي ندل
على توحيد الله ونبوّة الأنبياء ، ونكبروا عن الإيمان بها (لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ
السَّمَاءِ) . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر : « تُفَتَّحُ » ؛ بالطاء ،
وشددوا التاء الثانية . وقرأ أبو عمرو : « لَا تُفَتَّحُ » بالطاء خفيفة ، ساكنة الفاء .
وقرأ حمزة ، والكسائي : « لَا يُفَتَّحُ » بالياء مضمومة خفيفة . وقرأ اليزيدي عن
اختياره : « لَا تَفْتَحُ » بقاء مفتوحة (أَبْوَابُ السَّمَاءِ) بنصب الباء ، فكأنه أشار
إلى أفعالهم . وقرأ الحسن : بياء مفتوحة ، مع نصب الأبواب ، كأنه يشير
إلى الله عز وجل . وفي معنى الكلام أربعة أقوال .

أحدها : لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ، رواه الضحاك عن ابن عباس ،
وهو قول أبي موسى الأشعري ، والسدي في آخرين ، والأحاديث تشهد به ^(١) .

والثاني : لا تفتح لأعمالهم ، رواه الموفي عن ابن عباس .

والثالث : لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والرابع : لا تفتح لأرواحهم ولا لأعمالهم ، قاله ابن جريج ، ومقاتل .

(١) انظر «مسند أحمد» : ٢٨٧/٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، و «تفسير الطبري»

٤٢٤/١٢ ، وابن كثير ٢/٢١٣ .

وفي السماء قولان .

أحدهما : أنها السماء المعروفة ، وهو المشهور .

والثاني : أن المعنى : لا تفتح لهم أبواب الجنة ولا يدخلونها ، لأن الجنة في السماء ، ذكره الزجاج .

قوله تعالى : (حتى يلج الجبل في سمّ الحياط) الجبل : هو الحيوان المعروف .

فإن قال قائل : كيف خص الجبل من دون سائر الدواب ، وفيها ما هو

أعظم منه ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن ضرب المثل بالجبل يحصل المقصود ؛ والمقصود أنهم لا يدخلون

الجنة ، كما لا يدخل الجبل في ثقب الإبرة ، ولو ذكر أكبر منه أو أصغر منه ،

جاز ، والناس يقولون : فلان لا يساوي درهماً ، وهذا لا يعني عنك قليلاً ، وإن كنا

نجد أقل من الدرهم والقليل .

والثاني : أن الجبل أكبر شأنًا عند العرب من سائر الدواب ، فانهم يقدّمونه

في القوّة على غيره ، لأنه يوقر بحمله فينفض به دون غيره من الدواب ، ولهذا

عجّبهم من خلق الإبل ، فقال : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) [الفاشية : ١٧] ،

فأثر الله ذكره على غيره لهذا المعنى . ذكر الجوابين ابن الأباري . قال : وقد

روى شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه رأى : « حتى يلج الجمل » بضم الجيم

وتشديد الميم ، وقال : هو القنّس^(١) الغليظ .

قال المصنف : وهي قراءة أبي رزين ، ومجاهد ، وابن عيص ، وأبي مجاز ،

وابن يعمر ، وأبان عن عاصم . قال : وروى مجاهد عن ابن عباس : « حتى يلج

الجمل » بضم الجيم . وفتح الميم وتخفيفها .

(١) القنّس ، بفتح القاف وسكون اللام : جبل غليظ من جبال السفن .

قلت : وهي قراءة قتادة ، وقد رويت عن سعيد بن جبير ، وأنه قرأ :
« حتى يبلغ الجُمْل » بضم الجيم وتسكين الميم . قلت : وهي قراءة عكرمة .
قال ابن الأنباري : فالجُمْل يحتمل أمرين : يجوز أن يكون بمعنى الجُمْلُ ،
ويجوز أن يكون بمعنى جملة من الجبال ، قيل في جمعها : جُمْلٌ ، كما يقال : حُجْرَةٌ ،
وحُجْرٌ ، وظلمة ، وظلم . وكذلك من قرأ : « الجُمْل » يسوغ له أن يقول :
الجُمْلُ ، بمعنى الجُمْل ، وأن يقول : الجُمْل ، جمع جُمْلَةٌ ، مثل بُسْرَةٍ ، وبُسْر .
وأصحاب هذه القراءات يقولون : الجبل والجبال ، أشبه بالإبرة والخيط من الجمال .
وروى عطاء بن يسار عن ابن عباس أنه قرأ : « الجُمْل » بضم الجيم والميم ،
وبالتخفيف ، وهي قراءة الضحاك ، والجدري . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء :
« الجُمْل » بفتح الجيم ، وبسكون الميم خفيفة .

قوله تعالى : (في سَمِ الخياط) السم في اللغة : الثقب . وفيها ثلاث لغات :
فتح السين ، وبها قرأ الأكثرون ، وضمها ، وبه قرأ ابن مسعود ، وأبو رزين ،
وقتادة ، وابن محيصن ، وطلحة بن مصرف ، وكسرها ، وبه قرأ أبو عمران الجوني ،
وأبو نهيك ، والأصمعي عن نافع . قال ابن القاسم : والخياط : الخَيْطُ ، بمنزلة
اللعاف والملحف ، والقيرام والمقرم . وقد قرأ ابن مسعود ، وأبو رزين ، وأبو نخلز :
في « سَمِ الخَيْطِ » . وقال الزجاج : الخياط : الإبرة ، وسمها : ثقبها . والمعنى :
أنهم لا يدخلون الجنة أبداً . قال ابن قتيبة : هذا كما يقال : لا يكون ذلك حتى
يشيب الغراب ، ويبيض القار .

قوله تعالى : (وكذلك نجزي المجرمين) أي : مثل ذلك نجزي الكافرين
أنهم لا يدخلون الجنة .

﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الظَّالِمِينَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

قوله تعالى : (لهم من جهنم مهاد) المهاد : الفراش .

وفي المراد بالنواشي ثلاثة أقوال .

أحدها : اللحف ، قاله ابن عباس ، والقرطي ، وابن زيد . والثاني : مايفشاهم
من فوقهم من الدخان ، قاله عكرمة . والثالث : غاشية فوق غاشية من النار ،
قاله الزجاج . قال ابن عباس : والظالمون هاهنا : الكافرون .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ
الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ
لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَبْلُغُوا
الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ونزعنا ما في صدورهم من غل) فيمن عني بهذه الآية أربعة أقوال .

أحدها : أهل بدر . روى الحسن عن علي رضي الله عنه أنه قال : فينا والله
أهل بدر نزلت : (ونزعنا ما في صدورهم من غل) . وروى عمرو بن الشريد
عن علي أنه قال : إني لأرجو أن أكون أنا ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، من الذين
قال الله : (ونزعنا ما في صدورهم من غل) .

والثاني : أنهم أهل الاحقاد من أهل الجاهلية حين أسلموا . روى كثير التواتر .

عن أبي جعفر قال : نزلت هذه الآية في علي ، وأبي بكر ، وعمر ، قلت لأبي جعفر :
فأي غل هو ؟ قال : غل الجاهلية ، كان بين بني هاشم وبني تيم وبني عدي في

الجاهلية شيء ، فلما أسلم هؤلاء ، تحابوا ، فأخذت أبا بكر الخاصرة ، فجعل علي يسخن يده ويكمد بها خاصرة أبي بكر ، فنزلت هذه الآية .

والثالث : أنهم عشرة من الصحابة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن مسعود ، قاله أبو صالح .

والرابع : أنها في صفة أهل الجنة إذا دخلوها . روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ ، فيحبسون على قطرة بين الجنة والنار ، حتى إذا هذبوا ونُقِّتوا ، أذن لهم في دخول الجنة . فوالذي نفسي بيده ، لأحدم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا » (١) . وقال ابن عباس : أول ما يدخل أهل الجنة الجنة ، تعرض لهم عينا ، فيشربون من إحدى العينين ، فيذهب الله ما في قلوبهم من غلٍّ وغيره مما كان في الدنيا ، ثم يدخلون إلى العين الأخرى ، فيغتسلون منها ، فتشرق ألوانهم ، وتصفو وجوههم ، وتجري عليهم نضرة النعيم .

(١) « البخاري » ٧٠/٥ ، و « ٣٤٦/١١ » بشرح الفتح ، و « الطبري » ٣٨/١٤ قال الحافظ ٣٤٦/١١ : قوله : « والذي نفس محمد بيده » هذا ظاهره أنه مرفوع كله ، وكذا في سائر الروايات ، إلا في رواية عفان عند الطبري ، قال : فانه جمل هذا من كلام قتادة ، فقال بعد قوله : « في دخول الجنة » قال : وقال قتادة : « والذي نفسي بيده لأحدم أهدى ... الخ وفي رواية شعيب بن إسحاق بعد قوله : « في دخول الجنة » قال : فوالذي نفسي بيده ... الخ فأبهم القائل ، فلي رواية عفان يكون هو قتادة ، وعلى رواية غيره يكون هو النبي ﷺ ، وزاد محمد بن المنهال عند الاسماعيلي : قال قتادة : كان يقال : ما يشبه بهم إلا أهل الجمعة إذا انصرفوا من جمعهم ، وهكذا عند عبد الوهاب وروح . وفي رواية بشر بن خالد وعفان جميعاً عند الطبري قال : وقال بعضهم ... فذكره ، وكذا في رواية شعيب بن إسحاق ، ويونس ابن محمد ، والقائل : وقال بعضهم : هو قتادة ، ولم أقف على تسمية القائل .

فأما النزع ، فهو قلع الشيء من مكانه . والفعل : الحقد الكامن في الصدر .
وقال ابن قتيبة : الفعل : الحسد والعداوة .

قوله تعالى : (الحمد لله الذي هدانا لهذا) قال الزجاج : معناه : هدانا لما صيرنا
إلى هذا . قال ابن عباس : يعنون ما وصلوا إليه من رضوان الله وكرامته . وروى
عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه قال : نستقبلهم الولدان كأنهم لؤلؤ متثور ،
فيطوفون بهم كاطاقهم بالحميم جاء من الغيبة ، ويبشرونهم بما أعد الله لهم ، ويذهبون
إلى أزواجهم فيبشرونهن ، فيستخفن الفرح ، فيقمن على أسكفة الباب ، فيقلن :
أنت رأيته ، أنت رأيته ؟ قال : فيجيء إلى منزله فينظر في أساسه ، فإذا صخر من
لؤلؤ ، ثم يرفع بصره ، فلولا أن الله ذلك له ذهب بصره ، ثم ينظر أسفل من
ذلك ، فإذا هو بالسرر الموضونة ، والفرش المرفوعة ، والدراي المبتوثة ، فعند ذلك
قالوا : (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) كلهم قرأ
« وما كنا » بآيات الواو ، غير ابن عامر ، فإنه قرأ « ما كنا لنهتدي » بغير واو ،
وكذلك هي في مصاحف أهل الشام . قال أبو علي : وجه الاستغناء عن الواو ، أن القصة
ملتبسة بما قبلها ، فأغنى التباسها به عن حرف العطف ، ومثله (رابعهم
كلبهم) [الكهف : ٢٢] .

قوله تعالى : (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) هذا قول أهل الجنة حين رأوا
ما وعدهم الرسل عياناً . (ونودوا أن تلك الجنة) قال الزجاج : إنما قال « تلكم »
لأنهم وعدوا بها في الدنيا ، فكأنه قيل لهم : هذه تلكم التي وعدتم بها . وجائز أن
يكون هذا قيل لهم حين عاينوها قبل دخولهم إليها . قرأ ابن كثير ، ونافع .
وعاصم ، وابن عامر « أورتشوها » غير مدغمة . وقرأ أبو عمرو ، وحمة ،
والكسائي « أورتشوها » مدغمة ، وكذلك قرؤوا في (الزخرف : ٧٢) قال

أبو علي : من ترك الادغام ، فلتبائن مخرج الحرفين ، ومن أدغم ، فلا تاء التاء والتاء مهموستان متقاربتان . وفي معنى « أورتتموها » أربعة أقوال .

أحدها : ما روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، فأما الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة » ^(١) فذلك قوله : (أورتتموها بما كنتم تعملون) . وقال بعضهم : لما سمي الكفار أمواتا بقوله : (أموات غير أحياء) [النحل : ٢١] . وسمى المؤمنين أحياء بقوله : (لتتذرن من كان حياً) [يس : ٧٠] ^(٢) أورت الأحياء الموتى .

والثاني : أنهم أورتوها عن الأعمال ، لأنها جعلت جزاء لأعمالهم ، وثواباً عليها ، إذ هي عواقبها ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

والثالث : أن دخول الجنة برحمة الله ، واقتسام الدرجات بالأعمال . فلما كان يفسر نيلها لا عن عوض ، سميت ميراثاً . والميراث : ما أخذته عن غير عوض .

والرابع : أن معنى الميراث هاهنا : أن أمرهم يؤول إليها كما يؤول الميراث إلى الوارث .

(١) « الطبري » ٦/١٨ من رواية الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان ، منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، وإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : (أولئك هم الوارثون) . وكذلك أورده ابن كثير ٣/٢٣٩ من رواية ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً . ورواه أحمد في « المسند » بنحوه ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٠/٣٩٩ وذكر رواية أخرى له ، ثم قال : رواه أحمد ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح .

(٢) كذا الأصل « لتتذر » بالتاء ، وهي قراءة نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، ويقوب ، وأما قراءة حفص ، فبالياء « لتتذر » .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً) أي : من العذاب ؛ وهذا سؤال تقرير وتعمير . (قالوا نعم) . قرأ الجمهور بفتح العين في سائر القرآن ، وكان الكسائي يكسرها . قال الأخفش : هما لعتان .

قوله تعالى : (فأذن مؤذن بينهم) أي : نادى منادٍ . (أن لعنة الله) قرأ ابن كثير في رواية قبل ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم : « أن لعنة الله » خفيفة النون ساكنة . وقرأ ابن عامر ، وحزة ، والكسائي : « أن » بالتشديد ، « لعنة الله » بالنصب . قال الأخفش : و « أن » في قوله : (أن تكلم الجنة) [الاعراف : ٤٣] وقوله : (أن لعنة الله) ، وقوله : (أن الحمد لله) [يونس : ١٠] ، و : (أن قد وجدنا) ، هي « أن » الثقيلة خففت .

قال الشاعر :

فِي فِتْنَةٍ كَسَيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ^(١)

(١) قاله الأعشى ، وهو في دجوانه ٥٩ ، وسيبويه ٢٨٢/١ ، ٤٤٠ ، ٤٨٠ - ١٢٣/٢ ، ود الطبري : ٤٤٤/١٢ ، ود أمالي الشجري : ٢/٢ ، ود الانصاف : ٨٩ ، ود الخزانة : ٣٥٦/٤ - ٥٤٧/٣ . وهذا البيت أشده هكذا سيبويه ، وتبعم النجاة ، وهو ملفق من بيتين ، يقول الأعشى في قصيدته :

إِنَّمَا كَرَيْتُنَا حُفَاةً لَا نَحَالُ لَنَا إِنَّا كَذَلِكَ مَاتَعَفَى وَنَتَعَمِلُ
فِي فِتْنَةٍ كَسَيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذِي الْحِيلَةِ الْحَيْلُ

وَأَنشُدْ أَيْضًا :

أَكْثَرُهُمْ وَأَعْلَمُ أَنْ كِلَانَا عَلَى مَآسَاءَ صَاحِبَةِ حَرِيصٍ^(١)
ومعناه : أنه كلانا ؛ وتكون « أن قد وجدنا » في معنى : أي . قال ابن عباس :
والظالمون هاهنا : الكافرون .

قوله تعالى : (الَّذِينَ يَصْدُونُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أي : أذن المؤذن أن لعنة الله
على الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ، وهو الإسلام . (ويغونها عوجاً)
مفسّر في (آل عمران : ٩٩) . (وهم بالآخرة) أي : وهم بكون الآخرة كالفرون .
﴿ وَيَدْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا
بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا
وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (وبينهما حجاب) أي بين الجنة والنار حاجز ، وهو السور الذي
ذكره الله تعالى في قوله : (فضرب بينهم بسور له باب) [الحديد : ١٣] ، فسمي
هذا السور بالأعراف لارتفاعه . قال ابن عباس : الأعراف : هو السور الذي بين
الجنة والنار ، له عرف كعرف الديك . وقال أبو هريرة : الأعراف : جبال بين
الجنة والنار ، فهم على أعرافها ، يعني : على ذراها ، خلقتها كخلقة عرف الديك .
قال اللغويون : الأعراف عند العرب : كل ما ارتفع من الأرض وعلا ؛ يقال لكل
عالٍ : عُرِفَ ، وجمعه : أعراف .

(١) البيت غير منسوب في « سيبويه » ٤٤٠/١ ، و « الانصاف » لابن الأنباري : ٨٩ ،

١٨٣ ، و « أمالي ابن الشجري » ١٨٨/١ - وقوله : أكثره : أضاحكه .

قال الشاعر :

كُلُّ كِنَازٍ لَحْمُهُ نِيَّافٍ كَالْمَلَمِ الْمُوفِي عَلَى الْأَعْرَافِ^(١)

وقال الآخر :

وَرِثْتُ بِنَاءَ آبَاءِ كِرَامٍ عَدَوًا بِالْمَجْدِ أَعْرَافَ الْبِنَاءِ

وفي « أصحاب الأعراف » قولان .

أحدهما : أنهم من بني آدم ، قاله الجمهور . وزعم مقاتل أنهم من أمة

محمد ﷺ خاصة . وفي أعمالهم تسعة أقوال .

أحدها : أنهم قوم قُتِلُوا في سبيل الله بمصيبة آبائهم ، فمنهم من دخول الجنة

بمصيبة آبائهم ، ومنهم من دخول النار قتلهم في سبيل الله ، وهذا مروى عن

النبي ﷺ^(٢) .

والثاني : أنهم قوم تسلّوا حسناتهم وسيئاتهم ، فلم تبلغ بهم حسناتهم دخول

الجنة ، ولا سيئاتهم دخول النار ، قاله ابن مسعود ، وحذيفة ، وابن عباس ،

وأبو هريرة ، والشعبي ، وقناة .

والثالث : أنهم أولاد الزنا ، رواه صالح مولى التوأمة عن ابن عباس .

والرابع : أنهم قوم صالحون فقهاء علماء ، قاله الحسن ، ومجاهد ؛ فلي هذا

يكون لبهم على الأعراف على سبيل النزهة .

(١) البيت غير منسوب في « مجاز القرآن » : ٢١٥/١ ، و « الطبري » : ٤٥٠/١٢ ،

و « غريب القرآن » : ١٦٨ . و « اللسان » : نون . و « الكنز » : المجتمع اللحم القوي ، والنياف : الطويل ، والعلم : الجبل .

(٢) « الطبري » : ٤٥٨/١٢ ، وفيه أبو مشر نجيح بن عبد الرحمن السندي المدني وهو

ضعيف ، وأورده ابن كثير في « التفسير » ٢١٦/٢ عن سميد بن منصور ، ثم قال : ورواه ابن مردويه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم من طرق عن أبي مشر به .

والخامس : أنهم قوم رضي عنهم آباؤهم دون أمهاتهم ، أو أمهاتهم دون آباؤهم ،
رواه عبد الوهاب بن مجاهد عن إبراهيم .

والسادس : أنهم الذين ماتوا في الفترة ولم يبدلوا دينهم ، قاله عبد العزيز بن يحيى .
والسابع : أنهم أنبياء ، حكاه ابن الأثير .

والثامن : أنهم أولاد المشركين ، ذكره المنجوفي في تفسيره .
والتاسع : أنهم قوم عملوا لله ، لكنهم راؤوا في عملهم ، ذكره بعض العلماء .
والقول الثاني : أنهم ملائكة ، قاله أبو جاز ، واعترض عليه ، فقيل : إنهم
رجال ، فكيف تقول : ملائكة ؟ فقال : إنهم ذكور وليسوا باناث . وقيل : معنى
قوله : (وعلى الأعراف رجال) أي : على معرفة أهل الجنة من أهل النار ، ذكره
الزجاج ، وابن الأثير . وفيه بُعد وخلاف للمفسرين .

قوله تعالى : (يعرفون كلًّا بسياحه) أي : يعرف أصحاب الأعراف أهل
الجنة وأهل النار . وسيا أهل الجنة : يياض الوجوه ، وسيا أهل النار : سواد الوجوه ،
وزرقة العيون . والسيما : العلامة . وإنما عرفوا الناس ، لأنهم على مكان عال يشرفون
فيه على أهل الجنة والنار . (ونادوا) يعني : أصحاب الأعراف (أصحاب الجنة
أن سلام عليكم) . وفي قوله : (لم يدخلوها وهم يطمعون) قولان .

أحدهما : أنه إخبار من الله تعالى لنا أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة
وهم يطمعون في دخولها ، قاله الجمهور .

والثاني : أنه إخبار من الله تعالى لأهل الأعراف إذا رأوا زمرة يذهب بها
إلى الجنة أن هؤلاء لم يدخلوها وهم يطمعون في دخولها ، هذا قول السدي .

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا
لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا صرفت أبصارهم) يعني أصحاب الأعراف . والتلقاء : جهة اللقاء ، وهي جهة المقابلة . وقال أبو عبيدة : تلقاء أصحاب النار ، أي : حيالهم .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ونادى أصحاب الأعراف رجلاً يعرفونهم بسيماهم) روى أبو صالح عن ابن عباس قال : ينادون : يا وليد بن المغيرة ، يا أبا جهل بن هشام ، يا عاص بن وائل ، يا أمية بن خلف ، يا أبي بن خلف ، يا سائر رؤساء الكفار ، ما أغنى عنكم جمعكم في الدنيا المال والولد . (وما كنتم تستكبرون) أي : تمظنون عن الإيمان .

﴿ أَهْوََاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا النَّجَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

قوله تعالى : (أهواء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة) فيه قولان .

أحدهما : أن أهل النار أقسموا أن أهل الأعراف داخلون النار معنا ، وأن الله لن يدخلهم الجنة ، فيقول الله لأهل النار : (أهواء) يعني أهل الأعراف (الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ، ادخلوا الجنة) رواه وهب بن منبه عن ابن عباس . قال حذيفة : بينا أصحاب الأعراف هنالك ، اطلع عليهم ربهم فقال لهم : « ادخلوا الجنة فاني قد غفرت لكم » ^(١) .

والثاني : أن أهل الأعراف يرون في الجنة الفقراء والمساكين الذين كان الكفار يستهزئون بهم ، كسلمان ، وصهيب ، وخبّاب ، فينادون الكفار : (أهواء

الذين أقسمتم) وأنتم في الدنيا (لا ينالهم الله برحمة) قاله ابن السائب . فعلى هذا ينقطع كلام أهل الأعراف عند قوله : (برحمة) ، ويكون الباقي من خطاب الله لأهل الجنة . وقد ذكر المفسرون في قوله : (ادخلوا الجنة) ثلاثة أقوال .

أحدها : أن يكون خطاباً من الله لأهل الأعراف ، وقد ذكرناه .

والثاني : [أن] يكون خطاباً من الله لأهل الجنة .

والثالث : : أن يكون خطاباً من أهل الأعراف لأهل الجنة ، ذكرهما

الزجاج . فعلى هذا الوجه الأخير ، يكون معنى قول أهل الأعراف لأهل الجنة : (ادخلوا الجنة) : ادخلوا إلى القصور المشرفة ، وارتفعوا إلى المنازل المنيفة ، لأنهم

قد رأوهم في الجنة . وروى مجاهد عن عبد الله بن الحارث قال : يؤتى بأصحاب الأعراف إلى نهر يقال له : الحياة ، عليه قضبان الذهب مكلّلة باللؤلؤ ، فينفسون فيه ، فيخرجون ، فتبدو في نحورهم شامة يضاء يعرفون بها ، ويقال لهم : تمنّوا ما شئتم ، ولكم سبعون ضمفاً ، فهم مساكين أهل الجنة .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة) قال ابن عباس : لما صار

أصحاب الأعراف إلى الجنة ، طمع أهل النار في الفرج بعد اليأس ، فقالوا : يارب ،

إن لنا قرابات من أهل الجنة ، فاذن لنا حتى نراهم ونكلمهم ، فنظروا إليهم وإلى

ماهم فيه من النعيم فمرفوم . ونظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم

يعرفوهم ، قد اسودّت وجوههم وصاروا خلقاً آخر ، فنادى أصحاب النار أصحاب

الجنة بأسمائهم ، وأخبروهم بقراباتهم ، فينادي الرجل أخاه : يا أخي قد احترقت فأغثني ؛

فيقول : (إِنْ أَلَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ) . قَالَ السَّيِّدُ : عَنِ بَقُولِهِ : (أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) الطَّعَامُ . قَالَ الزَّجَّاجُ : أَعْلَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ ابْنَ آدَمَ غَيْرُ مُسْتَفْنٍ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَإِنْ كَانَ مَعْدَبًا .

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْنَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُمُ الْمُسْتَهْزِئُونَ . وَالْمَعْنَى : أَنَّهُمْ تَلَاعَبُوا بِدِينِهِمُ الَّذِي شَرَعَ لَهُمْ . وَقَالَ أَبُو رَوْقٍ : دِينُهُمْ : عِيدُهُمْ . وَقَالَ قَتَادَةُ : (لَهْوًا وَلَعِبًا) أَيُّ : أَكْلًا وَشَرْبًا . وَقَالَ غَيْرُهُ : هُوَ مَا زَيَّنَّهُ الشَّيْطَانُ لَهُمْ مِنْ تَحْرِيمِ الْبَحِيرَةِ ، وَالسَّائِبَةِ ، وَالْوَصِيلَةِ ، وَالْحَامِ ، وَالْمَكَاةِ ، وَالتَّصَدِيَةِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ خِصَالِ الْجَاهِلِيَّةِ .

قوله تعالى : (فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ) قَالَ الزَّجَّاجُ : أَيُّ : تَتْرَكُهُمْ فِي الْمَذَابِ كَمَا تَرَكُوا الْعَمَلَ لِلْقَاءِ يَوْمَهُمْ هَذَا . وَ « مَا » نَسَقَ عَلَى « كَمَا » فِي مَوْضِعِ جَرٍّ . وَالْمَعْنَى : وَكَجَحْدِهِمْ . قَالَ ابْنُ الْأَثْبَارِيِّ : وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : فَالْيَوْمَ تَرَكْنَاهُمْ فِي النَّارِ عَلَى عِلْمِ مَنْ تَرَكَ نَاسٍ غَافِلِينَ كَمَا اسْتَعْمَلُوا فِي الْإِعْرَاضِ عَنْ آيَاتِنَا وَهُمْ ذَاكِرُونَ مَا اسْتَعْمَلَهُ مِنْ نَسِيٍّ وَغَفَلٌ .

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ) بِعَنِي الْقُرْآنَ . (فَصَّلْنَاهُ) أَيُّ : بَيَّنَّاهُ

بإيضاح الحق من الباطل . وقيل : فصلناه فصولاً مرة بتعريف الحلال ، ومرة بتعريف الحرام ، ومرة بالوعد ، ومرة بالوعيد ، ومرة بحديث الأمم .

وفي قوله : (على علم) قولان .

أحدهما : على علم منا بما فصلناه . والثاني : على علم منا بما يصلحكم مما أنزلناه فيه . وقرأ ابن السميع ، وابن محيصن ، وعاصم ، والجحدري ، ومعاذ القاري : « فصلناه » بضاد معجمة .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَبَلَ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (هل ينظرون إلا تأويله) قال ابن عباس : تصديق ما وعدوا في القرآن . (يوم يأتي تأويله) وهو يوم القيامة (يقول الذين نسوه) أي : تركوه (من قبل) في الدنيا (قد جاءت رسل ربنا بالحق) أي : بالبعث بعد الموت .

قوله تعالى : (أو نرد) قال الزجاج : المعنى : أو هل نرد . وقوله : (فنعمل) منصوب على جواب الفاء الاستفهام .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (إِنْ رَبِّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)
اختلفوا أي يوم بدأ بالخلق على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يوم السبت . روى مسلم في « صحيحه » من حديث أبي هريرة
قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي ، فقال : « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت ،
وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم
الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم
بعد العصر [من] يوم الجمعة [في] آخر الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين
العصر إلى الليل » ^(١) ، وهذا اختيار محمد بن إسحاق . قال ابن الأنباري : وهذا
إجماع أهل العلم .

والثاني : يوم الأحد ، قاله عبد الله بن سلام ، وكعب ، والضحاك ، ومجاهد ،
واخاره ابن جرير الطبري ، وبه يقول أهل التوراة .

والثالث : يوم الاثنين ، قاله ابن إسحاق ، وبهذا يقول أهل الإنجيل . ومعنى
قوله : (في ستة أيام) أي : في مقدار ذلك ، لأن اليوم يعرف بطلوع الشمس وغروبها ،
ولم تكن الشمس حينئذ . قال ابن عباس : مقدار كل يوم من تلك الأيام ألف
سنة ، وبه قال كعب ، ومجاهد ، والضحاك ، ولا نعلم خلافاً في ذلك . ولو قال
قائل : إنها كأيام الدنيا ، كان قوله بعيداً من وجهين .

أحدهما : خلاف الآثار . والثاني : أن الذي يتوهمه المتوهم من الإبطاء في

(١) « المسند » ٨٣٢٣ ، ومسلم ٢١٤٩/٤ . قال الحافظ ابن كثير في « التفسير » ٦٩/١ :
بعد أن أورده : وهذا الحديث من غرائب « صحيح مسلم » ، وقد تكلم عليه علي بن المديني ، والبخاري
 وغير واحد من الحفاظ ، وجملوه من كلام كعب ، وأن ! ربه إنما سمعه من كلام كعب
 الأجبار ، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجملوه مرفوعاً ، وقد حرر ذلك البيهقي .

سنة آلاف سنة ، يتوهمه في ستة أيام عند تصفح قوله : (إنا أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) [يس : ٨٢] . فان قيل : فهلاً خلقها في لحظة ، فانه قادر ؟ فمعه خمسة أجوبة .

أحدها : أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده ، ذكره ابن الأنباري .

والثاني : أن التثبيت في تمهيد ما خلق لآدم وذريته قبل وجوده ، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة .

والثالث : أن التمجيل أبلغ في القدرة ، والتثبيت أبلغ في الحكمة ، فأراد إظهار حكمته في ذلك ، كما يظهر قدرته في قول : (كن فيكون)

والرابع : أنه علم عباده التثبيت ، فاذا ثبتت من لايزل ، كان ذو الزلل أولى بالتثبيت .

والخامس : أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء ، أبعث من أن يُظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق .

قوله تعالى : (ثم استوى على العرش) قال الخليل بن أحمد : العرش : السرير ؛ وكل سرير لملك يسمى عرشاً ؛ ولما يُجمع العرش إلا في اضطرار ؛ واعلم أن ذكر العرش مشهور عند العرب في الجاهلية والإسلام . قال أمية بن أبي الصلت :

بجَدِّدُوا اللَّهَ فَهَوِ لِلْمَجْدِ أَهْلُ رَبَّنَا فِي السَّمَاءِ أُمْسَى كَبِيرَا

بِالْبِنَاءِ الْأَعْلَى الَّذِي سَبَقَ النَّاسَ وَسَوَّى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرَا

شَرَجَمَا لَا يَنْتَالُهُ نَاطِرُ الْعَيْنِ نَرَى دُونَهُ الْمَلَائِكَةَ صُورَا

وقال كعب : إن السموات في العرش كالقنديل معلق بين السماء والأرض .

وروى إسماعيل بن أبي خالده عن سعد الطائي قال : المرش ياقوتة حمراء . وإجماع السلف منقاد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية . وقد شدّ قوم فقالوا : المرش بمعنى الملك . وهذا عدول عن الحقيقة إلى التجويز ، مع مخالفة الأثر ؛ ألم يسموا قوله تعالى : (وكان عرشه على الماء) [هود : ٧] أنراه كان الملك على الماء ؟ وكيف يكون الملك ياقوتة حمراء ؟ وبمضهم يقول : استوى بمعنى استولى ؛ ويحتاج بقول الشاعر :

حَتَّى اسْتَوَى بِشَرْعَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ
وبقول الشاعر أيضاً :

مَهْمَا اسْتَوَى بِفَضْلِهِمَا جَمِيعًا عَلَى عَرْشِ الْمُلُوكِ بِغَيْرِ زُورِ
وهذا منكر عند اللغويين . قال ابن الأعرابي : العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى ، ومن قال ذلك فقد أعظم . قالوا : وإنما يقال : استولى فلان على كذا ، إذا كان بعيداً عنه غير متمكن منه ، ثم تمكن منه ؛ والله عز وجل لم يزل مستولياً على الأشياء ؛ والبيتان لا يعرف قائمهما ، كذا قال ابن فارس اللغوي . ولو صحّا ، فلا حجة فيهما لما يئنا من استيلاء من لم يكن مستولياً . نموذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة .

قوله تعالى : (ينشي الليل النهار) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « يُنْشِي » ساكنة الغين خفيفة . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « يُنْشِي » مفتوحة الغين مشددة ؛ وكذلك قرؤوا في (الرعد : ٣) . قال الزجاج : المعنى : أن الليل يأتي على النهار فيغطيه ؛ وإنما لم يقل : وينشي النهار الليل ، لأن في الكلام دليلاً عليه ؛ وقد قال في موضع آخر : (يَكْوِرُ الليل على النهار ، وَيَكْوِرُ النهار على الليل) [الزمر : ٥] . وقال أبو علي : إنما لم يقل : ينشي

النهار الليل ، لأنه معلوم من فحوى الكلام ، كقوله : (سرايل تقيمكم الحر)
[النحل : ٨١] ، وانتصب الليل والنهار ، لأن كل واحد منهما مفعول به . فأما
الحديث ، فهو السريع .

قوله تعالى : (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) قرأ الأكثرون : بالنصب
فيهن ، وهو على معنى : خلق السموات والشمس . وقرأ ابن عامر : « والشمس
والقمر والنجوم مسخرات » بالرفع فيهن هاهنا وفي (النحل : ١٢) ، تأبى خفض
في قوله تعالى : (والنجوم مسخرات) في (النحل : ١٢) فحسب . والرفع على
الاستئناف . والمسخرات : المذللّات لما يراد منهن من طلوع وأفول وسير على
حسب إرادة المدبّر لهن .

قوله تعالى : (ألا له الخلق) لأنه خلقهم (والأمر) فله أن يأمر بما يشاء .
وقيل : الأمر : القضاء .

قوله تعالى : (تبارك الله) فيه أربعة أقوال .

أحدها : تفاعل من البركة ، رواه الضحاك عن ابن عباس ؛ وكذلك قال
القتبي ، والزجاج . وقال أبو مالك : افتعل من البركة . وقال الحسن : تبحي
البركة من قبلكه . وقال الفراء : تبارك : من البركة ؛ وهو في المرية كقولك :
تقدس ربنا .

والثاني : أن تبارك بمعنى تعالى ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . وكذلك
قال أبو العباس : تبارك : ارتفع ؛ والمتبارك : المرتفع .

والثالث : أن المعنى : باسمه يُتبرك في كل شيء ، قاله ابن الأنباري .

والرابع : أن معنى « تبارك » تقدس ، أي : تطهر ، ذكره ابن الأنباري أيضاً .

﴿ اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

قوله تعالى : (ادعوا ربكم تضرعاً) التضرع : التذلل والخضوع . والخفية : خلاف العلانية . قال الحسن : كانوا يجتهدون في الدعاء ، ولا تسمع إلا همساً . ومن هذا حديث أبي موسى : « اربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً »^(١) . وفي الاعتداء المذكور هاهنا قولان .

أحدهما : أنه الاعتداء في الدعاء . ثم فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أن يدعو على المؤمنين بالشر ، كالخزي واللعنة ، قاله سميد بن جبير ، ومقاتل . والثاني : أن يسأل مالا يستحقه من منازل الأنبياء ، قاله أبو مجلز . والثالث : أنه الجهر في الدعاء ، قاله ابن السائب .

والثاني : أنه مجاوزة المأمور به ، قاله الزجاج .

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) فيه ستة أقوال .

أحدها : لا تفسدوها بالكفر بعد إصلاحها بالإيمان . والثاني : لا تفسدوها بالظلم بعد إصلاحها بالعدل . والثالث : لا تفسدوها بالمصيبة بعد إصلاحها بالطاعة . والرابع : لا تمصوا ، فيمسك الله المطر ، ويهلك الحرت بمصاصيكم بعد أن أصلحها

(١) البخاري ٩٤/٦ ، ومسلم ٢٠٧٦/٤ . وقوله : « اربعوا على أنفسكم » : قال النووي : أي : ارقعوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم ، فإث رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه ، وأنتم تدعون الله تعالى ، وليس هو بأصم ولا غائب ، بل هو مسمع قريب ، وهو معكم بالطم والاحاطة .

بالمطر والخصب . والخامس : لاتفسدوها بقتل المؤمن بعد إصلاحها ببقائه .
والسادس : لاتفسدوها بتكذيب الرسل بعد إصلاحها بالوحي .

وفي قوله : (وادعوه خوفاً وطمئناً) قولان . أحدهما : خوفاً من عقابه ،
وطمئناً في ثوابه . والثاني : خوفاً من الردّ وطمئناً في الإجابة .

قوله تعالى : (إن رحمة الله قريب من المحسنين) قال الفراء : رأيت العرب
تؤنث القرية في النسب ، لا يختلفون في ذلك ، فإذا قالوا : دارك منا قريب ،
أو فلانة منا قريب ، من القرب والبعد ، ذكرّروا وأنثوا ، وذلك أنهم جعلوا
القريب خلفاً من المكان ، كقوله : (وما هي من الظالمين ببعيد) [هود : ٨٣] ،
وقوله تعالى : (وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) [الأحزاب : ٦٣] ، ولو أنث
ذلك لكان صواباً . قال عروة :

عَشِيَّةٌ لَا عَفْرَاءَ مِنْكَ قَرِيبَةٌ فَتَدْنُو وَلَا عَفْرَاءَ مِنْكَ بَعِيدَةٌ^(١)
وقال الزجاج : إنما قيل : « قريب » لأن الرحمة والفران والمفوى بمعنى واحد ،
وكذلك كل تأنيث ليس بحقيقي . وقال الأخفش : جائز أن تكون الرحمة هاهنا
في معنى المطر .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى
إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ

(١) « معاني القرآن » للفراء ٣٨١/١ ، و « الطبري » : ٤٨٨/١٢ ، وهو في « ديوان

عروة بن حزام » وفي « تزيين الأسواق » ٨٤/١ و « سمط الآلي » : ٤٠١ من شعره ،
صواب إنشاده على الباء :

عشية لا عفرأء منك بعيدة	فتسلمو ولا عفرأء منك قريب
وفي لتفشاني لذكراك فترة	لها بين جلدي والظلم ديب

فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : (وهو الذي يرسل الرياح) قرأ أبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر ،
وعاصم : « الرياح » على الجمع . وقرأ ابن كثير ، وحزمة ، والكسائي : « الريح »
على التوحيد . وقد يأتي لفظ التوحيد ، ويراد به الكثرة ، كقولهم : كثر الدرهم
في أيدي الناس ، ومثله : (إن الإنسان لفي خسر) [المص : ٢] .

قوله تعالى : (نشرأ) قرأ أبو عمرو ، وابن كثير ، ونافع : « نشرأ » بضم
النون والشين ؛ أرادوا جمع نشور ، وهي الريح الطيبة المهبوب ، تهب من كل ناحية
وجانب . قال أبو عبيدة : النُشْرُ : المتفرقة من كل جانب . وقال أبو علي : يحتمل
أن تكون النشور بمعنى المنشر ، وبمعنى المنتشر ، وبمعنى الناصر ؛ يقال : أنشر الله
الريح ، مثل أحيائها ، فنشرت ، أي : حيت . والدليل على أن إنباش الريح لإحيائها
قولُ الفقيسي :

وَهَبَتْ لَهُ رِيحُ الْجَنُوبِ وَأُحْيِيَتْ لَهُ رَنْدَةٌ يُحْيِي الْمَيِّتَ نَسِيمُهَا ^(١)
وبدل على ذلك أن الريح قد وصفت بالموت .

قال الشاعر :

إِنِّي لَا أَرْجُو أَنْ تَمُوتَ الرِّيحُ فَأَقْعُدَ الْيَوْمَ وَأَسْتَرِيحُ
والريدة والريدانة : الريح . وقرأ ابن عامر ، وعبد الوارث ، والحسن البصري :
« نُشْرَأ » بالنون مضمومة وسكون الشين ، وهي في معنى « نُشْرَأ » . يقال :
كُتِبَ وكُتِبَ ، وُرْسِلَ وُرْسِلَ . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، والمفضل

(١) البيت غير منسوب في « اللسان » : ريد ، والريدة : الريح اللينة .

عن عاصم : « نَشْرَأ » بفتح النون وسكون الشين . قال الفراء : النَّشْر : الريح الطيبة اللينة التي تنشى السحاب . وقال ابن الأنباري : النَّشْر : المنتشرة الواسعة المهبوب . وقال أبو علي : يحتمل النَّشْر أن يكون خلاف الطي ، كأنها كانت باقظاعها كالطوية . ويحتمل أن يكون معناها ما قاله أبو عبيدة في النشر : أنها المتفرقة في الوجوه ؛ ويحتمل أن يكون معناها : النشر الذي هو الحياة ، كقول الشاعر :

[حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا] يَعَجَبًا لِنِمَيْتِ النَّاشِرِ ^(١)

قال : وهذا هو الوجه . وقرأ أبو رجاء المطاردي ، وإبراهيم النخعي ، ومسروق ، ومورق العجلي : « نَشْرَأ » بفتح النون والشين . قال ابن القاسم : وفي النَّشْر وجهان . أحدهما : أن يكون جمعاً للنشور ، كما قالوا : عمود وعمد ، وإهاب وأهَب . والثاني : أن يكون جمعاً ، واحده ناشر ، يجري مجرى قوله : غائب وغيب ، وحافد وحفد ؛ وكل القرءاء نوْن الكلمة . وكذلك اختلافهم في (الفرقان : ٤٨) و (النمل : ٦٣) . هذه قراءات من قرأ بالنون . وقد قرأ آخرون بالباء ؛ فقرأ عاصم إلا المفضل : « بُشْرَى » بالباء المضمومة وسكون الشين مثل مُفْعَلَى . قال ابن الأنباري : وهي جمع بشيرة ، وهي التي تبشّر بالمطر . والأصل ضم الشين ، إلا أنهم استقلوا الضمتين . وقرأ ابن خثيم ، وابن جندب مثله ، إلا أنها نونا الراء . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة : بضم الباء والشين ، وهذا على أنها جمع بشيرة . والرحمة هاهنا : المطر ؛ سماه رحمة لأنه كان بالرحمة . و « أقلت » بمعنى حملت . قال الزجاج : السحاب : جمع سحابة . قال ابن فارس : سمي السحاب لانسحابه في الهواء .

(١) البيت لأعشى قيس ، ديوانه : ١٨ من قصيدة يهجو بها علقمة بن علاثة ، ويدح عامر ابن الطفيل في المفارقة التي جرت بينها .

قوله تعالى : (ثِقَالاً) أي : بالماء . وقوله تعالى : (سقناه) ردّاً الكناية إلى

لفظ السحاب ، ولفظه لفظٌ واحدٍ . وفي قوله : « بلد » قولان .

أحدهما : إلى بلد . والثاني : لإحياء بلد . والميتُ : الذي لا يُنبتُ فيه ،

فهو محتاج إلى المطر . وفي قوله : (فَأَنْزَلْنَا بِهِ) ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الكناية ترجع إلى السحاب . والثاني : إلى المطر ، ذكرهما

الزجاج . والثالث : إلى البلد ، ذكره ابن الأنباري . فأما هاء (فَأَخْرَجْنَا بِهِ)

فتحتمل الأقوال الثلاثة .

قوله تعالى : (كذلك نخرج الموتى) أي : كما أحيينا هذا البلد . وقال مجاهد :

نحيي الموتى بالمطر كما أحيينا البلد الميت به . قال ابن عباس : يرسل الله تعالى بين
النفختين مطراً كني الرجال ، فينبت الناس به في قبورهم كما نبتوا في بطون أمهاتهم .

قوله تعالى : (لَكُمْ تَذَكَّرُونَ) قال الزجاج : لعل : ترج . وإنما خوطب

العباد على ما يرجوه بعضهم من بعض ؛ والمعنى : لعلكم بما يئناه لكم تستدلّون على
توحيد الله ، وأنه يبعث الموتى .

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ
لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (والبلد الطيب) يعني الأرض الطيبة التربة ، (يخرج نباته) وقرأ

ابن أبي عملة : « يُخْرِج » بضم الياء وكسر الراء ، « نباته » بنصب التاء ،
(والذي خُبث لا يخرج) كذلك أيضاً . وقد روى أبان عن عاصم : « لا يُخْرِج »

بضم الياء وكسر الراء . والمراد بالذي خبث : الأرض السبخة .

قوله تعالى : (إِلَّا نَكِداً) قرأ الجمهور : بفتح النون وكسر الكاف . وقرأ

أبو جعفر : « نَكَدًا » بفتح الكاف . وقرأ مجاهد ، وقتادة ، وابن محيصن :
 « نَكَدًا » باسكان الكاف . قال أبو عبيدة : قليلاً عسيراً في شدة ، وأنشد :
 لَا تُنْجِزُ الْوَعْدَ إِنْ وَعَدْتَ وَإِنْ أُعْطِيتَ أُعْطِيتَ نَأْفِياً نَكَدًا^(١)
 قال المفسرون : هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ؛ فالؤمن إذا سمع القرآن
 وعقله انتفع به وبأن أثره عليه ، فشبهه بالبلد الطيب الذي يمرع ويخصب ويحسن
 أثر المطر عليه ؛ وعكسه الكافر .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَتَلْتَمِعُونَ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (اعبدوا الله) قال مقاتل : وحده ؛ وكذلك في سائر القصص بعدها .

قوله تعالى : (ما لكم من إله غيره) قرأ الكسائي : « غيره » بالخفض .
 قال أبو علي : جمل غيراً صفة لـ « إله » على اللفظ .

قوله تعالى : (أَتَلْتَمِعُونَ) قرأ أبو عمرو : « أَتَلْتَمِعُونَ » ساكنة الباء خفيفة اللام .
 وقرأ الباقر : « أَتَلْتَمِعُونَ » مفتوحة الباء مشددة اللام .

قوله تعالى : (وأنصح لكم) يقال : نصحت ونصحت له ، وشكرته وشكرت له .

قوله تعالى : (وأعلم من الله ما لا تعلمون) أي : من مغفرته لمن تاب ، وعقوبته

(١) « مجاز القرآن » ٢١٧/١ ، و « الطبري » : ٤٩٥/١٢ ، و « اللسان » : ٢٢٥ .

لَمِنْ أَصْرٍ . وَقَالَ مُقَاتِلٌ : أَعْلَمُ مِنْ نَزُولِ الْعَذَابِ مَا لَا تَعْلَمُونَهُ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ لَمْ يَسْمَعُوا بِقَوْمٍ عَذِّبُوا قَبْلَهُمْ .

﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (أَوْعَجِبْتُمْ) قَالَ الزَّجَّاجُ : هَذِهِ وَאו المطف ، دخلت عليها ألف الاستفهام ، فبقيت مفتوحة . وفي الذِّكْر قولان . أحدهما : الموعظة . والثاني : البيان . وفي قوله : (على رجل منكم) قولان . أحدهما : أن « على » بمعنى : « مع » ، قاله الفراء . والثاني : أن المعنى : على لسان رجل منكم ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (قَوْمًا عَمِينَ) قال ابن عباس : عميت قلوبهم عن معرفة الله وقدرته وشدة بطشه .

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ . أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَنِي قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَآذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإلى عاد) المعنى : وأرسلنا إلى عاد (أخام هوداً) . قال الزجاج : وإنما قيل : أخوم ، لأنه بشر مثلهم من ولد أبيهم آدم . ويجوز أن يكون أخام لأنه من قومهم . وقال أبو سليمان الدمشقي : وعاد قبيلة من ولد سام بن نوح ؛ وإنما سماه أخام ، لأنه كان نسيباً لهم ، وهو وهم من ولد عاد بن عوص بن آدم بن سام .

قوله تعالى : (إنا لنراك في سفاهة) قال ابن قتيبة : السفاهة : الجهل . وقال الزجاج : السفاهة : خفة الحلم والرأي ؛ يقال : نوب سفيه ، إذا كان خفيفاً . (وإنا لنظنك من الكاذبين) فكفروا به ، ظانين ، لا مستيقنين . (قال يا قوم ليس بي سفاهة) هذا موضع أدب للخلق في حسن المخاطبة ، فإنه دفع ماسبوه به من السفاهة بنفيه فقط .

قوله تعالى : (وأنا لكم ناصح أمين) قال الضحاك : أمين على الرسالة . وقال ابن السائب : كنت فيكم آميناً قبل اليوم .

قوله تعالى : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء) ذكرهم النعمة حيث أهلك بمن كان قبلهم ، وأسكنهم مساكنهم . (وزادكم في الخلق بسطة) أي : طولاً وقوة . وقال ابن عباس : كان أطولهم مائة ذراع ، وأقصرهم ستين ذراعاً . قال الزجاج : وآلاه الله : نمه ؛ واحدها : إلى . قال الشاعر :

أَبْيَضُ لَا يَرْهَبُ الْهَزَالَ وَلَا يَقْطَعُ رَحِمًا وَلَا يَخُونُ إِلَى (١)
ويجوز أن يكون واحدها « إلبيا » ، « وألى » .

قوله تعالى : (فأتينا بما تمدنا) أي : من نزول العذاب (إن كنت من الصادقين) في أن العذاب نازل بنا . وقال عطاء : في نبوتك وإرسالك إلينا .

(١) البيت لأعشى قيس ديوانه : ٢٣٥ ، و د مجاز القرآن : ٢١٨/١ ، و د اللسان : ١٠٠ .

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (قال قد وقع) أي : (وجب عليكم من ربكم رجس وغضب) قال ابن عباس : عذاب وسخط . وقال أبو عمرو بن العلاء : الرجز ؛ بالزاي ، والرجس ؛ بالسین : بمعنى واحد ، قلبت السین زايًا .

قوله تعالى : (أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم) يعني : الأصنام . وفي تسميتهم لها قولان . أحدهما : أنهم سموها آلهة . والثاني : أنهم سموها بأسماء مختلفة . والسلطان : الحجة . (فانتظروا) نزول العذاب (إني معكم من المنتظرين) الذي يأتيكم من العذاب في تكذيبكم إياي .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُّوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ . وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُوءِهَا بُقُورًا وَتَتَّخِثُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإلى ثمود) قال أبو عمرو بن العلاء : سميت ثمود لقلّة ماثها . قال ابن فارس : الثمد : الماء القليل الذي لا مادة له .

قوله تعالى : (هذه ناقة الله) في إضافتها إليه قولان . أحدهما : أن ذلك للتخصيص والتفضيل ، كما يقال : بيت الله . والثاني : لأنها كانت بتكوينه من غير سبب .

قوله تعالى : (لكم آية) أي : علامة تدل على قدرة الله ؛ وإعما قال : « لكم » لأنهم هم الذين اقترحوها ، وإن كانت آية لهم ولغيرهم .
وفي وجه كونها آية قولان .

أحدهما : أنها خرجت من صخرة ملساء ، فتمخضت بها تمخض الحامل ، ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها .

والثاني : أنها كانت تشرب ماء الوادي كله في يوم ، وتسقيهم اللبن مكانه .
قوله تعالى : (فذروها تأكل في أرض الله) قال ابن الأنباري : ليس عليكم مؤنتها وعلفها . و « تأكل » مجزوم على جواب الشرط المقدر ، أي : إن تذروها تأكل .

قوله تعالى : (ولا تمسوها بسوء) ، أي : لا تصيبوها بمقر .

قوله تعالى : (وبوأكم في الأرض) أي : أنزلكم ؛ يقال : تبوأ فلان منزلاً ؛ إذا نزل . وبوأته : أنزلته . قال الشاعر :

وبُؤِنتَ في صَمِّهِ مَعَشَرَهَا فَتَمَّ في قَوْمِها مُبَوَّؤُها^(١)

أي : أنزلت من الكريم في صميم النسب ؛ قاله الزجاج .

قوله تعالى : (تتخذون من سهولها قصوراً) السهل : ضد الحزن . والقصر :

(١) البيت لابراهيم بن هرمة في « مجاز القرآن » : ٢١٨/١ ، و « اللسان » : ١٠١ ،

و « شواهد المتقي » : ٢٨٠ .

ما شَيْدَ وعلا من المنازل . قال ابن عباس : اتخذوا القصور في سهول الأرض للصيف ، وقبوا في الجبال لشتاء . قال وهب بن منبه : كان الرجل منهم يني البنيان ، فتمر عليه مائة سنة ، فيخرب ، ثم يجدده ، فتمر عليه مائة سنة ، فيخرب ثم يجدده ، فتمر عليه مائة سنة ، فيخرب ؛ فأضجرهم ذلك ، فاتخذوا من الجبال بيوتا .
﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) وقرأ ابن عامر (وقال الملأ) بزيادة واو ؛ وكذلك هي في مصاحفهم . ومعنى الآية : تكبروا عن عبادة الله . (للذين استضعفوا) يريد : المساكين . (لم آمن منهم) بدل من قوله « للذين استضعفوا » لأنهم المؤمنون . (أتعلمون أن صالحا مرسل) هذا استفهام إنكار .
﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا بِصَالِحٍ اِثْنَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (فعقروا الناقة) أي : قتلوها . قال ابن قتيبة : والمقر يكون بمعنى : القتل ، ومنه قوله عليه السلام عند ذكر الشهداء : « من عقر جواده »^(١) وقال ابن إسحاق : كمن لها قاتلها في أصل شجرة فرماها بسهم ، فانتظم به عضكة

(١) رواه ابن ماجه ٩٣٤/٢ عن عمرو بن عبسة قال : أنبت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله أي الجهاد أفضل ؟ قال : « من أهرق دمه وعقر جواده » قال في « الزوائد » : إسناده ضعيف لضعف محمد بن ذكوان .

ساقها ، ثم شد عليها بالسيف فكسر عرقوبها ، ثم نحرها . قال الأزهري : المقر عند العرب : قطع عرقوب البعير ، ثم جعل المقر نحرًا ، لأن ناجر البعير يعقره ثم ينجره .

قوله تعالى : (وعتوا) قال الزجاج : جاوزوا المقدار في الكفر . قال أبو سليمان : عتوا عن اتباع أمر ربهم .

قوله تعالى : (بما تمعنا) أي : من العذاب .

قوله تعالى : (فأخذتهم الرجفة) قال الزجاج : الرجفة : الزلزلة الشديدة .
قوله تعالى : (فأصبحوا في دارهم) أي : في مدينتهم . فإن قيل : كيف وحد الدار هاهنا ، وجمعها في موضع آخر ، فقال : (في ديارهم) [هود : ٦٧] فنه جوابان ، ذكرهما ابن الأنباري .

أحدهما : أنه أراد بالدار : المعسكر ، أي : فأصبحوا في معسكرهم . وأراد بقوله : في ديارهم : المنازل التي يتفرد كل واحد منها بمنزل .
والثاني : أنه أراد بالدار : الديار ، فاكثرت بالواحد من الجميع ، كقول الشاعر :
كُلُّوْا فِي نِصْفِ بَطْنِكُمْ تَعِيشُوا
وشواهد هذا كثيرة في هذا الكتاب .

قوله تعالى : (جاعنين) قال الفراء : أصبحوا رماداً جاعناً . وقال أبو عبيدة : أي : بعضهم على بعض جثوم . والجثوم للناس والطيور بمنزلة البروك للابل . وقال ابن قتبية : الجثوم : البروك على الركب . وقال غيره : كأنهم أصبحوا موتى على هذه الحال . وقال الزجاج : أصبحوا أجساماً ملقاة في الأرض كالرماد الجائم . قال المفسرون : معنى « جاعنين » : بعضهم على بعض ، أي : إنهم سقط بعضهم على بعض عند زول العذاب .

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ . وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ . وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (فتولى عنهم) يقول : انصرف صالح عنهم بعد عقر الناقة ، لأن الله تعالى أوحى إليه أن يخرج من بين أظهرهم ، فاني مهلكهم . وقال قنادة : ذكر لنا أن سالحا أسمع قومه كما أسمع نبيكم قومه ، يعني : بعد موتهم .

قوله تعالى : (أتأتون الفاحشة) يعني إتيان الرجال . (ما سبقكم بها من أحد) قال عمرو بن دينار : ما نرا ذكر على ذكر في الدنيا حتى كان قوم لوط . وقال بعض اللغويين : لوط : مشتق من لطت الحوض : إذا ملسته بالطين . قال الزجاج وهذا غلط ، لأنه اسم أعجمي كاسحاق ، ولا يقال : إنه مشتق من السحق وهو البعد .

قوله تعالى : (إنكم لتأتون الرجال) هذا استفهام إنكار . والمسرف : المجاوز ما أمر به . وقوله تعالى : (أخرجوهم من قريبتكم) يعني : لوطاً وأتباعه المؤمنين (إنهم أناس يتطهرون) قال ابن عباس : يتزهدون عن أدبار الرجال وأدبار النساء .

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ) فِي أَهْلِهِ قَوْلَانِ .

أحدهما : ابتناه . والثاني : المؤمنون به . (إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)
أي : الباقين في عذاب الله تعالى . قال أبو عبيدة : وإنما قال : « من الغابرين » لأن
صفة النساء منع صفة الرجال تُذَكَّرُ إذا أُشْرِكَ بينها .

قوله تعالى : (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا) قال ابن عباس : يعني : الحجارة .
قال مجاهد : نزل جبريل ، فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط ، ورفعها ، ثم
قلبها ، فجعل أعلاها أسفلها ، ثم أتبعوا بالحجارة .

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ
وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (وَإِلَى مَدْيَنَ) قال قتادة : مدين : ماء كان عليه قوم شعيب ،
وكذلك قال الزجاج ، وقال : لا ينصرف ، لأنه اسم البقرة . وقال مقاتل : مدين : هو
ابن إبراهيم الخليل لصلبه . وقال أبو سليمان الدمشقي : مدين : هو ابن مديان بن
إبراهيم ، والمعنى : أرسلنا إلى ولد مدين ، فعلى هذا : هو اسم قبيلة . وقال بعضهم :
هو اسم للمدينة . فالمعنى : وإلى أهل مدين . قال شيخنا أبو منصور اللغوي : مدين
اسم أعجمي . فإن كان عربياً ، فالإياه زائدة ، من قولهم : مدن بالمكان :
إذا أقام به .

قوله تعالى : (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) قال الزجاج : الْبَخْسُ : النقص
والقلّة ؛ يقال : بَخَسْتُ أَبْخَسُ ؛ بالسین ، وبخست عينه ، بالصاد لاغير .

(وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) أي : لاتعملوا فيها بالمعاصي بعد أن أصلحها الله بالأمر بالعدل ، وإرسال الرسل .

قوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أي : مصدِّقين بما أخبرنكم عن الله .
﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ ﴾ وانظروا كيف كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿

قوله تعالى : (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ) أي : بكل طريق (توعِدُونَ) من آمن بشيئ بالشر ، وتخوَّفونهم بالمذاب والقتل . فان قيل : كيف أفرد الفعل ، وأخلاه من المفعول ؛ فهلاً قال : توعِدُونَ بكذا ؛ فالجواب : أن العرب إذا أَخَلَّتْ هذا الفعل من المفعول ، لم يدل إلا على شر ؛ يقولون : أوعدت فلاناً . وكذلك إذا أفردوا : وعدت من مفعول ، لم يدل إلا على الخير . قال الفراء : يقولون : وعدته خيراً ، وأوعدته شراً ؛ فإذا أسقطوا الخير والشر ، قالوا : وعدته : في الخير ، وأوعدته : في الشر ؛ فإذا جاؤوا بالبَاء ، قالوا : وعدته بالشر . وقال الراجز :
أَوْعَدَنِي بِالسَّجْنِ وَالْأَدَاهِمِ

قال المصنف : وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي ، قال : إذا أرادوا أن يذكرُوا ما هَدَّوْا به مع أوعدت ، جاؤوا بالبَاء ، فقالوا : أوعدته بالضرب ، ولا يقولون : أوعدته الضرب . قال السدي : كانوا عشارين . وقال ابن زيد : كانوا يقطعون الطريق .

قوله تعالى : (وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أي : تصرفون عن دين الله من آمن به . (وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا) مفسر في (آل عمران : ٩٩) .

قوله تعالى : (واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم) قال الزجاج : جائز أن يكون المعنى : جعلكم أغنياء بعد أن كنتم فقراء ؛ وجائز أن يكون : كثر عددكم بعد أن كنتم قليلاً ، وجائز أن يكونوا غير ذوي مقدرة وأقدار ، فكثروهم .
 ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .
 قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا) أي : إن اختلفتم في رسالتي ، فصرتم فريقين ، مصدقين ومكذبين (فاصبروا حتى يحكم الله بيننا) بتعذيب المكذبين ، وإنجاء المصدقين (وهو خير الحاكمين) لأنه العدل الذي لا يجوز .

قوله تعالى : (أو لنعودن في ملتنا) يعنون ديننا ، وهو الشرك . قال الفراء : جمل في قوله : « لنعودن » لأمّا كجواب اليمين ، وهو في معنى شرط ؛ ومثله في الكلام : والله لأضربنك أو تُقرن لي ، فيكون معناه معنى : « إلا » ، أو معنى : « حتى » . (قال أولو كنا كارهين) أي : أو تجبروننا على ملتكم إن كرهناها ؛ والألف للاستفهام . فان قيل : كيف قالوا : « لنعودن » ، وشعيب لم يكن في كفر قط ، فيعود إليه ؟ فمنه جوابان .

أحدهما : أنهم لما جمعوا في الخطاب معه من كان كافراً ، ثم آمن ، خاطبوا شعيباً بخطاب أتباعه ، وغلبوا لفظهم على لفظه ، لكثرتهم ، وانفراده .

والثاني : أن المعنى : لتصيرُنَّ إلى ملتنا ؛ فوق العود على معنى الابتداء ، كما يقال : قد عاد عليٌّ من فلان مكروه ، أي : قد لحقني منه ذلك ؛ وإن لم يكن سبق منه مكروه . قال الشاعر :

فإن تكن الأيامُ أحسنَ مرةً إليَّ فقد عادتْ لهنَّ ذُنُوبُ

وقد شرحنا هذا في قوله : (وإلى الله ترجع الأمور) في سورة (البقرة : ٢١٠) ، وقد ذكر معنى الجواين الزجاج ، وابن الأنباري .

﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَبِيرُ الْفَانِ حِينَ . وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَشِئْنٍ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا خَالِسُونَ . فَأَخَذْنَاهُمُ الرِّجْفَ فَأَضْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَانِمِينَ . الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا مِنْ الْخَالِسِينَ . فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم) وذلك أن القوم كانوا يدعون أن الله أمرهم بما هم عليه ، فلذلك سمّوه مِلَّةً . (وما يكون لنا أن نعود فيها) أي : في الملة ، (إلا أن يشاء الله) أي : إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيته أن نعود فيها ، (وسع ربنا كل شيء علماً) قال ابن عباس : يعلم ما يكون قبل أن يكون .

قوله تعالى : (على الله توكلنا) أي : فيما توعدتمونا به ، وفي حراستنا عن الضلال . (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) قال أبو عبيدة : احكم بيننا ، وأنشد :
 أَلَا أُبْلِغُ بَنِي عَصْمٍ رَسُولًا بَأْتِي عَنْ فُتَا حَتِّكُمْ غَنِيًّا ^(١)
 قال الفراء : وأهل عُمان يسمون القاضي : الفاتح والفتاح . قال الزجاج : وجائز أن يكون المعنى : أظهر أمرنا حتى يفتح ما بيننا وينكشف ؛ فجائز أن يكونوا سألوا بهذا نزول العذاب بقومهم ليظهر أن الحق معهم .

قوله تعالى : (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) فيه أربعة أقوال .
 أحدها : كأن لم يعيشوا في دارهم ، قاله ابن عباس ، والآخر خشن . قال حاتم طيبي :

غَنَيْنَا زَمَانًا بِالتَّصَعُّكِ وَالْفَنَى فَكَلَّا سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْنِهَا الدَّهْرُ ^(٢)
 فَمَا زَادَنَا بَقِيًّا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ غِنَانًا، وَلَا أُرْزَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ ^(٣)
 قال الزجاج : معنى غنينا : عشنا . والتصعك : الفقر ، والعرب تقول للفقير : الصعلوك .
 والثاني : كأن لم يتمتعوا فيها ، قاله قتادة .

والثالث : كأن لم يكونوا فيها ، قاله ابن زيد ، ومقابل .

(١) « مجاز القرآن » : ١ / ٢٢٠ ، و « اصلاح المطلق » : ١١٢ ، و « الطبري » : ٥٦٤/١٢ ، و « السمط » : ٩٢٧ و « القرطبي » : ٩٤/١٣ ، و « اللسان » ، و « التاج » فتح . وبنو عصم : رهط عمرو بن معديكرب الزبيدي . والبيت مختلف في عزوه ، انظر تعليق الراجكوتي في « سمط اللآلي » : ٩٢٧ .

(٢) البيهقي في « ديوان حاتم » : ١١٩ ، و « الأغاني » : ٢٩٦/١٧ ، و « خزنة الأدب »

للبغدادي ١٦٣/٢ .

(٣) في « الديوان » و « الخزنة » : « فما زادنا بأوًا » ، والبأو : الكبير والفخر .

والرابع : كأن لم ينزلوا فيها ، قاله الزجاج . قال الأصمعي : المناني : المنازل ؛ يقال : غنينا بمكان كذا ، أي : نزلنا به . وقال ابن قتيبة : كأن لم يقيموا فيها ، ومعنى : غنينا بمكان كذا : أقننا . قال ابن الأنباري : وإنما كرر قوله : (الذين كذبوا شعيباً) للمبالغة في ذمهم ؛ كما تقول : أخوك الذي أخذ أموالنا ، أخوك الذي شتم أعراضنا .

قوله تعالى : (فتولى عنهم) فيه قولان .

أحدهما : أعرض . والثاني : انصرف . (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي) قال قتادة : أسمع شعيب قومه ، وأسمع صالح قومه ؛ كما أسمع نبيكم قومه يوم بدر ؛ يعني : أنه خاطبهم بعد الهلاك . (فكيف آسى) أي : أحزن . وقال ابن إسحاق : أصاب شعيباً على قومه حزنٌ شديد ، ثم عاتب نفسه ، فقال : كيف آسى على قوم كافرين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما أرسلنا في قرية) قال الزجاج : يقال لكل مدينة : قرية ، لاجتماع الناس فيها . وقال غيره : في الآية اختصار ، تقديره : فكذبوه . (إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء) وقد سبق تفسير البأساء والضراء في (الأنعام : ٤٢) ، وتفسير التضرع في هذه السورة [الاعراف : ٥٥] . ومقصود الآية : إعلام النبي ﷺ بسنة الله في المكذبين ، وتهديد قريش .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .
أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : (ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة) فيه قولان .

أحدهما : أن السيئة : الشدة ؛ والحسنة : الرخاء ، قاله ابن عباس .

والثاني : السيئة : الشر ؛ والحسنة : الخير ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (حتى عفوا) قال ابن عباس : كثروا ، وكثرت أموالهم .

(وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء) فنحن مثلهم ، يصيبنا ما أصابهم ، يعني : أنهم أرادوا أن هذا دأب الدهر ، وليس بعقوبة . (فأخذناهم بغتة) أي : فجأة بزول العذاب (وهم لا يشعرون) بزوله ، حتى أهلكهم الله .

قوله تعالى : (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) قال الزجاج :

المعنى : أنهم ألقيت من السماء ، والنبات من الأرض ، وجعل ذلك زاكياً كثيراً .

﴿ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ .

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (أو آمن أهل القرى) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، ونافع :

(أو آمن أهل) باسكان الواو . وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحزمة ، والكسائي :

(أو آمن) بتحريك الواو . وروى ورش عن نافع : (أو آمن) يدغم

الحزمة ، ويلقي حركتها على الساكن .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ

نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .

تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ
اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : (أولم يهد للذين) وقرأ يعقوب : « نهد » بالنون ، وكذلك
في (طه : ١٢٨) ، و (السجدة : ٢٦) . قال الزجاج : من قرأ بالياء ، فالمعنى :
أولم يبين الله لهم . ومن قرأ بالنون ، فالمعنى : أولم يبين . وقوله تعالى : (ونطبع)
ليس بمحمول على « أصنام » ، لأنه لو حمل على « أصنامهم » لكان : ولطبعنا .
ولما المعنى : ونحن نطبع على قلوبهم . ويجوز أن يكون محمولا على الماضي ، ولفظه
لفظ المستقبل ، كما قال : (أن لو نشاء) ، والمعنى : لو شئنا . وقال ابن الأنباري :
يجوز أن يكون مطلقا على : أصنا ، إذ كان بمعنى نصيب ؛ فوضع الماضي في
موضع المستقبل عند وضوح معنى الاستقبال ، كما قال : (تبارك الذي إن شاء جعل
لك خيرا من ذلك) [الفرقان : ١٠] ، أي : إن يشأ ، يدل عليه قوله : (ويجعل
لك قصورا) ، قال الشاعر :

إِنْ يَسْمَعُوا رَبِّيَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا مَنِيَّ ، وَمَا صَمِيمُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا^(١)
أي : يدفنوا .

قوله تعالى : (فهم لا يسمعون) أي : لا يقبلون ، ومنه : « سمع الله لمن
حمده » ، قال الشاعر :

دَعَوْتُ اللَّهَ حَتَّى خِفْتُ أَنْ لَا يَكُونَ اللَّهُ يَسْمَعُ مَا أَقُولُ^(٢)

(١) البيت لقضب بن أم صاحب ، وهي أمه ، واسم أبيه ضمرة ، أحد بني عبد الله بن
غطفان ، من شراء مصر الأموي . وهو في « الحماسة » : ١٢/٤ ، و « شواهد المتقي »
للسيوطي : ٣٢٦ .

(٢) البيت غير منسوب في « اللسان » : سمع .

قوله تعالى : (فَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ) فيه خمسة أقوال .
 أحدها : فَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا عند مجيء الرسل بما سبق في علم الله أنهم يكذبون
 به يوم أقرؤا له بالميثاق حين أخرجهم من صلب آدم ، هذا قول أبي بن كعب .
 والثاني : فَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا عند إرسال الرسل بما كَذَّبُوا به يوم أخذ
 ميثاقهم حين أخرجهم من صلب آدم ، فأمنوا كرهاً حيث أقرؤا بالأسن ، وأضربوا
 التكذيب ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثالث : فَا كَانُوا لَوْ رَدَدْنَاهُمْ إِلَى الدُّنْيَا بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ
 مِنْ قَبْلِ هَلَاكِهِمْ ، هذا قول مجاهد .

والرابع : فَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبَ بِهِ أَوَائِلُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ، بل
 شاركوهم في التكذيب ، قاله يمان بن رباب .

والخامس : فَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِبَدْرٍ رَوِيَهُ الْمَعْجَزَاتُ وَالْمُعْجَازُ بِمَا كَذَّبُوا
 قَبْلَ رُؤْيَيْهَا .

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ
 لَفَاسِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ) قال مجاهد : يعني : القرون الماضية .
 (مِنْ عَهْدٍ) قال أبو عبيدة : أي : وفاء . قال ابن عباس : يريد الوفاء بالعهد الذي
 عاهدوهم حين أخرجهم من صلب آدم . وقال الحسن : العهد هاهنا : ما عهده إليهم
 مع الأنبياء أَنْ لَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا .

قوله تعالى : (وَإِنْ وَجَدْنَا) قال أبو عبيدة : وما وجدنا أَكْثَرَهُمْ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بَأْيَانِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ . وَقَالَ مُوسَىٰ
يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ
بَنِي إِسْرَءِيلَ . قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ . فَأَتَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُبِينٌ ﴾

قوله تعالى : (ثم بعثنا من بعدهم) يعني : الأنبياء المذكورين .

قوله تعالى : (فظلموا بها) قال ابن عباس : فكذبوا بها . وقال غيره :

فجحدوا بها .

قوله تعالى : (حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق) « على » بمعنى الباء .

قال الفراء : العرب تجعل الباء في موضع « على » ؛ تقول : رهيت بالقوس ، وعلى
القوس ، وجئت بحال حسنة ، وعلى حال حسنة . وقال أبو عبيدة : « حقيق » بمعنى :
حريص . وقرأ نافع ، وأبان عن عاصم : (حقيق علي) بتشديد الياء وفتحها ، على
الاضافة . والمعنى : واجب علي .

قوله تعالى : (قد جئكم ببينة) قال ابن عباس : يعني : المصا . (فأرسل
معي بني إسرائيل) أي : أطلق عنهم ؛ وكان قد استخدمهم في الأعمال الشاقة .
(فإذا هي ثمان مبین) قال أبو عبيدة : أي : حية ظاهرة . قال الفراء : الثمان :
اعظم الحيات ، وهو الذكر . وكذلك روى الضحاك عن ابن عباس : الثمان :
الحية الذكر .

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَادَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ . قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَادَا تَأْمُرُونَ . قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَا ثُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ . وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَلِمَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ . قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ . وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَادَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ . وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْمَالِكِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾

قوله تعالى : (ونزع يده) قال ابن عباس : أدخل يده في جيبه ، ثم أخرجه ، فإذا هي ت برق مثل البرق ، لها شعاع غلب نور الشمس ، فخرّوا على وجوههم ؛ ثم أدخلها جيبه فصارت كما كانت . قال مجاهد : بيضاء من غير برص .

قوله تعالى : (فإذا تأمرون) قال ابن عباس : ما الذي تشيرون به عليّ ؟ وهذا يدل على أنه من قول فرعون ، وأن كلام الملائق انقطع عند قوله : (من أرضكم) . قال الزجاج : يجوز أن يكون من قول الملائق ، كأنهم خاطبوا فرعون ومن يخصه ، أو خاطبوه وحده ؛ لأنه قد يقال للرئيس المطاع : ماذا ترون ؟ .

قوله تعالى : (أَرْجِئْهُ) قرأ ابن كثير « أَرْجِئْهُ » مهموز بواو بعد الهاء في اللفظ . وقرأ أبو عمرو مثله ، غير أنه يضم الهاء ضمة ، من غير أن يبلغ بها الواو ؛ وكانا يهزان : (مُرْجَوْنُ) [التوبة : ١٠٦] و (مُرْجِيٌّ) [الأحزاب : ٥١] .

وقرأ قالون والمسيبي عن نافع « أَرْجِهْ » بكسر الهاء ، ولا يبلغ بها الياء ، ولا يهمز .
وروى عنه ورش : « أَرْجِيْ » يصلحها ياء ، ولا يهمز بين الجيم والهاء . وكذلك
قال إسماعيل بن جعفر عن نافع ؛ وهي قراءة الكسائي . وقرأ حمزة : « أَرْجِهْ »
ساكنة الهاء غير مهموز ، وكذلك قرأ عاصم في غير رواية المفضل ، وقد روى
عنه المفضل كسر الهاء من غير إشباع ولا همز ، وهي قراءة أبي جعفر ، وكذلك
اختلفهم في سورة (الشعراء : ٣٩) . قال ابن قتيبة : أَرْجِهْ : أخره ؛ وقد
يهمز ، يقال : أَرْجَأْتُ الشيء ، وأرجيته . ومنه قوله : (ترجي من تشاء منهم)
[الاحزاب : ٥١] . قال الفراء : بنو أسد تقول : أَرْجِيت الأمر ، بغير همز ، وكذلك
عامة قيس ؛ وبعض بني تميم يقولون : أَرْجَأْتُ الأمر ، بالهمز ، والقراء مولعون
بهمزها ، وترك الهمز أجود .

قوله تعالى : (وأرسل في المدائن) يعني مدائن مصر ، (حاشرين) أي : من
يحشر السحرة إليك ويجمعهم . وقال ابن عباس : هم الشرط .

قوله تعالى : (يأتوك بكل ساحر) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ،
وعاصم ، وابن عامر : (ساحر) ، وفي (يونس : ٧٩) : (بكل ساحر) ؛ وقرأ
حمزة ، والكسائي : (سَحَّارٍ) في الموضعين ؛ ولا خلاف في (الشعراء : ٣٧)
أنها : (سَحَّارٍ) .

قوله تعالى : (إن لنا لأجراً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وحفص عن عاصم :
(إن لنا لأجراً) مكسورة الألف على الخبر ، وفي (الشعراء : ٤١) (آيِنٌ)
مدودة مفتوحة الألف ، غير أن حفصاً روى عن عاصم في (الشعراء : ٤١) :
(إَيْن) بهزتين . وقرأ أبو عمرو : (آين لنا) مدودة في السورتين . وقرأ
ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : بهزتين في الموضعين .

قال أبو علي : الاستفهام أشبه بهذا الموضع ، لأنهم لم يقطعوا على أن لهم الأجر ، وإنما استفهموا عنه .

قوله تعالى : (وإني لكم لمن المقربين) أي : ولكم مع الأجر المنزل الرفيعة عندي .
قوله تعالى : (سحروا أعين الناس) قال أبو عبيدة : كَسَحُوا أعين الناس وأخذوها . (واسترهبوهم) أي : خوفوهم . وقال الزجاج : استدعوا رهبتهم حتى رهبهم الناس .

قوله تعالى : (فإذا هي تلقفُ) وقرأ عاصم : (تلقف) ساكنة اللام ، خفيفة القاف هاهنا وفي (طه : ٦٩) ، و (الشعراء : ٤٥) . وروى البرقي ، وابن فليح عن ابن كثير : (تلقف) بتشديد التاء . قال الفراء : يقال : لَقِفْتُ الشيء ، فأنا أَلْقَفُهُ لَقْفًا وَلَقْفَانًا ؛ والمعنى : تبتلع .

قوله تعالى : (ما يافكون) أي : يكذبون ، لأنهم زعموا أنها حيّات .
قوله تعالى : (فوق الحق) قال ابن عباس : استبان . (وبطل ما كانوا يعملون) من السحر .

❦ الإشارة إلى قصتهم ❦

اختلفوا في عدد السحرة على ثلاثة عشر قولاً . أحدها : اثنان وسبعون ، رواه أبو صالح عن ابن عباس : والثاني : اثنان وسبعون ألفاً ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال مقاتل . والثالث : سبعون ، روي عن ابن عباس أيضاً . والرابع : اثنا عشر ألفاً ، قاله كعب . والخامس : سبعون ألفاً ، قاله عطاء ،

وكذلك قال وهب في رواية ، إلا أنه قال : فاختر منهم سبعة آلاف . والسادس : سبعمائة . وروى عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب أنه قال : كان عدد السحرة الذين عارضوا موسى سبعين ألفاً متخيزين من سبعمائة ألف ، ثم إن فرعون اختار من السبعين الألف سبعمائة . والسابع : خمسة وعشرون ألفاً ، قاله الحسن . والثامن : تسعمائة ، قاله عكرمة . والتاسع : ثمانون ألفاً ، قاله محمد بن المنكدر . والعاشر : بضعة وثلاثون ألفاً ، قاله السدي . والحادي عشر : خمسة عشر ألفاً ، قاله ابن إسحاق . والثاني عشر : تسعة عشر ألفاً ، رواه أبو سليمان الدمشقي . والثالث عشر : أربع مائة ، حكاه الثعلبي . فأما أسماء رؤسائهم ، فقال ابن إسحاق : رؤوس السحرة ساتور ، وعاذور ، وحطحط ، ومُصَفَّى ، وهم الذين آمنوا ، كذا حكاه ابن ماكولا . ورأيت عن غير ابن إسحاق : سابوراً ، وعازوراً . وقال مقاتل : اسم أكبرهم شمعون . قال ابن عباس : ألقوا جبلاً غلاظاً ، وخشباً طوالاً ، فكانت ميلاً في ميل ، فألقى موسى عصاه ، فإذا هي أعظم من جبالهم وعصيتهم ، قد سدت الأفق ، ثم فتحت فاهما ثمانين ذراعاً ، فابتلعت ما ألقوا من جبالهم وعصيتهم ، وجعلت تأكل جميع ما قدرت عليه من صخرة أو شجرة ، والناس ينظرون ، وفرعون يضحك تجلّداً ، فأقبلت الحيّة نحو فرعون ، فصاح : ياموسى ، ياموسى ، فأخذها موسى ، وعرفت السحرة أن هذا من " إيه " ، وليس هذا بسحر ، فخرثوا سَجَّداً ، وقالوا آمنا برب العالمين فقال فرعون : إياي تمنون ؟ فقالوا : رب موسى وهارون ، فأصبحوا سحرة ، وأمسوا شهداء . وقال وهب بن منبه : لما صارت ثعباناً حملت على الناس فانهزموا منها ، فقتل بعضهم بعضاً ، فأت منهم خمسة وعشرون ألفاً . وقال السدي : لقي موسى أمير السحرة ، فقال : رأيت إن غلبتك زاد السير ٣ م (١٦)

غداً ، أتؤمن بي ؟ فقال الساحر : لآتين غداً بسحر لا يغلبه السحر ، فوالله لئن غلبتني لأؤمنن بك . فان قيل : كيف جاز أن يأمرهم موسى بالإلقاء ، وفعل السحر كفر ؟ فغنه ثلاثة أجوبة . أحدها : أن مضمون أمره : إن كنتم محقين فألقوا . والثاني : ألقوا على ما يصح ، لا على ما يفسد ويستحيل ، ذكرهما الماوردي . والثالث : إنما أمرهم بالإلقاء لتكون معجزته أظهر ، لأنهم إذا ألقوا ، ألقى عصاه فابلت ذلك ، ذكره الواحدي . فان قيل : كيف قال : (وألقى السحرة ساجدين) وإنما سجدوا باختيارهم ؟ فالجواب أنه لما زالت كل شبهة بما أظهر الله تعالى من أمره ، اضطرم عظيم ما عاينوا إلى مبادرة السجود ، فصاروا مفعولين في الإلقاء نصحيحاً ونعظيماً لشأن مارأوا من الآيات ، ذكره ابن الأنباري . قال ابن عباس : لما آمنت السحرة ، اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . لَا قُطْعَمَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ مُنَّمْ لَا صَلَيبَ لَكُمْ أَجْمَعِينَ . قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (آمنتم به) قرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو : « آمنتم به » بهمزة ومدة على الاستفهام . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « آمنتم به » فاستفهموا بهمزتين ، الثانية ممدودة . وقرأ حفص عن عاصم : « آمنتم به » على الخبر . وروى ابن الأخریط ^(١) عن ابن كثير : « قال فرعون وأمنتم به » فقلب همزة الاستفهام واواً ، وجعل الثانية مليئة بين بين . وروى قبل عن القواس مثل رواية ابن الأخریط ، غير أنه كان يهز بعد الواو . وقال أبو علي : هز بعد الواو ،

(١) في نسخة : أبو الأخریط .

لأن هذه الواو منقلبة عن همزة الاستفهام، وبسبب همزة الاستفهام همزة « أَفَعَلْتُمْ » فحقيقها ولم يخففها .

قوله تعالى : (إن هذا لمكر مكرتموه) قال ابن السائب : لصنيع صنعتموه فيما بينكم وبين موسى في مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع لتستولوا على مصر فتخرجوا منها أهلها (فسوف تعلمون) عاقبة ما صنعتهم ، (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) وهو قطع اليد اليمنى ، والرجل اليسرى . قال ابن عباس : أول من فعل ذلك ، وأول من صلب ، فرعون .

﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ . وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَتَقْبَلُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ . قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

قوله تعالى : (وما تنقم منا) أي : وما تكره منا شيئاً ، ولا تطعن علينا إلا لأننا آمنّا . (ربنا أفرغ علينا صبراً) قال مجاهد : على القطع والصلب حتى لا يرجع كفاراً (وتوفننا مسلمين) أي : مخلصين على دين موسى .

قوله تعالى : (أنذر موسى وقومه) هذا إغراء من الملأ لفرعون . وفيما أرادوا بالفساد في الأرض قولان . أحدهما : قتل أبناء القبط ، واستحياء نسايتهم ، كما فعلوا بيني إسرائيل ، قاله مقاتل . والثاني : دعاؤهم الناس إلى مخالفة فرعون وترك عبادته .

قوله تعالى : (ويذكرك) جمهور القراء على نصب الراء ؛ وقرأ الحسن برفعها .
قال الزجاج : من نصب « ويذكرك » نصبه على جواب الاستفهام بالواو ؛ والمعنى :
أَيكون منك أن تذر موسى وأن يذكرك ؟ ومن رفعه جملته مستأنفاً ، فيكون
المعنى : أُنذر موسى وقومه ، وهو يذكرك وآلهتك ؟ والأجود أن يكون مضموطاً
على « أُنذر » فيكون المعنى : أُنذر موسى ، وأَيذكرك موسى ؟ أي : أُنطلق
له هذا ؟ .

قوله تعالى : (وآلهتك) قال ابن عباس : كان فرعون قد صنع لقومه أصناماً
صغاراً ، وأمرهم بعبادتها ، وقال أنا ربكم ورب هذه الأصنام ، فذلك قوله : (أنا
ربكم الأعلى) [النازعات : ٢٤] . وقال غيره : كان قومه يعبدون تلك الأصنام
تقرباً إليه . وقال الحسن : كان يعبد تيساً في السر . وقيل : كان يعبد البقر سرّاً .
وقيل : كان يجعل في عنقه شيئاً يعبد به . وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ،
وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وأبو المالية ، وابن محيصن : « وإِلهتك » بكسر
الهمزة وقصرها وفتح اللام وبألف بعدها . قال الزجاج : المعنى : ويذكر وربوبيتك .
وقال ابن الأنباري : قال اللغويون : الإِلاهة : العبادة ؛ فالمعنى : ويذكر وعبادة
الناس إِيَّاكَ . قال ابن قتيبة : من قرأ : « وإِلهتك » أراد : ويذكر والشمس التي
تعبد ، وقد كان في العرب قوم يعبدون الشمس ويسمونها إِلهةً . قال الأعشى :
فَإِذَا ذُكِرَ الرَّهْبُ حَتَّى انْقَلَبْتُ قُبَيْلَ الإِلهَةِ مِنْهَا قَرِيباً
يعني الشمس . والرهب : ناقته . يقول : اشتغلت بهذه المرأة عن ناقتي إلى هذا الوقت .
قوله تعالى : (سَنُقْتِلُ أبنَاءهم) قرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ،
وهزة ، والكسائي : « سنقتل » و « يقتلون أبناءكم » [الاعراف : ١٤١] بالتشديد ،

وخففها نافع . وقرأ ابن كثير : « سَنَقُتْلُ » خفيفة ، و « يَقْتُلُونَ » مشددة ،
 وإنما عدل عن قتل موسى إلى قتل الأبناء لعله أنه لا يقدر عليه . (وإنا فوقهم
 قاهرون) أي : عالون بالملك والساطان . فشكا بنو إسرائيل إعادة القتل على أبنائهم ،
 فقال موسى : (استعينوا بالله واصبروا) على ما يفعل بكم (إن الأرض لله يورثها
 من يشاء من عباده) . وقرأ الحسن ، وهبيرة عن حفص عن عاصم : « يورثها »
 بالتشديد . فأطمعهم موسى أن يعطيهم الله أرض فرعون وقومه بعد إهلاكهم .
 قوله تعالى : (والماقبة للمتقين) فيها قولان . أحدها : الجنة . والثاني :
 النصر والظفر .

﴿ قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ نَأْتِيَنَّا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ
 عَلَىٰ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ
 كَيْفَ تَعْمَلُونَ . وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَتَقْصِرَ مِنَ
 الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قالوا أوزينا من قبل أن نأتينا ومن بعد ما جئتنا) في هذا
 الأذى ستة أقوال .

أحدها : أن الأذى الأول والثاني أخذ الجزية ، قاله الحسن .

والثاني : أن الأول ذبح الأبناء ، والثاني إدراك فرعون يوم طلبهم ،
 قاله السدي .

والثالث : أن الأول أنهم كانوا يسخرون في الأعمال إلى نصف النهار ،
 ويرسلون في بقيته يكتسبون ، والثاني تسخيرهم جميع النهار بلا طعام ولا شراب ،
 قاله جوير .

والرابع : أن الأول تسخيرهم في ضرب اللبّين ، وكانوا يعطونهم التبن الذي يخلطونه في الطين ؛ والثاني أنهم كلّفوا ضرب اللبّين وجعل التبن عليهم ، قاله ابن السائب .

والخامس : أن الأول قتل الأبناء ، واستحياء البنات ، والثاني تكليف فرعون إياهم مالا يطيقونه ، قاله مقاتل .

والسادس : أن الأول استخدامهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم ، والثاني إعادة ذلك المذاب .

وفي قوله : (من قبل أن تأتينا) قولان .

أحدهما : تأتينا بالرسالة ، ومن بعد ما جئنا بها ، قاله ابن عباس .

والثاني : تأتينا بعهده الله أنه سيخلصنا ، ومن بعد ما جئنا به ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) قال الزجاج : عسى : طمع وإشفاق ، إلا أن ما يُطمع الله فيه فهو واجب .

قوله تعالى : (ويستخلفكم في الأرض) في هذا الاستخلاف قولان .

أحدهما : أنه استخلاف من فرعون وقومه . والثاني : استخلاف عن الله

تعالى ، لأن المؤمنين خلفاء الله في أرضه . وفي الأرض قولان .

أحدهما : أرض مصر ، قاله ابن عباس . والثاني : أرض الشام ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (فينظر كيف تملون) قال الزجاج : أي : يراه بوقوعه منكم ،

لأنه إنما يجازيهم على ما وقع منهم ، لا على ما علم أنه سيقع .

قوله تعالى : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) قال أبو عبيدة : مجازؤه :

ابتليانهم بالجدوب . وآل فرعون : أهل دينه وقومه . وقال مقاتل : هم أهل مصر .

قال الفراء : « بالسنين » أي : بالقحط والجذوب عاماً بعد عام . وقال الزجاج : السنون في كلام العرب : الجذوب ، يقال : مستهم السنة ، ومعناه : جذب السنة ، وشدة السنة . وإنما أخذهم بالضراء ، لأن أحوال الشدة ، تُرِقُّ القلوب ، وتُرغِب فيما عند الله وفي الرجوع إليه . قال قتادة : أما السنون ، فكانت في بواديهم ومواشيتهم ، وأما نقص الثمرات ، فكان في أمصارهم وقراهم . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : يبس لهم كل شيء ، وذهبت مواشيتهم ، حتى يبس نيل مصر ، فاجتمعوا إلى فرعون فقالوا له : إن كنت رباً كما تزعم ، فاملأ لنا نيل مصر ، فقال غُدوة يصبحكم الماء ، فلما خرجوا من عنده ، قال : أي شيء صنعت ؟ أنا أقدر أن أجيب بالملء في نيل مصر غُدوة أصبح ، فيكذبوني ؛ ! فلما كان جوف الليل ، اغتسل ، ثم لبس مِدرعة من صوف ، ثم خرج حافياً حتى أتى بطن نيل مصر فقام في بطنه ، فقال : اللهم إني أعلم أنك تقدر أن تملأ نيل مصر ماء ، فاملأه ، فاعلم إلا بخير الماء لما أراد الله به من الهلكة . قلت : وهذا الحديث بعيد الصحة ، لأن الرجل كان دهرياً لا يثبت إلهاً . ولو صح ، كان إقراره بذلك كإقرار إبليس ، وتبقى مخالفته عناداً .

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّهُمْ طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (فإذا جاءتهم الحسنة) وهي النيث والخصب وسعة الرزق والسلامة (قالوا لنا هذه) أي : نحن مستحقوها على ما جرى لنا من العادة في سعة الرزق ، ولم يطمعوا أنه من الله فيشكروا عليه . (وإن تصيبهم سيئة) وهي القحط والجذب والبلاء (يطَّيَّروا بموسى ومن معه) أي : يتشاءموا بهم . وكانت العرب تزجر

الطير ، فتشاهم بالبارح ، وهو الذي يأتي من جهة الشمال ، وتبرك بالسائح ، وهو الذي يأتي من جهة اليمين .

قوله تعالى : (أَلَا إِنَّمَا طَأَرُمُ عِنْدَ اللَّهِ) قال أبو عبيدة : « ألا » تنبيه وتوكيد ومجاز . « طَأَرُمُ » حظهم ونصيبهم . وقال ابن عباس « أَلَا إِنَّمَا طَأَرُمُ عِنْدَ اللَّهِ » أي : إن الذي أصابهم من الله . وقال الزجاج : المعنى : ألا إن الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وعدوا به في الآخرة ، لا ما ينالهم في الدنيا .

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخْنُكَ بِمُؤْمِنِينَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا مهما) قال الزجاج : زعم النحويون أن أصل « مهما » ماما ، ولكن أبدل من الألف الأولى الهاء ليختلف اللفظ ، فـ « ما » الأولى هي « ما » الجزء ، و « ما » الثانية هي التي تراد تأكيداً للجزء ، ودليل النحويين على ذلك أنه ليس شيء من حروف الجزء إلا و « ما » تراد فيه ، قال الله تعالى : (فَاِمَّا تَعْرِضْنَ) [الاقوال : ٥٧] كقولك : إن تعقبنهم ، وقال : (وَاِمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ) [الاسراء : ٢٨] ، وتكون « ما » الثانية للشرط والجزء ، والتفسير الأول هو الكلام ، وعليه استعمال الناس . قال ابن الأنباري : فعلى قول من قال : إن معنى « مه » الكف ، يحسن الوقف على « مه » ، والاختيار أن لا يوقف عليها دون « ما » لأنها في المصحف حرف واحد . وفي الطوفان ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الماء . قال ابن عباس : أرسل عليهم مطر دأثم الليل والنهار ثمانية أيام ، وإلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جبير ، وقتادة ، والضحاك ، وأبو مالك ، ومقاتل ، واختاره الفراء ، وابن قتبية ،

والثاني : أنه الموت ، روته عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ^(١) ، وبه قال مجاهد ، وعطاء ، ووهب بن منبه ، وابن كثير .

والثالث : أنه الطاعون ، نقل عن مجاهد ، ووهب أيضاً . وفي القمّل سبعة أقوال .

أحدها : أنه السوس الذي يقع في الخنطة ، رواه سميد بن جبير عن ابن عباس ، وقال به .

والثاني : أنه الدّبي ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعطاء . وقال قتادة : القمّل : أولاد الجرّاد . وقال ابن فارس : الدّبي : الجرّاد إذا تحرك قبل أن تنبت أجنحته .

والثالث : أنه دواب سود صفار ، قاله الحسن ، وسميد بن جبير . وقيل : هذه الدواب هي السوس .

والرابع : أنه الجملان ، قاله حبيب بن أبي ثابت .

والخامس : أنه القمل ، ذكره عطاء الخراساني ، وزيد بن أسلم .

والسادس : أنه البراغيث ، حكاه ابن زيد .

والسابع : أنه الحنّان ، وأحدتها : حنّانة ، وهي ضرب من القردان ، قاله

أبو عبيدة . وقرأ الحسن ، وعكرمة ، وابن يمر : « القمّل » برفع القاف وسكون الميم .

(١) « الطبري » ، ١٣/٥٩ وفي سنده المنهال بن خليفة المجلي وهو ضعيف ، والحجاج بن أرطاة صدوق كثير الخطأ والتدليس . وخرجه ابن كثير ٢/٢٤٠ من رواية ابن مردويه عن يحيى بن عمار به وقال : وهو حديث غريب .

وفي الدم قولان . أحدهما : أن ما هم صار دماً ، قاله الجمهور . والثاني : أنه رعاف أصابهم ، قاله زيد بن أسلم .

﴿الإشارة إلى شرح القصة﴾

قال ابن عباس : جاءهم الطوفان ، فكان الرجل لا يقدر أن يخرج إلى ضيعته ، حتى خافوا الغرق ، فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشفه عنا ، ونؤمن بك ، ونرسل معك بني إسرائيل ؛ فدعا لهم ، فكشفه الله عنهم ، وأثبت لهم شيئاً لم ينبت قبل ذلك ، فقالوا : هذا ما كنا نتنى ، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل ما أنبت الأرض ، فقالوا : ادع لنا ربك ، فدعا ، فكشف الله عنهم ، فأحرزوا زروعهم في البيوت ، فأرسل الله عليهم القُمَّل ، فكان الرجل يخرج بطحين عشرة أجربة إلى الرحي ، فلا يرى منها ثلاثة أقفزة ، فسألوه ، فدعا لهم ، فكشف عنهم ، فلم يؤمنوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع ، ولم يكن شيء أشد منها ، كانت تجيء إلى القدور وهي تنلي وتنفور ، فتلقى أنفسها فيها ، فتفسد طعامهم وتطفئ نيرانهم ، وكانت الضفادع برية ، فأورثها الله تعالى برد الماء والثرى إلى يوم القيامة ، فسألوه ، فدعا لهم ، فلم يؤمنوا ، فأرسل الله عليهم الدم ، فجرت أنهارهم وقلوبهم دماً ، فلم يقدرُوا على الماء العذب ، وبنو إسرائيل في الماء العذب ، فإذا دخل الرجل منهم يستقي من أنهار بني إسرائيل صار مادخل فيه دماً ، والماء من بين يديه ومن خلفه صافٍ عذب لا يقدر عليه ، فقال فرعون : أقسم باللهي يا موسى لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك ، ولنرسلن معك بني إسرائيل ، فدعا موسى ، فذهب الدم وعذب ماؤهم ، فقالوا : والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل .

قوله تعالى : (آيات مفصلات) قال ابن قتيبة : بين الآية والآية فصل . قال المفسرون : كانت الآية تمكث من السبت إلى السبت ، ثم يقون عقيب رفعها شهراً في عافية ، ثم تأتي الآية الأخرى . قال وهب بن منبه : بين كل آيتين أربعون يوماً . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : مكث موسى في آل فرعون بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم الآيات ، الجراد والقمل والضفادع والدم . وفي قوله : « فاستكبروا » قولان . أحدهما : عن الإيمان . والثاني : عن الانزجار .

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْفِتْوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُشُونَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولما وقع عليهم الرجز) أي : نزل بهم العذاب . وفي هذا العذاب قولان .

أحدهما : أنه طاعون أهلك منهم سبعين ألفاً ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير . والثاني : أنه العذاب الذي سلطه الله عليهم من الجراد والقمل وغير ذلك ، قاله ابن زيد . قال الزجاج : « الرجز » : العذاب ، أو العمل الذي يؤدي إلى العذاب . ومعنى الرجز في العذاب : أنه المقلقل لشدة قلقه شديدة متتابعة . وأصل الرجز في اللغة : تتابع الحركات ، فمن ذلك قولهم : ناقة رجاء ، إذا كانت

ترتعد قوائمها عند قيامها ، ومنه رجز الشعر ، لأنه أقصر آيات الشعر ، والانتقال من بيت إلى بيت ، سريع ، نحو قوله :

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ أَحْبَبُ فِيهَا وَأَضَعُ

وزعم الخليل أن الرّجَز ليس بشعر ، وإنما هو أنصاف آيات وأثلاث .

قوله تعالى : (بما عهد عندك) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن معناه : بما أوصاك أن تدعوه به . والثاني : بما تقدم به إليك أن تدعوه فيجيبك . والثالث : بما عهد عندك في كشف العذاب عن آمن . والرابع : أن ذلك منهم على معنى القسم ، كأنهم أقسموا عليه بما عهد عنده أن يدعو لهم .

قوله تعالى : (إلى أجل هم بالنفوه) أي : إلى وقت غرقهم . (إذا هم ينكتون) أي : ينتفضون الصعد .

قوله تعالى : (فأنقمنا منهم) قال أبو سليمان الدمشقي : انتصرنا منهم باحلال تقمنا بهم ، وتلك النعمة تعريقنا إياهم في اليم . قال ابن قتيبة : اليم : البحر بالسريانية . قوله تعالى : (وكانوا عنها غافلين) فيه قولان .

أحدهما : عن الآيات ، وغفلتهم : تركهم الاعتبار بها . والثاني : عن النعمة .

﴿ وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ . وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَضْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأورثنا القوم) يعني بني إسرائيل . (الذين كانوا يُستَضَمَفُونَ) أي : يُسْتَذَلُّونَ بذبح الأبناء ، واستخدام النساء ، وتسخير الرجال . (مشارق الأرض ومغاربها) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مشارق الشام ومغاربها ، قاله الحسن . والثاني : مشارق أرض الشام ومصر ، والثالث : أنه على إطلاقه في شرق الأرض وغربها .

قوله تعالى : (التي باركنا فيها) قال ابن عباس : بالماء والشجر .

قوله تعالى : (وتمت كلمة ربك الحسنى) وهي وعد الله لبني إسرائيل باهلاك عدوم ، واستخلافهم في الأرض ، وذلك في قوله : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض) [القصص : ٥] ، وقد بيَّنا علة تسمية ذلك كله في (آل عمران : ١٤٦) .

قوله تعالى : (بما صبروا) فيه قولان .

أحدهما : على طاعة الله تعالى . والثاني على أذى فرعون .

قوله تعالى : (ودمرنا) أي : أهلكنا (ما كان يصنع فرعون وقومه) من الممارات والمزارع ، والدمار : الهلاك . (وما كانوا يعرشون) أي : يبنون . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « يعرِشون » بكسر الراء هاهنا وفي (النحل : ٦٨) . وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : بضم الراء فيها . وقرأ ابن أبي عبلة : « يُعرِشون » بالتشديد . قال الزجاج : يقال : عَرَشَ يَعْرِشُ وَيَعْرِشُ : إذا بنى .

قوله تعالى : (يمكفون) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، ويعقوب : « بِمَكْفُونٍ » بضم الكاف . وقرأ حمزة ، والكسائي ،

والفضل : بكسر الكاف . وقرأ ابن أبي عبلة : بضم الياء وتشديد الكاف . قال الزجاج : ومعنى (يعكفون على أصنام لهم) : يواظبون عليها ويلزمونها ، يقال لكل من لزم شيئاً وواظب عليه : عَكَفَ بِعَكَفٍ وَيَعَكَفُ . قال قتادة : كان أولئك القوم نزولاً بالرفة ، وكانوا من غلم . وقال غيره : كانت أصنامهم تماثيل البقر . وهذا إخبار عن عظيم جهلهم حيث توهموا جواز عبادة غير الله بعدما رأوا الآيات .

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّ مَاهُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾
قوله تعالى : (إن هؤلاء متبراً ما هم فيه) قال ابن قتيبة : مهلك .
والنبار : الهلاك .

﴿ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾
قوله تعالى : (قال أغير الله أبنيكم إلهاً) أي : أطلب لكم ، وهذا استفهام إنكار . قال المفسرون ، منهم ابن عباس ، ومجاهد : العالمون هاهنا : عالمو زمانهم .
﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتِلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وإذ أنجيناكم) قرأ ابن عامر : « وإذ أنجاكم » على اللفظ الغائب المفرد .

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ رَقَمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) المعنى : وعدناه انقضاء الثلاثين ليلة .

قال ابن عباس : قال موسى لقومه : إن ربي وعدني ثلاثين ليلة ، فلما فصل إلى ربه زاده عشراً ، فكانت فتنتهم في ذلك العشر . فان قيل : لم زيد هذا العشر ؟ فالجواب : أن ابن عباس قال : صام تلك الثلاثين ليلاً ونهاراً ، فلما انسلخ الشهر ، كره أن يكلم ربه وريح فيه وريح فم الصائم ، فتناول شيئاً من نبات الأرض فضعه ، فأوحى الله تعالى إليه : لا كلتلك حتى يعود فوك على ما كان عليه ، أما علمت أن رائحة فم الصائم أحب إليّ من ريح المسك ؟ وأمره بصيام عشرة أيام . وقال أبو العالية : مكث موسى على الطور أربعين ليلة ، فبلغنا أنه لم يحدث حتى هبط منه . فان قيل : ما معنى (فم ميثقات ربه أربعين ليلة) وقد علم ذلك عند انضمام العشر إلى الثلاثين ؟ .

فالجواب من وجوه . أحدها : أنه للتأكيد . والثاني : ليدل أن العشر ، ليالٍ ، لا ساعات . والثالث : لينبي تمام الثلاثين بالعشر أن تكون من جملة الثلاثين ، لأنه يجوز أن يسبق إلى الوهم أنها كانت عشرين ليلة فأتمت بعشر . وقد بينا في سورة (البقرة : ٥١) لماذا كان هذا الوعد .

قوله تعالى : (وأصلح) قال ابن عباس : مُرهم بالإصلاح . وقال

مقاتل : ارفق .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ
إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ
مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ
مُوسَىٰ سَاجِدًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ مُبْتَئِئًا إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ

الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي
وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ *

قوله تعالى : (ولما جاء موسى لميقاتنا) قال الزجاج ، أي : للوقت الذي وقتنا
له . (وكلّمه ربّه) أسمعته كلامه ، ولم يكن فيما بينه وبين الله عز وجل فيما سمع
أحد . (قال رب أرني أنظر إليك) أي : أرني نفسك .

قوله تعالى : (قال لن تراني) تعلق بهذا مُفَاة الرؤية وقالوا : « لن »
لنفي الأبد ، وذلك غلط ، لأنها قد وردت وليس المراد بها الأبد في قوله :
(ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم) [البقرة : ٩٥] ثم أخبر عنهم بتمنيهِ
في النار بقوله : (يامالك ليقض علينا ربك) [الزخرف : ٧٧] ، ولأن ابن عباس
قال في تفسيرها : لن تراني في الدنيا . وقال غيره : هذا جواب لقول موسى :
« أرني » ، ولم يُرد : أرني في الآخرة ، وإنما أراد في الدنيا ، فأُجيب عما سأل .
وقال بعضهم : لن تراني بسؤالك . وفي هذه الآية دلالة على جواز الرؤية ، لأن
موسى مع علمه بالله تعالى ، سألها ، ولو كانت مما يستحيل لما جاز لموسى أن يسألها ،
ولا يجوز أن يجبل موسى مثل ذلك ، لأن معرفة الأنبياء بالله ليس فيها نقص ، ولأن
الله تعالى لم ينكر عليه المسألة وإنما منعه من الرؤية ، ولو استحالت عليه لقال :
« لا أرى » ، ألا ترى أن نوحاً لما قال : (إن ابني من أهلي) [هود : ٤٥] أنكر
عليه بقوله : (إنه ليس من أهلك) [هود : ٤٦] . ومما يدل على جواز الرؤية
أنه علّقها باستقرار الجبل ، وذلك جائز غير مستحيل ، فدل على أنها جائزة ، ألا
ترى أن دخول الكفار الجنة لما استحال علّقه بمستحيل فقال : (حتى يلج الجمل في
سمّ الخياط) [الاعراف : ٤٠] .

قوله تعالى : (فان استقر مكانه) أي : ثبت ولم يتضعضع .

قوله تعالى : (فلما تجلسي ربّه) قال الزجاج : ظهر ، وبان . (جملة دكّا)
قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « دكّا » منونة مقصورة
هاهنا وفي (الكهف : ٩٨) . وقرأ عاصم : « دكّا » هاهنا منونة مقصورة ،
وفي (الكهف : ٩٨) : « دكاه » ممدودة غير منونة . وقرأ حمزة ، والكسائي :
« دكاه » ممدودة غير منونة في الموضعين . قال أبو عبيدة : « جملة دكّا » أي :
مندكّا ، والدكّ : المستوي ؛ والمعنى : مستويًا مع وجه الأرض ، يقال : نافّة
دكّا ، أي : ذاهبة السنام مستويًا ظهرها . قال ابن قتيبة : كأن سنامها دكّ ،
أي : التصق ، قال : ويقال : إن أصل دككت : دقت ، فأبدلت القاف كافًا
لتقارب المخرجين . وقال أنس بن مالك في قوله : « جملة دكّا » : ساخ الجبل . قال
ابن عباس : واسم الجبل : زبير ، وهو أعظم جبل بمدين ، وإن الجبال تطاولت
ليتجلسي لها ، وتواضع زبير فتجلى له .

قوله تعالى : (وخرّ موسى صمقًا) فيه قولان .

أحدهما : مغشيًا عليه ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وابن زيد .

والثاني : ميتًا ، قاله قتادة ، ومقاتل ، والأول أصح ، لقوله : (فلما أفاق)

وذلك لا يقال للميت . وقيل : بقي في غشيته يومًا وليلة .

قوله تعالى : (سبحانه تبت إليك) فيما تاب منه ثلاثة أقوال .

أحدها : سؤاله الرؤية ، قاله ابن عباس ، وبجاهد . والثاني : من الإقدام

على المسألة قبل الإذن فيها . والثالث : اعتقاد جواز رؤيته في الدنيا .

وفي قوله : (وأنا أول المؤمنين) قولان .

أحدهما : أنك لن تُرى في الدنيا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .
 والثاني : أول المؤمنين من بني إسرائيل ، رواه عكرمة عن ابن عباس .
 قوله تعالى : (إني اصطفتك) فتح ياء « إني » ابن كثير ، وأبو عمرو . وقرأ
 ابن كثير ، ونافع : « برسائي » . قال الزجاج : المعنى : اتخذتك صفوة على الناس
 برسالاتي وبكلامي ، ولو كان إنما سمع كلام غير الله لما قال : « برسالاتي وبكلامي »
 لأن الملائكة تنزل إلى الأنبياء بكلام الله .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا
 لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا
 سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (وكتبنا له في الأنواح من كل شيء) في ماهية الألواح سبعة أقوال .
 أحدها : أنها زبرجد ، قاله ابن عباس . والثاني : ياقوت ، قاله سعيد بن
 جبير . والثالث : زمرد أخضر ، قاله مجاهد . والرابع : برَد ، قاله أبو العالية .
 والخامس : خشب ، قاله الحسن . والسادس : صخر ، قاله وهب بن منبه . والسابع :
 زمرد وياقوت ، قاله مقاتل . وفي عددها أربعة أقوال .

أحدها سبعة ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . والثاني : لوحان ، قاله
 أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره الفراء . قال : وإنما سماها الله تعالى ألواحاً ، على
 مذهب العرب في إيقاع الجمع على التثنية ، كقوله : (وكنا لحكمهم شاهدين)
 [الانبياء : ٧٨] يريد داود ، وسليمان ، وقوله : (فقد صغت قلوبكما) [التحريم : ٤] .
 والثالث : عشرة ، قاله وهب . والرابع : تسعة ، قاله مقاتل .

وفي قوله : (من كل شيء) قولان . أحدهما : من كل شيء يُحتاج إليه
 في دينه من الحلال والحرام والواجب وغيره . والثاني : من الحكم والعبر .

قوله تعالى : (موعظة) أي : نهياً عن الجهل . (وتفصيلاً) أي : تبييناً لكل شيء من الأمر والنهي والحدود والأحكام .

قوله تعالى : (فخذها بقوة) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : بجدة وحزم ، قاله ابن عباس . والثاني : بطاعة ، قاله أبو العالية .

والثالث : بشكر ، قاله جوير .

قوله تعالى : (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) إن قيل : كأن فيها ما ليس

بحسن ؟ فمنه جوابان .

أحدهما : أن المعنى : يأخذوا بحسنها ، وكلها حسن ، قاله قطرب . وقال

ابن الأنباري : ناب « أحسن » عن « حسن » كما قال الفرزدق :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى أَنَا يَتَنَا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ^(١)

أي : عزيزة طويلة . وقال غيره : « الأحسن » هاهنا صلة ، والمعنى : يأخذوا بها .

والثاني : أن بعض ما فيها أحسن من بعض . ثم في ذلك خمسة أقوال .

أحدها : أنهم أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر ، ففعل الخير هو الأحسن .

والثاني : أنها اشتملت على أشياء حسنة بعضها أحسن من بعض ، كالقصاص

والعفو والانتصار والصبر ، فأُمرُوا أن يأخذوا بالأحسن ، ذكر القولين الزجاج .

فعلى هذا القول ، يكون المعنى : أنهم يتبعون المزامم والفضائل ، وعلى الذي قبله ، يكون

المعنى : أنهم يتبعون الموصوف بالحسن وهو الطاعة ، ويجتنبون الموصوف بالقبح وهو المعصية .

والثالث : أحسنها : الفرائض والنوافل ، وأدونها في الحسن : المباح .

والرابع : أن يكون للكلمة معنيان أو ثلاثة ، فتصرف إلى الأشبه بالحق .
والخامس : أن أحسنها : الجمع بين الفرائض والنوافل .
قوله تعالى : (سأُرِيكم دار الفاسقين) فيها أربعة أقوال .

أحدها : أنها جهنم ، قاله الحسن ، ومجاهد . والثاني : أنها دار فرعون وقومه ، وهي مصر ، قاله عطية العوفي . والثالث : أنها منازل من هلك من الجبابرة والعمالقة ، يربهم إياها عند دخولهم الشام ، قاله قتادة . والرابع : أنها مضارع الفاسقين ، قاله السدي . ومعنى الكلام : سأُرِيكم عاقبة من خالف أمري ، وهذا تهديد للمخالف ، وتحذير للموافق .

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) في هذه الآية قولان .

أحدهما : أنها خاصة لأهل مصر فيما رأوا من الآيات . والثاني : أنها عامة ، وهو أصح . وفي الآيات قولان .

أحدهما : أنها آيات الكتب المتلوة . ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال . أحدها : أَمْنُهُمْ فَمِهَا . والثاني : أَمْنُهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِهَا . والثالث : أَصْرَفَهُمْ عَنِ الْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهَا بِالْإِبْطَالِ .

والثاني : أنها آيات المخلوقات كالسما والارض والشمس والقمر وغيرها ،
فيكون المعنى : أصرفهم عن التفكير والاعتبار بما خلقت . وفي معنى يتكبرون قولان .
أحدهما : يتكبرون عن الإيمان واتباع الرسول .

والثاني : يحقرون الناس ويرون لهم الفضل عليهم .

قوله تعالى : (وإن يروا سبيل الرشـد) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ،
وابن عامر ، وعاصم : « سبيل الرشـد » بضم الراء خفيفة . وقرأ حمزة ، والكسائي :
« سبيل الرشـد » بفتح الراء والشين مثقلة .

قوله تعالى : (ذلك بأنهم) قال الزجاج : فعل الله بهم ذلك بأنهم
(كذبوا بآياتنا وكانوا غافلين) ، أي : كانوا في تركهم الإيمان بها والتدبر لها
بمنزلة الغافلين . ويجوز أن يكون المعنى : وكانوا عن جزائها غافلين .

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا
لَّهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ
وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده) أي : من بعد انطلاقه إلى الجبل
المبقات . (من حليتهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن
عامر : « من حليتهم » بضم الحاء . وقرأ حمزة ، والكسائي : « حليتهم » بكسر
الحاء . وقرأ يعقوب : بفتحها وسكون اللام وتخفيف الياء . والحلي : جمع حلي ،
مثل ندي ونديي ، وهو اسم لما يتحسّن به من الذهب والفضة . قال الزجاج :
ومن كسر الحاء من « حليهم » أتبع الحاء كسر اللام . والجسد : هو الذي لا يعقل
ولا يميز ، إنما هو بمعنى الجنة فقط . قال ابن الأنباري : ذكر الجسد دلالة على

عدم الروح منه ، وأن شخصه شخص مثال وصورة ، غير منضم إليهما روح ولا نفس . فأما الخُوار ، فهو صوت البقرة ، يقال : خَارَتْ البقرة تَخُورُ ، وَجَارَتْ تَجَارُ ؛ وقد قيلَ عن العرب أنهم يقولون في مثل صوت الإنسان من البهائم : رَغَا البعير وَجَرَّ وَهَدَرَ وَبَقَّبَ ، وَصَهَلَ الفرس وَخَنَحَمَ ، وَشَهَقَ الحمار وَنَهَقَ ، وَشَحَجَ البغل ، وَنَمَتَ الشاة وَيَمَرَّتْ ، وَثَأَجَتِ النَّعْجَةُ ، وَبَغَمَ ^(١) الظبي وَنَزَبَ ^(٢) ، وَزَارَ الأسدُ وَنَهَتَ وَنَأَتَ ، وَوَعُوَعَ الذئبُ ، وَنَهَمَ الفيلُ ، وَزَقَعَ ^(٣) القِرْدُ ، وَضَبَعَ الثعلبُ ، وَعَوَى الكلبُ وَبَجَحَ ، وَمَامَتِ السِّتُورُ ، وَصَأَتِ الفأرة ، وَنَفَقَ الثُّرَابُ معجمة النين ، وَزَقَا الدِّيكُ وَسَقَعَ ، وَصَفَرَ النسرُ ، وَهَدَرَ الحمامُ وَهَدَلَ ، وَتَقَضَّتِ الضَّفَادِعُ وَنَقَّتْ ، وَغَزَقَتِ الجِنَّ . قال ابن عباس : كان العجل إذا خار سجدوا ، وإذا سكَّت رفعوا رؤوسهم . وفي رواية أبي صالح عنه : أنه خار خورة واحدة ولم يُتبعها مثلاً ، وبهذا قال وهب ، ومقاتل . وكان مجاهد يقول : خواره خفيف الريح فيه ؛ وهذا يدل على أنه لم يكن فيه روح . وقرأ أبو رزين العقيلي ، وأبو مجلز : « له جُوار » بجيم مرفوعة .

قوله تعالى : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ) أي : لا يستطيع كلامهم . (ولا يهديهم سبيلاً) أي : لا يبين لهم طريقاً إلى حجة . (اتَّخَذُوهُ) يعني اتَّخَذُوهُ آلَها . (وكانوا ظالمين) قال ابن عباس : مشركين .

(١) في الأصل : نهم ، وهو تصحيف .

(٢) في الأصل : ترب ، وهو تصحيف .

(٣) في الأصل : رقع ، وهو تصحيف .

﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا إِنَّهُمْ لَم يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعِفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾

قوله تعالى : (وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ) أي : ندموا . قال الزجاج : يقال الرجل النادم على ما فعل ، المتحسر على ما فرط : قد سَقَطَ في يده ، وأَسْقَطَ في يده . وقرأ ابن السميع ، وأبو عمران الجوني : « سَقَطَ » بفتح السين . قال الزجاج : والمعنى : ولما سَقَطَ الندمُ في أيديهم ، يشبه ما يحصل في القلب وفي النفس بما يُرى بالعين . قال المفسرون : هذا الندم منهم إنما كان بعد رجوع موسى .

قوله تعالى : (لئن لم يرحمنا ربنا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : « يرحمنا ربنا » « ويغفر لنا » « بالياء والرفع . وقرأ حمزة ، والكسائي : « ترحمنا » « وتغفر لنا » « بالياء ، « ربنا » بالنصب .

قوله تعالى : (غَضْبَانُ أَسِفًا) في الْأَسْفِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ .

أحدها : أنه الحزين ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والسدي . والثاني : الجزع ، قاله مجاهد . والثالث : أنه الشديد الغضب ، قاله ابن قتيبة ، والزجاج . وقال أبو الدرداء : الْأَسْفُ : منزلة وراء الغضب أشد منه .

قوله تعالى : (قال) أي : لقومه (بئسما خلفتموني من بعدي) فتح يا « بعدي » أهل الحجاز ، وأبو عمرو ؛ والمعنى : بئس ما عملتم بعد فراق من عبادة المجل . (أعجلتم أمر ربكم) قال الفراء : يقال : عَجِلْتُُ الأمر والشئ : سبقتُهُ ، ومنه هذه الآية . وأعجلته : استحثثته . قال ابن عباس : أعجلتم ميماد ربكم فلم تصبروا له ! قال الحسن : يعني وعَدَ الأربعين ليلة .

قوله تعالى : (وألقى الألواح) التي فيها التوراة . وفي سبب إلقائه إياها قولان . أحدهما : أنه الغضب حين رآهم قد عبدوا المجل ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه لما رأى فضائل غير أمته من أمة محمد ﷺ اشتد عليه ، فألقاها ، قاله قتادة ، وفيه بُعد . قال ابن عباس : لما رمى بالألواح فتحطمت ، رُفِعَ منها ستة أسباع ، وبقي سبع .

قوله تعالى : (وأخذ برأس أخيه) في مأخذ به من رأسه ثلاثة أقوال . أحدها : لحيته وذؤابته . والثاني : شعر رأسه . والثالث : أذنه . وقيل : إنما فعل به ذلك ، لأنه توهم أنه عصى الله بمقامه بينهم وترك الحقوق به ، وتعريفه ما أحدثوا بعده ليرجع إليهم فينلافهم ويردعهم إلى الحق ، وذلك قوله : (مامتك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبين) [طه : ٩٢ ، ٩٣] .

قوله تعالى : (ابن أم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « قال ابن أم » نصبا . وقرأ ابن عامر ، وحزمة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : بكسر الميم ، وكذلك في (طه : ٩٤) . قال الزجاج : من فتح الميم ، فلكثر استعمال هذا الاسم ، ومن كسر ، أضافه إلى نفسه بعد أن جملة اسما واحداً ، ومن العرب من يقول : « يا ابن أمي » بانيات الياء . قال الشاعر :

يَا ابْنَ أُمِّي وَيَا شُقَيْقَ نَفْسِي أَنْتَ خَلَقْتَنِي لِدَهْرٍ شَدِيدٍ^(١)
 وقال أبو علي : يحتمل أن يريد من فتح : « يا ابن أم » أمّا ، ويحذف الألف ،
 ومن كسر : « ابن أمي » فيحذف الياء . فإن قيل : لم قال : « يا ابن أم » ولم يقل :
 « يا ابن أب » ؟ فالجواب أن ابن عباس قال : كان أخاه لأبيه وأمه ، وإنما قال له
 ذلك ليرفقه عليه . قال أبو سليمان الدمشقي : والإنسان عند ذكر الوالدة أرق منه
 عند ذكر الوالد . وقيل : كان لأمه دون أبيه ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : (إِنَّ الْقَوْمَ) يعني عبدة المجل . (استضعفوني) أي : استذلثوني .
 (فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ) قرأ عبد الله بن عباس ، ومالك بن دينار ، وابن عاصم :
 « فَلَا تُشْمِتْ » بقاء مفتوحة مع فتح الميم ، « الْأَعْدَاءَ » بالرفع . وقرأ مجاهد ،
 وأبو المائلة ، والضحاك ، وأبو رجاء : « فَلَا تُشْمِتْ » بفتح التاء وكسر الميم ،
 « الْأَعْدَاءَ » بالنصب . وقرأ أبو الجوزاء ، وابن أبي عبلة مثل ذلك ، إلا أنها رافعا
 « الْأَعْدَاءَ » . ويعني بالأعداء : عبدة المجل . (وَلَا تَجْمَلْنِي) في موجدتك وعقوبتك
 لي (مع القوم الظالمين) وهم عبدة المجل . فلما تبين له عُذْرُ أخيه (قال رب
 اغفر لي) .

قوله تعالى : (وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فيها قولان .

أحدهما : أنها الجزية ، قاله ابن عباس . والثاني : ما أمروا به من قتل أنفسهم ،
 قاله الزجاج . فعلى الأول يكون ما أضيف إليهم من الجزية في حق أولادهم ، لأن

(١) البيت في « الطبري » : ١٢٩/١٣ ، و « أمالي البزبيدي » : ٩ ، و « جمهرة
 أشعار العرب » : ٢٦٢ ، و « اللسان » : شقن ، وهو لأبي زيد حرملة بن المنذر الطائفي
 من قصيدة يرثي ابن أخته اللجلاج ، ويقال : يرثي أخاه اللجلاج ، ويروي البيت :
 يا ابن خنساء شقن نفسي يا لجلاج خلّيتني لدهرٍ شديد

ورواية المصنف ، هي رواية النحاة جميعاً في كتبهم في « باب النداء » . وقوله : « شقين »
 تصغير شقين ، وهو الأخ .

أَوَانِكَ مُقْتَلُوا وَلَمْ يُوْذُوا جَزِيَةً . قَالَ عَطِيَّةٌ : وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيمَا أَصَابَ بَنِي قَرِيبَةَ وَالنَّضِيرَ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجَلَاءِ لَتَوَلَّيْتَهُمْ مَتَّخِذِي الْعَجَلَ وَرِضَاهُمْ بِهِ .

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَذَلِكَ أَعَاقِبُ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا دُونِي . وَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ : مِمَّنْ مَبْتَدِعٌ إِلَّا وَهُوَ يَجِدُ فَوْقَ رَأْسِهِ ذِلَّةً ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ . وَقَالَ سَفْيَانُ بْنُ عَيْنَةَ : لَيْسَ فِي الْأَرْضِ صَاحِبٌ بِدْعَةٍ إِلَّا وَهُوَ يَجِدُ ذِلَّةً تَغْشَاهُ ، قَالَ : وَهِيَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى . قَالُوا : وَأَيْنَ هِيَ ؟ قَالَ : أَوْ مَا سَمِعْتُمْ قَوْلَهُ : (إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ سَيُنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) قَالُوا : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، هَذِهِ لِأَصْحَابِ الْعَجَلِ خَاصَّةٌ ، قَالَ : كَلَّا ، أَتَلَوْا مَا بَعْدَهَا . (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ) فِيهِ لِكُلِّ مُفْتَرٍ وَمَبْتَدِعٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا أَعْتَقُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ) فِيهَا قَوْلَانِ .

أحدهما : أَنَّهَا الشُّرْكُ . وَالثَّانِي : الشُّرْكُ وَغَيْرُهُ مِنَ الذُّنُوبِ . (ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا) يَعْنِي السَّيِّئَاتِ . وَفِي قَوْلِهِ : (وَآمَنُوا) قَوْلَانِ .

أحدهما : آمَنُوا بِاللَّهِ ، وَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى قَوْلٍ مِنْ قَالَ : هِيَ الشُّرْكُ . وَالثَّانِي : آمَنُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ . (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا) يَعْنِي السَّيِّئَاتِ .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَهِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَأَبُو عَمْرَانَ

« سَكَّت » بفتح السين وتشديد الكاف وبتاء بعدها ، « الغضب » بالنصب . وقرأ سعيد بن جبير ، وابن يعمر ، والمجدري « سَكَّت » بضم السين وتشديد الكاف مع كسرهما . وقرأ ابن مسعود ، وعكرمة ، وطلحة « سَكَنَ » بنون . قال الزجاج « سكت » بمعنى سكن ، يقال : سكت يسكت سَكَنًا : إذا سكن ، وسكت يسكت سَكَنًا وسَكُونًا : إذا قطع الكلام . قال : وقال بعضهم : المعنى : ولما سكت موسى عن الغضب ، على القلب ، كما قالوا : أدخلت القلنسوة في رأسي . والمعنى : أدخلت رأسي في القلنسوة ، والأول هو قول أهل العربية .

قوله تعالى : (اخذ الألواح) يعني التي كانت ألقاها . وفي قوله : (وفي نسختها) قولان .

أحدهما : وفيما بقي منها ؛ قاله ابن عباس . والثاني : وفيما نُسخ فيها ؛ قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (الذين هم لربهم يرهبون) فيهم قولان .

أحدهما : أنه عام في الذين يخافون الله ، وهو معنى قول ابن عباس .

والثاني : أنهم أمة محمد ﷺ خاصة ، وهو معنى قول قتادة .

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّيَقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ نُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي بِهَا مَن تَشَاءُ أَأَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (واختار موسى قومه) المعنى : اختار من قومه ، فحذف

« من » ، تقول العرب : اخترتك القوم ، أي : اخترتك من القوم ، وأنشدوا :
 مِنْتَا الَّذِي اخْتِيرَ الرَّجَالَ سَمَاحَةً وَجُوداً إِذَا هَبَّ الرِّيحُ الرَّعَازِعُ^(١)
 هذا قول ابن قتيبة ، والفراء ، والزجاج . وفي هذا الميقات أربعة أقوال .
 أحدها : أنه الميقات الذي وَقَّتَهُ اللهُ لموسى ليأخذ التوراة ، أمر أن يأتي
 معه بسبعين ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال نوف البكالي .

والثاني : أنه ميقات وَقَّتَهُ اللهُ تعالى لموسى ، وأمره أن يختار من قومه
 سبعين رجلاً ليدعوا ربهم ، فدعوا فقالوا : اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً قبلنا ، ولا
 تعطيه أحداً بعدنا ، فكره الله ذلك ، وأخذتهم الرجفة ؛ رواه علي بن أبي طلحة
 عن ابن عباس .

والثالث : أنه ميقات وَقَّتَهُ اللهُ لموسى ، لأن بني إسرائيل قالوا له : إن
 طائفة تزعم أن الله لا يكلمك ، فخذ معك طائفة منا ليسموا كلامه فيؤمنوا
 فتذهب التهمة ، فأوحى الله إليه أن اختر من خيارهم سبعين ، ثم ارتق بهم على الجبل
 أنت وهارون ، واستخلف يوشع بن نون ، ففعل ذلك ؛ قاله وهب بن منبه .

والرابع : أنه ميقات وَقَّتَهُ اللهُ لموسى ليلقاه في ناس من بني إسرائيل ،
 فيمتدح إليه من فعل عبدة العجل ، قاله السدي . وقال ابن السائب : كان موسى
 لا يأتي ربه إلا باذن منه .

فأما الرجفة فهي الحركة الشديدة . وفي سبب أخذها إياهم أربعة أقوال .
 أحدها : أنه ادعاهم على موسى قتل هارون ؛ قاله علي بن أبي طالب .

(١) البيت للفرزدق ، ديوانه : ٥١٦ ، و « النقاظ » : ٦٩٦ ، و « سيويه » : ١٨/١ ،
 و « السكامل » : ٣٢/١ ، و « أمالي ابن الشجري » : ١٨٦/١ ، و « الخزانة » : ٦٦٩/٣ ،
 و « اللسان » : خير . وعنى بهذا البيت أباه غالباً ، وهو أحد أجواد بني تميم .

والثاني : اعتداؤهم في الدعاء ، وقد ذكرناه في رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أنهم لم ينهوا عبدة العجل ولم يرضوا ؛ نُقل عن ابن عباس . وقال قتادة ، وابن جريج : لم يأمرهم بالمعروف ، ولم ينهَوْهم عن المنكر ، ولم يزيلوهم . والرابع : أنهم طلبوا استماع الكلام من الله تعالى ، فلما سموه قالوا : (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) [البقرة : ٥٥] ؛ قاله السدي وابن إسحاق .

قوله تعالى : (قال رب لو شئتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ) قال السدي : قام موسى يسكي ويقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أَهْلَكْتَ خيارهم (لو شئتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ) قال الزجاج : لو شئتَ مُتَّهِمٌ قَبْلَ أَنْ تَبْتَلِيَهُمْ بما أوجب عليهم الرجفة . وقيل : لو شئتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلَ خُرُوجِنَا وَإِيَّايَ ، فكان بنو إسرائيل يماينون ذلك ولا يتهمونني .

قوله تعالى : (أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا) قال المبرد : هذا استفهام استعطاف ، أي : لا تُهْلِكُنَا . وقال ابن الأنباري : هذا استفهام على تأويل الجحد ، أراد : لست تفعلُ ذلك . و « السفهاء » هاهنا : عبدة العجل . وقال الفراء : ظن موسى أنهم أَهْلَكُوا بِاتِّخَاذِ أَصْحَابِهِمُ الْعَجَل . وَإِنَّمَا أَهْلَكُوا بِقَوْلِهِمْ : (أرنا الله جهرة) . قوله تعالى : (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ) فيها قولان .

أحدهما : أنها الابتلاء ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وأبو العالية .

والثاني : العذاب ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة . قوله تعالى : (أَنْتَ وَلِيِّنَا) أي : ناصرنا وحافظنا .

﴿ وَاکْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ ﴾ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَشْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ . فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَعِمَا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿

قوله تعالى : (واكتب لنا) أي : حقق لنا وأوجب (في هذه الدنيا حسنة) وهي الأعمال الصالحة (وفي الآخرة) المغفرة والجنة (إنا هُدنا إليك) أي : تبنا ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبیر ، ومجاهد ، وأبو العالية ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي . وقال ابن قتيبة : ومنه (الذين هادوا) [البقرة : ٦٢] كأنهم رجعوا من شيء إلى شيء . وقرأ أبو ونجرة السعدي : « إنا هِدنا » بكسر الهاء . قال ابن الأثيري : المعنى : لاتفتير ؛ يقال : هاد يهود ويهيد .

قوله تعالى : (قال عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ) . وقرأ الحسن البصري ، والاعمش ، وأبو العالية : « من أساء » بسين غير مبهجة مع النصب .

قوله تعالى : (ورحمتي وسعت كل شيء) في هذا الكلام أربعة أقوال .
 أحدها : أن مخرجه عام ومعناه خاص ، وتأويله : ورحمتي وسعت المؤمنين
 من أمة محمد ﷺ ، لقوله تعالى : (فسأكتبها للذين يتقون) ، قاله ابن عباس .
 والثاني : أن هذه الرحمة على العموم في الدنيا ، والخصوص في الآخرة ؛
 وتأويلها : ورحمتي وسعت كل شيء في الدنيا ، البرّ والفاجر ، وفي الآخرة هي
 للمتقين خاصة ، قاله الحسن ، وقناة . فلي هذا ، معنى الرحمة في الدنيا للكافر أنه
 يُرزق ويُدفع عنه ، كقوله في حق قارون : (وأحسن كما أحسن إليك)
 [القصص : ٧٧] .

والثالث : أن الرحمة : التوبة ، فهي على العموم ، قاله ابن زيد .
 والرابع : أن الرحمة تسع كل الخلق ، إلا أن أهل الكفر خارجون منها ،
 فلو قدر دخولهم فيها لوسعتهم ، قاله ابن الأنباري . قال الزجاج : وسعت كل
 شيء في الدنيا ^(١) . (فسأكتبها للذين يتقون) في الآخرة . قال المفسرون :
 معنى « فسأكتبها » : فسأوجبها . وفي الذين يتقون قولان .
 أحدهما : أنهم المتقون للشرك ، قاله ابن عباس . والثاني : للمعاصي ، قاله
 قناة . وفي قوله : (ويؤتون الزكاة) قولان .
 أحدهما : أنها زكاة الأموال ، قاله الجمهور .

والثاني : أن المراد بها طاعة الله ورسوله ، قاله ابن عباس والحسن ، ذهب

(١) روى مسلم في « صحيحه » ٢١٨/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ
 قال : « إن لله مائة رحمة ، أزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس ، والبهايم والبهائم ،
 فيها يتساقفون ، وبها يتراحون ، وبها تمظف الوحش على كلدائها ، وأختر الله تسماً
 وتسعين رحمة ، يرحم بها عباده يوم القيامة » .

إلى أنها العمل بما يزكّي النفس ويطهرها . وقال ابن عباس ، وقتادة : لما نزلت (ورحمتي وسعت كل شيء) قال إبليس : أنا من ذلك الشيء ، فزعها الله من إبليس ، فقال : (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) فقالت اليهود : نحن نتقي ، ونؤتي الزكاة ، ونؤمن بآيات ربنا ، فزعها الله منهم ، وجعلها لهذه الأمة ، فقال : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) . وقال نوف : قال الله تعالى لموسى : أجعل لكم الأرض طهوراً ومسجداً ، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم ، وأجعلكم تقرأون التوراة عن ظهور قلوبكم ، يقرؤها الرجل منكم ، والمرأة ، والحر ، والعبد ، والصغير ، والكبير . فأخبر موسى قومه بذلك ، فقالوا : لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس والبيع ، ولا أن تكون السكينة إلا في التابوت ، ولا أن نقرأ التوراة إلا نظراً ، فقال الله تعالى : (فسأكتبها للذين يتقون) إلى قوله : « المفلحون » . وفي هؤلاء المذكورين في قوله : (الذين يتقون ويؤتون الزكاة) إلى قوله : (المفلحون) قولان .

أحدهما : أنهم كل من آمن بمحمد ﷺ ، وتبعه ، قاله ابن عباس .
والثاني : أنه محمد ﷺ ، قاله السدي ، وقتادة . وفي تسميته بالأمي قولان .
أحدهما : لأنه لا يكتب . والثاني : لأنه من أمّ القرى .

قوله تعالى : (الذي يجدونه مكتوباً عندهم) أي : يجدون نعمته ونبوته .
قوله تعالى : (يأمرهم بالمعروف) قال الزجاج : يجوز أن يكون مستأنفاً ، ويجوز أن يكون « يجدونه مكتوباً عندهم » أنه يأمرهم بالمعروف . قال ابن عباس : المعروف : مكارم الأخلاق ، وصلة الأرحام . والمنكر : عبادة الأوثان ، وقطع الأرحام . وقال مقاتل : المعروف : الإيمان ، والمنكر : الشرك . وقال غيره : المعروف : الحق ، لأن العقول تعرف صحته ، والمنكر : الباطل ، لأن العقول تنكر صحته .

وفي الطيبات أربعة أقوال .

أحدها : أنها الحلال ، والمعنى : يُحِلُّ لهم الحلال . والثاني : أنها ما كانت العرب تستطيبه . والثالث : أنها الشحوم المحرمة على بني إسرائيل . والرابع : ما كانت العرب تحرّمه من البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام .

وفي الخبائث ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الحرام ، والمعنى : ويحرّم عليهم الحرام .
والثاني : أنها ما كانت العرب تستخبثه ولا تأكله ، كالحيات ، والحشرات .
والثالث : ما كانوا يستحلّونه من الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير .
قوله تعالى : (ويضع عنهم إصرهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمة ، والكسائي « إصرهم » . وقرأ ابن عامر « آصارهم » ممدودة الألف على الجمع . وفي هذا الإصر قولان .

أحدهما : أنه العهد الذي أخذ الله على بني إسرائيل أن يعملوا بما في التوراة ، قاله ابن عباس .

والثاني : التشديد الذي كان عليهم من تحرّم السبت ، وأكل الشحوم والعروق ، وغير ذلك من الأمور الشاقة ، قاله قتادة . وقال مسروق : لقد كان الرجل من بني إسرائيل يذنب الذنب ، فيصبح وقد كُتِبَ على باب بيته : إن كفارته أن تنزع عينيك ، فينزع عنها .

قوله تعالى : (والأغلال التي كانت عليهم) قال الزجاج : ذكر الأغلال تمثيل ، ألا ترى أنك تقول : جعلت هذا طوقاً في عنقك ، وليس هناك طوق ، زاد السير ٣ م (١٨)

إِنَّمَا جَعَلْتُ لِرُومِهِ كَالطُّوقِ . وَالْأَغْلَالُ : أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ فِي الْقَتْلِ دِيَّةٌ ، وَأَنْ لَا يَعْمَلُوا فِي السَّبْتِ ، وَأَنْ يَقْرَضُوا مَا أَصَابَ جُلُودَهُمْ مِنَ الْبَوْلِ .

قوله تعالى : (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ) يعني بمحمد ﷺ (وَعَزَّوهُ) وروى أبان « وَعَزَّوهُ » بتخفيف الزاي . وفي المعنى قولان .

أحدهما : نصره وأعانه ، قاله مقاتل .

والثاني : عظموه ، قاله ابن قتيبة . والنور الذي أنزل معه : القرآن ، سماه نوراً ، لأن بيانه في القلوب كيان النور في العيون . وفي قوله « معه » قولان . أحدهما : أنها بمعنى « عليه » .

والثاني : بمعنى أنزل في زمانه . قال قتادة : أما نصره ، فقد سبقتم إليه ، ولكن خيركم من آمن به واتبع النور الذي أنزل معه .

قوله تعالى : (الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ) في الكلمات قولان .

أحدهما : أنها القرآن ، قاله ابن عباس . وقال قتادة : كلماته : آياته .

والثاني : أنها عيسى بن مريم ، قاله مجاهد ، والسدي .

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ) فيه قولان .

أحدهما : يدعون إلى الحق . والثاني : يعملون به .

قوله تعالى : (وَبِهِ يَعْدِلُونَ) قال الزجاج : وبالحق يحكمون . وفي المشار إليهم بهذا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قوم وراء الصين لم تبلغهم دعوة الإسلام ، قاله ابن عباس ، والسدي . والثاني : أنهم من آمن بالنبي ﷺ مثل ابن سلام وأصحابه ، قاله

ابن السائب . والثالث : أنهم الذين تمسكوا بالحق في زمن أنبيائهم ، ذكره الماوردي .
 ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اِثْنَيْ عَشَرَ اَسْبَاطًا اُمَمًا وَاَوْحَيْنَا اِلَى مُوسٰى
 اِذِ اسْتَسْقٰى قَوْمُهُ اَنْ اَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اِثْنَتَا
 عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ اُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ
 وَاَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰى وَالسَّلٰوٰى كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
 وَمَا ظَلَمُوْنَا وَلٰكِنْ كَانُوْا اَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ . وَاِذْ قِيْلَ لَهُمْ
 اسْكُوْا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوْا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوْا حِطَّةٌ
 وَاَدْخُلُوْا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيَاَتَكُمْ سَتَرِيدُ الْمُحْسِنِيْنَ .
 فَبَدَّلَ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيْلَ لَهُمْ فَاَرْسَلْنَا
 عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوْا يَظْلِمُوْنَ ﴾

قوله تعالى : (وقطعناهم اثنى عشر) يعني قوم موسى ، يقول : فرقتاهم (اثنى عشر
 أسباطاً) يعني أولاد يعقوب ، وكانوا اثني عشر ولداً ، فولد كل واحد منهم سبطاً .
 قال الفراء : وإنما قال « اثنى عشر » والسبط ذكر ، لأن بمله « أمماً » فذهب
 بالتأنيث إلى الأمم ، ولو كان « اثني عشر » لتذكير السبط ، كان جائزاً . وقال الزجاج :
 المعنى : وقطعناهم اثنى عشر فرقة ، « أسباطاً » نعت « فرقة » كأنه يقول :
 جعلناهم أسباطاً ، وفرقتاهم أسباطاً ، فيكون « أسباطاً » بدلاً من « اثنى عشر »
 و « أمماً » من نعت أسباط . والاسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل ليفصل بين
 ولد إسماعيل وبين ولد إسحاق . وقال أبو عبيدة : الأسباط : قبائل بني إسرائيل ،
 واحدهم : سبط . ويقال : من أي سبط أنت ؛ أي : من أي قبيلة وجنس ؟

قوله تعالى : (فانجست منه) قال ابن قتيبة : انفجرت ؛ يقال : نجس الماء ،

كما يقال : تفجّر ؛ والقصة المذكورة في سورة (البقرة : ٥٨ - ٦٠) .

قوله تعالى : (تنفّر لكم خطاياكم) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحزمة ، والكسائي : « تنفّر لكم خطيئاتكم » بالتاء مهبوزة على الجمع . وقرأ أبو عمرو « تنفّر لكم خطاياكم » مثل : قضاياكم ، ولا تاء فيها . وقرأ نافع « تُنفّر » بالتاء مضمومة « خطيئاتكم » بالهمز وضم التاء ، على الجمع ، وافقه ابن عامر في « تُنفّر » بالتاء المضمومة ، لكنه قرأ « خطيئكم » على التوحيد .

﴿ وَاسْتَلْبِمُ مِنَ الْقَرْيَةِ النَّثِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَبْعُدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

قوله تعالى : (واسألهم) يعني أسباط اليهود ، وهذا سؤال تقرير وتوبيخ يقرّرهم على قديم كفرهم ، وغالفة أسلافهم الأنبياء ، ويخبرهم بما لا يعلم إلا بوحى . وفي القرية خمسة أقوال .

أحدها : أنها أيلة ، رواه مُرّة عن ابن مسعود ، وأبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : أنها مدين ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أنها ساحل مدين ، روي عن قتادة .

والرابع : أنها طبرية ، قاله الزهري .

والخامس : أنها قرية يقال لها : مقنا ، بين مدين وعينونا ، قاله ابن زيد .

ومعنى (حاضرة البحر) مجاورة البحر وبقربه وعلى شاطئه . (إذ يبعُدون) قال الزجاج :

أي : يظلمون ، يقال : غدا فلان يعدو عدواً وأنا وعداء وعدواً وعدواً : إذا ظلم ،

وموضع « إذ » نصب ؛ والمعنى : سلمهم عن وقت عدوهم في السبت . (إذ

تأتيهم حيتانهم) في موضع نصب أيضاً بـ « يبعُدون » والمعنى : سلمهم إذ عدواً

في وقت الإتيان . (شُرْعاً) أي : ظاهرة . (كذلك نبلوهم) أي : مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم بفسقهم . ويحتمل على بعد أن يكون المعنى (ويوم لايسبتون لآثامهم) كذلك ، أي : لآثامهم شُرْعاً ؛ ويكون (نبلوهم) مستأنفاً . وقرأ الحسن ، والأعمش ، وأبان ، والفضل عن عاصم : « يُسَبِّتُونَ » بضم الياء .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إلی رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ قوله تعالى : (وإذ قالت أُمَّةٌ مِنْهُمْ) قال المفسرون : افترق أهل القرية ثلاث فرق ؛ فرقة صادت وأكلت ، وفرقة نهت وزجرت ، وفرقة أمسكت عن الصيد ، وقالت للفرقة الناهية : (لم تعظون قوماً الله مهلكهم) لاموهم على موعظة قوم يعلمون أنهم غير مقلمين ، فقالت الفرقة الناهية : (معذرةٌ إلى ربكم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي : « معذرةٌ » رفعاً ، أي : موعظتنا إياهم معذرةٌ ، والمعنى أن الأمر بالمعروف واجب علينا ، فليتنا موعظة هؤلاء عذراً إلى الله . وقرأ حفص عن عاصم : « معذرةٌ » نصباً ، وذلك على معنى نعتذر معذرةً . (ولعلهم يتقون) أي : وجاز أن يتنفعوا بالموعظة فيتركوا المعصية .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنحَنَّا إِلَيْهِمُ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ . وَإِذِ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (فلما نسوا ما ذكروا به) يعني : تركوا ما وعظوا به (أنحننا

الذين يَهْوُونَ عن السوء) وهم الناهون عن المنكر . والذين ظلموا هم المعتدون في السبت .

قوله تعالى : (بمذاب بئس) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمة ، والكسائي : « بئس » على وزن فاعِل ، فالهمزة بين الباء والياء . وقرأ نافع : « بئس » بكسر الباء من غير همز . وقرأ ابن عامر كذلك ، إلا أنه همز . وروى خارجة عن نافع : « بئس » بفتح الباء من غير همز ، على وزن « فَعِل » . وروى أبو بكر عن عاصم : « بئس » على وزن « فَيَعَل » . وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وأيوب : « بئس » على وزن « فَيَعَال » . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، ومعاذ القاري : « بئس » بفتح الباء وكسر الهمزة من غير ياء على وزن « نَعَس » . وقرأ الضحاك ، وعكرمة : « بئس » بتشديد الياء مثل « قِيم » . وقرأ أبو العالية ، وأبو مجلز : « بئس » بفتح الباء والسين وبهمزة مكسورة من غير ياء ولا ألف على وزن « فَعِل » . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو رجاء : « بئس » بألف ومدة بعد الباء وبهمزة مكسورة بوزن « فاعِل » . قال أبو عبيدة : البئس : الشديد ، وأنشد :
 حَقَّقًا عَلَيَّ وَمَا تَرَى لِي فِيهِمْ أَثَرًا بَيْئَسًا^(١)

وقال الزجاج : يقال : بئس يأس بأساً ، والعاقبة : الشديد الدخول في الفساد ، المتمرد الذي لا يقبل موعظة . وقال ابن جرير : « قلما عتوا » أي : تمردوا فيما نهوا عنه ؛ وقد ذكرنا في سورة (البقرة : ٦٥) قصة مسخهم . وكان الحسن البصري يقول : والله ما لحوم هذه الحيتان بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين .

قوله تعالى : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ) فيه أربعة أقوال .

(١) البيت الذي لا- بح المدءاني ، وهو في « الأغاني » : ١٠٢/٣ ، ١٠٣ ، و « مجاز القرآن » ، لأبي عبيدة : ٢٣٦/١ ، و « الطبري » : ٢٠١/١٣ .

أحدها : أعلم ، قاله الحسن ، وابن قتبية ، وقال : هو من آذنتك بالأمر .
وقال ابن الأنباري : « تأذن » بمعنى آذن ؛ كما يقال : تعلم أن فلاناً قائم ، أي :
اعلم . وقال أبو سليمان الدمشقي : أي : أعلم أنبياء بني إسرائيل . والثاني : حتم ،
قاله عطاء . والثالث : وعد ، قاله قطرب . والرابع : نالسى ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (ليعلمن عليهم) أي : على اليهود . وقال مجاهد : على اليهود
والنصارى بمعاصيهم . (من يسومهم) أي : يوليهم (سوء العذاب) . وفي المبعوث
عليهم قولان . أحدهما : أنه محمد ﷺ ، وأمثه ، قاله ابن عباس . والثاني : العرب ،
كانوا يجبونهم الخراج ، قاله سعيد بن جبير ، قال : ولم يجب الخراج نبي قط إلا
موسى ، جباه ثلاث عشرة سنة ، ثم أمسك إلى النبي ﷺ . وقال السدي : بعث
الله عليهم العرب يأخذون منهم الجزية ويقتلونهم . وفي سوء العذاب أربعة أقوال .
أحدها : أخذ الجزية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني : المسكنة
والجزية ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثالث : الخراج ، رواه الضحاك عن
ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير . والرابع : أنه القتال حتى يُسلموا ، أو
يُعطوا الجزية .

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ
ذَلِكَ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾
قوله تعالى : (وقطعناهم في الأرض أُمَمًا) قال أبو عبيدة : فرقناهم فِرَقًا .
قال ابن عباس : هم اليهود ، ليس من بلد إلا وفيه منهم طائفة . وقال مقاتل :
هم بنو إسرائيل . وقيل : معناه : شتات أمرهم واقتراق كلهم . (منهم الصالحون)
وهم المؤمنون بعيسى ومحمد عليهما السلام . (ومنهم دون ذلك) وهم الكفار .
وقال ابن جرير : إنما كانوا على هذه الصفة قبل أن يُبعث عيسى ، وقبل ارتدادهم .

قوله تعالى : (وبلوناكم) أي : اخترناكم (بالחסنات) وهي الخير ، والخصب ، والماقية ، (والسيئات) وهي الجذب ، والشر ، والشدائد ؛ فالحسنات والسيئات تحت على الطاعة ، أما النعم فطلب الازدياد منها ، وخوف زوالها ، والنقم فلكشفها ، والسلامة منها . (لعلمهم يرجعون) أي : لكي يتوبوا .

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (فخلف من بعدهم) أي : من بعد الدين وصفناهم . (خَلَفٌ) وقرأ الجوني ، والجحدري : « خَلَفٌ » بفتح اللام . قال أبو عبيدة : الخَلَفُ والخَلَفُ واحد ؛ وقوم يجعلون الحرك اللام ، للصالح ، والمسكّن ، لغير الصالح . وقال ابن قتيبة : الخَلَفُ : الرديء من الناس ومن الكلام ، يقال : هذا خَلَفٌ من القول . وقال ابن الأنباري : أكثر ما تستعمل العرب الخَلَفَ ، بإسكان اللام ، في الرديء المذموم ، وتفتح اللام في الفاضل المدوح . وقد يوقع الخَلَفُ على المدوح ، والخَلَفُ على المذموم ؛ غير أن المختار ما ذكرناه . وفي المراد بهذا الخَلَفُ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم اليهود ، قاله ابن عباس ، وابن زيد . والثاني : النصارى . والثالث : أن الخَلَفَ من أمة محمد ﷺ ، والقولان عن مجاهد .

فإن قيل : الخَلَفُ واحد ، فكيف قال : « يأخذون » وكذلك قال في (صريم : ٥٩) « أضاعوا » فقد ذكر ابن الأنباري عنه جوابين .

أحدهما : أن الخَلْفَ : جمع خالف ، كما أن الركب : جمع راكب ،
والشَّرْبُ : جمع شارب .

والثاني : أن الخَلْفَ مصدر يكون للثنين والجميع ، والمذكر والمؤنث .
قوله تعالى : (ورنوا الكتاب) أي : انتقل إليهم انتقال الميراث من سلف
إلى خلف ، فيخرج في الكتاب ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه التوراة . والثاني : الإنجيل . والثالث : القرآن .
قوله تعالى : (يأخذون عرض هذا الأدنى) أي : هذه الدنيا ، وهو ما يمرض
لهم منها . وقيل : سماء عرضاً ، لقلّة بقاءه . قال ابن عباس : يأخذون ما أحبوا من
حلال أو حرام . وقيل : هو الرشوة في الحكم . وفي وصفه بالأدنى قولان .
أحدهما : أنه من الدُّثُورِ . والثاني : أنه من الدنائة .
قوله تعالى : (سيقفَرُ لنا) فيه قولان .

أحدهما : أن المعنى : إنا لانتواخذ ، تَعْنِيًا على الله الباطل .
والثاني : أنه ذنب يغفره الله لنا ، تأملاً لرحمة الله تعالى .
وفي قوله : (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) قولان .
أحدهما : أن المعنى : لا يشبعهم شيء ، فهم يأخذون لنير حاجة ، قاله الحسن .
والثاني : أنهم أهل إصرار على الذنوب ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق)
قال ابن عباس : وكسّد الله عليهم في التوراة أن لا يقولوا على الله إلا الحق ، فقالوا
الباطل ، وهو ما أوجبوا على الله من مغفرة ذنوبهم التي لا يتوبون منها ، وليس
في التوراة ميعاد المغفرة مع الإصرار .

قوله تعالى : (ودرسوا ما فيه) مطوف على « ورثوا » . ومعنى « درسوا ما فيه » : قرؤوه ، فكأنه قال : خالفوا على علم . (والدار الآخرة) أي : ما فيها من الثواب (خير للذين يتقون أفلا يعقلون) أن الباقي خير من الفاني . قرأ ابن حاصر ، ونافع ، وحفص عن عاصم : بالتاء ، والباقون : بالياء .

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

قوله تعالى : (والذين يُمَسِّكُونَ بالكتاب) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن حاصر ، وحزمة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم « يَمَسِّكُونَ » مشددة ، وقرؤوا (ولا تمسكوا بمصم الكوافر) مخففة [المتحفة : ١٠] وقرأها أبو عمرو بالتشديد . وروى أبو بكر عن عاصم أنه خففها . ويقال : مسَّكتُ بالشيء ، وتمسكت به ، واستمسكت به ، وامتسكت به . وهذه الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب الذين حفظوا حدوده ولم يُحرِّقوه ، منهم [عبد الله] بن سلام وأصحابه . قال ابن الأنباري : وخبر « الذين » : « إنا » وما بعده ، وله ضمير مقدر بعد « المصلحين » تأويله : والذين يمسكون بالكتاب إنا لا نضيع أجر المصلحين منهم ، ولهذا العلة وعدَّهم حفظَ الأجر بشرطٍ ، إذ كان منهم من لم يصلح . قال : وقال بعض النحويين : المصلحون يرجعون على الذين ، وتلخيص المعنى عنده : والذين يمسكون بالكتاب ، وأقاموا الصلاة ، إنا لا نضيع أجرم ، فأظهرت كنياتهم بالمصلحين ، كما يقال : عليُّ لقيتُ الكسائي ، وأبو سميد رويت عن الخدري ، يراد : لقيتهُ ورويتُ عنه . قال الشاعر :

فَيَارَبَّ لَيْلَى أَنْتَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَأَنْتَ الَّذِي فِي رَحْمَةِ اللَّهِ أَطْمَعُ^(١)
أَرَادَ فِي رَحْمَتِهِ ، فَأَظْهَرَ ضَمِيرَ الْمَاءِ .

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾
قوله تعالى : (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ) أي : وَاذْكُرْ لَهُمْ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ ، أَي : رَفَعْنَاهُ . قَالَ مُجَاهِدٌ : أَخْرَجَ الْجَبَلَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَرَفَعَ فَوْقَهُمْ كَالظُّلَّةِ ، فَقِيلَ لَهُمْ : لَتَوْثَمُنُّ أَوْ لَيَقَعَنَّ عَلَيْكُمْ . وَقَالَ قَتَادَةُ : نَزَلُوا فِي أَصْلِ جَبَلٍ ، فَرُفِعَ فَوْقَهُمْ ، فَقَالَ : لَتَأْخُذُنَّ أَمْرِي ، أَوْ لَا أَرْمِيكُمْ بِهِ .

قوله تعالى : (وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ) فِيهِ قَوْلَانِ .

أحدهما : أَنَّهُ الظَّنُّ الْمَعْرُوفُ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ بِمَعْنَى الْيَقِينِ . وَبَاقِي الْآيَةِ مُفسَّرٌ فِي سُورَةِ (الْبَقَرَةِ : ٦٣) .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ) رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بَنِيَّانَ » - وَنِعْمَانُ قَرِيبٌ مِنْ عَرَفَةَ - ذَكَرَهُ ابْنُ قَتِيبَةَ ، فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَاهَا ، فَفَرَّغَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قَبْلًا ، وَقَالَ (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)

عن هذا غافلين^(١) ومعنى الآية : وإذا أخذ ربكم من ظهور بني آدم . فقوله « من ظهورهم » بدل من « بني آدم » . وقيل : إنما قال : « من ظهورهم » ولم يقل : من ظهر آدم ، لأنه أخرج بعضهم من ظهور بعض ، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لأنه قد علم أنهم بنوه ، وقد أخرجوا من ظهره . وقوله تعالى : (ذُرِّيَّتَاهُمْ) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحزمة ، والكسائي « ذُرِّيَّتَهُم » على التوحيد . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر « ذُرِّيَّتَانِهِم » على الجمع . قال أبو علي : الذرية تكون جمعا ، وتكون واحدا .

وفي قوله : « وأشهدهم على أنفسهم » ثلاثة أقوال .

أحدها : أشهدهم على أنفسهم باقرارهم ، قاله مقاتل .

والثاني : دلّهم بخلقه على توحيدهِ ، قاله الزجاج .

والثالث : أنه أشهد بعضهم على بعض باقرارهم بذلك ، قاله ابن جرير .

قوله تعالى : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) والمعنى : وقال لهم : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ وهذا

سؤال تقرير . قالوا : بلى شهدنا أنك ربنا . قال السدي : قوله « شهدنا » خبر

(١) « المسند » ١٥١/٤ وهو في « مجمع الزوائد » ٢٥/٧ وقال : رواه أحمد ،

ورجاله رجال الصحيح ، ونقله ابن كثير في « التفسير » عن أحمد وقال : وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب « التفسير » من « سننه » عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة عن حسين بن محمد المروزي به ، ورواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد به إلا أن ابن أبي حاتم جملة موقوفا . وأخرجه الحاكم في « مستدركه » من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبر به ، وقال : صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، وقبّحتج مسلم بكلثوم بن جبر هكذا قال ، وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبر عن سعيد ابن جبير فوقه ، وكذا رواه اسماعيل بن علية ، ووكيع عن ربيعة بن كلثوم بن جبر عن أبيه به ، وكذا رواه الموفي ، وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، فهذا أكثر وأثبت .

من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم . ويحسن الوقف على قوله « بلى » لأن كلام الذرية قد انقطع . وزعم الكلبي أن الذرية لما قالت « بلى » قال الله للملائكة « اشهدوا » فقالوا « شهدنا » . وروى أبو العالية عن أبي بن كعب قال : جميعهم جميعاً ، فجعلهم أزواجاً ، ثم صورهم ، ثم استنطقهم ، ثم قال (أأست بربكم قالوا بلى شهدنا) أنك لآلهنا . قال : فاني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أبائكم آدم (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) لم نعلم بهذا . وقال السدي : أجابته طائفة طائعين ، وطائفة كارهين تقيّة .

قوله تعالى : (أن يقولوا) قرأ أبو عمرو « أن يقولوا » ، « أو يقولوا » بالياء فيها . وقرأ الباقون بالتاء فيها . قال أبو علي : حجة أبي عمرو قوله : « وإذا أخذ ربك » وقوله « قالوا بلى » ، وحجة من قرأ بالتاء أنه قد جرى في الكلام خطاب « أأست بربكم قالوا بلى شهدنا » . ومعنى قوله : « يقولوا » : لثلاث يقولوا ، ومثله : (أن تيمد بكم) [لقمان : ١٠] . وفي قوله : (إنا كنا) قولان . أحدهما . أنه إشارة إلى الميثاق والإقرار .

والثاني : أنه إشارة إلى معرفة أنه الخالق . قال المفسرون : وهذه الآية تذكير من الله تعالى بما أخذ على جميع المكلفين من الميثاق ، واحتجاج عليهم لثلاث يقول الكفار : إنا كنا عن هذا الميثاق غافلين لم نذكره ، ونسيانهم لا يسقط الاحتجاج بعد أن أخبر الله تعالى بذلك على لسان النبي ﷺ الصادق . وإذا ثبت هذا بقول الصادق ، قام في النفوس مقام التذكير ، فاحتجاج به قائم .

﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ)
 فَاتَّبَعْنَا مُنَاجِمَهُمْ عَلَىٰ جَهْلٍ مِنَّا بِأَهْلِيكَ (أَقْهَلُكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) في دعواهم أن
 ملك آلهما ، فقطع الله احتجاجهم بمثل هذا ، إذ أذكّرهم أخذ الميثاق على كل واحد
 منهم . وجماعة أهل العلم على ما شرحنا من أنه استنطق الذر ، وركّس فيهم عقولا
 وأفهاما عرفوا بها ما عرض عليهم . وقد ذكر بعضهم أن معنى أخذ الذرية :
 إخراجهم إلى الدنيا بعد كونهم نطفاً ، ومعنى إشهادهم على أنفسهم : اضطرارهم إلى
 العلم بأنه خالقهم بما أظهر لهم من الآيات والبراهين . ولما عرفوا ذلك ودعاهم كل
 ما يرون ويشاهدون إلى التصديق ، كانوا بمنزلة الشاهدين والمُشْهِدِينَ على أنفسهم
 بصحته ، كما قال : (شاهدين على أنفسهم بالكفر) [التوبة : ١٧] يريد بهم بمنزلة
 الشاهدين ، وإن لم يقولوا : نحن كفرة ، كما يقول الرجل : قد شهدت جوارحي
 بصدقك ، أي : قد عرفته . ومن هذا الباب قوله : (شهد الله) [آل عمران : ١٩]
 أي : بين وأعلم وقد حكى نحو هذا القول ابن الأنباري ، والأول أصح ،
 لموافقة الآثار . ^(١)

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ) أي : وكما بينا في أخذ الميثاق
 الآيات ، ليتدبرها العباد فيعملوا بموجبها . (ولعلمهم يرجعون) أي : ولكي يرجعوا
 عما هم عليه من الكفر إلى التوحيد .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ
 الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْمَخْلُوعِينَ ﴾

قوله تعالى : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ) قال الزجاج : هذا نسق على ما قبله ، والمعنى :

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٦٤ في تفسير هذه الآية .

أَتَلْ عَلَيْهِمْ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ، (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا) وفيه ستة أقوال .
أحدها : أنه رجل من بني إسرائيل يقال له : بلعم بن أبر ، قاله ابن مسعود .
وقال ابن عباس : بلعم بن باعوراء . وروى عنه : أنه بلعام بن باعور ، وبه قال مجاهد ،
وعكرمة ، والسدي . وروى الموفي عن ابن عباس أن بلعماً من أهل اليمن .
وروى عنه ابن أبي طلحة أنه من مدينة الجبَّارين .

والثاني : أنه أُمَيَّةُ بن أبي الصلت ، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسعيد
ابن المسيب ، وأبو روق ، وزيد بن أسلم ، وكان أُمَيَّةُ قد قرأ الكتب ، وعلم أن
الله مرسل رسولاً ، ورجا أن يكون هو ، فلما بُعث النبي ﷺ ، حسده وكفر .
والثالث : أنه أبو عامر الراهب ، روى الشعبي عن ابن عباس قال : الأنصار
تقول : هو الراهب الذي بُني له مسجد الشِّقاق ، وروى عن ابن المسيب نحوه .
والرابع : أنه رجل كان في بني إسرائيل ، أعطي ثلاث دعوات يستجاب له
فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، وكانت سمجة دميمة ، فقالت : ادع الله
أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل ، فدعا الله لها ، فلما علمت أن ليس في
بني إسرائيل مثلاً ، رغبت عن زوجها وأرادت غيره ، فلما رغبت عنه ، دعا الله أن
يجعلها كلبة نبَّاحةً ، فذهبت منه فيها دعوتان ، فجاء بنوها وقالوا : ليس بنا على
هذا صبر أن صارت أمنا كلبةً نبَّاحةً يَمِيرُنا الناس بها ، فادع الله أن يردَّها إلى
الحال التي كانت عليها أولاً ، فدعا الله ، فمادت كما كانت ، فذهبت فيها الدعوات
الثلاث ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، والذي روي لنا في هذا الحديث « وكانت
سَمِجَةً » بكسر الميم ، وقد روى سيبويه عن العرب أنهم يقولون : رجل
سَمِجٌ : يتسكين الميم ، ولم يقولوا : سَمِجٌ ؛ بكسرها .

والخامس : أنه المنافق ، قاله الحسن .

والسادس : أنه كل من انسلخ من الحق بعد أن أُعطيَه من اليهود والنصارى والحنفاء ، قاله عكرمة ، وفي الآيات خمسة أقوال .

أحدها : أنه اسم الله الأعظم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال ابن جبير .

والثاني : أنها كتاب من كتب الله عز وجل . روى عكرمة عن ابن عباس قال : هو بلام ، أو آتي كتاباً فانسأخ منه .

والثالث : أنه أوتي النبوة ، فرشاهُ قومه على أن بسكت ، ففعل وتركهم على مام عليه ، قاله مجاهد ، وفيه بُعد ، لأن الله تعالى لا يصطفي لرسالته إلا معصوماً عن مثل هذه الحال .

والرابع : أنها حُجج التوحيد ، وفهم أدلته .

والخامس : أنها العلم بكتب الله عز وجل . والمشهور في التفسير أنه بلام ، وكان من أمره على ما ذكره المفسرون أن موسى عليه السلام غزا البلد الذي هو فيه ، وكانوا كفاراً ، وكان هو مجاب الدعوة ، فقال ملكهم : ادع على موسى ، فقال : إنه من أهل ديني ، ولا ينبغي لي أن أدعوا عليه ، فأمر الملك أن تنحت خشبة لصلبه ، فلما رأى ذلك ، خرج على أتان له ليدعوا على موسى ، فلما عين عسكرهم ، وقفت الأتان فضر بها ، فقالت : لم تضربي ، وهذه نار توقد قد منعتني أن أمشي ، فارجع ، فرجع إلى الملك فأخبره ، فقال : إما أن تدعوا عليهم ، وإما أن أصليك ، فدعا على موسى باسم الله الأعظم أن لا يدخل المدينة ، فاستجاب الله له ، فوقع موسى وقومه في التيه بدعائه ، فقال موسى : يارب ، بأي ذنب وقعنا في التيه ؟ فقال : بدعاء بلم . فقال : يارب ، فكما سمعت دعاءه عليّ ، فاسمع دعائي عليه ، فدعا الله أن ينزع منه الاسم الأعظم ، فنزع منه . وقيل : إن بلام أمر قومه أن

يَزِينُوا النِّسَاءَ وَيُرْسِلُوهُنَّ فِي الْمَسْكَرِ لِيَفْشُوا الزِّنَا فِيهِمْ ، فَيُضْرَبُوا عَلَيْهِمْ . وَقِيلَ : إِنَّ مُوسَى قَتَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ . وَرَوَى السَّيِّدُ عَنْ أَشْيَاخِهِ أَنَّ بَلْعَمَ أَتَى إِلَى قَوْمِهِ مُتَبَرِّعًا ، فَقَالَ : لَا تَرْهَبُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَإِنَّمَا إِذَا خَرَجْتُمْ لِقِتَالِهِمْ ، دَعَوْتُ عَلَيْهِمْ فَهَلَكُوا ، فَكَانَ فِيهَا شَاءٌ عِنْدَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَضِيِّ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً الَّتِي تَاهَوْا فِيهَا ، وَكَانَ نَبِيُّهُمْ يَوْشَعَ ، لَا مُوسَى .

قوله تعالى : (فَاَنْسَلِخْ مِنْهَا) أَي : خَرَجَ مِنَ الْعِلْمِ بِهَا .

قوله تعالى : (فَاتَّبِعْهُ الشَّيْطَانُ) قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ : أَدْرَكَهُ . يُقَالُ : اتَّبَعْتُ الْقَوْمَ : إِذَا لَحَقْتَهُمْ ، وَتَبِعْتُهُمْ : سَرْتُ فِي أَثَرِهِمْ وَقَرَأَ طَلْحَةُ بْنُ مَصْرُوفٍ : « فَاتَّبِعْهُ » بِالْقَشْدِيدِ . وَقَالَ الْيَزِيدِيُّ : اتَّبِعْهُ وَاتَّبِعْهُ : لَفْظَانِ . وَكَأَنَّ « اتَّبِعْهُ » خَفِيفَةٌ بِمَعْنَى : قَفَاهُ ، وَ « اتَّبِعْهُ » مُشَدَّدَةٌ : حَذَا حَذْوَهُ . وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ : اتَّبَعْنَاكَ ، وَأَنْتَ تَرِيدُ : اتَّبَعْنَاكَ ، لِأَنَّ مَعْنَاهَا : اقْتَدَيْنَا بِكَ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : يَقَالُ : تَبَعَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ وَاتَّبَعَهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ) [البقرة : ٣٨] وَقَالَ : (فَاتَّبِعْهُمْ فِرْعَوْنُ) [يونس : ٩٠] .

قوله تعالى : (فَكَانَ مِنَ الْفَاوِينَ) فِيهِ قَوْلَانِ .

أَحَدُهُمَا : مِنَ الضَّالِّينَ ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ . وَالثَّانِي : مِنَ الْمُهَالِكِينَ الْفَاسِدِينَ ، قَالَهُ الزَّجَّاجُ . ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) فِي هَاهُ الْكِنَايَةِ فِي « رَفَعْنَاهُ » قَوْلَانِ .

أحدهما : أنها تعود إلى الإنسان المذكور ، وهو قول الجمهور ؛ فيكون
المعنى : ولو شئنا لرفعنا منزلة هذا الإنسان بما علمناه .

والثاني : أنها تعود إلى الكفر بالآيات ، فيكون المعنى : لو شئنا لرفعنا عنه
الكفر بآياتنا ، وهذا المعنى مروى عن مجاهد . وقال الزجاج : لو شئنا لحُلتنا بينه
وبين المعصية .

قوله تعالى : (ولكنه أخذ إلى الأرض) أي : ركن إلى الدنيا وسكن .
قال الزجاج : يقال : أخذ وأخذ ، والأول أكثر في اللغة . والأرض هاهنا عبارة
عن الدنيا ، لأن الدنيا هي الأرض بما عليها . وفي معنى الكلام قولان .
أحدهما : أنه ركن إلى أهل الدنيا ، ويقال : إنه أرضى امرأته بذلك ، لأنها
حملته عليه ، وقيل : أرضى بني عمه وقومه .

والثاني : أنه ركن إلى شهوات الدنيا ؛ وقد بيّن ذلك بقوله : (وانسبع
هواه) والمعنى أنه انتقاد لما دعاه إليه الهوى . قال ابن زيد : كان هواه مع قومه .
وهذه الآية من أشد الآيات على أهل العلم إذا مالوا عن العلم إلى الهوى .

قوله تعالى : (فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) معناه :
أن هذا الكافر ، إن زجرته لم ينزجر ، وإن تركته لم يهتد ، فالحالتان عنده سواء
كحالاتي الكلب ، فإنه إن طُرد وحمل عليه بالطرد كان لاهئاً ، وإن ترك وربض
كان أيضاً لاهئاً ، والتشبيه بالكلب اللاهث خاصة ؛ فالمعنى : فثله كمثل الكلب
لاهُئاً ؛ وإنما شبهه بالكلب اللاهث ، لأنه أخس الأمثال على أخس الحالات وأبشعها .
وقال ابن قتيبة : كل لاهث إنما يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب ، فإنه
يلهث في حال راحته وحال كلاله ، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته ، فقال : إن

وعظته فهو ضال ، وإن لم تعظه فهو ضال ، كالكلب إن طردته وزجرته فسمى لهث ، أو تركته على حاله رابضاً لهث . قال المفسرون : **زَجِرَ** في منامه عن الدعاء على نبي إسرائيل فلم ينزجر ، وخاطبته أتانته فلم يفتنه ، فضرَب له هذا المثل ولسأر الكفار ؛ فذلك قوله : (ذلك مثل القوم الذين كذَّبوا بآياتنا) لأن الكافر إن وعظته فهو ضال ، وإن تركته فهو ضال ؛ وهو مع إرسال الرسل إليه كمن لم يأنه رسول ولا بينة .

قوله تعالى : (فاقصص القصص) قال عطاء : **قَصَصَ** الذين كفروا وكذَّبوا أنبياءهم .

﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ . مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَإُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ساء مثلاً) يقال : ساء الشيء يسوء : إذا قُبِحَ ، والمعنى : ساء مثلاً مثل القوم ، فحذف المضاف ، فنصب « مثلاً » على التمييز .

قوله تعالى : (وأنفسهم كانوا يظلمون) أي : يضرون بالمعصية .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَانُوا لَنَا نَعَامٌ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد ذرأنا) أي : خلقنا . قال ابن قتيبة : ومنه ذرية الرجل ، إنما هي الخلق منه ، ولكن همزها يتركه أكثر العرب .

قوله تعالى : (لجهنم) هذه اللام يسميها بعض أهل المعاني لام العاقبة ، كقوله :
 (ليكون لهم عدواً وحزناً) [القصص : ٨] ومثله قول الشاعر :
 أَمْوَالُنَا لِلدَّوِيِّ الْمِيرَاثِ نَجْمَعُهَا وَدُورُنَا لِحَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيهَا
 ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز يعزيه بموت ابنه ، فقال :
 تَعَزَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَاتَّهَ لِمَا قَدْ تَرَى بُغْذَى الصَّغِيرُ وَيُوَلِّدُ
 وقد أخبر الله عز وجل في هذه الآية بنفاذ علمه فيهم أنهم يصيرون إليها
 بسبب كفرهم .

قوله تعالى : (لهم قلوب لا يفقهون بها) لما أعرض القوم عن الحق والتفكر
 فيه ، كانوا بمنزلة من لم يفقه ولم يبصر ولم يسمع . وقال محمد بن القاسم النحوي :
 أراد بهذا كله أمر الآخرة ، فانهم يعقلون أمر الدنيا .
 قوله تعالى : (أولئك كالأنعام) شبههم بالأنعام لأنها تسمع وتبصر ولا تعتبر ،
 ثم قال : (بل هم أضل) لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها ، فتزعم بمض ما تبصره ،
 وهؤلاء يعلم أكثرهم أنه معاند ، فيقدم على النار ، (أولئك هم الغافلون) عن
 أمر الآخرة .

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ
 فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى) سبب نزولها أن رجلاً دعا الله في صلاته ،
 ودعا الرحمن ، فقال أبو جهل : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً ،
 فما بال هذا يدعو اثنين ، فأنزل الله هذه الآية ، قاله مقاتل . فأما الحسنى ، فهي
 تأنيث الأحسن . ومعنى الآية أن أسماء الله حسنى ، وليس المراد أن فيها ما ليس

بحسن . وذكر الماوردي أن المراد بذلك ماملت إليه النفوس من ذكره بالمفو
والرحمة دون السخط والنقمة . وقوله : (فادعوه بها) أي : نادوه بها ، كقولك :
يا الله ، يارحمي .

قوله تعالى : (وذروا الدين يُلْحِدُونَ في أسمائه) قرأ ابن كثير ، ونافع ،
وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « يُلْحِدُونَ » بضم الياء ، وكذلك في
(النحل : ١٠٣) و (السجدة) [فصلت ٤٠] . وقرأ حمزة : « يَلْحَدُونَ »
بفتح الحاء والياء فيهن ، وواقعه الكسائي ، وخلف في (النحل : ١٠٣) . قال الأخفش :
أَلْحَدَ وَلَحَدَ : لفتان ؛ فن قرأ بها أراد الأخذ باللغتين ، فكأن الإلحاد : العدول
عن الاستقامة . وقال ابن قتيبة : يجورون عن الحق ويمدلون ؛ [فيقولون : اللات
والعزى ومناة وأشباه ذلك] ومنه لَحْدُ القبر ، لأنه في جانب . قال الزجاج :
ولا ينبغي لأحد أن يدعوه بعالم بسم به نفسه ، فيقول : يا جواد ، ولا يقول :
ياسخي ؛ ويقول : يا قوي ، ولا يقول : يا جلد ، ويقول : يارحيم ، ولا يقول :
يارفيق ، لأنه لم يصف نفسه بذلك . قال أبو سليمان الخطابي : ودليل هذه الآية أن
الغلط في أسمائه والزيغ عنها إلحادٌ ، ومما يُسمع على السنة العامة قولهم : ياسبحانُ ،
يابرهانُ ، وهذا مهجور مستهجن لا قدوة فيه ، وربما قال بعضهم : يارب طه ويس .
وقد أنكر ابن عباس على رجل قال : يارب القرآن . وروي عن ابن عباس أن إلحادهم
في أسمائه أنهم سموها بها أو ثابته ، وزادوا فيها ونقصوا منها ، فاشتقوا اللات من الله ،
والعزى من العزيز ، ومناة من المنان .

﴿ فصل ﴾

والجمهور على أن هذه الآية محكمة ، لأنها خارجة مخرج التهديد ، كقوله : (ذرني

ومن خلقت وحيداً) [المذر : ١١] ، وقد ذهب بعضهم إلى أنها منسوخة بآية القتال ، لأن قوله : (وذروا الذين يلحدون في أسمائهم) يقتضي الإعراض عن الكفار ، وهذا قول ابن زيد .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق) أي : يعملون به ، (وبه يعدلون) أي : وبالمعمل به يعدلون . وقمن أريد بهذه الآية أربعة أقوال .

أحدها : أنهم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان من هذه الأمة ، قاله ابن عباس . وكان ابن جزيج يقول : ذكر لنا أن النبي ﷺ قال : « هذه أمتي ، بالحق يأخذون ويمطون ويقضون » ^(١) . وقال قتادة : بلغنا أن النبي ﷺ كان إذا تلا هذه الآية قال : « هذه لكم وقد أعطي القوم مثلها » ^(٢) ثم يقرأ : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) [الأعراف : ١٥٩] .

والثاني : أنهم من جميع الخلق ، قاله ابن السائب .

والثالث : أنهم الأنبياء . والرابع : أنهم العلماء ، ذكر القولين الماوردي .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾

قوله تعالى : (والذين كذبوا بآياتنا) قال أبو صالح عن ابن عباس : هم أهل مكة . وقال مقاتل : نزلت في المستهزئين من قريش .

قوله تعالى : (سنستدرجهم) قال الخليل بن أحمد : سنطوي أعمارهم في اغترار

(١) « الطبري » : ٢٨٦/١٣ ، وابن كثير : ٢/٢٦٩ ، وخرجه السيوطي في « الدر المنثور » :

١٤٩/٣ ، وزاد نسبه إلى ابن المنذر ، وأبي الشيخ .

(٢) أورده السيوطي في « الدر » : ١٤٩/٣ ونسبه لابن جرير ، وابن المنذر ، وعبد بن حميد .

منهم . وقال أبو عبيدة : الاستدراج : أن يُتدرج إلى الشيء في خفية قليلاً قليلاً ولا يُهجم عليه ، وأصله من الدَّرَجَة ، وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مَرَقَةً مَرَقَةً ؛ ومنه : دَرَجَ الكتاب : إذا طواه شيئاً بعد شيء ؛ ودرج القوم : إذا ماتوا بعضهم في إثر بعض . وقال الزبيدي : الاستدراج : أن يأتيه من حيث لا يعلم . وقال ابن قتيبة : هو أن يذيقهم من بأسه قليلاً قليلاً من حيث لا يعلمون ، ولا يساغتهم به ولا يجاهرهم . وقال الأزهري : سنأخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون ؛ وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يغتبطهم به ويركنون إليه ، ثم يأخذهم على غرَّتهم أغفل ما يكونون . قال الضحاک : كلما جددوا لنا معصية جلدنا لهم نعمة .

وفي قوله : (من حيث لا يعلمون) قولان .

أحدهما : من حيث لا يعلمون بالاستدراج . والثاني : بالهلكة .

قوله تعالى : (وأملئ لهم) الإملاء : الإمهال والتأخير .

قوله تعالى : (إن كيدي متين) قال ابن عباس : إن مكري شديد . وقال ابن فارس : الكيد : المكر ؛ فكل شيء عالجته فأنت تكيدُهُ . قال المفسرون : مكر الله وكيدهُ : مجازاة أهل المكر والكيد على نحو ما ينالنا في سورة (البقرة : ١٥) و (آل عمران : ٥٤) من ذكر الاستهزاء والخذاع والمكر .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ . مَنْ يَضِلِ اللَّهُ فَلَ هَادِي لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

قوله تعالى : (أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة) سبب نزولها أن رسول الله ﷺ ، علا على الصفا ليلة ، ودعا قريشاً فخذأ فخذأ : يا بني فلان ، يا بني فلان ، فحذّرهم بأس الله وعقابه ، فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا المجنون ، بات يصوت حتى الصباح ، فنزلت هذه الآية ^(١) ، قاله الحسن ، وقادة . ومعنى الآية : أولم يتفكروا فيملوا ما بصاحبهم من جنة ، أي : جنون ، فحشّم على التفكير في أمره ليعلموا أنه بريء من الجنون . (إن هو) أي : ما هو (إلا نذير) أي : غوِّف (مبين) بيّن طريق الهدى . ثم حشّم على النظر المؤدّي إلى العلم فقال : (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض) ليستدلوا على أن لها صانعاً مدبراً ؛ وقد سبق بيان الملكوت في سورة (الأنعام : ٧٥) .

قوله تعالى : (وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) قرأ ابن مسعود ، وأبيّ ، والجحدري : « آجالهم » . ومعنى الآية : أولم ينظروا في الملكوت وفيما خلق الله من الأشياء كلّها ، وفي أن عسى أن تكون آجالهم قد قربت فيها يكوا على الكفر ، ويصيروا إلى النار (فبأي حديث بعده يؤمنون) يعني القرآن وما فيه من البيان . ثم ذكر سبب إعراضهم عن الإيمان ، فقال : (من يضل الله فلا هادي له ويذرهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : « ونذرهم » بالنون والرفع . وقرأ أبو عمرو : بالياء والرفع . وقرأ حمزة ، والكسائي : « ويذرهم » بالياء مع الجزم خفيفة . فن قرأ بالرفع ، استأنف ، ومن جزم « ويذرهم » عطف على موضع الفاء . قال سيبويه : وموضعها جزم ؛ فالمعنى : من يضل الله يذرّه ؛ وقد سبق في سورة (البقرة : ١٥) معنى الطغيان والتمّة .

(١) د الطبري ، : ٢٨٩/١٣ ، وابن كثير : ٢٧٠/٢ . وأورده السيوطي في « الدر » ، وزاد نسبه لابن المنذر ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (يسألونك عن الساعة) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن قوماً من اليهود قالوا : يا محمد ، أخبرنا متى الساعة ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن قريشاً قالت : يا محمد ، بيننا وبينك قرابة ، فيبين لنا متى الساعة ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة ^(١) . وقال عروة : الذي سأله عن الساعة عتبة بن ربيعة . والمراد بالساعة هاهنا التي يموت فيها الخلق .

قوله تعالى : (أَيَّانَ مُرْسَاهَا) قال أبو عبيدة : أي : متى مُرْسَاهَا ؟ أي : منتهأها . ومرسا السفينة : حيث تنتهي . وقال ابن قتيبة : « أَيَّانَ » بمعنى : متى ؛ و « متى » بمعنى : أيّ حين ، ونرى أن أصلها : أيّ أوانٍ ؛ فحذفت الهمزة [والواو] ، وجعل الحرفان واحداً ، ومعنى الآية : متى نبوتها ؟ يقال : رسا في الأرض ، أي : نبت ، ومنه قيل للجبال : رواسي . قال الزجاج : ومعنى الكلام : متى وقوعها ؟ قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) أي : قد استأثر بعلمها (لَا يُجَلِّيهَا) أي : لا يظهرها في وقتها (إِلَّا هُوَ) .

قوله تعالى : (ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) فيه أربعة أقوال .

(١) قال أبو جعفر الطبري (٢٩٣/١٣) والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن قوماً سألوا رسول الله ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ آيَةً ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ كَانُوا مِنْ قُرَيْشٍ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ كَانُوا مِنَ الْيَهُودِ ، وَلَا خَبَرَ بِذَلِكَ عِنْدَنَا يَجُوزُ قَطْعُ الْقَوْلِ عَلَى أَيِّ ذَلِكَ كَانَ .

أحدها : ثَقُلَ وقوعها على أهل السموات والأرض ، قاله ابن عباس ، ووجهه أن الكلَّ يخافونها ، محسنهم ومسيئهم .

والثاني : عَظُم شأنها في السموات والأرض ، قاله عكرمة ، ومجاهد ، وابن جريج .

والثالث : خفي أمرها ، فلم يُعلم متى كونها ، قاله السدي .
والرابع : أن « في » بمعنى « على » فالمعنى : ثقلت على السموات والأرض ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَشَّةٌ) أي . فجأة ^(١) .
قوله تعالى : (كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا) فيه أربعة أقوال .
أحدها : أنه من المَقْدَم والمُؤَخَّر ، فتقديره : يسألونك عنها كأنك خفي ، أي : بَرَّ بهم ، كقوله : (إنه كان بي خفياً) [مريم : ٤٧] . قال الموفي عن ابن عباس ، وأسباط عن السدي : كأنك صديق لهم .
والثاني : كأنك خفي بسؤالهم ، بحسب لهم . قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : كأنك يعجبك سؤالهم . وقال خصيف عن مجاهد : كأنك تحب أن يسألوك عنها . وقال الزجاج : كأنك فَرِحَ بسؤالهم .
والثالث : كأنك عالم بها ، قاله الضحاك عن ابن عباس ، وهو قول ابن زيد ، والفراء .

(١) روى البخاري ٧٧/١٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » وهو جزء من حديث طويل ، يدل على أن الساعة تأتي بشفة . وقوله : « يليط حوضه » بفتح أوله من الثلاثي ، وبضمه من الرباعي ، والمعنى : يصلحه بالطين والمدر ، فيسد شقوقه ، ليملاؤه ويسقي منه دوابه .

والرابع : كأنك استحفيت السؤال عنها حتى علمتها ، قاله ابن أبي نجیح عن مجاهد . وقال عكرمة : كأنك سؤل عنها . وقال ابن قتيبة : كأنك معني بطلب علمها . وقال ابن الأنباري : فيه تقديم وتأخير ، تقديره : يسألونك عنها كأنك حفي بها ، والحفي في كلام العرب : المعني .

قوله تعالى : (قل إنما علمها عند الله) أي : لا يعلمها إلا هو (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) قال مقاتل في آخرين : المراد بالناس هاهنا أهل مكة . وفي قوله : « لا يعلمون » قولان . أحدهما : لا يعلمون أنها كائنة ، قاله مقاتل . والثاني : لا يعلمون أن هذا مما استأثر الله بعلمه ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا) سبب نزولها أن أهل مكة قالوا : يا محمد ، ألا يخبرك ربك بالسمر الرخيص قبل أن يفلو ، فتشتري فتربح ، وبالأرض التي تريد أن تجذب ، فترتحل عنها إلى ماقد أخصب ؟ فنزلت هذه الآية ، روي عن ابن عباس . وفي المراد بالنفع والضر قولان . أحدهما : أنه عام في جميع ما ينفع ويضر ، قاله الجمهور .

والثاني : أن النفع : الهدى ، والضر : الضلالة ، قاله ابن جريج .

قوله تعالى : (إلا ما شاء الله) أي : إلا ما أراد أن أملكه بتمليكك إلي ؛ ومن هو على هذه الصفة فكيف يعلم علم الساعة ؟ .

قوله تعالى : (ولو كنت أعلم الغيب) فيه أربعة أقوال .

أحدها : لو كنت أعلم بجذب الأرض وقحط المطر قبل كون ذلك لبيأت لسنة الجذب ما يكفيها ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : لو كنت أعلم ما أربح فيه إذا اشتريته لاستكثرت من الخير ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح ، قاله مجاهد .
والرابع : لو كنت أعلم ما أسأل عنه من الغيب لأجبت عنه . (وما مسني السوء) أي : لم يلحقني تكذيب ، قاله الزجاج . فأما الغيب ، فهو كل ما غاب عنك . ويخرج في المراد بالخير هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه العمل الصالح . والثاني : المال . والثالث : الرزق .

قوله تعالى : (وما مسني السوء) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه الفقر ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه كل ما يسوء ، قاله ابن زيد . والثالث : الجنون ، قاله الحسن . والرابع : التكذيب ، قاله الزجاج . فلي قول الحسن ، يكون هذا الكلام مبتدأ ، والمعنى : وما بي من جنون إنما أنا نذير ، وعلى باقي الأقوال يكون متعلقاً بما قبله .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) يعني بالنفس : آدم ،

وبزوجها : حواء . ومعنى (ليسكن إليها) : ليأنس بها ويأوي إليها . (فلما تنشأها) أي : جامعها . قال الزجاج : وهذا أحسن كناية عن الجماع . والحمل ، بفتح الحاء : ما كان في بطن ، أو أخرجه شجرة . والحمل ، بكسر الحاء : ما يُحمل . والمراد بالحمل الخفيف : الماء .

قوله تعالى : (فررت به) أي : استمرت به ، قدمت وقامت ولم يُثقلها . وقرأ سمد بن أبي وقاص ، وابن مسعود ، وابن عباس ، والضحاك : « فاستمرت به » . وقرأ أبي بن كعب ، والجوني : « استمرت به » بزيادة ألف . وقرأ عبد الله ابن عمرو ، والجحدري : « فررت به » بألف وتشديد الراء . وقرأ أبو المصالي ، وأيوب ، ويحيى بن يعمر : « فررت به » خفيفة الراء ، أي : شككت وتمارت أمحت ، أم لا ؟ (فلما أثقلت) ، أي : صار حملها ثقيلاً . وقال الأخفش : صارت ذا ثقل . يقال : أثمرنا ، أي : صرنا ذوي ثمر .

قوله تعالى : (دعوا الله ربهما) يعني آدم وحواء (لئن آتيننا صالحاً) وفي المراد بالصالح قولان .

أحدهما : أنه الإنسان المشابه لهما ، وخافاً أن يكون بهيمة ، هذا قول الأكثرين . والثاني : أنه الغلام ، قاله الحسن ، وقتادة .

شرح السبب في دعائها

ذكر أهل التفسير أن إبليس جاء حواء ، فقال : ما يدريك ما في بطنك ، لعله كلب أو خنزير أو حمار ؛ وما يدريك من أين يخرج ، أبشق بطنك ، أم يخرج من فيك ، أو من منخريك ؟ فأحزنها ذلك ، فدعوا الله حينئذ ، فجاء إبليس

فقال : كيف تجدينك ؟ قالت : ما أستطيع القيام إذا قدمت ، قال : أفرأيت إن دعوتُ الله ، فجعله إنساناً مثلك ومثل آدم ، أتسمينه باسمي ؟ قالت : نعم . فلما ولدته سوياً ، جاءها إبليس فقال : لم لا تُسمِّينه بي كما وعدتني ؟ فقالت : وما اسمك ؟ قال : الحارث ، وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث ، فسنته : عبد الحارث ، وقيل : عبد شمس برضى آدم ، فذلك قوله : (فلما آتاها صالحاً جملاً له شركاء) ^(١) . قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « شركاء » بضم الشين والمد ، جمع شريك . وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : « شِرْكَاء » مكسورة الشين على المصدر ، لا على الجمع . قال أبو علي : من قرأ « شِرْكَاء » حذف المضاف ، كأنه أراد : جملاً له ذا شريك ، وذوي شريك ؛ فيكون المعنى : جملاً لغيره شِرْكَاء ، لأنه إذا كان التقدير : جملاً له ذوي شريك ، فالمعنى : جملاً لغيره شِرْكَاء ؛ وهذه القراءة في المعنى كقراءة من قرأ « شركاء » . وقال غيره : معنى « شركاء » : شريكاً ، فأوقع الجمع موقع الواحد كقوله : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم) [آل عمران : ١٧٣] . والمراد بالشريك : إبليس ، لأنها أطاعاه في الاسم ، فكان الشرك في الطاعة ، لا في العبادة ؛ ولم

(١) « الطبري » : ٣٠٧/١٣ - ٣٠٨ . ثم قال الطبري عقبه : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله أخبر عن آدم وحواء أنها دعوا الله ربها بحمل حواء ، وأقما لئن أعطاهما مافي بطن حواء صالحاً ، ليكونان لله من الشاكرين ، والصالح قد يشمل معاني كثيرة ، منها الصلاح في استواء الخلق ، ومنها الصلاح في الدين ، والصلاح في العقل والتدبير ، وإذا كان ذلك كذلك ولا خبر عن الرسول بوجب الحجة بأن ذلك على بعض معاني الصلاح دون بعض ، ولا فيه من العقل دليل ، وجب أن يعم كما عمه الله فيقال : إنها قالا : لئن آتيتنا صالحاً نجنيح معاني الصلاح .

يقصدا أن الحارثَ ربَّهما ، لكن قصدا أنه سبب نجاة ولدهما ؛ وقد يُطلق العبد على من ليس بملوك . قال الشاعر :

وإني لعبدُ الضَّيفِ مادامَ ثاوباً وما فيَّ إلا تِلْكَ مِنْ شَيْمَةِ الْعَبْدِ^(١)
وقال مجاهد : كان لايمش لآدم ولد ، فقال الشيطان : إذا وُلد لكما ولد فسمياه عبد الحارث ، فأطاعاه في الاسم ، فذلك قوله : (جعلاً له شركاء فيما آتاهما)^(٢) ، هذا قول الجمهور ، وفيه قول ثان ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما أشرك آدم ، إن أول الآية لشكر ، وآخرها مثل ضربه الله لمن يعبد في قوله : (جعلاً له شركاء فيما آتاهما) . وروى قتادة عن الحسن ، قال : هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولاداً فهو دُوم ونصروهم^(٣) . وروي عن الحسن ، وقتادة قالوا : الضمير في قوله : « جعلاً له شركاء » عائد إلى النفس وزوجه من ولد آدم ، لا إلى آدم وحواء . وقيل : الضمير راجع إلى الولد الصالح ، وهو السليم الخلق ، فالعنى : جعل له ذلك الولد شركاء . وإنما قيل : « جعلاً » لأن حواء كانت تلد في كل

(١) البيت للمقع الكندي وهو في « الحماسة » ١١٨٠/٣ ، و « الأمل » ٢٧٧/١ ، ورواية الشطر الثاني فيها : « وما شيمة لي غيرها تشبه العبد » .

(٢) « الطبري » : ٣١٢/١٣ ، وابن كثير : ٢٧٥/٢ من طريق ابن أبي حاتم عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب .

(٣) « الطبري » : ٣١٥/١٣ ، وابن كثير : ٢٧٥/٢ وقال : وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك ، وهو من أحسن التفاسير ، وأولى ما حملت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لا عدل عنه هو ولا غيره ، ولا سيما مع تقواه لله ورعه ، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي ، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم ، مثل كعب ، أو وهب بن منبه ، وغيرها كما سيأتي بيانه إن شاء الله ، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع والله اعلم .

بطن ذكراً وأُنثى . قال ابن الأنباري : الذين جعلوا له شركاء اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين هم أولاد آدم وحواء . فتأويل الآية : فلما آتاهما صالحاً ، جعل أولادهما له شركاء ، فحذف الأولاد وأقامها مقامهم كما قال : (وأسأل القرية) [يوسف : ٨٢] . وذهب السدي إلى أن قوله : (فتعالى الله عما يشركون) في مشركي العرب خاصة ، وأنها مفصولة عن قصة آدم وحواء .

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

قوله تعالى : (أيشركون ما لا يخلق شيئاً) قال ابن زيد : هذه لآدم وحواء حيث سميا ولدهما عبد شمس ، والشمس لا تخلق شيئاً . وقال غيره : هذا راجع إلى الكفار حيث أشركوا بالله الأصنام ، وهي لا تخلق شيئاً ، وقوله : (وهم يُخلَقون) أي : وهي مخلوقة . قال ابن الأنباري : وإنما قال : « ما » ثم قال : « وهم يُخلَقون » لأن « ما » تقع على الواحد والاثنين والجميع ؛ وإنما قال : « وهم » وهو يعني الأصنام ، لأن عابديها ادَّعَوْا أنها تعقل وتميز ، فأجريت بحرى الناس ، فهو كقوله : (رأيتم لي ساجدين) [يوسف : ٤] ، وقوله : (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) [النمل : ١٨] ، وقوله : (وكل في فلك يسبحون) [يس : ٤٠] ، قال الشاعر :

تَمَزَّزْتُهَا وَالِدَيْكَ يَدْعُو صَبَاحَهُ إِذَا مَا بَنُو نَفْسٍ دَنَوْا فَتَصَوَّبُوا
وَأَنشَدَ ثَعْلَبُ لِعَبْدَةِ بْنِ الطَّيِّبِ :

إِذَا أَشْرَفَ الدِّينُكَ يَدْعُو بَعْضَ أَشْرَنِهِ

لَدَى الصَّبَاحِ وَهُمْ قَوْمٌ مَعَارِيلٌ^(١)

(١) البيت في « المفضليات » : ١٤٣ من قصيدة قالها بعد وقعة القادسية حين التقى المسلمون بالفرس في وقعة بابل سنة ١٣ ، فهزموهم وتبعوهم إلى المدائن . والمعازيل : العزل من السلاح .

لَمَّا جَعَلَهُ يَدْعُو ، جَعَلَ الدِّيَكَّةَ قَوْمًا ، وَجَعَلَهُمْ مَازِيلَ ، وَهُمْ الَّذِينَ لَا سِلَاحَ مَعَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ أُسْرَةً ؛ وَأُسْرَةُ الرَّجُلِ : رَهْطُهُ وَقَوْمُهُ .

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا) يقول : إِنْ الْأَصْنَامُ لَا تَسْتَطِيعُ نَصْرَ مَنْ عِبَدَهَا ، وَلَا تَنْجِي مِنْ نَفْسِهَا .

﴿ وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ نَدَعُوهُمْ) فِيهِ قَوْلَانِ .

أحدهما : أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الْأَصْنَامِ ، فَالْمَعْنَى : وَإِنْ دَعَوْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ أَصْنَامَكُمْ إِلَى سَبِيلِ رِشَادٍ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

وَالثَّانِي : أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الْكُفَّارِ ، فَالْمَعْنَى : وَإِنْ تَدْعُ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْهُدَى ، لَا يَتَّبِعُوكُمْ ، فَدَعَاؤُكُمْ إِيَّاهُمْ وَصْنَمَهُمْ عَنْهُمْ سَوَاءٌ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَنْقَادُونَ إِلَى الْحَقِّ . وَقَرَأْ نَافِعٌ « لَا يَتَّبِعُوكُمْ » بِسُكُونِ التَّاءِ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَنْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ . إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾

قوله تعالى : (إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) يعني الأصنام (عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ) في أنهم مسخرون مذلّون لأمر الله . وإنما قال « عباد » وقال (فادعوا) ، وإن كانت الأصنام جاداً ، لما يئنا عند قوله : (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .

قوله تعالى : (فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ) أي : فليجيبوكم (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أَنْ لَكُمْ عندهم نفعاً وثواباً . (أَلَمْ أَرْجُلْ يَمْشُونَ بِهَا) في المصالح (أَمْ لَمْ أَيْدِ يَمْشُونَ بِهَا) في دفع ما يؤذي . وقرأ أبو جعفر « يَمْشُونَ » بضم الطاء هاهنا وفي (القصص : ١٩) و (الدخان : ١٦) . (أَمْ لَمْ أَعْيِنْ يُصِرُّوا بِهَا) المنافع من المضار (أَمْ لَمْ أَذَاتْ يَسْمَعُونَ بِهَا) تضرعكم ودعاءكم ؛ وفي هذا تنبيه على تفضيل العابدين على المعبودين ، وتوبيخ لهم حيث عبدوا مَنْ هُمْ أَفْضَلُ مِنْهُ . (قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ) قال الحسن : كانوا يخوفونه بألهتهم ، فقال الله تعالى : « قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ » ، (ثُمَّ كِيدُونِي) أتم وهم (فَلَا تَنْظُرُونَ) أي : لا تؤخروا ذلك . وكان ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر ، وحزرة ، والكسائي يقرؤون « ثُمَّ كِيدُونَ » بغير ياء في الوصل والوقف . وقرأ أبو عمرو ، ونافع في رواية ابن حماد بالياء في الوصل . وروى ورش ، وقالون ، والمسيبي بغير ياء في الوصل ، ولا وقف . فأما « تَنْظُرُونَ » فأثبت فيها الياء يعقوب في الوصل والوقف . (إِنْ وَلَيْتِيَ اللَّهُ) أي : ناصري (الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ) وهو القرآن ، أي : كما أَيْدِي بَانِزَالِ الْكِتَابِ بِنَصْرَتِي .

﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ) يعني الأصنام (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ) أي : لا يقدرُونَ على منعكم ممن أرادكم بسوء ، ولا ينعون أنفسهم من سوء أريد بهم .

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا) في المراد بهؤلاء قولان . أحدهما : أنهم الأصنام . ثم في قوله : (وتراهم ينظرون إليك) قولان . أحدهما يواجهونك ، تقول العرب : داري تنظر إلى دارك ، (وهم لا يبصرون) لأنه ليس فيهم أرواح . والثاني : وتراهم كأنهم ينظرون إليك ، لأن لهم أعيناً مصنوعة ، فأنسقط كاف التشبيه ، كقوله : (وترى الناس سكارى) [الحج : ٢] أي : كأنهم سكارى ، (وهم لا يبصرون) في الحقيقة . وإنما أخبر عنهم بالباه والميم ، لأنهم على هيئة نبي آدم .

والقول الثاني : أنهم المشركون ، فالمعنى : وتراهم ينظرون إليك بأعينهم ولا يبصرون بقلوبهم .

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (خذ العفو) العفو : الميسور ، وقد سبق شرحه في سورة (البقرة : ٢١٩) . وفي الذي أمر بأخذ العفو منه ثلاثة أقوال .

أحدها : أخلاق الناس ، قاله ابن الزبير ، والحسن ، ومجاهد ^(١) فيكون

(١) « الطبري » : ٣٢٦ / ١٣ - ٣٢٧ ، وابن كثير : ٢ / ٢٧٧ . وروى البخاري في « صحيحه » ، ٢٢٩ / ٨ عن عبد الله بن الزبير (خذ العفو وأمر بالعرف) قال : ما أزل الله [أي هذه الآية] إلا في أخلاق الناس . وروى البخاري أيضاً ٢٢٩ / ٨ أن ابن عباس قال : قدم عيينة بن حصن ابن حذيفة ، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من نفر الذين يدينهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته ، كهولاً كانوا أو شباناً ، فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي ، لك وجه عند هذا الأمير ، فاستأذن لي عليه ، قال : سأستأذن لك عليه ، قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعينته ، فأذن له عمر ، فلما دخل عليه قال : هي يا ابن الخطاب ، فوافقه ماتطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى مّ به ، فقال له الحر : —

المعنى : إقبال الميسور من أخلاق الناس ، ولا تستقص عليهم فتظهر منهم البغضاء .
والثاني : أنه المال ، وفيه قولان . أحدهما : أن المراد بفقو المال : الزكاة ،
قاله مجاهد في رواية الضحاك . والثاني : أنها صدقة كانت تؤخذ قبل فرض الزكاة ،
ثم نسخت بالزكاة ، روي عن ابن عباس (١) .

والثالث : أن المراد به : مساهلة المشركين والعفو عنهم ، ثم نسخ بآية السيف ،
قاله ابن زيد (٢) .

قوله تعالى : (وأمر بالعرف) أي : بالمعروف .

وفي قوله : (وأعرض عن الجاهلين) قولان .

أحدهما : أنهم المشركون ، أمر بالإعراض عنهم ، ثم نسخ ذلك بآية السيف .
والثاني : أنه عام فيمن جهل ، أمر بصيانة النفس عن مقابلتهم على سفهمهم ،
وإن وجب عليه الإنكار عليهم . وهذه الآية عند الأكثرين كلها عكمة ، وعند
بعضهم أن وسطها محكم ، وطرفيها منسوخان على ما بيننا .

﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا
فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾

— يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن
الجاهلين) وإن هذا من الجاهلين ، والله ماجوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند
كتاب الله .

(١) د الطبري : ٣٢٨/١٣ .

(٢) وقال الطبري ٣٢٩/١٣ : وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : معناه : خذ

العفو من أخلاق الناس واترك الغلظة عليهم ، وقال : أمر بذلك النبي ﷺ في المشركين .

قوله تعالى : (وإِما يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ) قال ابن زيد : لما نزلت « خذ المقو » قال النبي ﷺ « يارب كيف بالفضب » ؛ فنزلت هذه الآية ^(١) . فأما قوله « وإِما » فقد سبق ياناه في سورة (البقرة) في قوله : (فأما يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى) [البقرة : ٣٨] ، وقال أبو عبيدة : ومجاز الكلام : وإِما تستخفَّنَّكَ منه خفة وغضب وعَجَلَة . وقال السدي : النزغ : الوسوسة وحديث النفس . قال الزجاج : النزغ : أدنى حركة تكون ، تقول : قد نزغته : إذا حركته . وقد سبق معنى الاستعاذة .

قوله تعالى : (إِذا مسهم طيف) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي : « طيف » بنير ألف . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحزمة : « طائف » بألف ممدوداً مهموزاً . وقرأ ابن عباس ، وابن جبير ، والجحدري ، والضحاك : « طَيْفٌ » بتشديد الياء من غير ألف . وهل الطائف والطيف بمعنى واحد ، أم يختلفان ؛ فيه قولان .

أحدهما : أنها بمعنى واحد ، وهما ما كان كالحَيال والشيء يُلم بك ، حكى عن الفراء . وقال الأخفش : الطيف أكثر في كلام العرب من الطائف ، قال الشاعر :

أَلَا بِالْقَوْمِ لِطَيْفِ الْخَيَالِ أَرْقَى مِنْ نَازِحِ ذِي دَلَالٍ ^(٢)

والثاني : أن الطائف : ما يطوف حوا الشيء ، والطيف : اللُصَّة والوسوسة

(١) « الطبري » : ٣٣٣/١٣ ، وابن كثير : ٢٧٨/٢ ، وأورده السيوطي في « الدر » ، ١٥٤/٣ عن ابن جرير الطبري . وابن زيد : هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

(٢) البيت لأمية بن عائذ في شرح « أشعار الهذليين » ، ٤٩٤/٢ ، قال السكري : الطيف : مجاء في المنام ، يقول : هذا الخيال جاء من امرأة نازحة ذات دلال ، والدلال : الشكل والهيئة الحسنة ، والنازح : البعيد ، والأرق : أن يغمض عينه مرة ويفتحها أخرى ، و يروى : « يؤرق » أي : يسهر غيره .

والخَطْطَرَةُ ، حكى عن أبي عمرو - وروي عن ابن عباس أنه قال : الطائف : اللِّمَّةُ من الشيطان ، والطيف : الغضب . وقال ابن الأثيري : الطائف : الفاعل من الطيف ؛ والطيف عند أهل اللغة : اللِّمَّةُ من الشيطان ؛ وزعم مجاهد أنه الغضب . قوله تعالى : (تَذَكَّرُوا) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : تَذَكَّرُوا الله إذا همَّوا بالمعاصي فتركوها ، قاله مجاهد .

والثاني : تَفَكَّرُوا فيما أوضح الله لهم من الحجة ، قاله الزجاج .

والثالث : تَذَكَّرُوا غضب الله ؛ والمعنى : إذا جرَّأهم الشيطان على ما لا يحل ، تَذَكَّرُوا غضب الله ، فأمسكوا ، فإذا هم مبصرون لمواضع الخطأ بالتفكير .

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوْنَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإخوانهم) في هذه الآية والميم قولان .

أحدهما : أنها عائدة على المشركين ؛ فتكون هذه الآية مقدَّمة على التي قبلها ،

والتقدير : وأعرض عن الجاهلين ، وإخوان الجاهلين ، وهم الشياطين (يمدُّونهم

في الغيِّ) قرأ نافع : « يمدونهم » بضم الياء وكسر الميم . والباقون : بفتح الياء

وضم الميم . قال أبو علي : عامة ما جاء في التنزيل فيما يُحمَد ويُسْتَحَب : أمدت ، على

أفعلت ، كقوله : (أمدون بمال) [النمل : ٣٦] (أنما عندهم به من مال)

[المؤمنون : ٥٥] (وأمدناهم بفاكهة) [الطور : ٢٢] ، وما كان على خلافه يجيء

على : مددت ؛ كقوله : (ويمدهم في طغيانهم) [البقرة : ١٥] ؛ فهذا يدل على

أن الوجه فتح الياء ، إلا أن وجه قراءة نافع بمنزلة (فبشَّروهم بعذاب أليم)

[التوبة : ٣٤] : قال المفسرون : « يمدونهم في الغي » أي : يزيّنونه لهم ،

ويريدون منهم لزومه ؛ فيكون معنى الكلام : إن الذين اتَّسَقُوا إِذَا جَرَّهُم الشَّيْطَانُ إِلَى خَطِيئَةٍ ، نَابُوا مِنْهَا ، وَإِخْوَانُ الْجَاهِلِينَ ، وَهَمَّ الشَّيَاطِينُ ، يَمْدُونَهُمْ فِي الْغِي ، هَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْهَاءُ وَالْمِيمُ تَرْجِعُ إِلَى الشَّيَاطِينِ ، وَقَدْ جَرَى ذِكْرُهُمْ لِقَوْلِهِ : « مِنْ الشَّيْطَانِ » ؛ فَالْمَعْنَى : وَإِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ يَمْدُونَهُمْ .

وَالثَّانِي : أَنَّ الْهَاءَ وَالْمِيمَ تَرْجِعُ إِلَى الْمُتَّقِينَ ؛ فَالْمَعْنَى : وَإِخْوَانُ الْمُتَّقِينَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ، وَقِيلَ : مِنَ الشَّيَاطِينِ يَمْدُونَهُمْ فِي الْغِي ، أَي : يَرِيدُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَعَهُمْ فِي الْكُفْرِ ، ذَكَرَ هَذَا الْقَوْلَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ . فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ : « وَإِخْوَانُهُمْ » وَلَيْسُوا عَلَى دِينِهِمْ ؟ فَالْجَوَابُ : أَنَا إِنْ قُلْنَا : إِنَّهُمْ الْمَشْرِكُونَ ، فَجَازَ أَنْ يَكُونُوا إِخْوَانَهُمْ فِي النَّسَبِ ، أَوْ فِي كَوْنِهِمْ مِنْ بَنِي آدَمَ ، أَوْ لَكُونَهُمْ يَظْهَرُونَ النَّصْحَ كَالْإِخْوَانِ ؛ وَإِنْ قُلْنَا : إِنَّهُمْ الشَّيَاطِينُ ، فَجَازَ أَنْ يَكُونُوا لَكُونَهُمْ مُصَاحِبِينَ لَهُمْ ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَصَحُّ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ) وَقَرَأَ الزَّهْرِيُّ ، وَابْنُ أَبِي عُبَيْلَةَ : « لَا يَقْصِرُونَ » بِالتَّشْدِيدِ . قَالَ الزَّجَّاجُ : يُقَالُ : أَقْصَرَ يُقْصِرُ ، وَقَصَّرَ يُقْصِرُ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَا الْإِنْسَ يَقْصِرُونَ عَمَّا يَعْمَلُونَ مِنَ السَّيِّئَاتِ ، وَلَا الشَّيَاطِينُ تُقْصِرُ عَنْهُمْ ؛ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ : « يَقْصِرُونَ » مِنْ فِعْلِ الْفَرِيقَيْنِ ، وَهَذَا عَلَى الْقَوْلِ الْمَشْهُورِ ؛ وَيُخْرَجُ عَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي أَنْ يَكُونَ هَذَا وَصْفًا لِلْإِخْوَانِ فَقَطْ .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتُمَا قُلُوبَنَا إِنَّمَا تَتَّبِعُونَ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ) يَعْنِي بِهِ الْمَشْرِكِينَ . وَفِي مَعْنَى الْكَلَامِ قَوْلَانِ . أَحَدُهُمَا : إِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ ، سَأَلُوهَا تَعَنُّتًا ، قَالَ ابْنُ السَّائِبِ .

والثاني : إذا لم تأتهم بآية لإبطاء الوحي ، قاله مقاتل .

وفي قوله : (لولا اجتبتها) قولان .

أحدهما : هلاً افتعلتها من تلقاء نفسك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد ، والفراء ، والزجاج ، وابن قتيبة في آخرين ، وحكي عن الفراء أنه قال : العرب تقول : اجتبت الكلام ، واختلقته ، وارتجلته : إذا افتعلته من قبل نفسك .

والثاني : هلاً طلبتها لنا قبل مسألتك ؛ ذكره الماوردي ؛ والاول أصح .

قوله تعالى : (قل إنما أنبئ ما يوحى إلي من ربي) أي : ليس الأمر لي .

قوله تعالى : (هذا بشار من ربكم) يعني القرآن . قال أبو عبيدة : البشار بمعنى الحجج والبرهان والبيان ، واحديثها : بصيرة . وقال الزجاج : معنى البشار : ظهور الشيء وبيانه .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له) اختلفوا في نزولها على خمسة أقوال .

أحدها : أن رسول الله ﷺ قرأ في الصلاة المكتوبة ، فقرأ أصحابه ورائه راغمين أصواتهم ، فنزلت هذه الآية ^(١) ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن المشركين كانوا يأتون رسول الله ﷺ إذا صلى ، فيقول بعضهم لبعض : لا تسمعوا لهذا القرآن والفتوا فيه ، فنزلت هذه الآية ، قاله سعيد بن المسيب .

(١) ذكره السيوطي في « الدر » ١٥٥/٣ عن ابن مردويه من رواية ابن عباس .

والثالث : أن فتى من الأنصار كان كلما قرأ النبي ﷺ شيئاً ، قرأ هو ، فنزلت هذه الآية ، قاله الزهري .

والرابع : أنهم كانوا يتكلمون في صلاتهم أول ما فرضت ، فيجئ الرجل فيقول لصاحبه : كم صليتم ؟ فيقول : كذا وكذا ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة .
والخامس : أنها نزلت تأمر بالإنصات للإمام في الخطبة يوم الجمعة ، روي عن عائشة ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، وبجاهد ، وعمر بن دينار في آخرين ^(١) .

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْفُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (واذكر ربك في نفسك) في هذا الذكر أربعة أقوال .
أحدها : أنه القراءة في الصلاة ، قاله ابن عباس ؛ فعلى هذا ، أمر أن يقرأ في نفسه في صلاة الإسرار .

والثاني : أنه القراءة خلف الإمام سراً في نفسه ، قاله قتادة .

والثالث : أنه ذكر الله باللسان .

والرابع : أنه ذكر الله باستدامة الفكر ، لا ينفل عن الله تعالى ، ذكر القولين الماوردي . وفي المخاطب بهذا الذكر قولان .

أحدهما : أنه المستمع للقرآن ، إما في الصلاة ، وإما من الخطيب ، قاله ابن زيد .

والثاني : أنه خطاب النبي ﷺ ، ومعناه عام في جميع المكلفين .

(١) قال الطبري ٣٥٢/١٣ : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : أمروا باستماع القرآن في الصلاة إذا قرأ الإمام وكان من خلفه ممن يأتهم به بسمه ، وفي الخطبة .

قوله تعالى : (تضرعاً وخيفة) التضرع : الخشوع في تواضع ؛ والخيفة :
الحذر من عقابه .

قوله تعالى : (ودون الجهر من القول) الجهر : الإعلان بالشيء ؛ ورجل جهر
الصوت : إذا كان صوته عالياً . وفي هذا نص على أنه الذكر باللسان ؛ ويحتمل وجهين .
أحدهما : قراءة القرآن . والثاني : الدعاء ، وكلاهما مندوب إلى إخفائه ^(١) ، إلا أن
صلاة الجهر قد بُيِّنَ أدها في قوله : (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها)
[الاسراء : ١١٠] . فأما الغدو فهو جمع غُدوة ؛ والآصال جمع أُصل ، والأصل جمع
أصيل ؛ فالآصال جمع الجمع ، والآصال : المشيات . وقال أبو عبيدة : هي ما بين
المصر إلى المغرب ؛ وأنشد :

لَمَعْرِي لَأَنْتَ الْبَيْتُ أَكْرَمُ أَهْلِهِ وَأَقْمَدُ فِي أَيْفَانِهِ بِالْأَصَائِلِ ^(٢)
وروي عن ابن عباس أنه قال : يعني بالغدو : صلاة الفجر ؛ والآصال :
صلاة العصر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين عند ربك) يعني الملائكة . (لا يستكبرون) أي :
لا يتكبرون ويتمطئون (عن عبادته) وفي هذه العبادة قولان .

(١) روى البخاري ٩٤/٦ ، ومسلم ٢٠٧٦/٤ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال :
« كنا مع النبي ﷺ في سفر ، فجعل الناس يجيرون بالتكبير ، فقال النبي ﷺ : « يا أيها الناس
اربعوا على أنفسكم إنكم لاتدعون أصم ولا غافاً ، إنكم تدعون سميماً قريباً وهو معكم ، واللفظ لمسلم .

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في « ديوان الهذليين » : ١٤١/١ ، و « مجاز القرآن » :

٢٣٩/١ ، و « الأغاني » : ٥٧/٦ ، و « الخزائن » : ٤٧٩/٢ ، ٥٦٤ .

أحدهما : الطاعة . والثاني : الصلاة والمخضوع فيها .

وفي قوله : (ويسبحونه) قولان .

أحدهما : ينزهونه عن السوء . والثاني : يقولون : سبحان الله .

قوله تعالى : (وله يسجدون) أي : يصلّون . وقيل : سبب نزول هذه

الآية أن كفار مكة قالوا : أنسجد لما تأمرنا ؛ فنزلت هذه الآية تخبر أن الملائكة

وم أكبر شأنًا منكم ، لا يتكبرون عن عبادة الله . وقد روى أبو هريرة عن

النبي ﷺ أنه قال : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي

ويقول : ياويله ، أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرتُ بالسجود فعصيت

فلي النار » ^(١) .



(١) رواه مسلم ٨٧/١ ، وابن ماجه ٣٣٤/١ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأورده

السيوطي في « الدر » ١٥٨/٣ وزاد نسبه للبيهقي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنفال

وهي مدنية باجماعهم . وحكى الماوردي عن ابن عباس أن فيها سبع آيات
مكيات ، أولها : (وإذ يكر بك الذين كفروا) [الأنفال : ٣٠] .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا
اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (يسألونك عن الأنفال) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر : « من قتل قتيلاً فله كذا
وكذا ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا » ، فأما المشيخة ، فثبتوا تحت الرايات ،
وأما الشبان ، فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقال المشيخة للشبان : أشركونا معكم ،
فانا كنا لكم رءاء ؛ فأبوا ، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت سورة
(الأنفال) ، رواه عكرمة عن ابن عباس ^(١) .

(١) د الطبري ، : ٣٦٨/١٣ ، ورواه أبو داود في د سننه ، ١٠٢/٣ رقم (٢٧٣٧)

مع اختلاف يسير ، وكذلك البيهقي ٢٩١/٦ - ٢٩٢ ، والحاكم ١٣١/٢ - ١٣٢ ، وقال : —

والثاني : أن سعد بن أبي وقاص أصاب سيفاً يوم بدر ، فقال : يا رسول الله ، هبه لي ، فنزلت هذه الآية ، رواه مصعب بن سعد عن أبيه ^(١) . وفي رواية أخرى عن سعد قال : قتلت سميد بن العاص ، وأخذت سيفه فأتيت به رسول الله ، فقال : « اذهب فاطرحه في القَبَضِ » فرجعت ، وبني ما لا يعلمه إلا الله ؛ فاجاوزت إلا قريباً حتى نزلت سورة (الانفال) ، فقال : « اذهب فخذ سيفك » ^(٢) . وقال السدي : اختصم سعد وناس آخرون في ذلك السيف ، فسألوا النبي ﷺ ، فأخذه النبي ﷺ منهم ، فنزلت هذه الآية .

والثالث : أن الانفال كانت خالصة لرسول الله ﷺ ، ليس لأحد منها شيء ، فسألوه أن يعطيهم منها شيئاً ، فنزلت هذه الآية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وفي المراد بالانفال ستة أقوال :

— صحيح ، وأقره الذهبي ، وخرجه ابن كثير في « تفسيره » ٢/٢٨٤ وزاد نسبته إلى النسائي ، وابن حبان ، وابن مردويه ، وذكره السيوطي في « الدر » ٣/١٥٩ وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وأبي الشيخ .

(١) « الطبري » : ٣٧٦/١٣ ، ورواه مسلم ٥٣/١٢ - ٥٤ بأطول منه ، وخرجه ابن كثير في « تفسيره » ٢/٢٨٣ ، ورواه البيهقي في « السنن الكبرى » ٦/٢٩١ .

(٢) « المسند » ٣/٧٨ ، و « الطبري » ١٣/٣٧٣ ، و « الأموال » لأبي عبيد (٣٠٣) وهو ضعيف لانقطاعه ، فان محمد بن عبيد الله الثقفي أبو عون لم يدرك سعداً ، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام في خلال الخبر : قتلت سميد بن العاص ، وقال غيره : العاص بن سميد . قال أبو عبيد : هذا عندنا هو المحفوظ . وفي « الإصابة » ٣/٣٦ ، وأخرج البغوي من طريق محمد بن عبيد الله الثقفي عن سميد قال : لما كان يوم بدر قتل أخي عمير ، وقتلت أنا سميد ابن العاص ، قال الحافظ ابن حجر : كذا فيه ، والصواب : العاص بن سميد بن العاص ، فانه قتل يوم بدر كافراً ، أما سميد بن العاص بن أمية ، فانه مات قبل بدر مشركاً .

أحدها : أنها الغنائم ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، والضحاك ، وأبو عبيدة ، والزجاج ، وابن قتيبة في آخرين . وواحد الأنفال : نفل ، قال لييد :

« إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفْلٍ » وبإذن الله ديني وعَجَلُ^(١)
والثاني : أنها ما نقله رسول الله ﷺ القاتل من سلب قتيله .

والثالث : أنها ما شذ من المشركين إلى المسلمين من عبء أو دابة بغير قتال ، قاله عطاء . وهذا والذي قبله مرويان عن ابن عباس أيضاً .

والرابع : أنه الخمس الذي أخذه رسول الله ﷺ من الغنائم ، قاله مجاهد .
والخامس : أنه أنفال السرايا ، قاله علي بن صالح بن حي . وحكي عن الحسن قال : هي السرايا التي تتقدم أمام الجيوش .

والسادس : أنها زيادات يُؤثِرُ بها الإمام بعض الجيش لما يراه من المصلحة ، ذكره الماورى . وفي « عن » قولان .

أحدهما : أنها زائدة ، والمعنى : يسألونك الأنفال ؛ وكذلك قرأ سعد بن أبي وقاص ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وأبو العالية : « يسألونك الأنفال » بحذف « عن » .

والثاني : أنها أصل ، والمعنى : يسألونك عن الأنفال لمن هي ؛ أو عن حكم الأنفال ؛ وقد ذكرنا في سبب نزولها ما يتعلق بالقولين . وذكر أنهم إنما سألوا عن حكمها لأنها كانت حراماً على الأمم قبلهم .

(١) ديوانه : ١٧٤ ، و « مجاز القرآن » : ١/٢٤٠ ، و « جمهرة الأسماء » : ٧ ، و « الطبري » : ٣٦٦/١٣ ، و « غريب القرآن » : ١٧٧ ، واللسان : نفل . وقوله : خير نفل ، هذه رواية الأصمعي ، وروى أبو عبيدة : خير النفل ، قال أبو الحسن : النفل : الفضل والمطية . والريث : مصدر رثت أريث : إذا أبطأت .

❦ فصل ❦

واختلف علماء النسخ والنسوخ في هذه الآية ، فقال بعضهم : إنها ناسخة من وجه ، منسوخة من وجه ، وذلك أن الغنائم كانت حراماً في شرائع الأنبياء المتقدمين ، ففسخ الله ذلك بهذه الآية ، وجعل الأمر في الغنائم إلى ما يراه الرسول ﷺ ، ثم نسخ ذلك بقوله : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة) [الانفال : ٤١] . وقال آخرون : المراد بالأنفال شيثان .

أحدهما : ما يجمله الرسول ﷺ لطائفة من شجبان المسكر ومتقدميه ، يستخرج به نصحبهم ، ويحترضهم على القتال .

والثاني : ما يفضل من الغنائم بعد قسمتها كما روي عن ابن عمر قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية ، فغنمنا إبلاً ، فأصاب كل واحد منا اثنا عشر بعيراً ، ونقلنا بعيراً بعيراً ؛ فعلى هذا هي محكمة ، لأن هذا الحكم باقٍ إلى وقتنا هذا .

❦ فصل ❦

ويجوز النقل قبل إحراز الغنيمة ، وهو أن يقول الإمام : من أصاب شيئاً فهو له ، وبه قال الجمهور . فأما بعد إحرازها ، ففيه عن أحمد روايتان . وهل يستحق القاتل سلب المقتول إذا لم يشرطه له الإمام ؟ فيه قولان .

أحدهما : يستحقه ، وبه قال الأوزاعي ، والليث ، والشافعي .

والثاني : لا يستحقه ، ويكون غنيمة للجيش ، وبه قال أبو حنيفة ، ومالك ؛ وعن أحمد روايتان كالقولين .

قوله تعالى : (قل الأنفال لله والرسول) يحكم أن فيها ما أراد ، (فاتقوا الله)
بترك مخالفته (وأصلحوا ذات بينكم) قال الزجاج : معنى « ذات بينكم » حقيقة
وصلكم . والبين : الوصل ؛ كقوله : (لقد تقطع بينكم) [الانعام : ٩٤] .
ثم في المراد بالكلام قولان . أحدهما : أن يرُدَّ القويُّ على الضيف ، قاله
عطاء . والثاني : ترك المنازعة تسليماً لله ورسوله .

قوله تعالى : (وأطيعوا الله ورسوله) أي : اقبلوا ما أمرتم به في الفناء وغيرها .
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا
تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾
قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله) قال الزجاج : إذا ذكرت
عظمته وقدرته وما خوف به من عصاه ، فزعت قلوبهم ، قال الشاعر :
لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لِأَوْجَلُ عَلَىٰ أَتَيْنَا تَعْدُو الْمَيْتَةَ أَوَّلُ (١)
يقال : وجِلَ يَوْجَلُ وَيَجَلُّ وَيَجْلُ ، هذه أربع لغات حكاه سيدي .
وأجودها : يَوْجَلُ . وقال السدي : هو الرجل يهَمُّ بالمصيبة ، فيذكر الله فينزع عنها .
قوله تعالى : (وإذا تليت عليهم آياته) أي : آيات القرآن .

وفي قوله : (زادتهم إيماناً) ثلاثة أقوال .

أحدها : تصديقاً ، قاله ابن عباس . والمعنى : أنهم كلما جاءهم شيء عن الله
آمنوا به فزادوا إيماناً بزيادة الآيات .
والثاني : يقيناً ، قاله الضحاك .

(١) البيت لمن بن أوس في « مجاز القرآن » : ١/٢٤٠ ، و « الاقتصاب » : ٤٦٣ و
« شرح حساسة أبي تمام » المرزوقي ١١٢٦/٣ ، و « الحماسة البصرية » : ١٤١ ، و « الخزائن » :
٥٠٥/٣ .

والثالث : خشية الله ، قاله الربيع بن أنس . وقد ذكرنا معنى التوكل في (آل عمران : ١٢٢) .

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَرِزْقَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

قوله تعالى : (الذين يقيمون الصلاة) قال ابن عباس : يعني الصلوات الخمس . (ومما رزقناهم ينفقون) يعني الزكاة .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (أولئك هم المؤمنون حقا) قال الزجاج : « حقا » منصوب بمعنى دلت عليه الجملة ، والجملة (أولئك هم المؤمنون) ، فالمعنى : أحق ذلك حقا . وقال مقاتل : المعنى : أولئك هم المؤمنون لاشك في إيمانهم كشك المنافقين .

قوله تعالى : (لهم درجات عند ربهم) قال عطاء : درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم ، والرزق الكريم : ما أعد لهم فيها .

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُِونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (كما أخرجك ربك) في متعلق هذه الكاف خمسة أقوال .

أحدها : أنها متعلقة بالأنفال . ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال . أحدها :

أن تأويله : امض لأمر الله في الغنائم وإن كرهوا ، كما مضيت في خروجك من بيتك ومكارهون ، قاله الفراء . والثاني : أن الأنفال لله والرسول ﷺ بالحق الواجب ، كما

أخرجك ربك بالحق ، وإن كرهوا ذلك ، قاله الزجاج . والثالث : أن المعنى : يسألوك عن الأنفال مجادلة ، كما جادلوك في خروجك ، حكاه جماعة من المفسرين . والثاني : أنها متعلقة بقوله : (فاتقوا الله وأصلحوا) ، والمعنى : إن التقوى والاصلاح خير لكم ، كما كان إخراج الله نبيه محمداً خيراً لكم وإن كرهه بعضكم ، هذا قول عكرمة .

والثالث : أنها متعلقة بقوله : (يجادلونك) ، فالمعنى : مجادلتهم إياك في الغنائم كإخراج الله إياك إلى بدر وهم كارهون ، قاله الكسائي .

والرابع : أنها متعلقة بقوله : (أولئك هم المؤمنون) ، والمعنى : وهم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، ذكره بعض ناقلي التفسير .

والخامس : أن « كما » في موضع قسم ، معناها : والذي أخرجك من بيتك ، قاله أبو عبيدة ، واحتج بأن « ما » في موضع « الذي » ومنه قوله : (وما خلق الذكر والأنثى) [الأيد : ٣] قال ابن الأنباري : وفي هذا القول بُعد ، لأن الكاف ليست من حروف الاقسام . وفي هذا الخروج قولان .

أحدهما : أنه خروجه إلى بدر ، وكره ذلك طائفة من أصحابه ، لأنهم علموا أنهم لا يظفرون بالغنيمة إلا بالقتال .

والثاني : أنه خروجه من مكة إلى المدينة للهجرة .

وفي معنى قوله : « بالحق » قولان . أحدهما : أنك خرجت ومعك الحق .

والثاني : أنك خرجت بالحق الذي وجب عليك .

وفي قوله : (وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) قولان .

أحدهما : كارهون لخروجك .

والثاني : كارهون صرف الغنية عنهم ، وهذه كراهة الطبع لمشقة السفر والقتال ، وليست كراهة لأمر الله تعالى .

قوله تعالى : ((يجادلونك في الحق) يعني في القتال يوم بدر ، لأنهم خرجوا بغير عُدَّة ، فقالوا : هلاً أخبرتنا بالقتال لتأخذ العُدَّة ، فجادلوه طلباً للرخصة في ترك القتال . وفي قوله : (بعدما تبين) ثلاثة أقوال .

أحدها : تبين لهم فرضه . والثاني : تبين لهم صوابه . والثالث : تبين لهم أنك لاتفعل إلا ما أمرت به . وفي « المجادلين » قولان .

أحدهما : أنهم طائفة من المسلمين ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

والثاني : أنهم المشركون ، قاله ابن زيد ، فعلى هذا ، يكون جدالهم في الحق الذي هو التوحيد ، لا في القتال . فعلى الأول ، يكون معنى قوله : (كأننا يساقون إلى الموت) أي : في لقاء العدو (وهم ينظرون) ، لأن أشد حال من يساق إلى الموت أن يكون ناظراً إليه ، وعالماً به . وعلى قول ابن زيد : كأننا يساقون إلى الموت حين يدعون إلى الإسلام لكرهتهم إياه .

﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . الْحَقُّ الْحَقُّ وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين) قال أهل التفسير : أقبل أبو سفيان من الشام في غير قريش ، حتى إذا دنا من بدر ، نزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بذلك ، فخرج في جماعة من أصحابه يريدهم ، فبلغهم ذلك فبعثوا عمرو ابن ضمضم النفاري إلى مكة مستغيثاً ، فخرجت قريش لمنع عنها ، ولحق أبو سفيان

بساحل البحر ، ففات رسول الله ، ونزل جبريل بهذه الآية : (وإذ يعدكم الله) ،
 والمعنى : اذكروا إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين . والطائفتان : أبو سفيان وما معه
 من المال ، وأبو جهل ومن معه من قريش ؛ فلما سبق أبو سفيان بما معه ، كتب
 إلى قريش : إن كنتم خرجتم لحربنا ركائبكم ، فقد أحرزناها لكم . فقال أبو جهل :
 والله لا نرجع . وسار رسول الله ﷺ يريد القوم ، فكره أصحابه ذلك وودّوا
 أن لو نالوا الطائفة التي فيها الغنيمة دون القتال ؛ فذلك قوله : (وتودّون أن
 غير ذات الشوكة) أي : ذات السلاح . يقال : فلان شاكى السلاح ؛
 بالتخفيف ، وشاكى في السلاح ؛ بالتشديد ، وشاك . قال أبو عبيدة : وجاز الشوكة
 الحد ؛ يقال : ما أشد شوكة بني فلان ، أي : حدّهم . وقال الأخفش : إنما أنت
 « ذات الشوكة » لأنه يعني الطائفة .

قوله تعالى : (ويريد الله أن يحق الحق) في المراد بالحق قولان .

أحدهما : أنه الإسلام ، قاله ابن عباس في آخرين .

والثاني : أنه القرآن ، والمعنى : يُحق ما أنزل إليك من القرآن .

قوله تعالى : (بكلماته) أي : بعِدَاتِهِ التي سبقت من إعزاز الدين ، كقوله :

(ليظهره على الدين كله) [التوبة : ٣٣] .

قوله تعالى : (ويقطع دابر الكافرين) أي : يمحّث أصلهم ؛ وقد بيّنّا ذلك

في (الأنعام : ٤٥) .

قوله تعالى : (ليحق الحق) المعنى : ويريد أن يقطع دابر الكافرين كما يحق

الحق . وفي هذا الحق القولان المتقدمان . فأما الباطل ، فهو الشرك ؛ والمجرمون

ههنا : المشركون .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَنْفِ
مِنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ
قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ) سبب نزولها ما روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر ، نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيّف ، ونظر إلى المشركين وهم ألف وزيادة ، فاستقبل القبلة ، ثم مدّ يديه وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : « اللهم أنجز ما وعدتني ، اللهم أنجز ما وعدتني ، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة لأعبدن في الأرض أبداً » فا زال يستغيث ربه ويدعوه ، حتى سقط رداؤه ، فأنابه أبو بكر الصديق فأخذ رداؤه فردّاه به ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله كذاك ^(١) مناشدتك ربك ، فأنه سينجز لك ما وعدك ؛ وأنزل الله تعالى هذه الآية ^(٢) .

قوله تعالى : (إِذْ) قال ابن جرير : هي من صلة « يبطل » . وفي قوله : (تستغيثون) قولان .

أحدهما : تستنصرون . والثاني : تستجيرون . والفرق بينهما أن المستنصر يطلب الظفر ، والمستجير يطلب الخلاص . وفي المستغيثين قولان .

أحدهما : أنه رسول الله ﷺ والمؤمنين ، قاله الزهري .

والثاني : أنه رسول الله ﷺ ، قاله السدي . فأما الإمداد فقد سبق في

(١) هكذا وقع لخواير رواية مسلم « كذاك » ، ولبعضهم : « كفالك » وكل بمعنى . وفي

الطبري ، ومسنّد أحمد ، وتفسير ابن كثير : كفالك .

(٢) « الطبري » : ٤٠٩/١٣ ، ورواه مسلم ١٣٨٤/٣ مطولاً ، وأحمد في « السند »

(آل عمران : ١٢٤) . وقوله : (بألف) قرأ الضحاك ، وأبو رجاء : « بألاف »
 بهزة ممدودة وبألف على الجمع . وقرأ أبو العالية ، وأبو المتوكل : « بأوف » برفع
 الهزة واللام وبواو بعدها على الجمع . وقرأ ابن حزم^(١) ، والجدري : « بألف »
 بضم الألف واللام من غير واو ولا ألف ، وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران : « بيألف »
 ياء مفتوحة وسكون اللام من غير واو ولا ألف . فأما قوله : (مردفين) فقرأ
 ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي : « مردفين »
 بكسر الدال . قال ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، والفراء : هم
 المتابعون . وقال أبو علي : يحتمل وجهين .

أحدهما : أن يكونوا مردفين مثلهم ، تقول : أردفت زيدا دابتي ؛ فيكون
 المفعول الثاني محذوفاً في الآية .

والثاني : أن يكونوا جاؤوا بسدم ؛ تقول العرب : بنو فلان مردوفونا ،
 أي : هم يميئون بعدنا . قال أبو عبيدة : مردفين : جاؤوا بعد . وقرأ نافع ، وأبو بكر
 عن عاصم : « مردفين » بفتح الدال . قال الفراء : أراد : فُعلَ ذلك بهم ، أي : إن
 الله أردف المسلمين بهم . وقرأ معاذ القاري ، وأبو المتوكل الناجي ، وأبو مجلز :
 « مُردِّفين » بفتح الراء والدال مع التشديد . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران :
 « مُردِّفين » برفع الراء وكسر الدال . وقال الزجاج : يقال : ردفت الرجل :
 إذا ركبت خلفه ، وأردفته : إذا أركبته خلفي . ويقال : هذه دابة لا تُردِّف ،
 ولا يقال : لا تُردِّف . ويقال : أردفت الرجل : إذا جئت بعده . فمضى « مردفين »
 يأتون فرقة بعد فرقة . ويجوز في اللغة : مُردِّفين ومُردِّفين ومُردِّفين ، فالدال
 مكسورة مشددة على كل حال ، والراء يجوز فيها الفتح والضم والكسر . قال

(١) هو تميم بن حذلم الصفي أبو سلة الكوفي .

سيدويه : الأصل مرتدّفين ، فأدغمت التاء في الدال فصارت مُرَدِّفَيْن لَأَنَّكَ طَرَحْتَ حركة التاء على الراء ؛ وإن شئت لم تطرح حركة التاء ، وكسرت الراء لالتقاء الساكنين . والذين ضموها الراء ، جعلوها تابعة لضممة الميم . وقد سبق في (آل عمران) تفسير قوله : (وما جعله الله إلا بشري) [آل عمران: ١٢٦] ، وكان مجاهد يقول : ما أمد الله النبي ﷺ بأكثر من هذه الألف التي ذكرت في (الانفال : ١٠) ، وما ذكر الثلاثة والخمسة إلا بشري ، ولم يمدّوا بها ؛ والجمهور على خلافه ، وقد ذكرنا اختلافهم في عدد الملائكة في (آل عمران : ١٢٦) .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾

قوله تعالى : (إِذْ يَغْشَاكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ) قال الزجاج : « إِذْ » موضعها نصب على معنى : وما جعله الله إلا بشري ، في ذلك الوقت ، ويجوز أن يكون المعنى : اذكروا إِذْ يَغْشَاكُمُ النُّعَاسُ . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « إِذْ يَغْشَاكُمُ » بفتح الياء وجزم الغين وفتح الشين وألف « النُّعَاسُ » بالرفع . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي : « يُغَشِّيكُمُ » بضم الياء وفتح الغين مشددة الشين مكسورة « النُّعَاسُ » بالنصب . وقرأ نافع : « يُغَشِّيكُمُ » بضم الياء وجزم الغين وكسر الشين « النُّعَاسُ » بالنصب . وقال أبو سليمان الدمشقي : الكلام راجع على قوله : (ولنطمئن به قلوبكم) إِذْ يَغْشَاكُمُ النُّعَاسُ . قال الزجاج : و « أَمْنَةً » منصوب : مفعول له ، كقولك : فملت ذلك حذر الشر . يقال : أمنتُ آمناً و آمناً و آمناً . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو المتوكل ، وأبو العالية ، وابن يضر ، وابن عيصن : « أَمْنَةً مِنْهُ » بسكون الميم .

قوله تعالى : (وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ) قال ابن عباس : نزل النبي ﷺ يوم بدر ، وبينه وبين الماء رملة ، وغلبهم المشركون على الماء ، فأصاب المسلمين الظمأ ، وجعلوا يصدّون محدّثين ، وألقى الشيطان في قلوبهم الوسوسة ، يقول : تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلّون محدّثين ، فأنزل الله عليهم مطراً ، فشرّبوا ونظّروا ، واشتد الرمل حين أصابه المطر ، وأزال الله رجز الشيطان ، وهو وسواسه ، حيث قال : قد غلبكم المشركون على الماء . وقال ابن زيد : رجز الشيطان : كيده ، حيث أوقع في قلوبهم أنه ليس لكم بهؤلاء القوم طاقة . وقال ابن الأنباري : ساءم عدم الماء عند فقرهم إليه ، فأرسل الله السماء ، فزالت وسوسة الشيطان التي تُكسب عذاب الله وغضبه ، إذ الرجز : العذاب .

قوله تعالى : (وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمُ الرِّبْطَ : الشَّدَّ . وَ « عَلَى » فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ صَلَةً ، فَالْمَعْنَى : وَلِيَرْبِطَ قُلُوبَكُمْ . وَفِي الَّذِي رَبَطَ بِهِ قُلُوبَهُمْ وَقَوَّاهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ . أحدها : أنه الصبر ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : أنه الإيمان ، قاله مقاتل . والثالث : أنه المطر الذي أرسله يثبت به قلوبهم بعد اضطرابها بالوسوسة التي تقدم ذكرها .

قوله تعالى : (وَيُثَبِّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ) فِي هَاءٍ « بِهِ » قَوْلَانِ . أحدهما : أنها ترجع إلى الماء ؛ فإن الأرض كانت رَمَلَةً ، فاشتدت بالمطر ، وثبتت عليها الأقدام ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي في آخرين . والثاني : أنها ترجع إلى الربط ، فالمعنى : ويثبت بالربط الأقدام ، ذكره الزجاج .

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْتُمْ مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾

قوله تعالى : (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم) قال الزجاج : « إذ » في موضع نصب ، والمعنى : وليربط إذ يوحى . ويجوز أن يكون المعنى : واذكروا إذ يوحى . قال ابن عباس : وهذا الوحي إلهام .

قوله تعالى : (إلى الملائكة) وهم الذين أمدَّ بهم المسلمين . (أني معكم) بالعون والنصرة . (فثبَّتوا الذين آمنوا) فيه أربعة أقوال .
أحدها : قاتلوا معهم ، قاله الحسن .

والثاني : بشروهم بالنصر ؛ فكان الملك يسير أمام الصف في صورة الرجل ، ويقول : أبشروا فإن الله ناصركم ، قاله مقاتل .

والثالث : ثبَّتوهم بأشياء تُثَقِّنُونَهَا في قلوبهم تقوى بها ، ذكره الزجاج .
والرابع : صححوا عزائمهم ونياتهم على الجهاد ، ذكره الثعلبي . فأما الرعب ، فهو الخوف . قال السائب بن يسار : كنا إذا سألنا يزيد بن عامر السوائي عن الرعب الذي ألقاه الله في قلوب المشركين كيف ؛ كان يأخذ الحصى فيرمي به الطست فيطين ، فيقول : كنا نجد في أجوافنا مثل هذا .

قوله تعالى : (فاضربوا فوق الأعناق) في الخطاب بهذا قولان .
أحدهما : أنهم الملائكة . قال ابن الأنباري : لم تعلم الملائكة أين تقصد بالضرب من الناس ، فلمتهم الله تعالى ذلك .

والثاني : أنهم المؤمنون ، ذكره جماعة من المفسرين . وفي معنى الكلام قولان .
أحدهما : فاضربوا الأعناق ، و « فوق » صلة ، وهذا قول عطية ، والضحاك ،
والأخفش ، وابن قتيبة . وقال أبو عبيدة : « فوق » بمعنى « على » ، تقول :
ضربت فوق الرأس ، وضربته على الرأس .

والثاني : اضربوا الرؤوس لأنها فوق الأعناق ، وبه قال عكرمة .
وفي المراد بالبنات ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الأطراف ، قاله ابن عباس ، والضحاك . وقال الفراء : علمهم
مواضع الضرب ، فقال : اضربوا الرؤوس والأيدي والأرجل . وقال أبو عبيدة ،
وابن قتيبة : البنات : أطراف الأصابع . قال ابن الأنباري : واكتفى بهذا من جملة
اليد والرجل .

والثاني : أنه كل مفصل ، قاله عطية ، والسدي .

والثالث : أنه الأصابع وغيرها من جميع الأعضاء ، والمعنى : أنه أباحهم قتلهم
بكل نوع ، هذا قول الزجاج . قال : واشتقاق البنات من قولهم : ابنٌ بالمكان :
إذا أقام به ؛ فالبنات به يُعتمَل كل ما يكون للاقامة والحياة .

قوله تعالى : (ذلك بأنهم شاقوا الله) « ذلك » إشارة إلى الضرب ،
و « شاقوا » بمعنى : جانبوا ، فصاروا في شِقٍّ غير شِقِّ المؤمنين .

قوله تعالى : (ذلكم فذوقوه) خطاب للمشركين ؛ والمعنى : ذوقوا هذا في
عاجل الدنيا . وفي فتح « أن » قولان .

أحدهما : باضمار فعل ، تقديره : ذلكم فذوقوه واعلموا أن للكافرين .

والثاني : أن يكون المعنى : ذلك بأن للكافرين عذاب النار . فإذا أُلقيت

الباء ، نصبت . وإن شئت ، جعلت « أن » في موضع رفع ؛ يريد : ذاكم فذوقوه ، وذلکم أن للكافرين عذاب النار ، هذا معنى قول الفراء .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا فَلَا تَوَلَّوْهُمْ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

قوله تعالى : (إذا لقيتم الذين كفروا زحفوا) الزحف : جماعة يزحفون إلى عدوهم ؛ قاله الليث . والتزاحف : التداني والتقارب ، قال الأعشى :

لَمَنْ الظَّمْعَانِ سَيْرُهُنَّ تَزَحُفُ

قال الزجاج : ومعنى الكلام : إذا واقفتهم للقتال فلا تدبروا (ومن يولهم) يوم حربهم (دبره) إلا أن يتحرف ليقاتل ، أو يتحيز إلى فئة ؛ فـ « متحرِّفًا » و « متحيِّزًا » منصوبان على الحال . ويجوز أن يكون نصبها على الاستثناء ؛ فيكون المعنى : إلا رجلاً متحرِّفًا أو متحيِّزًا . وأصل متحيز : مُتَحَيِّزٌ ؛ فأدغمت الياء في الواو .

قوله تعالى : (ومأواه جهنم) أي : مرجعه إليها ؛ ولا يدل ذلك على التخليد .

﴿ فصل ﴾

اختلف العلماء في حكم هذه الآية ، فقال قوم : هذه خاصة في أهل بدر ، وهو مروي عن ابن عباس ، وأبي سعيد الخدري ، والحسن ، وابن جبير ، وقتادة ، والضحاك . وقال آخرون : هي على عمومها في كل منزه ؛ وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً . وقال آخرون هي على عمومها ، غير أنها نسخت بقوله : (فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) [الانفال : ٦٦] فليس للمسلمين أن يفروا من مثلهم ، وبه قال

عطاء بن أبي رباح . وروى أبو طالب عن أحمد أنه سئل عن الفرار من الزحف ، فقال : لا يفر رجل من رجلين ؛ فإن كانوا ثلاثة ، فلا بأس . وقد نُقل نحو هذا عن ابن عباس . وقال محمد بن الحسن : إذا بلغ الجيش اثني عشر ألفاً ، فليس لهم أن يفرّوا من عدوهم ، وإن كثر عددهم . ونقل نحو هذا عن مالك ؛ ووجهه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « ما هُزم قوم إذا بلغوا اثني عشر ألفاً من قلة » ^(١) إذا صبروا وصدقوا .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) وقرأ ابن عامر ، وأهل الكوفة إلا عاصماً « ولكن الله قتلهم » « ولكن الله رمى » بتخفيف النون ورفع اسم الله فيها . وسبب نزول هذا الكلام أن أصحاب رسول الله ﷺ لما رجعوا عن بدر جعلوا يقولون : قَتَلْنَا وَقَتَلْنَا ، هذا معنى قول مجاهد .

فأما قوله تعالى : (وما رميت إذ رميت) ففي سبب نزوله ثلاثة أقوال . أحدها : « أن النبي ﷺ قال لعلي : ناولني كفاً من حصباء ، فناوله ، فرمى به في وجوه القوم ، فما بقي منهم أحد إلا وقعت في عينه حصاة » ^(٢) . وقيل : أخذ قبضة من تراب ، فرمى بها ، وقال : « شأهت الوجوه » ؛ فما بقي مشرك إلا سُئل بعينه يمالج التراب الذي فيها ، فزلت (وما رميت إذا رميت ولكن الله

(١) رواه أبو داود رقم (٢٦١١) عن ابن عباس بلفظ : « إن يظب اثنا عشر ألفاً من قلة » وقال : والصحيح أنه مرسل ، ورواه الترمذي وقال : حسن غريب ، ولم يصححه ، لأنه يروى مسنداً ومرسلاً ومعضلاً . قال ابن انقطاع : لكن هذا ليس بعله فلا أقرب صحته .

(٢) « الطبري » : ٤٤٥/١٣ من رواية السدي ، وابن كثير ٢/٣٩٥ .

رمى) وذلك يوم بدر ؛ هذا قول الأكثرين . وقال ابن الأنباري : وتأويل شأته : قبحت ؛ يقال : شاه وجهه يشوه شَوْهاً وشَوْهة ، ويقال : رجل أشوه ، وامرأة شوهاه ؛ إذا كانا قبيحين .

والثاني : أن أبي بن خلف أقبل يوم أحد إلى النبي ﷺ يريد ، فاعترض له رجال من المؤمنين ، فأمرهم رسول الله ﷺ ، فخلوا سبيله ، وطعنه النبي ﷺ بحرْبته ، فسقط أبي عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، فأناه أصحابه وهو ينخور خَوَار الثور ، فقالوا : إنما هو خدش ، فقال : والذي نفسي بيده ، لو كان الذي بي بأهل الجاز لما نوا أجمعون ، فات قبل أن يَقْدَم مكة ؛ فنزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن المسيب عن أبيه .

والثالث : أن رسول الله ﷺ رمى يوم خيبر بسهم ، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو على فراشه ، فنزلت هذه الآية ، ذكره أبو سليمان الدمشقي في آخرين .

قوله تعالى : (ولكن الله قتلهم) اختلفوا في معنى إضافة قتلهم إليه على أربعة أقوال .

أحدها : أنه قتلهم بالملائكة الذين أرسلهم . والثاني : أنه أضاف القتل إليه لأنه تولّى نصرهم . والثالث : لأنه ساقهم إلى المؤمنين ، وأمكنهم منهم . والرابع : لأنه ألقى الرعب في قلوبهم . وفي قوله : (وما رميت إذ رميت) ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المعنى : وما ظفرت أنت ولا أصبت ، ولكن الله أظفرك وأيدك ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : وما بلغ رميك كفاً من تراب أو حصى أن تملأ عيون ذلك الجيش الكثير ، إنما الله تولى ذلك ؛ قاله الزجاج .

والثالث : وما رميت قلوبهم بالرعب إذ رميت وجوههم بالتراب ؛ ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (وليُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا) أي : لِيُنْعِمَ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً عَظِيمَةً بالنصر والأجر . (إِنَّ اللَّهَ شَامِعٌ) لدعائهم (عليم) ببنيتهم .

قوله تعالى : (ذَلِكَ) قال الزجاج : موضعه رفع ؛ والمعنى : الأمر ذلك . وقال غيره : « ذَلِكَ » إشارة إلى القتل والرمي والبلاء الحسن . (وَأَنَّ اللَّهَ) أي : واعلموا أن الله . والذي ذكرناه في فتح « أَنْ » في قوله : (وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ) هو مذكور في فتح « أَنْ » هذه .

قوله تعالى : (مُؤَهِّينَ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمر « مُؤَهِّينَ » بفتح الواو وتشديد الهاء منونة « كِيدَ » بالنصب . وقرأ ابن عامر ، وحزمة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم « موهن » ساكنة الواو « كِيدَ » بالنصب . وروى حفص عن عاصم « موهن » كيد مضاف . والموهن : المضعف ، والكيد : المكر .

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (إِن تَسْتَفْتِحُوا) في سبب نزولها خمسة أقوال .

أحدها : أن أصحاب رسول الله ﷺ استنصروا الله وسألوه الفتح ، فنزلت هذه الآية ؛ وهذا المعنى مروي عن أبي بن كعب ، وعطاء الخراساني .

والثاني : أن أبا جهل قال : اللهم أينما كان أحب إليك وأرضى عندك فأنصره اليوم ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أن المشركين أخذوا بأستار الكعبة قبل خروجهم إلى بدر ، فقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم القبيلتين ؛ فنزلت هذه الآية ؛ قاله السدي .

والرابع : أن المشركين قالوا : اللهم إنا لا نعرف ما جاء به محمد ، فافتح بيننا وبينه بالحق ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله عكرمة .

والخامس : أنهم قالوا بمكة : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ...) الآية [الأنفال : ٣٢] ، فعذبوا يوم بدر ، قاله ابن زيد . فخرج من هذه الأقوال أن في المخاطبين بقوله : « إن تستفتحوا » قولان .

أحدهما : أنهم المؤمنون . والثاني : المشركون ؛ وهو الأشهر . وفي الاستفتاح قولان .

أحدهما : أنه الاستنصار ؛ قاله ابن عباس ، والزجاج في آخرين . فإن قلنا : إنهم المسلمون ، كان المعنى : إن تستنصروا فقد جاءكم النصر بالملائكة ؛ وإن قلنا : إنهم المشركون ؛ احتمل وجهين . أحدهما : إن تستنصروا فقد جاء النصر عليكم . والثاني : إن تستنصروا لأحب الفريقين إلى الله ، فقد جاء النصر لأحب الفريقين . والثاني : أن الاستفتاح : طلب الحكم ، والمعنى : إن تسألوا الحكم بينكم وبين المسلمين ، فقد جاءكم الحكم ؛ وإلى هذا المعنى ذهب عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة . فأما قوله : (وإن انتهوا فهو خير لكم) فهو خطاب للمشركين على قول الجماعة . وفي معناه قولان .

أحدهما : إن انتهوا عن قتال محمد ﷺ ، والكفر ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : إن تفتحوا عن استفتاحكم ، فهو خير لكم ، لأنه كان عليهم ،
لا لهم ، ذكره الماوردي .

وفي قوله : (وإن تمودوا نعد) قولان .

أحدهما : وإن تمودوا إلى القتال ، نعدُّ إلى هزيعكم ، قاله أبو صالح عن
ابن عباس . والثاني : وإن تمودوا إلى الاستفتاح ، نعدُّ إلى الفتح لمحمد ﷺ ،
قاله السدي .

قوله تعالى : (ولن تغني عنكم فئكم شيئا) أي : جماعتكم وإن كثرت ، (وأن
الله مع المؤمنين) بالمون والنصر . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحزرة ، وأبو بكر
عن عاصم : « وإن الله » بكسر الألف . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص
عن عاصم : « وأن » بفتح الألف . فن قرأ بكسر « أن » اسنانف . قال الفراء :
وهو أحب إليَّ من فتحها . ومن فتحها ، أراد : ولأن الله مع المؤمنين .

قوله : تعالى (ولا تولّوا عنه) فيه قولان .

أحدهما : لا تولّوا عن رسول الله ﷺ .

والثاني : لا تولّوا عن أمر رسول الله ﷺ (وأنتم تسمعون) ما نزل من
القرآن ، روي القولان عن ابن عباس .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . إِنَّ
شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا) اختلفوا فيمن نزلت على

ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في بني عبد الدار بن قصي ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .
والثاني : في اليهود ، قريظة والنضير ، روي عن ابن عباس أيضاً .
والثالث : في المنافقين ، قاله ابن إسحاق ، والواقدي ، ومقاتل .
وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : أنهم قالوا : سمعنا ، ولم يتفكروا فيما سمعوا ، فكانوا كمن لم يسمع ،
قاله الزجاج .

والثاني : أنهم قالوا : سمعنا سماع من يقبل ، وليسوا كذلك ، حكى عن مقاتل .
قوله تعالى : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم) اختلفوا فيمن نزلت
على قولين .

أحدهما : أنها نزلت في بني عبد الدار بن قصي ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .
والثاني : في المنافقين ، قاله ابن إسحاق ، والواقدي . والدواب : اسم كل
حيوان يدب ؛ وقد بينا في سورة (البقرة : ١٨) معنى الصم والبكم ، ولم
سمّاهم بذلك .

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا
وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو علم الله فيهم خيراً) فيه أربعة أقوال .
أحدها : ولو علم فيهم صدقاً وإسلاماً . والثاني : لو علم فيهم خيراً في سابق
القضاء . والثالث : لو علم أنهم يصلحون . والرابع : لو علم أنهم يصنعون .
وفي قوله : (لأسمعهم) ثلاثة أقوال .

أحدها : لأسمعهم جواب كل ما يسألون عنه ، قاله الزجاج . والثاني : لرزقهم الفهم ، قاله أبو سليمان الدمشقي . والثالث : لأسمعهم كلام الموتى يشهدون بنبوتك ، حكاه الماوردي . وفي قوله : (وهم معرضون) قولان .

أحدهما : مكذبون ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : وهم معرضون عما أسمعهم لمعاندتهم ، قاله الزجاج .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (استجيبوا) أي : أجبوا .

قوله تعالى : (إذا دعاكم) يعني الرسول (لما يحييكم) وفيه ستة أقوال .

أحدها : أن الذي يحييكم : كل ما يدعو الرسول إليه ، وهو معنى قول أبي صالح عن ابن عباس . وفي أفراد البخاري من حديث أبي سعيد بن الملق قال : كنت أصلي في المسجد ، فدعاني رسول الله ﷺ ، فلم أجبه ، ثم أتيتُه فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أصلي ، فقال « ألم يقل الله : استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ؟ » قلت : بلى ، ولا أعود إن شاء الله . (١)

والثاني : أنه الحق ، رواه شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والثالث : أنه الإيمان ، رواه ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه

قال السدي .

(١) البخاري : ١١٩/٨ ، ٢٣١ دون قوله « قلت : بلى ولا أعود إن شاء الله » وهذه الزيادة إما وردت عند أحمد في « المسند » : ٦٥/١٨ بتزييب الساعقي ، والترمذي : ١١١/٢ من حديث أبي هريرة عن أبي بن كعب رضي الله عنها .

والزابع : أنه اتّباع القرآن ، قاله قتادة ، وابن زيد .
والخامس : أنه الجهاد ، قاله ابن إسحاق . وقال ابن قتيبة : هو الجهاد الذي يحيي دينهم ويعليهم .
والسادس : أنه إحياء أمورهم ، قاله الفراء . فيخرج في إحيائهم خمسة أقوال .
أحدها : أنه إصلاح أمورهم في الدنيا والآخرة .
والثاني : بقاء الذكر الجليل لهم في الدنيا ، وحياة الأبد في الآخرة .
والثالث : أنه دوام نعيمهم في الآخرة .
والرابع : أنه كونهم مؤمنين ، لأن الكافر كالميت .
والخامس : أنه يحييهم بعد موتهم ، وهو على قول من قال : هو الجهاد ، لأن الشهداء أحياء ، ولأن الجهاد يُعزّزهم بعد ذلّتهم ، فكأنّهم صاروا به أحياء .
قوله تعالى : (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) وفيه عشرة أقوال .
أحدها : يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير .
والثاني : يحول بين المؤمن وبين معصيته ، وبين الكافر وبين طاعته ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك والفراء .
والثالث : يحول بين المرء وقلبه حتى لا يتركه يعقل ، قاله مجاهد . قال ابن الأنباري : المعنى : يحول بين المرء وعقله ، فبادروا الأعمال ، فانكم لا تأمنون زوال العقول ، فتحصلون على ما قدمتم .
والرابع : أن المعنى : هو قريب من المرء ، لا يخفى عليه شيء من سرّه ، كقوله : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) [ق : ١٦] وهذا معنى قول قتادة .

والخامس : يحول بين المرء وقلبه ، فلا يستطيع إعانته ولا كفره إلا بأذنه ،
قوله السدي .

والسادس : يحول بين المرء وبين هواه ، ذكره ابن قتيبة .

والسابع : يحول بين المرء وبين ما يمتنى بقلبه من طول العمر والنصر وغيره .

والثامن : يحول بين المرء وقلبه بالموت ، فبادروا الأعمال قبل وقوعه .

والتاسع : يحول بين المرء وقلبه بعمله ، فلا يضر العبد شيئاً في نفسه إلا
والله عالم به ، لا يقدر على تغييره عنه .

والعاشر : يحول بين ما يوقعه في قلبه من خوف أو أمن ، فيأمن بمد خوفه ،
ويخاف بمد أمنه ، ذكر المعنى هذه الأقوال ابن الأنباري .

وحكى الزجاج أنهم لما فكروا في كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فدخل الخوف
قلوبهم ، أعلمهم الله تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدله بالخوف الأمن ، ويبدل
عدوه بالقوة الضعف ؛ وقد أعلمت هذه الآية أن الله تعالى هو المقلب للقلوب ،
المتصرف فيها ^(١) .

قوله تعالى : (وأنه إليه تحشرون) أي : للجزاء على أعمالكم .

(١) روى مسلم في « صحيحه » ، ٢٠٤٥/٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه
أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن
كقلب واحد ، يصرفه حيث يشاء » ثم قال رسول الله ﷺ : « اللهم مصرف القلوب صرف
قلوبنا على طاعتك » .

وروى الترمذي ٣٦/٢ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ
يكثر أن يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » فقلت : يا نبي الله آمنا بك وما جئت به ،
فهل تخاف علينا ؟ قال : « نعم » ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقبلها كيف شاء .
قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

قوله تعالى : (واتقوا فتنة) اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في أصحاب النبي ﷺ خاصة ، قاله ابن عباس ، والضحاك .
وقال الزبير بن العوام : لقد قرأناها زماناً ، وما نرى أثراً من أهلها ، فاذا نحن
المعنيون بها .

والثاني : أنها نزلت في رجلين من قريش ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ،
ولم يسميها .

والثالث : أنها عامة ، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : في هذه الآية ، أمر
الله المؤمنين أن لا يُقرِّثوا المنكر بين أظهرهم ، فيعذبهم الله بالعذاب . وقال مجاهد :
هذه الآية لكم أيضاً .

والرابع : أنها نزلت في علي ، وعمار ، وطلحة ، والزبير ، قاله الحسن . وقال
السدي : نزلت في أهل بدر خاصة ، فأصابهم يوم الجمل .
وفي الفتنة هاهنا سبعة أقوال .

أحدها : القتال . والثاني : الضلالة . والثالث : السكوت عن إنكار المنكر .
والرابع : الاختبار . والخامس : الفتنة بالأموال والأولاد . والسادس : البلاء .
والسابع : ظهور البدع . فأما قوله : (لا نصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) فقال
الفراء : أمرهم ، ثم نهاهم ، وفيه طرف من الجزاء . وإن كان نهياً ، كقوله : (يا أيها
النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان) [النمل : ١٨] أمرهم ، ثم نهاهم ؛
وفيه تأويل الجزاء . وقال الأخفش : « لا نصيبن » ليس بجواب ، وإنما هو نهي

بعد نهي ؛ ولو كان جواباً ما دخلت النون . وذكر ابن الأثير في قولين .
 أحدهما : أن الكلام تأويله تأويل الخبر ، إذ كان المعنى : إن لا يتَّقوها ،
 نصيب الذين ظلموا ، أي : وغيرهم ، أي : لا تقع بالظالمين دون غيرهم ، لكنها تقع بال صالحين
 وال صالحين ؛ فلما ظهر الفعل ظهور النهي ، والنهي راجع إلى معنى الأمر ، إذ القائل
 يقول : لا تقم ، يريد : دع القيام ، ووقع مع هذا جواباً للأمر ، أو كالجواب
 له ، فأكد له شبه النهي ، فدخلت النون المعروف دخولها في النهي وما يضارعه .
 والثاني : أنها نهي محض ، معناه : لا يقصدن الظالمون هذه الفتنة ، فيهلكوا ؛
 فدخلت النون لتوكيد الاستقبال ، كقوله : « لا يحطمتكم » . وللمفسرين في معنى
 الكلام قولان .

أحدهما : لا تصيبن الفتنة الذين ظلموا .

والثاني : لا يصيبن عقاب الفتنة . فان قيل : فما ذنب من لم يظلم ؟ فالجواب :
 أنه عواقبته للأشرار ، أو بسكونه عن الإنكار ، أو بتركه للفرار ، استحق العقوبة ^(١) .
 وقد قرأ علي ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب « لتصيبن الذين ظلموا » بغير ألف .
 ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
 أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ
 مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(١) روى البخاري ٩٤/٥ - ٢١٦ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :
 « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ،
 وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقبالوا :
 لو آنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ،
 وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » .

قوله تعالى : (واذكروا إذ أنتم قليلٌ) قال ابن عباس : نزلت في المهاجرين خاصة ، كانت عدّتهم قليلةً ، وهم مقهورون في أرض مكة ، يخافون أن يستلبهم المشركون . وفي المراد بالناس ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أهل مكة ، قاله ابن عباس . والثاني : فارس والروم ، قاله وهب بن منبه . والثالث : أنهم المشركون الذين حضروا بدرًا ، والمسلمون قليلون يومئذ ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (فأواكم) فيه قولان .

أحدهما : فأواكم إلى المدينة بالهجرة ، قاله ابن عباس ، والأكثر .

والثاني : جعل لكم مأوى تسكنون فيه آمنين ، ذكره الماوردي .

وفي قوله : (وأيدكم بنصره) قولان .

أحدهما : قوّاكم بالملائكة يوم بدر ، قاله الجمهور . والثاني : عضدكم بنصره

في بدر وغيرها ، قاله أبو سليمان الدمشقي . وفي قوله : (ورزقكم من الطيبات) قولان .

أحدهما : أنها الغنائم التي أحلّها لهم ، قاله السدي .

والثاني : أنها الخيرات التي مكّنتهم منها ، ذكره الماوردي .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا

أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (لا تخونوا الله والرسول) اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر ؛ وذلك أن النبي ﷺ ، لما

حاصر قريظة سأله أن يصالحهم على ما صالح عليه بني النضير ، على أن يسيروا إلى

أرض الشام ، فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأبوا ،

وقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة ، وكان مناصحاً لهم ، لأن ولده وأهله كانوا عندهم ، فبعثه إليهم ، فقالوا : ماترى ، أنزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه : إنه الذبح فلا تفعلوا ، فاطاعوه ، فكانت تلك خيافته ؛ قال أبو لبابة : فما زالت قدماي حتى عرفتُ أني قد خنت الله ورسوله ، ونزلت هذه الآية ، هذا قول ابن عباس ، والأكثرين . وروي أن أبا لبابة ربط نفسه بعد نزول هذه الآية إلى سارية من سواري المسجد ، وقال : والله لأذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو ينوب الله عليّ ، فكت سبعة أيام كذلك ، ثم تاب الله عليه ، فقال : والله لأحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني ، فجاء فحطه بيده ، فقال أبو لبابة : إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالي ، فقال رسول الله ﷺ : « يحزئك الثلث » ^(١).

والثاني : أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال : إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : « اخرجوا إليه واكتبوا » ، فكتب إليه رجل من المنافقين : إن محمداً يريدكم ، فخذوا حذرکم ، فنزلت هذه الآية ، قاله جابر بن عبد الله ^(٢).

والثالث : أنها نزلت في قتل عثمان بن عفان ، قاله المغيرة بن شعبة .

والرابع : أن قوماً كانوا يسمعون الحديث من رسول الله ﷺ ، فيفشونه حتى يبلغ المشركين ، فنزلت هذه الآية ، قاله السدي ^(٣) . وفي خيانة الله قولان .

(١) خبر أبي لبابة أخرجه الواحدي في « أسباب النزول » : ١٣٤ وأخرج بعضه الطبري : ٤٨١/١٣ ، وابن هشام : ٣٣٦/٢ .

(٢) قال ابن كثير في « التفسير » بعد أن أورده عن ابن جرير : هذا حديث غريب جداً ، وفي سنده وسياقه نظر .

(٣) قال أبو جعفر الطبري ٤٨٣/١٣ وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله —

أحدهما : ترك فرائضه . والثاني : معصية رسوله . وفي خيانة الرسول قولان .
أحدهما : مخالفته في السر بعد طاعته في الظاهر . والثاني : ترك سنته .
وفي المراد بالأمانات ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الفرائض ، قاله ابن عباس . وفي خيانتها قولان . أحدهما :
تنقيصها . والثاني : تركها .

والثاني : أنها الدين ، قاله ابن زيد ؛ فيكون المعنى : لا تظهروا الإيمان
وُتَبْطِنُوا الكفر .

والثالث : أنها عامة في خيانة كل مُؤْتَمِنٍ ، ويؤكد نزولها في ماجرى
لأبي لبابة .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ
عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ
مُفْرَقَاتًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴾

قوله تعالى : (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) قال ابن عباس : هذا
خطاب لأبي لبابة ، لأنه كانت له أموال وأولاد عند بني قريظة . فأما الفتنة ، فالمراد
بها : الابتلاء والامتحان الذي يُظهر مافي النفس من اتباع الهوى أو تجشبه (وأن
الله عنده أجر عظيم) خير من الأموال والأولاد .

— نهى المؤمنين عن خيائته وخيانة رسوله وخيانه أمانته ، وجائز أن تكون نزلت في أبي لبابة ،
وجائز أن تكون نزلت في غيره ، ولا خبر عندنا بأي ذلك كان يجب التسليم له بصحته .
وقال ابن كثير ٣٠١/٢ : والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص ،
فالأخذ بمصوم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء .

قوله تعالى : (إِن تَتَّقُوا اللَّهَ) أي : بترك معصيته ، واجتناب الحياة لله ورسوله .

قوله تعالى : (يجعل لكم فرقاناً) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه المخرج ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن قتيبة ، والمعنى : يجعل لكم مخرجاً في الدين من الضلال .

والثاني : أنه النجاة ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والسدي .

والثالث : أنه النصر ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال الفراء .

والرابع أنه هدى في قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل ، قاله ابن زيد ، وابن إسحاق .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) هذه الآية متعلقة بقوله : (واذكروا إذ أنتم قليل) [الاعراف : ٨٦] فالمعنى : أذكروا المؤمنين ما آمن الله به عليهم ، واذكروا إذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا .

الإشارة إلى كيفية مكرم

قال أهل التفسير : لما بويع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، وأمر أصحابه أن يلحقوا بالمدينة ، أشفقت قريش أن يملوا أمره ، وقالوا : والله لكأنكم به قد كروا عليكم بالرجال ، فاجتمع جماعة من أشرافهم ليدخلوا دار الندوة فيتشاوروا في أمره ، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ كبير ، فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا شيخ من

أهل نجد ، سمعت ما اجتمعتم له ، فأردت أن أحضركم ، ولن تعدموا من رأيي نصحاء ، فقالوا : ادخل ، فدخل معهم ، فقالوا : انظروا في أمر هذا الرجل ، فقال بعضهم : اجسوه في وثاق ، وتربصوا به ريب المنون . فقال إبليس : ما هذا برأي ، يوشك أن يثب أصحابه فيأخذوه من أيديكم . فقال قائل : أخرجوه من بين أظهركم . فقال : ما هذا برأي ، يوشك أن يجمع عليكم ثم يسير إليكم . فقال أبو جهل : نأخذ من كل قبيلة غلاماً ، ثم نمطي كل غلام سيفاً فيضربوه به ضربة رجل واحد ، فيفرق دمه في القبائل ، فما أظن هذا الحي من قريش يقوى على ضرب قريش كلها ، فيقبلون المقل ونستريح . فقال إبليس : هذا والله الرأي . فنفروا عن ذلك . وأتى جبريل رسول الله ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه ، وأخبره بمكر القوم ، فلم يبت في مضجعه تلك الليلة ، وأمر علياً فبات في مكانه ، وبات المشركون يحرسونه ، فلما أصبح رسول الله ﷺ ، أذن له الله في الخروج إلى المدينة ، وجاء المشركون لما أصبحوا ، فرأوا علياً ، فقالوا : أين صاحبك ؟ قال : لا أدري ، فاقصصوا أثره حتى بلغوا الجبل ، فرأوا بالغار ، فرأوا نسج المنكبوت ، فقالوا : لو دخله لم يكن عليه نسج المنكبوت ^(١) . فأما قوله : (لينبتوك) فقال ابن قتبية : معناه : ليحبسوك . يقال : فلان مثبت وجماً : إذا لم يقدر على الحركة . والمفسرين فيه قولان .

(١) سيرة ابن هشام ٤٨٠/١ - ٤٨٣ قال فيه ابن إسحاق : فحدثني من لا آتهم من أصحابنا عن عبد الله بن أبي نعيم عن مجاهد وغيره ممن لا آتهم عن عبد الله بن عباس . ورواه أحمد في مسنده رقم (٣٢٥٩) مختصراً ، وفي سنده عثمان بن عمرو الجزري ، وثقه ابن حبان ، وضعفه غيره ، وذكره الهيثمي في الجمع ، ٢٧/٧ مختصراً أيضاً وقال : رواه أحمد ، والطبراني . وفيه عثمان بن عمرو الجزري ، وثقه ابن حبان ، وضعفه غيره ، وبقيه رجاله رجال الصحيح . وأورده السيوطي في « الدر » ١٧٩/٣ وزاد نسبه لبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن النذر ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « الدلائل » ، والخطيب ، وهو في « الطبري » ٤٩٤/١٣ و ٤٩٧ مختصراً .

أحدهما : ليثبتوك في الوثاق ، قاله ابن عباس ، والحسن في آخرين .
والثاني : ليثبتوك في الحبس ، قاله عطاء ، والسدي في آخرين . وكان
القوم أرادوا أن يحبسوه في بيت ويشدوا عليه بابه ويلقوا إليه الطعام والشراب ،
وقد سبق بيان المكر في (آل عمران : ٥٤) .

﴿ وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا
مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا تلى عليهم آياتنا) ذكر أهل التفسير أن هذه الآية نزلت
في النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة ، وأنه لما سمع رسول الله ﷺ يذكر
قصص القرون الماضية ، قال : لو شئت لقلت مثل هذا . وفي قوله : (قد
سمعنا قولان .

أحدهما : قد سمعنا منك ولا نطيعك .

والثاني : قد سمعنا قبل هذا مثله ، وكان النضر يختلف إلى فارس تاجراً ،
فيسمع المباد يقرءون الإنجيل . وقد بين التحدي كذب من قال : (لو نشاء لقلنا مثل
هذا) . وقد سبق معنى الأساطير في (الأنعام : ٢٥) .

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ
عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ارْمِثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) اختلفوا
فيمين نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في النضر أيضاً ، رواه جماعة عن ابن عباس ، وبه قال
سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعطاء ، والسدي .

والثاني : أنها نزلت في أبي جهل ، فهو القاتل لهذا ؛ قاله أنس بن مالك ، وهو مخرج في « الصحيحين » ^(١) .

والثالث : أنها نزلت في قريش ، قالوا هذا ، ثم ندموا فقالوا : غفرانك اللهم ، فأنزل الله (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ، رواه أبو معشر عن يزيد ابن رومان ، ومحمد بن قيس . وفي المشار إليه بقوله : (إن كان هذا) ثلاثة أقوال . أحدها : أنه القرآن . والثاني : كل ما يقوله رسول الله ﷺ من الأمر بالتوحيد وغيره . والثالث : أنه إكرام محمد ﷺ بالنبوة من بين قريش .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) في المشار إليه قولان . أحدهما : أهل مكة . وفي معنى الكلام قولان . أحدهما : وما كان الله ليعذبهم وأنت مقيم بين أظهرهم . قال ابن عباس : لم تعذب قرية حتى يخرج نبيها والمؤمنون معه . والثاني : وما كان الله ليعذبهم وأنت حي ؛ قاله أبو سليمان . والثاني : أن المشار إليهم المؤمنون ، والمعنى : وما كان الله ليعذب المؤمنين بضرب من العذاب الذي أهلك به من قبلهم وأنت حي ؛ ذكره أبو سليمان الدمشقي .

❦ فصل ❦

قال الحسن ، وعكرمة : هذه الآية منسوخة بقوله : (وما لهم ألا يعذبهم

(١) البخاري ٣٣٢/٨ ، ومسلم ٢١٥٤/٤ وأورده السيوطي في « الدر » ١٨٠/٣ وزاد نسبه لابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » ، عن أنس بن مالك .

الله ([الأنفال : ٣٤] ، وفيه بُعد ، لأن النسخ لا يدخل على الأخبار . وقال ابن أزي : كان النبي ﷺ بمكة ، فأنزل الله عز وجل (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) فخرج إلى المدينة ، فأنزل الله (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وكان أولئك البقية من المسلمين بمكة يستغفرون ، فلما خرجوا أنزل الله (وما لهم ألا يعذبهم الله) ^(١) . وجميع أقوال المفسرين تدل على أن قوله : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ، كلام مبتدأ من إخبار الله عز وجل . وقد روي عن محمد بن إسحاق أنه قال : هذه الآية من قول المشركين ، قالوا : والله إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله : (وما لهم ألا يعذبهم الله) . قوله تعالى : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وفي معنى هذا الكلام خمسة أقوال .

أحدها : وما كان الله معذب المشركين ، وفيهم من قد سبق له أن يؤمن ؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، واختاره الزجاج والثاني : وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون الله ، فانهم كانوا يلبثون ويقولون : غفرانك ؛ وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً ، وفيه ضعف ، لأن استغفار المشرك لا أثر له في القبول .

والثالث : وما كان الله معذبهم ، يعني المشركين ، وهم - يعني المؤمنين الذين بينهم - يستغفرون ؛ روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال الضحاك ، وأبو مالك . قال ابن الأباري : وُصفوا بصفة بعضهم ، لأن المؤمنين بين أظهرهم ، فأوقع

(١) د الطبري : ٥٠٩/١٣ ، ٥١٠ وأورده السيوطي في د الدر ، ١٨١/٣ وزاد نسبه

لابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ .

العموم على الخصوص ، كما يقال : قتل أهل المسجد رجلاً ، وأخذ أهل البصرة فلاناً ، وأعلمه لم يفعل ذلك إلا رجل واحد .

والرابع : وما كان الله معذبهم وفي أصلابهم مَنْ يستغفر الله ، قاله مجاهد . قال ابن الأنباري : فيكون معنى تعذيبهم : إهلاكهم ؛ فالمعنى : وما كان الله مهلكهم ، وقد سبق في علمه أنه يكون لهم أولاد يؤمنون به ويستغفرونه ؛ فوصفهم بصفة ذرايرهم ، وغُلِبُوا عليهم كما غُلِبَ بعضهم على كلهم في الجواب الذي قبله .

والخامس : أن المعنى : لو استغفروا لما عذبهم الله ، ولكنهم لم يستغفروا فاستحقوا العذاب ؛ وهذا كما تقول العرب : ما كنتُ لأهينك وأنت تكرمني ؛ يريدون : ما كنت لأهينك لو أكرمتني ؛ فأما إذ لست تكرمني ، فأنك مستحقٌ لإهانتِي ، وإلى هذا القول ذهب قتادة والسدي . قال ابن الأنباري : وهو اختيار اللغويين . وذكر المفسرون في معنى هذا الاستغفار ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الاستغفار المعروف ؛ وقد ذكرناه عن ابن عباس .

والثاني : أنه بمعنى الصلاة ؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، ومنصور عن مجاهد ، وبه قال الضحاك .

والثالث : أنه بمعنى الإسلام ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال عكرمة .

﴿ وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما لهم ألا يعذبهم الله) هذه الآية أجازت تعذيبهم ، والأولى

نفت ذلك . وهل المراد بهذا : العذاب الأول ، أم لا ؟ فيه قولان .
أحدهما : أنه هو الأول ، إلا أن الأول امتنع بشيئين . أحدهما : كون
النبي ﷺ فيهم . والثاني : كون المؤمنين المستغفرين بينهم ؛ فلما وقع التمييز
بالحجرة ، وقع العذاب بالباقيين يوم بدر ، وقيل : بل وقع بفتح مكة .
والثاني : أنها مختلفان ، وفي ذلك قولان . أحدهما : أن العذاب الثاني قتلُ
بعضهم يوم بدر ، والأول استئصال الكُفْلِ ؛ فلم يقع الأول لِمَا قد عُلِمَ من إيمان
بعضهم ، وإسلام بعض ذراريهم ، ووقع الثاني . والثاني : أن العذاب الأول عذاب
الدنيا . والثاني : عذاب الآخرة ؛ قاله ابن عباس ، فيكون المعنى : وما كان الله
معتدبَ المشركين لاستغفارهم في الدنيا ، وما لهم ألا يعذبهم الله في الآخرة .
قوله تعالى : (وهم يصدون) قال الزجاج : المعنى : وهم يصدون (عن المسجد
الحرام) أوليائه . وفي هاء الكناية في قوله : (وما كانوا أوليائه) قولان .
أحدهما : أنها ترجع إلى « المسجد » ، وهو قول الجمهور . قال الحسن : إن
المشركين قالوا : نحن أولياء المسجد الحرام ، فرد الله عليهم بهذا .
والثاني : أنها تعود إلى الله عز وجل ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .
قوله تعالى : (إن أوليائهُ) أي : ما أوليائهُ (إلا المتقون) للشرك
والمعاصي ، ولكن أكثر أهل مكة لا يعلمون من الأولى بيت الله .
﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾
قوله تعالى : (وما كان صلاتهم عند البيت) سبب نزولها أنهم كانوا يطوفون
بالبيت ويصفقون ويصفرون ويصغفرون ويضعون خدودهم بالأرض ، فنزلت هذه الآية ،
قاله ابن عمر . فأما المكاء ، ففيه قولان .

أحدهما : أنه الصَّفير ، قاله ابن عمر ، وابن عباس ، وابن جبير ، وقتادة ، وأبو عبيدة ، والزجاج ، وابن قتيبة . قال ابن فارس : يقال : مكا الطائر [يَمَكُو] مُكَاءً : إذا صَفَرَ ، ويقال : مَكَيْتُ يده [تَمَكَّى] مَكًى ، مقصور ، أي : غلُظت وخشُنت ، ويقال : تَمَكَّى : إذا تَوَضَّأ . وأنشدوا :

[إِنَّكَ وَالْجَوْرَ عَلَى سَبِيلِ] كَالْمُتَمَكِّي بِدَمِ الْقَتِيلِ ^(١)

وسئل أبو سلمة بن عبد الرحمن عن المكاء ، فجمع كَفَّيْهِ ، وجعل يَصْفِرُ فيها . والثاني : أنه إدخال أصابعهم في أفواههم يخلطون به وبالتصدية على محمد ﷺ صلاته ، قاله مجاهد . قال ابن الأنباري : أهل اللغة ينكرون أن يكون المكاء إدخال الأصابع في الأفواه ، وقالوا : لا يكون إلا الصفير . وفي التصدية قولان . أحدهما : أنها التصفيق ، قاله [ابن] عمر ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور . قال ابن قتيبة : يقال : صدَّى : إذا صفَّقَ يديه . قال الراجز :
صَنَّتْ بِخَدٍّ وَجَلَّتْ عَنْ خَدٍّ وَأَنَا مِنْ غَرَوِ الْهُوَى أَصْدِي ^(٢)
الغرو : العجب ، يقال : لاغرو من كذا ، أي : لاعجب .

والثاني : أن التصدية : صدُّهم الناس عن البيت الحرام ، قاله سعيد بن جبير . وقال ابن زيد : هو صدُّهم عن سبيل الله ودينه . وزعم مقاتل أن النبي ﷺ كان إذا صلى في المسجد الحرام ، قام رجلان من المشركين من بني عبد الدار عن

(١) البيت في « اللسان » مكا ، ونسبه إلى عنترة الطائي . وعنترة هذا : هو عنترة بن عكبرة الطائي ، وعكبرة أم أمه ، وبها يعرف ، وهو عنترة بن الأخرس بن ثعلبة بن صبيح ابن معبد بن عدي بن أفلت بن سلسلة بن عمرو بن مسيلة بن غنم بن ثوب بن معن بن عتود ، شاعر محسن وفارس . « المؤلفات » ٢٢٥ .

(٢) « غريب القرآن » لابن قتيبة ١٧٩ وانظر ديوان بشار ٢٢٢/٣ ٢٢٣ .

زاد المسير ٣ م (٢٣)

عِيْنُهُ فَيَصْفِرَانِ ، وَرَجُلَانِ عَنْ يَسَارِهِ فَيَصْفِقَانِ ، فَتَخْتَلِطُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ صَلَاتُهُ وَقِرَاتُهُ ، فَقَتَلَهُمُ اللَّهُ بِدَرٍّ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : (فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)
بتوحيد الله .

فَأَنْ قِيلَ : كَيْفَ سُمِّيَ الْمَكَاءُ وَالتَّصَدِيَةُ صَلَاةً ؟

فَمِنْهُ : جَوَابَانِ ذَكَرَهُمَا ابْنُ الْأَثَارِيِّ .

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ جَعَلُوا ذَلِكَ مَكَانَ الصَّلَاةِ ، وَمَشْهُورٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ : زَرْتُ عَبْدَ اللَّهِ ، فَيَجْعَلُ جَفَائِي صَلَاتِي ، أَيْ : أَقَامَ الْجَفَاءَ مَقَامَ الصَّلَاةِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

قُلْتُ لَهُ اطْعِمْنِي عَمِيمٌ تَمْرًا فَكَانَ تَمْرِي كَهَرَّةٍ وَزَبْرًا
أَيْ : أَقَامَ الصَّبَاحَ عَلَيَّ مَقَامَ التَّمْرِ .

وَالثَّانِي : أَنَّ مِنْ كَانَ الْمَكَاءُ وَالتَّصَدِيَةُ صَلَاتَهُ ، فَلَا صَلَاةَ لَهُ ، كَمَا يَقُولُ الْعَرَبُ : مَا لِفُلَانٍ عَيْبٌ إِلَّا السَّخَاءُ ، يَرِيدُونَ : مَنْ السَّخَاءُ عَيْبُهُ ، فَلَا عَيْبَ لَهُ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

فَتَى كَمَلْتَ خَيْرَاتُهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَلَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا ^(١)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) اجْتَلَفُوا
فِيمَنْ نَزَلَتْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ .

(١) البيت للنسابة الجمعي ، ديوانه ١٧٣ طبع المكتب الاسلامي ، و د الحامسة :

٩٦٩/٢ ، و د الخزانة : ١٢/٢ ، و د شرح شواهد المفتي : ٢٠٩ .

أحدها : أنها نزلت في المطمئنين بدر ، وكانوا اثني عشر رجلاً يطعمون الناس الطعام ، كل رجل يطعم يوماً ، وهم : عتبة ، وشيبة ، ومُثَنَّبَة ، وثُبَيْهَة ابنا الحجاج ، وأبو البَخْتَرِي (١) ، والنضر بن الحارث ، وأبو جهل ، وأخوه الحارث ، وحكيم بن حزام ، وأُبَيُّ بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، والحارث بن عامر ابن نوفل ، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في أبي سفيان بن حرب ، استأجر يوم أُحُد ألفين من الأحابيش لقتال رسول الله ﷺ سوى من استجاش من العرب ، قاله سعيد ابن جبير (٢) . وقال مجاهد : نزلت في نفقة أبي سفيان على الكفار يوم أُحُد .
والثالث : أنها نزلت في أهل بدر ، وبه قال الضحاك . فأما سبيل الله ، فهو دين الله .

قوله تعالى : (ثم تكون عليهم حسرة) أي : تكون عاقبة نفقتهم ندامة ، لأنهم لم يظفروا .

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ الْمُتَحَسِّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ليميز الله الخبيث من الطيب) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر « ليميز » خفيفة . وقرأ حمزة ، والكسائي « ليميز » بالتشديد وهما لفتان : ميزته وميزته . وفي لام « ليميز » قولان .

(١) هو سعيد بن فيروز الطائي .

(٢) « الطبري » : ١٣ / ٥٣٠ .

أحدها : أنها متعلقة بقوله : « فَيُنفِقُونَهَا » قاله ابن الأنباري .

والثاني : أنها متعلقة بقوله : « إِلَى جَهَنَّمَ يَحْشَرُونَ » ، قاله ابن جرير الطبري .

وفي معنى الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : لِيُمَيِّزَ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ ، رواه ابن أبي طلحة عن

ابن عباس . وقال السدي ، ومقاتل : يُمَيِّزُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ .

والثاني : لِيُمَيِّزَ الْعَمَلَ الطَّيِّبَ مِنَ الْعَمَلِ الْخَبِيثِ ، قاله أبو صالح عن

ابن عباس .

والثالث : لِيُمَيِّزَ الْإِنْفَاقَ الطَّيِّبَ فِي سَبِيلِهِ ، مِنَ الْإِنْفَاقِ الْخَبِيثِ فِي سَبِيلِ

الشَّيْطَانِ ، قاله ابن زيد ، والزجاج .

قوله تعالى : (وَيَجْمَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ) أي : يَجْمَعُ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ،

وهو قوله : (فَيَرْكُمُهُ) . قال الزجاج : الرَّم : أَنْ يُجْعَلَ بَعْضُ الشَّيْءِ عَلَى بَعْضٍ ،

يُقَالُ : رَكَمْتُ الشَّيْءَ أَرْكُمُهُ رَكْمًا ؛ وَالرَّكَمُ : الْإِسْمُ ؛ فَمَنْ قَالَ : الْمَرَادُ بِالْخَبِيثِ :

الْكَفَّارِ ، فَانْهَمَ فِي النَّارِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ؛ وَمَنْ قَالَ : أَمْوَالُهُمْ ، فَلَهُ فِي ذَلِكَ قَوْلَانِ .

أحدهما : أَنَّهَا أَتَتْ فِي النَّارِ لِيُعَذَّبَ بِهَا أَرْبَابُهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (فَتَكْوَى

بِهَا جِبَاهُهُمْ) [التوبة : ٣٥] .

والثاني : أَنَّهُمْ لَمَّا عَظَّمُوا فِي الدُّنْيَا ، أَرَامَ هَوَانُهَا بِأَلْقَائِهَا فِي النَّارِ كَمَا تُلْقَى

الْشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فِي النَّارِ ، لِيَرَى مَنْ عِبْدَهَا ذُلَّهَا .

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ

وَإِنْ يَمْوَدُّوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾

قوله تعالى : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) نزلت في أبي سفيان وأصحابه ، قاله أبو صالح

عن ابن عباس . وفي معنى الآية قولان .

أحدهما : إن ينتهوا عن المحاربة ، يُغْفَرَ لَهُمْ ما قد سلف من حربهم ، فلا يُؤَاخِذُون به ؛ وإن يعودوا إلى المحاربة ، فقد مضت سنة الأولين في نصر الله أوليائه ؛ وقيل : في قتل من قُتِل يوم بدر وأسر .

والثاني : إن ينتهوا عن الكفر ، يُغْفَرَ لَهُمْ ما قد سلف من الإثم ؛ وإن يعودوا إليه ، فقد مضت سُنَّةُ الأولين من الأمم السالفة حين أخذوا بالعذاب المستأصل . قال يحيى بن معاذ في هذه الآية : إنَّ توحيداً لم يمجِزْ عن هدم ما قبله من كفر ، لا يمجِزْ عن هدم ما بعده من ذنب ^(١) .

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) أي : شرك . وقال الزجاج : حتى لا يفتن الناس فتنة كفر ؛ وبدل عليه قوله : (ويكون الدين كله لله) .

قوله تعالى : (فإن انتهوا) أي : عن الكفر والقتال ، (فإن الله بما يعملون بصير) وقرأ يعقوب إلا روحاً « بما تعملون » بالياء .

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

قوله تعالى : (وإن تولَّوْا) أي : أعرضوا عن الإيمان وعادوا إلى القتال

(١) روى مسلم في « صحيحه » ١١١/١ عن عبيد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟ قال : « من أحسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الاسلام أخذ بالأول والآخر » .

وروى مسلم أيضاً في « صحيحه » ١١٢/١ من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أما علمت أن الاسلام يهيم ما كان قبله » .

(فاعلموا أن الله مولاكم) أي : وليكم وناصركم . قال ابن قتيبة : (نعم المولى) أي : نعم الولي (ونعم النصير) أي : الناصر ، مثل قدير وقادر ، وسميع وسامع .
 ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَقَّىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شيء) اختلفوا ، هل الغنيمة والتي بمعنى واحد ، أم يختلفان ؟ على قولين .

أحدهما : أنهما يختلفان . ثم في ذلك قولان . أحدهما : أن الغنيمة : ما طهر عليه من أموال المشركين ، والفيء : ما طهر عليه من الأرضين ، قاله عطاء بن السائب . والثاني : أن الغنيمة : ما أخذ عنوة ، والفيء : ما أخذ عن صلح ، قاله سفيان الثوري . وقيل : بل الفيء : ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، كالعشور ، والجزية ، وأموال المهادنة ، والصلح ، وما هربوا عنه .

والثاني : أنهما واحد ، وهما : كل ما نيل من المشركين ، ذكره الماوردي . وقال الزجاج : الأموال ثلاثة أصناف ؛ فصار إلى المسلمين من المشركين في حال الحرب ، فقد سماه الله تعالى : أنفالاً وغنائم ؛ وما صار من المشركين من خراج أو جزية مما لم يؤخذ في الحرب ، فقد سماه : فيئاً ؛ وما خرج من أموال المسلمين ، كالزكاة ، والنذر ، والقرب ، سماه : صدقة . وأما قوله : (من شيء) فالمراد به : كل ما وقع عليه اسم شيء . قال مجاهد : المَخِيطُ من الشيء .

قوله تعالى : (فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ) وروى عبد الوارث : « خُمُسُهُ » بنكون

الميم . وفي المراد بالكلام قولان .

أحدهما : أن نصيب الله مستحقٌ يُصرف إلى بيته . قال أبو العالية : كان يجاء بالغنيمة فيقسمها رسول الله ﷺ على خمسة أسهم ، فيقسم أربعة بين الناس ، ثم يجعل من السهم الخامس للكعبة ؛ وهذا مما انفرد به أبو العالية فيما يقال .
والثاني : أن ذكر الله هاهنا لأحد وجهين . أحدهما : لأنه المتحكيم فيه ، والمالك له ، والمعنى : فإن الرسول خمسة ولذي القربى ، كقوله : (بسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) [الأنفال : ١] . والثاني : أن يكون المعنى : إن الخمس مصروف في وجوه القربى إلى الله تعالى ، وهذا قول الجمهور . فعلى هذا ، تكون الواو زائدة ، كقوله : (فلما أسلما وتلّاه للجبين وناديناه) [الصافات : ١٠٣] المعنى : ناديناه ؛ ومثله كثير .

❦ فصل ❦

أجمع العلماء على أن أربعة أخماس الغنيمة لأهل الحرب خاصة ؛ فأما الخمس الخامس ، فكيف يقسم ؟ فيه ثلاثة أقوال .
أحدها : يقسم منه لله وللرسول ولمن ذكر في الآية . وقد ذكرنا أن هذا مما انفرد به أبو العالية ، وهو يقتضي أن يقسم على ستة أسهم .
والثاني : أنه مقسوم على خمسة أسهم : سهم للرسول ، وسهم لذوي القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لأبناء السبيل ، على ظاهر الآية ، وبه قال الجمهور .
والثالث : أنه يقسم على أربعة أسهم . فسهم الله عز وجل وسهم رسوله عائد على ذوي القربى ، لأن رسول الله ﷺ لم يكن يأخذ منه شيئاً ، وهذا المعنى رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

❦ فصل ❦

فأما سهم الرسول ﷺ ، فإنه كان يصنع فيه ما يئسنا . وهل سقط بموته ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدهما : لم يسقط بموته ، وبه قال أحمد ، والشافعي في آخرين . وفيما يُصنع به قولان . أحدهما : أنه للخليفة بعده ، قاله قتادة . والثاني : أنه يُصنّف في المصالح ، وبه قال أحمد ، والشافعي .

والثاني : أنه يسقط بموته كما يسقط الصبي ، فيرجع إلى جملة الغنيمة ، وبه قال أبو حنيفة . وأما ذوو القربى ، ففيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم جميع قريش . قال ابن عباس : كنا نقول : نحن هم ؛ فأبى علينا قومنا ، وقالوا : قريش كلها ذوو قري .

والثاني : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبه قال أحمد ، والشافعي .

والثالث : أنهم بنو هاشم فقط ، قاله أبو حنيفة . وبماذا يستحقون ؟ فيه قولان :

أحدهما : بالقرابة ، وإن كانوا أغنياء ، وبه قال أحمد ، والشافعي .

والثاني : بالفقر ، لا بالاسم ، وبه قال أبو حنيفة . وقد سبق في (البقرة : ١٧٧)

معنى اليتامى والمساكين وابن السبيل . وينبغي أن تُعتبر في اليتيم أربعة أوصاف : موت الأب ، وإن كانت الأم باقية . والصِّغَر ، لقوله عليه السلام : « لا يَتِمُّ بعد حُلُم »^(١) . والإسلام ، لأنه مال للمسلمين . والحاجة ، لأنه مُعَدٌّ للمصالح .

(١) رواه أبو داود ١٥٦/٣ من حديث علي بن أبي طالب بلفظ : « لا يتم بعد احتلام ،

ولا صمات يوم إلى الليل » قال المنذري : في إسناده يحيى بن محمد المدني الجاري ، قال البخاري : يتكلمون فيه . وقال ابن حبان : يجب التنكب عما انفرد به من الروايات .

قوله تعالى : (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) هو يوم بدر ، مُفرق فيه بين الحق والباطل بنصر المؤمنين . والذي أنزل عليه يومئذ قوله : (يسألونك عن الأنفال) [الأنفال : ١] نزلت حين اختلفوا فيها ، فالمعنى : إن كنتم آمنتم بذلك ، فاصدروا عن أمر الرسول في هذا أيضاً .

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدُوءِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْمُدُوءِ الْقُصُوءِ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيْعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إذ أنتم بالمدوة الدنيا) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « بالمدوة » و « المدوة » العين فيها مكسورة . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي : بضم العين فيها . قال الأخفش : لم يُسمع من العرب إلا الكسر . وقال ثعلب : بل الضم أكثر اللغتين . قال ابن السكيت : عُدوة الوادي وعِدوته : جانبه ؛ والجمع : عُدَى وعِدَى . والدنيا : تأنيث الأذنى ؛ وضدها : القصوى ، وهي تأنيث الأقصى ؛ وما كان من النعوت على « فُعلَى » من ذوات الواو ، فإن العرب تحوّلته إلى الياء ، نحو : الدنيا ، من : دنوت ؛ والعليا ، من : علوت ؛ لأنهم يستقلون الواو مع ضم الأول ، وليس في هذا اختلاف ، إلا أن

— وقد حسنه النووي في « الأذكار » ، ود الرياض ، وقال المناوي : وفي رواية للبخاري « بدحلم » كما هي رواية المصنف هنا . وفي « المقاصد الحسنة » للسخاوي : رواه أبو داود عن علي في حديث ، وقد أعله غير واحد ، وحسنه النووي متمسكاً بسكوت أبي داود عليه ، لاسيما وهو عند الطبراني في « الصغير » ، من وجه آخر عن علي ، بل له شواهد عن جابر ، وأنس وغيرهما .

أهل الحجاز قالوا : القُصوى ، فأظهروا الواو ، وهو نادر ؛ وغيرهم يقول : القصيا . قال المفسرون : إذ أنتم بشفير الوادي الأدنى من المدينة ، وعدوكم بشفيره الأقصى من مكة ، وكان الجمعان قد نزلا وادي بدر على هذه الصفة ، والركب : أبو سفيان وأصحابه . قال الزجاج : من نصب « أسفل » أراد : والركب مكاناً أسفل منكم ، ويجوز الرفع على معنى : والركب أشد تسفلًا منكم . قال قتادة : وكان المسلمون أعلى الوادي ، والمشركون أسفله .

وفي قوله : (ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد) قولان .

أحدهما : لو تواعدتم ، ثم بلغكم كثرتهم ، لتأخرتم عن الميعاد ، قاله ابن إسحاق . والثاني : لو تواعدتم على الاجتماع في المكان الذي اجتمعتم فيه من عدوتي وادي بدر لاختلقتم في الميعاد ، قاله أبو سليمان . وقال الماوردي : كانت تقع الزيادة والتقصان ، أو التقدم والتأخر من غير قصد لذلك .

قوله تعالى : (ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً) وهو إعزاز الإسلام ، وإذلال الشرك .

قوله تعالى : (ليهلك من هلك عن بينة) . وروى خلف عن يحيى : « ليهلك » بضم الياء وفتح اللام .

قوله تعالى : (ويحيى من حي) قرأ أبو عمرو ، وابن عامر ، وحزرة ، والكسائي : « من حي » ياء واحدة مشددة ، وهذه رواية حفص عن عاصم ، وقنبل عن ابن كثير . وروى شبل عن ابن كثير ، وأبو بكر عن عاصم : « حي » يامين ، الأولى مكسورة ، والثانية مفتوحة ، وهي قراءة نافع . فن قرأ يامين ، يئن ولم يدغم . ومن أدغم ياء « حي » فلاجتماع حرفين من جنس واحد . وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : لِيُقْتَلَ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَنْ حُجَّةٍ ، وَبَقِيَ مِنْ بَقِيَ مِنْهُمْ عَنْ حُجَّةٍ .

والثاني : ليكفر من كفر بعد حُجَّةٍ ، ويؤمن من آمن عن حُجَّةٍ .
 ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

قوله تعالى : (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا) فيه قولان .

أحدهما : أن نبي الله ﷺ رأى عسكر المشركين في المنام قبل لقاءهم في قلعة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . قال مجاهد : لما أخبر أصحابه بأنه رآهم في المنام قليلاً ، كان ذلك تثبيتاً لهم . قال أبو سليمان الدمشقي : والكلام متعلق بما قبله ، فالمعنى : وإن الله لسميع لما يقوله أصحابك ، عليم بما يضررونه ، إذ حدثتهم بما رأيت في منامك .

والثاني : إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ بَيْنَكَ الَّتِي تَنَامُ بِهَا ، قاله الحسن ^(١) . قال الزجاج : وكثير من النحويين يذهبون إلى هذا المذهب . ومعناه عندهم : إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَوْضِعٍ مَنَامِكَ ، أي : بَيْنَكَ ؛ ثم حذف الموضع ، وأقام المنام مقامه .
 قوله تعالى : (لَفَشِلْتُمْ) أي : لَجِئْتُمْ وتأخرتم عن حربهم . وقال مجاهد : لفشل أصحابك ، ولرأوا ذلك في وجهك .

قوله تعالى : (وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ) أي : لاختلقتم في حربهم ، فكان ذلك من دواعي هزيمتكم ، (وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ) من المخالفة والفشل .

(١) قال ابن كثير : ٣١٥/٢ : وهذا القول غريب .

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي آعِينِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَاتِلُكُمُ فِي آعِينِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾
 قوله تعالى : (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي آعِينِكُمْ قَلِيلًا) قال مقاتل : صدق الله رؤيا رسوله التي أخبر بها المؤمنين عن قلة عدوم قبل لقاءهم ، بأن قتلهم وقت اللقاء في آعينهم . وقال ابن مسعود : لقد قلشوا في آعيننا ، حتى قلت لرجل إلى جانبي : أترام سبعين ؟ قال : أرام مائة ؛ حتى أخذنا رجلاً منهم ، فسلأناه ، فقال : كنّا ألفاً . قال أبو صالح عن ابن عباس : استقلّ المسلمون المشركين ، والمشركون المسلمين ، فاجترأ بعضهم على بعض .

فان قيل : ما فائدة تكرير الرؤية هاهنا ، وقد ذكرت في قوله : (إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ) ؟ فنه جوابان .

أحدهما : أن الأولى كانت في المنام ، والثانية في اليقظة .

والثاني : أن الأولى للنبي ﷺ خاصة ، والثانية له ولأصحابه . فان قيل : تكثير المؤمنين في آعين الكافرين أولى ، لمكان إعزازهم . فنه ثلاثة أجوبة . أحدها : أنهم لو كثروا في آعينهم ، لم يقدموا عليهم ، فلم يكن قتال ؛ والقتال سبب النصر ، فقللهم لذلك .

والثاني : أنه قللهم لئلا يتأهّب المشركون كل التأهّب ؛ فاذا تحقق القتال ، وجدهم المسلمون غير مستعدين ، فظفروا بهم .

والثالث : أنه قللهم ليحمل الأعداء عليهم في كثرتهم ، فيغلبهم المسلمون ، فيكون ذلك آية للمشركين ومنبهاً على نصرة الحق .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ

كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا
فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٧﴾
قوله تعالى : (إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا) الفئـة : الجماعة . (واذكروا الله كثيراً)
فيه قولان .

أحدهما : أنه الدعاء والنصر . والثاني : ذكر الله على الإطلاق .
قوله تعالى : (ولا تنازعوا فتفشلوا) قد سبق ذكر التنازع والفشل آنفاً .
قوله تعالى : (وتذهب ريحكم) وروى أبان : « ويذهب » بالياء والجرم .
وفيه أربعة أقوال .

أحدها : تذهب شدتكم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وقال السدي :
حِدَّتْكُمْ وَجَدَّتْكُمْ . وقال الزجاج : صولتكم وقونكم .
والثاني : يذهب نصركم ، قاله مجاهد ، و قتادة .

والثالث : تنقطع دولتكم ، قاله أبو عبيدة . وقال ابن قتيبة : يقال : هبَّتْ
له ريح النصر : إذا كانت له الدولة . ويقال : له الريح اليوم ، أي : الدولة .
والرابع : أنها ريح حقيقة ، ولم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله فتضرب
وجوه العدو ؛ ومنه قوله عليه السلام : « نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وَأُهْلِكْتُ عَادٌ
بِالدَّبُورِ » ^(١) ، وهذا قول ابن زيد ، ومقاتل .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِطَرَأٍ وَرِثَاءِ
النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

(١) أحمد في « المسند » رقم (٢٩٨٤) ، والبخاري ٤٣٢/٢ ، ومسلم ٦١٧/٢ كلهم من

رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

قوله تعالى : (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً) قال المفسرون : هم أبو جهل ومن خرج معه من مكة ، خرجوا ليدفعوا عن غيرهم التي كانت مع أبي سفيان ، ومعهم القيان والمعازف ، وهم يشربون الخمر . فلما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز مامعه ، كتب إليهم : إني قد أحرزت أموالكم فارجموا . فقال أبو جهل : والله لا نفعل حتى نرد بدرأ فقيم ثلاثاً ، ونحرق الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، ونسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابونا . فساروا إلى بدر ، فكانت الوقعة ؛ فسقوا كثر وسر المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان . فأما البطر ، فهو الظنيان في النعم ، وترك شكرها . والرياء : العمل من أجل رغبة الناس . وسبيل الله هاهنا : دينه .

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَ آتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بِبَرِّي مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) قال عروة بن الزبير : لما أجمعت قريش السير إلى بدر ، ذكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب ، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك المدلجي ، وكان من أشراف بني كنانة ، فقال لهم : (لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإني جارٌ لكم) من أن تأتكم كنانة بشيء نكرهونه ، فخرجوا سراعاً . وفي المراد بأعمالهم هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : شركهم . والثاني : مسيرهم إلى بدر . والثالث : قتالهم لرسول الله ﷺ .

قوله تعالى : (فلما ترامت الفتان) أي : صارتا بحيث رأت إحداها الأخرى .

وفي المراد بالفتنين قولان .

أحدهما : فئة المسلمين ، وفئة المشركين ، وهو قول الجمهور .

والثاني : فئة المسلمين ، وفئة الملائكة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (نكص على عقبيه) قال أبو عبيدة : رجع من حيث جاء . وقال ابن قتيبة : رجع القهقري . قال ابن السائب : كان إبليس في صف المشركين على صورة سرافة ، أخذاً بيد الحارث بن هشام ؛ فرأى الملائكة فنكص على عقبيه ، فقال له الحارث : أفراراً من غير قتال ؟ فقال : (إني أرى ما لا ترون) ؛ فلما هُزم المشركون ، قالوا : هَزَمَ الناسَ سرافةً ، فبلغه ذلك ، فقال : والله ماشرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم . قال قتادة : صدق عدو الله في قوله : (إني أرى ما لا ترون) ، ذكر لنا أنه رأى جبريل ومعه الملائكة ، فلم أنه لا يدلّه بالملائكة ، وكذب عدو الله في قوله : (إني أخاف الله) ، والله ما به مخافة الله ، ولكن علم أنه لا قوة له بهم . وقال عطاء : معناه : إني أخاف الله أن يهلكني . وقال ابن الأنباري : لما رأى نزول الملائكة ، خاف أن تكون القيامة ، فيكون انتهاء إنظاره ، فيقع به العذاب . ومعنى « نكص » رجع هارباً بخزي وذل . واختلفوا في قوله : (والله شديد العقاب) هل هو ابتداء كلام ، أو تمام الحكاية عن إبليس ، على قولين .

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إذ يقول المنافقون) قال ابن عباس : هم قوم من أهل المدينة من الأوس والخزرج . فأما الذين في قلوبهم مرض ، ففريق ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام بمكة ، فأخرجهم المشركون

معهم يوم بدر كرهاً ؛ فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين ، ارتابوا ونافقوا ، وقالوا : (غرَّ هؤلاء دينهم) ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وإليه ذهب الشعبي في آخرين . وعدَّهم مقاتل ، فقال : كانوا سبعة : قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمعة ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاص بن منية بن الحجاج ، والوليد بن الوليد بن المغيرة ، والوليد بن عتبة ابن ربيعة .

والثاني : أنهم المشركون ، لما رأوا قلة المسلمين ، قالوا : « غرَّ هؤلاء دينهم » رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن .

والثالث : أنهم قوم مرتابون ، لم يُظهروا عداوة النبي ﷺ ، ذكره الماوردي . والمرض هاهنا : الشك ، والإشارة بقوله : « هؤلاء » إلى المسلمين ؛ وإنما قالوا هذا ، لأنهم رأوا قلة المسلمين ، فلم يشكوا في أن قريشاً تغلبهم .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾

قوله تعالى : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) قرأ الجمهور « يتوفى » بالياء . وقرأ ابن عامر « تتوفى » بتاءين . قال المفسرون : نزلت في الرهط الذين قالوا : « غرَّ هؤلاء دينهم » . وفي المراد بالملائكة ثلاثة أقوال . أحدها : ملك الموت وحده ، قاله مقاتل . والثاني : ملائكة العذاب ، قاله أبو سليمان الدمشقي . والثالث : الملائكة الذين قاتلوا يوم بدر ، ذكره الماوردي . وفي قوله : (يضربون وجوههم وأدبارهم) أربعة أقوال .

أحدها : يضربون وجوههم بيدرك لما قاتلوا ، وأدبارهم لما انهزموا .

والثاني : أنهم جاؤوهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، فالذين أمامهم ضربوا وجوههم ، والذين وراءهم ضربوا أدبارهم .

والثالث : يضربون وجوههم يوم القيامة إذا لقوهم ، وأدبارهم إذا ساقوهم إلى النار .

والرابع : أنهم يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت بسياط من نار . وهل المراد نفس الوجوه والأدبار ، أم المراد ما أقبل من أبدانهم وأدبره ؛ فيه قولان . وفي قوله : (وذوقوا عذاب الحريق) قولان .

أحدهما : أنه في الدنيا ؛ وفيه إضمار « يقولون » ، فالمعنى : يضربون ويقولون ، كقوله : (وإذا رفع إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ ربُّنا) [البقرة : ١٢٧] أي : ويقولان . قال النابتة :

كَأَنَّكَ مِنْ جِمالِ بَنِي أَقِيشَ يُقَعِّقُ خَلْفَ رَجُلَيْهِ بِشَنْ^(١)

والمعنى : كأنك جمل من جمال لبني أقيش ، هذا قول الفراء وأبي عبيدة .

والثاني : أن الضرب لهم في الدنيا ، فإذا وردوا يوم القيامة إلى النار ، قال خزنتها : ذوقوا عذاب الحريق ، هذا قول مقاتل .

(١) « مجاز القرآن » : ٤٧/١ ، و « الكتاب » : ٣٢٧/١ ، و « الكامل » : ٣٣٩ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ٢٠٠/١ ، و « اللسان » ، و « التاج » : قمع ، و « الخزانة » : ٣١٢/٢ . وقمع الشيء : صوت ، ويقولون : فلان يقمع له بالشنان ، وهو مثل يضرب لمن يروعه ملاحقة له ، وبنو أقيش : فخذ من أشجع ، ويقال : هم من عكل ، وإبلهم عبر عتاق ، يضرب بنفارها اللث ، فعجل عبيدة بن حصن المهجو كالجلل النافر لجنته وخفته عند الفزع ، والشن : الجلد البالي .

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾
 قوله تعالى : (ذلك بما قدّمت أيديكم) أي : بما كسبتم من قبائح أعمالكم .
 (وأنّ الله ليس بظلام للعبيد) ^(١) لا يظلم عباده بعقوبتهم على الكفر ، وإن
 كان كفرهم بقضائه ، لأنّه مالك ، فله التصرف في ملكه كما يشاء ، فيستحيل
 نسبة الظلم إليه .

﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ
 اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾
 قوله تعالى : (كذاب آل فرعون) أي : كعادتهم . والمعنى : كذب
 هؤلاء كما كذب أولئك ، فنزل بهم العذاب كما نزل بأولئك . قال ابن عباس :
 أيقن آل فرعون أن موسى نبي الله فكذبوه ، فكذلك هؤلاء في حق محمد ﷺ .
 ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ
 يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ذلك بأنّ الله) أي : ذلك الأخذ والعقاب بأنّ الله (لم يك
 مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا) بالكفران وترك الشكر . قال مقاتل :
 والمراد بالقوم هاهنا أهل مكة ، أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، ثم بعث
 فيهم محمداً ﷺ ، فلم يعرفوا المنعم عليهم ، فغيّر الله ما بهم . وقال السدي :
 كذبوا بمحمد ، فقله الله إلى الأنصار . قال أبو سليمان الخطابي : والتقوي يكون
 بمعنى القادر ، فمن قوي على شيء فقد قدر عليه ، وقد يكون معناه : التأمّ القوّة

(١) روى مسلم في صحيحه ، ٤/ ١٩٩٤ عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ

فما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنّه قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم
 محرماً فلا تظالموا . . . » الحديث .

الذي لا يستولي عليه العجز في حال ، والمخلوق ، وإن وُصف بالقُوَّة ، فقُوَّته متناهية ، وعن بعض الأمور قاصرة .

﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (كذاب آل فرعون والذين من قبلهم) أي : كذب أهل مكة بمحمد والقرآن ، كما كذب آل فرعون بموسى والتوراة ، وكذب من قبلهم بأنبيائهم . قال مكِّي بن أبي طالب : الكاف من « كذاب » في موضع نصب ، نمت لمحذوف تقديره : غيرنا بهم لما غيروا تغييراً مثل عادتنا في آل فرعون ، ومثلها الآية الأولى ، إلا أن الأولى للعادة في العذاب ؛ تقديره : فعلنا بهم ذلك فعلاً مثل عادتنا في آل فرعون .

قوله تعالى : (فأهلكناهم) يعني الأمم المنقذمة ، بعضهم بالرجفة ، وبعضهم بالريح ، فكذلك أهلكنا كفار مكة بيد . وقال بعضهم : يعني بقوله : « فأهلكناهم » الذين أهلكوا بيد .

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا) قال أبو صالح عن ابن عباس : نزلت في بني قريظة من اليهود ، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه .

﴿ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (الذين عاهدت منهم) في « من » أربعة أقوال .
أحدها : أنها صلة ؛ والمعنى : الذين عاهدتهم .

الثاني : أنها للتبويض ؛ فالمعنى : إن شر الدواب الكفار . وشرهم الذين عاهدت وتقضوا .

والثالث : أنها بمعنى « مع » ؛ والمعنى : عاهدت معهم .

والرابع : أنها دخلت ، لأن العهد أخذ منهم .

قوله تعالى : (ثم يقضون عهدهم في كل مرة) أي : كلما عاهدتهم تقضوا . وفي قوله : (وهم لا يتقون) قولان .

أحدهما : لا يتقون تقض العهد . والثاني : لا يتقون الله في تقض العهد .

قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ قد عاهد يهود قريظة أن لا يحاربوه ولا يماونوا عليه ، فنقضوا العهد وأعانوا عليه مشركي مكة بالسلاح ، ثم قالوا : نسينا وأخطأنا ؛ ثم عاهدوه الثانية ، فنقضوا ومالؤوا الكفار يوم الخندق ، وكتب كعب ابن الأشرف إلى مكة يوافقهم على مخالفة رسول الله ﷺ .

﴿ فَأَمَّا تَتَّقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَذْكُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (فاما تتقفنهم) قال أبو عبيدة : مجازه : فان تتقفنهم . فعلى

قوله ، تكون « ما » زائدة . وقد سبق بيان « فاما » في (البقرة : ٣٨) . قال

ابن قتيبة : فعنى « تتقفنهم » تظفر بهم . (فشرّد بهم من خلفهم) أي : افعل

بهم فعلاً من العقوبة والتنكيل يتفرّق به من وراءهم من أعدائك . قال : ويقال :

شرّد بهم ، أي : سمع بهم ، بلفظة قریش . قال الشاعر :

أطوف في الأباطح كل يوم مخافة أن يشرّد بي حكيم^(١)

(١) البيت غير منسوب في « اللسان » : شرّد . وأطوف : أطوف ، وحكيم : رجل

من بني سليم كانت قریش ولته الأخذ على أيدي السفهاء .

وقال ابن عباس : نَكَلَ بِهِمْ تَنكِيلًا بِشَرِّ غَيْرِهِمْ مِنْ نَاقِضِي الْمَهْدِ ، لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ النِّكَالَ فَلَا يَنْقُضُونَ الْمَهْدَ .

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً) قال المفسرون : الخوف هاهنا بمعنى العلم ، والمعنى : إن علمت من قوم قد عاهدتهم خيانة ، وهي نقض عهد . وقال مجاهد : نزلت في بني قريظة .

وفي قوله : (فانبذ إليهم على سواء) أربعة أقوال .

أحدها : فألق إليهم نقضك العهد لتكون وإياهم في العلم بالنقض سواء ، هذا قول الأكثرين ، واختاره الفراء ، وابن قتيبة ، وأبو عبيدة .

والثاني : فانبذ إليهم جهراً غير سرى ، ذكره الفراء أيضاً في آخرين .

والثالث : فانبذ إليهم على مهل ، قاله الوليد بن مسلم .

والرابع : فانبذ إليهم على عدل من غير حيف ، وأنشدوا :

فَاضْرِبْ وَجُوهَ الْقُدْرِ الْأَعْدَاءِ حَتَّى يُجِيبُوكَ إِلَى السَّوَاءِ ^(١)

ذكره أبو سليمان الدمشقي .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا) قرأ ابن كثير ، ونافع ،

وأبو عمرو ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم « ولا تحسبن » بالتاء وكسر

السين ؛ إلا أن عاصماً فتح السين . وقرأ ابن عامر ، وحزرة ، وحفص عن عاصم :

بالياء وفتح السين . وفي الكافرين هاهنا قولان .

(١) البيب في « الطبري » غير منسوب ٢٧/١٤ ، والقدر بضمين ، جمع غدير ، مثل

صبور ، وهو القادر المستمرى للندر .

أحدهما : جميع الكفار ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم الذين انهزموا يوم بدر ، ذكره محمد بن القاسم النحوي وغيره .
و « سبقوا » بمعنى فاتوا . قال ابن الأنباري : وذلك أنهم أشفقوا من هلكة تنزل
بهم في بعض الأوقات ؛ فلما سلموا منها ، قيل : لا تحسبن أنهم فاتوا بسلامتهم
الآن ، فإنهم لا يعجزونا ، أي : لا يفوتونا فيما يستقبلون من الأوقات .

قوله تعالى : (إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ) قرأ الجمهور : بكسر الالف . وقرأ ابن عامر :
بفتحها ؛ وعلى قراءته اعتراض . لقائل أن يقول : إذا كان قد قرأ « يحسبن » بالياء ،
وقرأ « أنهم » بالفتح ، فقد أقرم على أنهم لا يعجزون ؛ ومتى علموا أنهم لا يعجزون ،
لم يلاموا . فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال : المعنى : « لا يحسبن الذين كفروا
سبقوا » لا يحسبن أنهم يعجزون ؛ و « لا » زائدة مؤكدة . وقال أبو علي :
المعنى : لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا وآباءهم سبقوا ، لأنهم لا يفوتون ،
فهم يُعْجِزُونَ على كفرهم .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ
اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ
وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) في المراد بالقوة أربعة أقوال .

أحدها : أنها الرمي ، رواه عقبه بن عامر عن رسول الله ﷺ ^(١) . وقال

(١) روى مسلم في « صحيحه » ٦٤/١٣ عن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت
رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : « (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) ألا إن القوة الرمي ، ألا
إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ورواه أبو داود في « سننه » رقم ٢٥١٥ ، وابن ماجه رقم ٢٨١٣ ،
والحاكم ٣٢٨/٢ وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجه البخاري ، ووافقه الذهبي .

الحكم بن أبان : هي النبل . والثاني : ذكور الخيل ، قاله عكرمة . والثالث : السلاح ، قاله السدي ، وابن قتيبة . والرابع : أنه كل ما يُتقوّى به على حرب العدو من آلة الجهاد .

قوله تعالى : (ومن رباط الخيل) يعني ربطها واقتناؤها للغزو ؛ وهو عام في الذكور والإناث في قول الجمهور . وكان عكرمة يقول : المراد بقوله : « ومن رباط الخيل » إناثها .

قوله تعالى : (ترهبون به) روى رويس ، وعبد الوارث « تُرْهَبُونَ » بفتح الراء وتشديد الهاء ، أي : تخيفون وترعبون به عدو الله وعدوكم ، وهم مشركو مكة وكفار العرب .

قوله تعالى : (وآخرين من دونهم) أي : من دون كفار العرب . واختلفوا فيهم على خمسة أقوال .

أحدها : أنهم الجن . روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هم الجن ، وإن الشيطان لا يجبل أحداً في داره فرس عتيق »^(١) . والثاني : أنهم بنو قريظة ، قاله مجاهد . والثالث : أهل فارس ، قاله السدي . والرابع : المنافقون ، قاله ابن زيد . والخامس : اليهود ، قاله مقاتل .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

(١) ذكره ابن كثير في « تفسيره » ٣٢٢/٢ من رواية ابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد الله بن غريب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول في قول الله تعالى : (وآخرين من دونهم لا تعلمونهم) قال : « هم الجن » ثم قال : ورواه الطبراني عن يزيد بن عبد الله بن غريب به وزاد : قال رسول الله ﷺ : « لا يجبل بيت فيه عتيق من الخيل » وقال : وهذا الحديث منكر لا يصح إسناده ولا متنه .

قوله تعالى : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ) قرأ أبو بكر عن عاصم « لِلْسَلَامِ » بكسر السين . قال الزجاج : السَّلَام : الصلح والمصالحة . يقال : سَلِمَ وسَلِمَ وسَلِمَ في معنى واحد ، أي : إن مالوا إلى الصلح فِل إليه . قال الفراء : إِنْ شئت جعلت « لها » كناية عن السَّلَام لأنها تؤنث ، وإن شئت جعلتها للفَعْلَة ، كقوله : (إِنْ رَبَكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) [الأعراف: ١٥٣] .

فان قيل : لم قال « لها » ولم يقل : « إليها » ؟

فالجواب : أن « اللام » و « إلى » تنوب كل واحدة منهما عن الأخرى . وفيمن أريد بهذه الآية قولان .

أحدهما : المشركون ، وأنها نسخت بآية السيف . والثاني : أهل الكتاب . فان قيل : إنها نزلت في ترك حربهم إذا بذلوا الجزية وقاموا بشرط الذمة ، فهي محكمة .

وإن قيل : نزلت في موادعتهم على غير جزية ، توجه النسخ لها بآية الجزية . ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَاللَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ يَرِيدُوا) قال مقاتل : يعني يهود قريظة (أَنْ يَخْدَعُوكَ) بالصلح لتكف عنهم ، حتى إذا جاء مشركو العرب ، أعانوهم عليك (فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ) . قال الزجاج : فإن الذي يتولّى كفايتك الله (هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ) أي : قوأك . وقال مقاتل : قوأك بنصره وبالمؤمنين من الأنصار يوم بدر .

قوله تعالى : (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) يعني الأوس والخزرج ، وهم الأنصار ، كانت بينهم عداوة في الجاهلية ، فألَّفَ الله بينهم بالإسلام . وهذا من أعجب الآيات ، لأنهم كانوا ذوي أنفة شديدة ؛ فلو أن رجلاً لطم رجلاً ، لقاتلت عنه قبيلته حتى تدرك ثأره ، قال بهم الإسلام إلى أن يقتل الرجل ابنه وأباه .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ) فيه قولان .

أحدهما : حَسْبُكَ اللَّهُ ، وحسبُ من اتَّبَعَكَ ، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس ، وبه قال ابن زيد ، ومقاتل ، والأكثر .

والثاني : حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَتَّبِعُوكَ ، قاله مجاهد . وعن الشعبي كالتولين . وأجاز الفراء والزجاج الوجهين . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أسلم مع رسول الله ﷺ تسعة وثلاثون ، ثم أسلم عمر فصاروا أربعين ، فنزلت هذه الآية . قال أبو سليمان الدمشقي : هذا لا يحفظ ، والسورة مدنية باجماع ، والقول الأول أصح .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ) قال الزجاج : تأويله : حُسِّمَ .

وتأويل التحريض في اللغة : أن يحث الإنسان على الشيء . حثاً يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه . والحارض : الذي قد قارب الهلاك .

قوله تعالى : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) لفظُ هذا الكلام لفظ الخبر ، ومعناه الأمر ، والمراد : يقاتلوا مائتين ، وكان هذا فرضاً في أول الأمر ، ثم نسخ بقوله : (الآن خفف الله عنكم) ففرض على الرجل أن يثبت لرجلين ، فإن زادوا جاز له الفرار . قال مجاهد : وهذا التشديد كان في يوم بدر . واتفق القراء على قوله (إن يكن منكم) فقرأوا « يكن » بالياء ، واختلفوا في قوله : (وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً) ، وفي قوله : (فإن تكن منكم مائة صابرة) فقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : بالياء فيها . وقرأهما عاصم ، وحزمة ، والكسائي : بالياء . وقرأ أبو عمرو « يكن منكم مائة يغلبوا » بالياء ، « فإن تكن منكم مائة صابرة » بالياء . قال الزجاج : من أثت ، فلفظ المائة ؛ ومن ذكر ، فلأن المائة وقعت على عدد مذكر . وقال أبو علي : من قرأ بالياء ، فلا نه أريد منه المذكر ، بدليل قوله : « يغلبوا » ، وكذلك المائة الصابرة هم رجال ، فقرأوها بالياء ، لموضع التذكير . فأما أبو عمرو ، فإنه لما رأى ضفة المائة مؤنثة بقوله : « صابرة » أثت الفعل ، ولما رأى « يغلبوا » مذكراً ، ذكر . ومعنى الكلام : إن يكن منكم عشرون صابرون يثبتون عند اللقاء ، يغلبوا مائتين ، لأن المؤمنين يحسبون أفعالهم ، وأهل الشرك يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب ، فإذا صدقهم المؤمنون القتال لم يثبتوا ؛ وذلك معنى قوله : (لا يفقهون) . قوله تعالى : (وعلم) وروى المفضل « وعلم » بضم العين « أن فيكم ضعفاً » بضم الضاد . وقرأ عاصم ، وحزمة : بفتح الضاد . وكذلك خلافهم في (الروم : ٥٥) ، قال الفراء : الضم لئمة قريش ، والفتح لئمة تميم . قال الزجاج : والمعنى في القراءتين

واحد ، يقال : هو الضَّعْف والضَّعْف ، والمَكْث والمَكْث ، والفَقْر والفَقْر ، وفي اللغة كثير من باب فَعَلَ وفَعَّل ، والمعنى واحد . وقرأ أبو جعفر « وعلمَ أن فيكم ضُعَفَاءَ » على فُعْلَاءَ . فأما قوله : (باذن الله) فهو إعلام بأن الغلبة لا تقع إلا بأرادته .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى بُنْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ما كان لنبي أن تكون له أسرى حتى بُنْخِنَ في الأرض) روى مسلم في أفرادهِ من حديث عمر بن الخطاب قال : لما هزم الله المشركين يوم بدر ، وقُتل منهم سبعون وأُسِرَ منهم سبعون ، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً ، فقال أبو بكر : يا نبي الله هؤلاء بنو الهم والعشيرة والاخوان ، وإنِّي أرى أن نأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذنا منهم قوَّةً لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً . فقال رسول الله « ما ترى يا ابن الخطاب » ؟ قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكِّنني من فلان ، قريبٌ لعمري ، فأضرب عنقه ، وتمكِّن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكِّن حمزة من أخيه فلان فيضربَ عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هودة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . فهويَ رسول الله ما قال أبو بكر ، ولم يهوَ ما قلت ، فأخذ منهم الفداء . فلما كان من الند ، غدوت إلى رسول الله ﷺ ، فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان . فقلت : يا رسول الله ، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فان وجدت بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاءً تباكيت . فقال النبي ﷺ « أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من الفداء . لقد عُرِضَ عليَّ عذابكم

أدنى من هذه الشجرة » لشجرة قريبة ، فأنزل الله « ما كان لني أن يكون له أسرى » إلى قوله « عظيم » ^(١) .

وروي عن ابن عمر قال : لما أشار عمر بقتلهم ، وفاداهم رسول الله ﷺ ، أنزل الله تعالى « ما كان لني » إلى قوله « حلالاً طيباً » ، فلقى النبي ﷺ عمر ، فقال « كاد يصيبنا في خلافك بلاء » ^(٢) . فأما الأسرى ، فهو جمع أسير ، وقد ذكرناه في (البقرة : ٨٥) . والجمهور قرؤوا « أن يكون » بالياء ، لأن الأبراء مذكرون . وقرأ أبو عمرو « أن تكون » ، قال أبو علي : أثبت على لفظ الأسرى ، لأن الأسرى وإن كان المراد به التذكير والرجال فهو مؤنث اللفظ . والأكثر قرؤوا « أسرى » وكذلك « لمن في أيديكم من الأسرى » . وقرأ أبو جعفر ، والمفضل « أسارى » في اللومعين ، وواقفها أبو عمرو ، وأبأن في الثاني . قال الزجاج : والإثخان في كل شيء : قُوَّة الشيء وشِدَّتُهُ . يقال : قد أثخنه المرض : إذا اشتدت قُوَّتُهُ عليه . والمعنى : حتى يبالغ في قتل أعدائه . ويجوز أن يكون المعنى : حتى يتمكن في الأرض . قال المفسرون : معنى الآية : ما كان لني أن أنجس كافرأ قدر عليه للفداء أو المن قبل الإثخان في الأرض . وكانت غزاة

(١) (الطبري : ٣/١٤٤) ورواه أحمد في « المسند » رقم ٢٠٨ و ٢٢١ مطولاً ، ورواه مسلم في « صحيحه » ٣/١٣٨٣ - ١٣٨٥ كذلك مطولاً ، وقد رواه المؤلف من رواية مسلم مختصراً بمناه ، وروى بعضه أبو داود في « سننه » رقم ٢٦٩٠ ، ورواه الترمذي ٢/١٣٤ مختصراً ، والواحدي في « أسباب النزول » مطولاً ١٣٧ - ١٣٨ ، وأورده ابن كثير في « التفسير » ٢/٢٨٩ من رواية أحمد بطوله ، وقال في آخره ، ورواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن مردويه من طرق عن عكرمة بن عمار به .

(٢) أورده السيوطي في « الدر » ٣/٢٠٢ عن أبي نعيم في « الحلية » من طريق مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنه .

بدر أول قتال قاتله رسول الله ﷺ ، ولم يكن قد أنخن في الأرض بعد .
(تريدون عرض الدنيا) وهو المال . وكان أصحاب النبي ﷺ قد فادوا يومئذ
بأربعة آلاف أربعة آلاف . وفي قوله : (والله يريد الآخرة) قولان .

أحدهما : يريد لكم الجنة ، قاله ابن عباس .

والثاني : يريد العمل بما يوجب ثواب الآخرة ، ذكره الماوردي .

﴿ فصل ﴾

وقد روي عن ابن عباس ، ومجاهد في آخرين : أن هذه الآية منسوخة
بقوله : (فاما منّا بعدُ وإمّا فداءً) [محمد : ٤] ، وليس للنسخ وجه ، لأن
غزاة بدر كانت وفي المسلمين قلة ؛ فلما كثروا واشتد سلطانهم ، نزلت الآية
الأخرى ، ويبين هذا قوله : (حتى يشن في الأرض) .

﴿ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (لولا كتاب من الله سبق) في معناه خمسة أقوال .

أحدها : لولا أن الله كتب في أم الكتاب أنه سيُجِلُّ لكم الغنائم لمَسَّكم
فيما تمجَّلتُم من الغنائم والفداء يوم بدر قبل أن تؤمروا بذلك عذابٌ عظيم ، روى
هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل . وقال أبو هريرة :
تمجَّل ناس من المسلمين فأصابوا الغنائم ، فنزلت الآية .

والثاني : لولا كتاب من الله سبق أنه لا يمدَّب من أتى ذنباً على جهالةٍ

لعوقبتهم ، روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس ، وابن جريج عن مجاهد . وقال ابن إسحاق : سبق أن لا أعذب إلا بعد النهي ، ولم يكن نهاهم .

والثالث : لولا ماسبق لأهل بدر أن الله لا يعذبهم ، لعذبتم ، قاله الحسن ، وابن جبير ، وابن أبي نجيع عن مجاهد .

والرابع : لولا كتاب من الله سبق من أنه يغفر لمن عمل الخطايا ثم علم ما عليه فتاب ، ذكره الزجاج .

والخامس : لولا القرآن الذي اقتضى غفران الصغائر ، لعذبتم ، ذكره الماوردي . فيخرج في الكتاب قولان .

أحدهما : أنه كتاب مكتوب حقيقة . ثم فيه قولان . أحدهما أنه ما كتبه الله في اللوح المحفوظ . والثاني : أنه القرآن .

والثاني : أنه بمعنى القضاء .

﴿ فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا بُوْئِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (فكلوا مما غنمتم) قال الزجاج : الفاء للجزاء . والمعنى : قد أحلت لكم الفداء فكلوا . والحلال منصوب على الحال . قال مقاتل : إن الله غفور لما أخذتم من النعمة قبل حلتها ، رحيم بكم إذ أحلتها لكم . فجعل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ، وخباب بن الأرت يوم بدر على القبض ^(١) ، وقسمها

(١) القبض بفتح القاف والباء . قال أبو عبيد القاسم بن سلام : القبض : الذي تجمع عنده الفنائم ، وقال غيره : بمعنى المقبوض ، وهو ما جمع من النعمة قبل أن تقسم .

النبي ﷺ بالمدينة، وانطلق بالأسارى، فيهم العباس، وعقيل، ونوفل بن الحارث ابن عبد المطلب. وكان مع العباس يومئذ عشرون أوقية من ذهب، فلم تحسب له من فدائه، وكلّف أن يفدي ابني أخيه، فأدّى عنها ثمانين أوقية من ذهب. وقال النبي ﷺ: «أضفوا على العباس الفداء» فأخذوا منه ثمانين أوقية، وكان فداء كل أسير أربعين أوقية. فقال العباس لرسول الله ﷺ: لقد تركتني ماجيت أسأل قريشاً بكفّي. فقال له: «أين الذهب الذي تركته عند أم الفضل؟» فقال: أي الذهب؟ فقال: «إنك قلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فان حدث بي حدث، فهو لك ولولدك» فقال: ابن أخي، من أخبرك؟ فقال: «الله أخبرني»، فقال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمت أنك رسول الله قبل اليوم؛ وأمر ابني أخيه فأسلموا. وفيهم نزلت: (قل لمن في أيديكم من الأسارى) الآية. وروى العوفي عن ابن عباس أنها نزلت في جميع من أسر يوم بدر. وقال ابن زيد: لما بُعِثَ رسول الله ﷺ، أتاه رجال، فقالوا: لولا أننا نخاف هؤلاء القوم لأسلمنا، ولكننا نشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله. فلما كان يوم بدر، قال المشركون: لا يتخلف عنا أحد إلا هدمنا داره واستحللنا ماله، فخرج أولئك القوم، فقتلت طائفة منهم وأسرت طائفة. فأما الذين قتلوا، فهم الذين قال الله فيهم: (الذين نتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) [النحل: ٢٨]. وأما الذين أسروا فقالوا: يا رسول الله أنت تعلم أننا كنا نشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله، وإنما خرجنا مع هؤلاء خوفاً منهم. فذلك قوله: (قل لمن في أيديكم من الأسارى) إلى قوله: (عليهم حكيم). فأما قوله: (إن يعلم الله في قلوبكم خيراً) فعناه إسلاماً وصدقاً (يؤتكم خيراً مما أخذ منكم) من الفداء. وفيه قولان.

أحدهما : أكثر مما أخذ منكم . والثاني : أحل* وأطيب . وقرأ الحسن ،
ومجاهد ، وقتادة ، وابن أبي عملة : « مما أخذ منكم » بفتح الحاء ؛ يشيرون إلى
الله تعالى . وفي قوله : (وَيَغْفِرْ لَكُمْ) قولان .

أحدهما : يغفر لكم كفركم وقاتلكم رسول الله ، قاله الزجاج .

والثاني : يغفر لكم خروجكم مع المشركين ، قاله ابن زيد في تمام كلامه الأول .

﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ) يعني : إِنْ أَرَادَ الْأَسْرَاءُ خِيَانَتَكَ

بالكفر بعد الإسلام (فقد خانوا الله من قبل) إِذْ كَفَرُوا بِهِ قَبْلَ أَسْرِهِمْ . وقال

ابن زيد : فقد خانوا بخروجهم مع المشركين ؛ وقد ذكرنا عنه أنها نزلت في قوم

تكلموا بالإسلام . وقال مقاتل : المعنى : إِنْ خَانُوا أَمَكَّنْتَكَ مِنْهُمْ فَقَاتَلْتَهُمْ وَأَسْرْتَهُمْ

كَمَا أَمَكَّنْتُكَ يَبْدُر . قال الزجاج : (والله عليم) بخيانة إِنْ خَانُوها ، (حكيم) في

تدبيره عليهم ومجازاته إِيَّاهُمْ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَهُمْ مِنَ الْوَلَايَةِ مِنْ شَيْءٍ

حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا

عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ

الله) يعني : المهاجرين الذين هجروا ديارهم وأموالهم وقومهم في نصرة الدين .

(والذين آووا ونصروا) يعني : الأنصار ، آووا رسول الله ، وأسكنوا المهاجرين ديارهم ، ونصروهم على أعدائهم . (أولئك بعضهم أولياء بعض) فيه قولان . أحدهما : في النصرة . والثاني : في الميراث .

قال المفسرون : كانوا يتوارثون بالهجرة ، وكان المؤمن الذي لم يهاجر لا يرث قريبه المهاجر ، وهو معنى قوله : (مالكم من ولايتهم من شيء) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم ، والكسائي : « ولايتهم » بفتح الواو . وقرأ حمزة : بكسر الواو . قال الزجاج : المعنى : ليس بينكم وبينهم ميراث حتى يهاجروا . ومن كسر واو الولاية ، فهي بمنزلة الإمارة ؛ وإذا فتحت ، فهي من النصرة . وقال بونس النحوي : الولاية ، بالفتح ، لله عز وجل ، والولاية ، بالكسر ، من وليت الأمر . وقال أبو عبيدة : الولاية ، بالفتح ، للخالق ؛ والولاية ، للمخلوق . قال ابن الأنباري : الولاية ، بالفتح ، مصدر الولي ، والولاية : مصدر الوالي ، يقال : ولي يتي الولاية ، والي يتي الولاية ؛ فهذا هو الاختيار ؛ ثم يصلح في ذا ما يصلح في ذا . وقال ابن فارس : الولاية ، بالفتح : النصرة ، وقد تكسر . والولاية ، بالكسر : السلطان .

❦ فصل ❦

وذهب قوم إلى أن المراد بهذه الولاية موالاة النصر والمودة . قالوا : ونسخ هذا الحكم بقوله : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) [التوبة : ٧١] . فأما القائلون بأنها ولاية الميراث ، فقالوا : نسخت بقوله : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) [الانفال : ٧٥] .

قوله تعالى : (وإن استنصروكم في الدين) أي : إن استنصركم المؤمنون الذين لم يهاجروا فأنصروهم ، إلا أن يستنصروكم على قوم بينكم وبينهم عهد ، فلا تمددوا بأرباب العهد . وقال بعضهم : لم يكن على المهاجر أن ينصر من لم يهاجر إلا أن يستنصره .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) فيه قولان . أحدهما : في الميراث ، قاله ابن عباس .

والثاني في النصرة ، قاله قتادة .

وفي قوله : (إلا تفعلوه) قولان .

أحدهما : أنه يرجع إلى الميراث ، فالمعنى : إلا تأخذوا في الميراث بما أمرتكم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه يرجع إلى التناصر . فالمعنى : إلا تتعاونوا وتتناصروا في الدين ، قاله ابن جريج . ويأنه : أنه إذا لم يتول المؤمن المؤمن تولى حقاً ، وتبرأ من الكافر جداً ، أدّى ذلك إلى الضلال والفساد في الدين . فإذا هجر المسلم أقاربه الكفار ، ونصر المسلمين ، كان ذلك أدعى لأقاربه الكفار إلى الإسلام وترك الشرك .

قوله تعالى : (وفساد كبير) قرأ أبو هريرة ، وابن سيرين ، وابن السميع :

« كثير » بالثاء .

قوله تعالى : (أولئك هم المؤمنون حقا) أي : هم الذين حققوا إيمانهم بما يقتضيه من الهجرة والنصرة ، بخلاف من أقام بدار الشرك . والرزق الكريم : هو الحسن ، وذلك في الجنة .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (والذين آمنوا من بعد) أي : من بعد المهاجرين الأولين . قال ابن عباس : هم الذين هاجروا بعد الحديبية .

قوله تعالى : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) أي : في الموارث بالهجرة . قال ابن عباس : أخى النبي ﷺ بين أصحابه ، وكانوا يتوارثون بذلك الإخاء حتى نزلت هذه الآية ، فتوارثوا بالنسب .

قوله تعالى : (في كتاب الله) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اللوح المحفوظ .

والثاني : أنه القرآن - وقد بيّن لهم قسمة الميراث في سورة (النساء : ١١ ، ١٢) .

والثالث : أنه حكم الله ، ذكره الزجاج .

سورة التوبة

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ فصل في نزولها ﴾

هي مدنية باجماعهم ، سوى الآيتين اللتين في آخرها (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) [التوبة : ١٢٨] فانها نزلت بمكة . روى البخاري في « صحيحه » من حديث البراء قال : آخر سورة نزلت (براءة) ^(١) . وقد نُقل عن بعض العرب أنه سمع قارئاً يقرأ هذه السورة ، فقال الأعرابي : إني لأحسب هذه من آخر ما نزل من القرآن . قيل له : ومن أين علمت ؟ فقال : إني لأسمع عهوداً تُنبذُ ، ووصايا تُفقدُ .

﴿ فصل ﴾

واختلفوا في أول ما نزل من (براءة) على ثلاثة أقوال .
أحدها : أن أول ما نزل منها قوله : (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة) [التوبة : ٢٥] ، قاله مجاهد .

(١) البخاري : ٢٢٧/٨ .

والثاني : (انفروا خفافاً وثقالاً) [التوبة : ٤١] ، قاله أبو الضحى ، وأبو مالك .
والثالث : (إِنْ لَا تَنْصُرُوهُ) [التوبة : ٤٠] ، قاله مقاتل . وهذا الخلاف إنما
هو في أول ما نزل منها بالمدينة ، فانهم قد قالوا : نزلت الآيتان اللتان في آخرها بعمّة .

❦ فصل ❦

ولها تسعة أسماء . أحدها : سورة التوبة . والثاني : براءة ؛ وهذان
مشهوران بين الناس . والثالث : سورة العذاب ، قاله حذيفة . والرابع : الْمُقَشَّقِشَةُ ،
قاله ابن عمر . والخامس : سورة البَحْوث ، لأنها بحثت عن سرائر المنافقين ، قاله
المقداد بن الأسود . والسادس : الفاضحة ، لأنها فضحت المنافقين ، قاله ابن عباس .
والسابع : المبعثرة ، لأنها بعثت أخبار الناس ، وكشفت عن سرائرهم ، قاله
الحارث بن يزيد ، وابن إسحاق . والثامن : المثيرة ، لأنها أثارَت غمازي المنافقين
ومسابهم ، قاله قتادة . والتاسع : الحافرة ، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين ،
قاله الزجاج .

❦ فصا ❦

وفي سبب امتناعهم من كتابة التسمية في أولها ثلاثة أقوال .
أحدها : رواه ابن عباس ، قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حكمكم على أن
عمدتم إلى (الانفال) وهي من المثاني ، وإلى (براءة) وهي من المثين ، فقرنتم
بينهما ولم تكتبوا بينهما « بسم الله الرحمن الرحيم » ؟ فقال : كان رسول الله ﷺ

إذا أنزل عليه شيء يدعو بعض من يكتب ، فيقول : « ضموا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا » ، وكانت (الأنفال) من أوائل ما نزل بالمدينة ، و (براءة) من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ؛ وقبض رسول الله ﷺ ، ولم يُبين لنا أنها منها ، فظننا أنها منها ؛ فمن ثم قرنتُ بينهما ولم أكتب بينهما : « بسم الله الرحمن الرحيم » ^(١) . وذكر نحو هذا المعنى عن أبي بن كعب . قال الزجاج : والشبه الذي بينهما ، أن في (الأنفال) ذكر اليهود ، وفي (براءة) نقضها . وكان قتادة يقول : هما سورة واحدة .

والثاني : رواه محمد بن الحنفية ، قال : قلت لأبي : لم لم تكتبوا في (براءة) « بسم الله الرحمن الرحيم » ؟ فقال : يا بني ، إن (براءة) نزلت بالسيف ، وإن « بسم الله الرحمن الرحيم » أمان . وسئل سفيان بن عيينة عن هذا ، فقال : لأن التسمية رحمة ، والرحمة أمان ، وهذه السورة نزلت في المناققين .

والثالث : أن رسول الله ﷺ ، لما كتب في صلح الحديبية « بسم الله الرحمن الرحيم » ، لم يقبلوها وردوها ، فما ردها الله عليهم ، قاله عبد العزيز بن يحيى المكي .

﴿ فصل ﴾

فأما سبب نزولها ، فقال المفسرون : أخذت العرب تنقض عهوداً بنتها مع

(١) د المسند ، ٣٩٩/١ ، وأبو داود ٢٩٠/١ ، والترمذي : ١٣٤/٢ وحسنه ، وابن أبي داود في « المصاحف » ، ٣١ ، والنحاس في « الناسخ والنسخ » ، ١٥٨ ، والحاكم ٣٣٠/٢ وصححه ، وخرجه السيوطي في « الدر » ٢٠٧/٣ وزاد نسبه إلى النسائي ، وابن المنذر ، وابن حبان ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » ، وقد ضف هذا الحديث الشيخ أحمد شاكر ، بل حكم عليه بأنه لا أصل له في تعليقه على « المسند » ، فانظره .

رسول الله ﷺ ، فأمره الله تعالى بالقضاء عهدهم إليهم ، فأنزل (براءة) في سنة تسع ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم ليقم للناس الحج في تلك السنة ، وبعث معه صدراً من (براءة) ليقراها على أهل الموسم ، فلما سار ، دعا رسول الله ﷺ علياً ، فقال : « اخرج بهذه القصة من صدر (براءة) وأذن في الناس بذلك » فخرج عليٌّ على ناقة رسول الله ﷺ المضياء حتى أدرك أبا بكر ، فرجع أبو بكر فقال : يا رسول الله ، أنزل في شأني شيء ؟ قال : « لا ، ولكن لا يبلغ عني إلا رجل مني ، أما ترضى أنك كنت صاحب في النار ، وأنت صاحب على الحوض » ؟ قال : بلى يا رسول الله . فسار أبو بكر أميراً على الحج ، وسار عليٌّ ليؤذن بـ (براءة) .

❦ فصل ❦

وفي عدد الآيات التي بعثها رسول الله ﷺ من أول (براءة) خمسة أقوال . أحدها : أربعون آية ، قاله عليٌّ عليه السلام . والثاني : ثلاثون آية ، قاله أبو هريرة . والثالث : عشر آيات ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والرابع : سبع آيات ، رواه ابن جريج عن عطاء . والخامس : تسع آيات ، قاله مقاتل .

❦ فصل ❦

فإن توهم متوهم أن في أخذ (براءة) من أبي بكر ، وتسليمها إلى عليٍّ ، تفضيلاً لعليٍّ على أبي بكر ، فقد جهل ؛ لأن النبي ﷺ أجرى العرب في ذلك على عادتهم . قال الزجاج : وقد جرت عادة العرب في عقد عهدها ونقضها ، أن

يتولَّى ذلك على القبيلة رجل منها ؛ وجائز أن تقول العرب إذا تلا عليها تقض العهد من ليس من رهط النبي ﷺ : هذا خلاف مانعرف فينا في تقض اليهود ، فأزاح النبي ﷺ العلة عما فعل . وقال عمرو بن بحر : ليس هذا بتفضيل لعليٍّ على أبي بكر ، وإنما عاملهم بعادتهم المتعارفة في حلِّ العقد ، وكان لا يتولَّى ذلك إلا السَّيِّدُ منهم ، أو رجل من رهطه دَنِيًّا ، كآخ ، أو عم ؛ وقد كان أبو بكر في تلك الحجة الإمام ، وعليٌّ يَأْتُمُّ به ، وأبو بكر الخطيب ، وعليٌّ يَسْمَعُ . وقال أبو هريرة : بعثني أبو بكر في تلك الحجة مع المؤذنين الذين بعثهم يؤذنون بعني : أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ؛ فأذَّن معنا عليٌّ بـ (براءة) وبذلك الكلام . وقال الشعبي : بعث رسولُ الله عليًّا يؤذِّن بأربع كلمات : « ألا لا يحج بعد العام مشرك ، ألا ولا يطوف بالبيت عريان ، ألا ولا يدخل الجنة إلا مسلم ، ألا ومن كانت بينه وبين محمد مدَّة فأجله إلى مدته ، والله بريء من المشركين ورسوله » .

﴿ فصل ﴾

فأما التفسير ، فقوله تعالى : (براءة) قال الفراء : هي مرفوعة باضمار « هذه » ، ومثلُّه (سورة أنزلناها) [النور : ٢] . وقال الزجاج : يقال : برئتُ من الرجل والدَّيْنِ براءةً ، وبرئتُ من المرض ؛ وبرأتُ أيضاً أبرأُ برءاً ، وقد روي : برأتُ أبرؤُ بروءاً . ولم نجد في مالا مهزة : فعَلْتُ أَفْعَلَ ، إلا هذا الحرف . ويقال : بريت القلم ، وكل شيء نحته : أبريه برئياً ، غير مهموز . وقرأ أبو رجاء ، ومورق ، وابن يعمر : « براءة » بالنصب . قال المفسرون : والبراءة هاهنا : قطع الموالاة ،

وارتفاع العصمة ، وزوال الأمان . والخطاب في قوله : (إلى الذين عاهدتم) لأصحاب رسول الله ﷺ ، والمرادُ رسولُ الله ﷺ ، لأنه هو الذي كان يتولّى المعاهدة ، وأصحابه راضون ؛ فكانهم بالرضا عاهدوا أيضاً ؛ وهذا عام في كل من عاهد رسول الله ﷺ . وقال مقاتل : هم ثلاثة أحياء من العرب : خزاعة ، وبنو مدلج ، وبنو جذيمة .

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (فسيحوا في الأرض) أي : انطلقوا فيها آمنين لا يقع بكم منّا مكروه .

إن قال قائل : هذه مخاطبة شاهد ، والآية الأولى إخبار عن غائب ، فمعه جوابان .

أحدهما : أنه جائز عند العرب الرجوع من الغيبة إلى الخطاب . قال عنترة :

شَطَطَتْ مَزَارُ الْمَاشِقِينَ فَأَصْبَحَتْ عَسِيراً عَلَيَّ طِلَابُكَ ابْنَةَ تَخْرَمٍ ^(١)

هذا قول أبي عبيدة .

والثاني : أن في الكلام إضماراً ، تقديره : فقل لهم : سيحوا في الأرض ،

أي : اذهبوا فيها ، وأقبلوا ، وأدبروا ، وهذا قول الزجاج .

واختلفوا فيمن جُعِلَتْ له هذه الأربعة الأشهر على أربعة أقوال .

(١) البيت في شرح القمائد السبع الطوال ٢٩٩ ، و « مجاز القرآن » ٢٣/١ ، و « مختار

الشعر الجاهلي » ٣٧٠ من مطلقته المشهورة ، وقوله : شطت مزار الماشقين ، يعني : شطت

عبلة مزار الماشقين ، أي : بددت من مزارم . وفي « شرح الملقبات » : حلت بأرض

الزائرين ، والزائرون : الأعداء ، جعلهم يزأرون زئير الأسد ، شبه وعيدهم بالزئير ، يقول :

زَلَّتْ الْحَبِيبَةُ بِلَادَ أَعْدَائِي ، فَمَسَّرَ عَلَيَّ طِلَابَهَا .

أحدها : أنها أمان لأصحاب العهد ، فمن كان عهده أكثر منها ، حُطَّ إليها ، ومن كان عهده أقل منها ، رفع إليها ، ومن لم يكن له عهد ، فأجله النسلخ المحرم خمسون ليلة ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك .

والثاني : أنها للعشرتين كافةً ، مَنْ له عهد ، وَمَنْ ليس له عهد ، قاله مجاهد ، والزهري ، والقرظي .

والثالث : أنها أجل لمن كان رسول الله ﷺ قد آمنه أقل من أربعة أشهر ، أو كان أمانه غير محدود ؛ فأما مَنْ لا أمان له ، فهو حرب ، قاله ابن إسحاق .

والرابع : أنها أمان لمن لم يكن له أمان ولا عهد ؛ فأما أرباب المهود ، فهم على عهودهم إلى حين انقضاء مُدَّهم ، قاله ابن السائب . ويؤكداه ماروي أن علياً نادى يومئذ : وَمَنْ كان بينه وبين رسول الله عهد ، فعنده إلى مدته . وفي بعض الألفاظ : فأجله أربعة أشهر . واختلفوا في مدة هذه الأربعة الأشهر على أربعة أقوال .

أحدها : أنها الأشهر الحرم : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن أولها يوم الحج الأكبر ، وهو يوم النحر ، وآخرها العاشر من ربيع الآخر ، قاله مجاهد ، والسدي ، والقرظي .

والثالث : أنها شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، لأن هذه الآية نزلت في شوال ، قاله الزهري . قال أبو سليمان الدمشقي : وهذا أضعف الأقوال ، لأنه لو كان كذلك ، لم يجوز تأخير إعلامهم به إلى ذي الحجة ، إذ كان لا يلزمهم الأمر إلا بعد الإعلام .

والرابع : أن أولها العاشر من ذي القعدة ، وآخرها العاشر من ربيع الأول ، لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك اليوم ، ثم صار في السنة الثانية في العشر

من ذي الحجة ، وفيها حج رسول الله ﷺ وقال : « إن الزمان قد استدار » ^(١) ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (واعلموا أنكم غير معجزي الله) أي : وإن أُجِلْتُمْ هذه الأربعة الأشهر فلن تفوتوا الله .

قوله تعالى : (وأن الله مخزي الكافرين) قال الزجاج : الأجود فتح « أن » على معنى : اعلموا أن ، ويجوز كسرهما على الاستئناف . وهذا ضمان من الله نصرته المؤمنين على الكافرين .

﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ
أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ
لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(١) الحديث في « المسند » ٣٧/٥ ، والبخاري ٤٥٩/٣ و ٤٤٤/٨ و ٦/١٠ ، ومسلم رقم ١٦٧٩ ، وأبو داود رقم ١٩٤٧ ولفظه في البخاري ٦/١٠ عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ، أي شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا : بلى ، قال : أي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس يوم النحر ؟ » قلنا : بلى ، قال : « فإن دماءكم وأموالكم - قال محمد (ابن سيرين) : وأحسبه قال : وأعراضكم - عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا ليلنظن الشاهد منكم الغائب ، فامل بعض من يلفه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ، فكان محمد (ابن سيرين) إذا ذكره قال : صدق النبي ﷺ ، ثم قال : (أي النبي ﷺ) « ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت » .

قوله تعالى : (وأذان من الله ورسوله) أي : إعلام ؛ ومنه أذان الصلاة .
 وقرأ الضحاك ، وأبو المتوكل ، وعكرمة ، والمجدي ، وابن يعمر : « وَإِذْ »
 بكسر الهمزة وقصرها ساكنة الذال من غير ألف .

قوله تعالى : (إلى الناس) أي : للناس . يقال : هذا إعلام لك ، وإليك .
 والناس هاهنا عامّ في المؤمنين والمشركين . وفي يوم الحج الأكبر ثلاثة أقوال .
 أحدها : أنه يوم عرفة ، قاله عمر بن الخطاب ، وابن الزبير ، وأبو جحيفة ،
 وطاووس ، وعطاء .

والثاني : يوم النحر ، قاله أبو موسى الأشعري ، والمغيرة بن شعبة ، وعبد الله
 ابن أبي أوفى ، وابن المسيب ، وابن جبير ، وعكرمة ، والشعمي ، والنخعي ،
 والزهري ، وابن زيد ، والسدي في آخرين . وعن علي ، وابن عباس ، كالقولين .
 والثالث : أنه أيام الحج كلها ، فمبّر عن الأيام باليوم ، قاله سفيان الثوري .
 قال سفيان : كما يقال : يوم بعث ، ويوم الجمل ، ويوم صفين يراد به : أيام ذلك ،
 لأن كل حرب من هذه الحروب دامت أياماً . وعن مجاهد ، كالأقوال الثلاثة .
 وفي تسميته يوم الحج الأكبر ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه سمّاه بذلك لأنه اتفق في سنة حج فيها المسلمون والمشركون ،
 ووافق ذلك عيد اليهود والنصارى ، قاله الحسن .

والثاني : أن الحج الأكبر هو الحج ، والأصغر هو العمرة ، قاله عطاء ، والشعمي .
 والثالث : أن الحج الأكبر : القران ، والأصغر : الإفراد ، قاله مجاهد .
 قوله تعالى : (أن الله بريء) وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وابن يعمر : « إِنْ الله »
 بكسر الهمزة . (من المشركين) أي : من عهد المشركين ، فحذف المضاف .

(ورسولُه) رفعٌ على الابتداء ، وخبره مضر على معنى : ورسولُه أيضاً بري .
 وقرأ أبو رزين ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء ، ومجاهد ، وابن يمر ، وزيد عن يعقوب :
 « ورسولُه » بالنصب . ثم رجع إلى خطاب المشركين بقوله : (فان تبتم) أي :
 رجتم عن الشرك ، (وإن توليتم) عن الإيمان .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْتَقِصُواكُمْ
 شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لَلِئِهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى
 مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

قوله تعالى : (إلا الذين عاهدتم من المشركين) قال أبو صالح عن ابن عباس :
 فلما قرأ علي (براءة) ، قالت بنو ضمرة : ونحن مثلهم أيضاً ؛ قال : لا ، لأن
 الله تعالى قد استثناكم ؛ ثم قرأ هذه الآية . وقال مجاهد : هم قوم كان بينهم وبين
 رسول الله ﷺ عهد ومدة ، فأمر أن يفي لهم . قال الزجاج : معنى الكلام :
 وقمت البراءة من المهاجرين الناقضين لليهود ، إلا الذين عاهدتم ثم لم ينتقصوكم ،
 فليسوا داخلين في البراءة مالم ينتقصوا العهد . قال القاضي أبو يعلى : وفصل الخطاب
 في هذا الباب : أنه قد كان بين رسول الله ﷺ وبين جميع المشركين عهد عام ،
 وهو أن لا يُصدَّ أحدٌ عن البيت ، ولا يُخافَ أحدٌ في الشهر الحرام ، فجعل الله
 عهدهم أربعة أشهر ؛ وكان بينه وبين أتوام منهم عهود إلى آجال مسماة ، فأمر بالوفاء
 لهم ، وإتمام مدتهم إذا لم يخش غدرهم .

﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
 وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ
 فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (فاذا انسلخ الأشهر الحرم) فيها قولان .
أحدهما : أنها رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، قاله الأكثر كثرون .
والثاني : أنها الأربعة الأشهر التي جعلت لهم فيها السياحة ، قاله الحسن في آخرين ، فلي هذا ، سميت حرماً لأن دماء المشركين حرمت فيها .

قوله تعالى : (فاقتلوا المشركين) أي : من لم يكن له عهد (حيث وجدتموهم)
قال ابن عباس : في الحل والحرم والأشهر الحرم .

قوله تعالى : (وخذوهم) أي : أسروهم ؛ والأيخذ : الأسير . (واحصروهم)
أي : احبسوهم ؛ والحصير : الحبس . قال ابن عباس : إن تحصنوا فاحصروهم .
قوله تعالى : (واقعدوا لهم كل مرصد) قال الأخفش : أي : على كل مرصد ؛
فالتقى « على » وأعمل الفعل ، قال الشاعر :

نُفَالِي اللَّحْمَ لِلْأَضْيَافِ نَيْشًا وَنُرْخِصُهُ إِذَا نَضِجَ الْقُدُورُ ^(١)

المعنى : نغالي باللحم ، فحذف الباء كما حذف « على » . وقال الزجاج : « كل مرصد »
ظرف ، كقولك : ذهبت مذهباً ، فلست تحتاج أن تقول في هذه إلا ما تقول
في الظروف ، مثل : خلف ، وقدام .

قوله تعالى : (فان تابوا) أي : من شركم .
وفي قوله : (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) قولان .
أحدهما : اعترفوا بذلك . والثاني : فعلوه .

فصل

واختلف علماء النسخ والمنسوخ في هذه الآية على ثلاثة أقوال .

(١) البيت غير منسوب في « اللسان » و « أساس البلاغة » ، مادة على . قال أبو مالك :
انفالي للحم : نشره غالباً ، ثم نبذله ونظمه إذا نضج في قدورنا .

أحدها : أن حكم الأسارى كان وجوب قتلهم ، ثم نسخ بقوله : (فامّا منّا بعدُ وإمّا فداءً) [محمد : ٤] ، قاله الحسن ، وعطاء في آخرين .
والثاني : بالعكس ، وأنه كان الحكم في الأسارى : أنه لا يجوز قتلهم صبراً ، وإمّا يجوز المن أو الفداء بقوله : (فامّا منّا بعدُ وإمّا فداءً) ثم نسخ بقوله : (فاقتلوا المشركين) ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثالث : أن الآيتين محكمتان ، والأسير إذا حصل في يد الإمام ، فهو مخير ، إن شاء من عليه ، وإن شاء فاداه ، وإن شاء قتله صبراً ، أي ذلك رأى فيه المصلحة للمسلمين فعل ، هذا قول جابر بن زيد ، وعليه عامة الفقهاء ، وهو قول الإمام أحمد .

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك) قال المفسرون : وإن أحد من المشركين الذين أمرتك بقتلهم استأمنك يبتغي أن يسمع القرآن وينظر فيما أمر به ونهى عنه ، فأجِرْهُ ، ثم أبلغه الموضع الذي يأمن فيه .

وفي قوله : (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) قولان .

أحدهما : أن المعنى : ذلك الذي أمرناك به من أن يُعْرَفُوا ويُجَارُوا لجهلهم بالعلم .
والثاني : ذلك الذي أمرناك به من رده إلى مأمنه إذا امتنع من الإيمان ، لأنهم قوم جهلة بخطاب الله .

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

قوله تعالى : (كيف يكون للمشركين عهد) أي : لا يكون لهم ذلك ، (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) وفيهم ثلاثة أقوال .
أحدها : أنهم بنو ضمرة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم قريش ، قاله ابن عباس أيضاً . وقال قتادة : هم مشركو قريش الذين عاهدتم نبي الله ﷺ زمن الحديبية ، فنكثوا وظاهروا المشركين .

والثالث : أنهم خزاعة ، قاله مجاهد . وذكر أهل العلم بالسيرة أن رسول الله ﷺ لما صالح سهيل بن عمرو في غزوة الحديبية ، كتب بينه وبينه : « هذا ما اصطلاح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو ، اصطلاحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه لا إسلال ولا إغلال ، وأن يننا عيبة مكفوفة » ، وأنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل ، وأنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وليه رده إليه ، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه ، وأن محمداً يرجع عنّا عامه هذا بأصحابه ، ويدخل علينا في قابل في أصحابه ، فيقيم بها ثلاثاً لا يدخل علينا بسلاح ، إلا سلاح المسافر ، السيوف في القرب » فوثبت خزاعة فقالوا : نحن ندخل في عهد محمد وعقده ، ووثبت بنو بكر فقالوا : نحن ندخل في عهد قريش وعقدها . ثم إن قريشاً أعانت بني بكر على خزاعة بالرجال والسلاح فبيتوا خزاعة ليلاً ، فقتلوا منهم عشرين رجلاً . ثم إن قريشاً ندمت على ما صنعت ، وعلموا أن هذا نقض للعهد والمدة التي بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وخرج قوم من خزاعة إلى رسول الله ﷺ فأخبروه بما أصابهم ، فخرج إليهم وكانت غزاة الفتح . قال أبو عبيدة : الإسلال : السرقة ، والإغلال : الخيانة . قال ابن الأعرابي : وقوله : « وأن يننا عيبة مكفوفة » مثل ، أراد : أن صلحنا

مُحْكَمٌ مُسْتَوْثَقٌ مِنْهُ ، كَأَنَّهُ عِيَّةٌ مُشْرِجَةٌ . وزعم بعض المفسرين أن قوله :
(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) نُسَخَ بقوله : (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ
حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) [التوبة : ٥] .

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وِلَا
ذِمَّةَ يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾
قوله تعالى : (كيف وإن يظهروا عليكم) قال الزجاج : المعنى : كيف
يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم ، فحذف ذلك ، لأنه قد سبق ، قال الشاعر :
وخبَّرْتُني أني أئتما الموتُ بالقرى فكيف وهذي هضبةٌ وقلبٌ ^(١)
أي : فكيف مات وليس بقرية ؟ ومثله قول الخطيئة :

فكيف ولم أعلمهمُ خذلوكمُ على مُعْظَمٍ وَلَا أَدِيمَكُمُ قَدْوَا ^(٢)
أي : فكيف تلوموني على مدح قوم ؟ واستغنى عن ذكر ذلك ، لأنه قد جرى
في القصيدة ما يدل على ما أخطر . وقوله : (يظهروا) يعني : يقدروا ويظفروا .
وفي قوله : (لا يرقبوا) ثلاثة أقوال .
أحدها : لا يحفظوا . والثاني : لا يخافوا ، قاله السدي . والثالث : لا يراعوا ،
قاله قطرب .

وفي الإلِ خمسة أقوال .

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي من مراثيه الشهيرة النبيلة في « الأصميات » : ٩٩ ،
و « طبقات فحول الشعراء » : ١٧٦ ، و « أمالي القاضي » : ١٥١/٢ ، و « جهرة أشعار العرب » :
١٣٥ ، و « معاني القرآن » للفراء : ٤٢٤/١ .

(٢) ديوانه ١٤٠ وفيه : على موطن ولا أديمكم قدوا . وقوله : خذلوكم على معظم ، قال
أبو عمرو : أي : لم يخذلوكم في أمر حدث . وقوله : ولا أديمكم قدوا ، أي : لم يبعوا
في حسبكم .

زاد السير ٣ م (٢٦)

أحدها : أنه القرابة ، رواه جماعة عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك ،
والسدي ، ومقاتل ، والفراء ، وأنشدوا :

إِنَّ الْوِشَاةَ كَثِيرٌ إِنْ أُطْعِمُوا لَا يَرْقُبُونَ بَنَاءَ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً

وقال الآخر :

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَالِ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ^(١)

والثاني : أنه الجوار ، قاله الحسن .

والثالث : أنه الله تعالى ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال عكرمة .

والرابع : أنه العهد ، رواه خصيف عن مجاهد ، وبه قال ابن زيد ، وأبو عبيدة .

والخامس : أنه الحلف ، قاله قتادة . وقرأ عبد الله بن عمرو ، وعكرمة ،

وأبو رجا ، وطلحة بن مصرف : « إِلَّا » بياء بعد الهمزة . وقرأ ابن السميع ،

والجحدري : « أَلَا » بفتح الهمزة وتشديد اللام . وفي المراد بالذمة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها العهد ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والضحاك

في آخرين .

والثاني : التزم مما لا عهد له ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد :

لَا يَرْقُبُونَ بَنَاءَ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً

والثالث : الأمان ، قاله اليزيدي ، واستشهد بقوله : « ويسعى بذمتهم

أدناهم »^(٢) .

(١) قاله حسان بن ثابت الأنصاري ، ديوانه : ٤٠٧ ، « واللسان » : « أَل » ، وهو من أبيات
هجا بها أباسفيان قبل إسلامه . والسقب : هو ولد الناقة ساعة يولد ، والرأل : ولد النعام ،
يقول : ما قرأتك في قريش إلا كقرابة الفصيل من ولد النعام ، أي : لست منهم في نسب .

(٢) « المسند » رقم : ٩٥٩ ، وأبو داود رقم : ٤٥٣٠ ، والنسائي ٢٠/٨ ، كلهم من حديث
علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو جزء من حديث طويل ، وسنده صحيح .

قوله تعالى : (يرضونكم بأفواههم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : يرضونكم بأفواههم في الوفاء ، وتأبى قلوبهم إلا النذر .

والثاني : يرضونكم بأفواههم في العدة بالإيمان ، وتأبى قلوبهم إلا الشرك .

والثالث : يرضونكم بأفواههم في الطاعة ، وتأبى قلوبهم إلا المعصية ،

ذكرهن الماوردي .

قوله تعالى : (وأكثرهم فاسقون) قال ابن عباس : خارجون عن الصّدق ،

ناكثون للعهد .

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِنْ تَنَابَوْا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَاخْذُوا مِنْكُمْ فِي الدِّينِ وَفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً) في المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان على طعامه ، قاله مجاهد .

والثاني : أنهم قوم من اليهود ، قاله أبو صالح . فعلى الأول ، آيات الله :

حججه . وعلى الثاني : هي آيات التوراة . والثنى القليل : ما حصلوه بدلاً من الآيات . وفي وصفه بالقليل وجهان .

أحدهما : لأنه حرام ، والحرام قليل . والثاني لأنه من عَرْض الدنيا الذي

بقاؤه قليل . وفي قوله : (فصدوا عن سبيله) ثلاثة أقوال .

أحدها : عن بيته ، وذلك حين منعوا النبي ﷺ بالحديبية دخول مكة .

والثاني : عن دينه بمنع الناس منه . والثالث : عن طاعته في الوفاء بالعهد .

﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ *

قوله تعالى : (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ) قال ابن عباس : نزلت في أبي سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة ابن أبي جهل ، وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد حين أعانوا بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ، فأمر رسول الله ﷺ أن يسير إليهم فينصر خزاعة ، وهم الذين همّوا باخراج رسول الله ﷺ . فأما النكث ، فعناه : النقض . والأيمان هاهنا : العهد . والظمن في الدين : أن يمازج ، وهذا يوجب قتل الذي إذا ظمن في الإسلام ، لأن المأخوذ عليه أن لا يظمن فيه .

قوله تعالى : (فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ) قرأ عاصم ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي « أَتِمَّة » بتحقيق المهمزتين . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : بتحقيق الأولى وتلين الثانية . والمراد بأتممة الكفر : رؤوس المشركين وقادتهم . (إنهم لا أيمان لهم) أي : لا عهد لهم صادقة ؛ هذا على قراءة من فتح الألف ، وهم الأكثرون . وقرأ ابن عامر « لَا إِيْمَانُ لَهُمْ » بالكسر^(١) ؛ وفيها وجهان ذكرهما الزجاج .

أحدهما : أنه وصف لهم بالكفر ونفي الإيمان ، والثاني : لا أمان لهم ، تقول : آمنته إيماناً ، والمعنى : فقد بطل أمانكم لهم بنقضهم .

(١) قال أبو جعفر الطبري : والصواب من القراءة في ذلك الذي لا أستجيز القراءة بغيره ، قراءة من قرأ بفتح الألف ، دون كسرها ، لاجتماع الحجة من القراءة على القراءة به ، ولإجماع أهل التأويل على ما ذكرت من أن تأويله : لا عهد لهم ، والإيمان التي بمعنى العهد ، لا تكون إلا بفتح الألف ، لأنها جمع يمين كانت على عقد كان بين المتواعدين .

وفي قوله : (لعلهم ينتهون) قولان .

أحدهما : عن الشرك . والثاني عن نقض اليهود .

وفي « لعل » قولان .

أحدهما : أنها بمعنى الترجي ، المعنى : ليرجى منهم الانتهاء ، قاله الزجاج .

والثاني : أنها بمعنى : « كي » ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَسَكُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ أَخَشَوْهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ألا تقاتلون قوماً) قال الزجاج : هذا على وجه التويع ،

ومعناه الحض على قتالهم . قال المفسرون : وهذا نزل في نقض قريش عهد رسول الله ﷺ الذي عاهدوا بالحديبية حيث أعانوا على خزاعة .

وفي قوله : (وهم بدؤوكم أول مرة) قولان .

أحدهما : أنهم أبو سفيان في جماعة من قريش ، كانوا فيمنهم بإخراج

النبي ﷺ من مكة .

والثاني : أنهم قوم من اليهود ، غدروا برسول الله ﷺ ، ونقضوا عهده

وهموا بعمالة المنافقين على إخراجهم من المدينة .

قوله تعالى : (وهم بدؤوكم أول مرة) فيه قولان .

أحدهما : بدؤوكم باعانتهم على حلفائكم ، قاله ابن عباس .

والثاني : بالقتال يوم بدر ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (أَتَخْشَوْنَ) قال الزجاج : أَتَخْشَوْنَ أَنْ يَنَالَكُمْ مِنْ قِتَالِهِمْ مَكْرُوهُ ؟ ! فمكروه عذاب الله أحق أن يُخشى إن كنتم مصدقين بعذابه ونوابه .
قوله تعالى : (ويشف صدور قوم مؤمنين) قال ابن عباس ، ومجاهد :
يعني خزاعة .

قوله تعالى : (وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) أي : كَرَبَهَا وَوَجَدَهَا بِمَعُونَةِ قُرَيْشِ بْنِ بَكْرٍ عَلَيْهَا .

قوله تعالى : (وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ) قال الزجاج : هو مستأنف ، وليس بجواب « قَاتِلُوهُمْ » . وفيمن عُنِيَ به قولان .
أحدهما : بنو خزاعة ، والمعنى : ويتوب الله على من يشاء من بني خزاعة ،
قاله عكرمة .

والثاني : أنه عام في المشركين كما تاب على أبي سفيان ، وعكرمة ،
وسهيل . (والله عليم) بنيات المؤمنين ، (حكيم) فيما قضى .
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا) في المخاطب بهذا قولان .
أحدهما : أنهم المؤمنون ، خوطبوا بهذا حين شق على بعضهم القتال ،
قاله الأكثرون .

والثاني : أنهم قوم من المنافقين كانوا يسألون رسول الله ﷺ الخروج معه إلى الجهاد تعذيراً ، قاله ابن عباس . وإنما دخلت الميم في الاستفهام ، لأنه استفهام

معترض في وسط الكلام ، فدخلت لتفرق بينه وبين الاستفهام المبتدأ . قال الفراء :
ولو أريد به الابتداء ، لكان إما بالألف ، أو بـ « هل » ، ومعنى الكلام : أن
تتركوا بغير امتحان يبين به الصادق من الكاذب . (ولما يعلم الله) أي : ولم
تجاهدوا فيعلم الله وجود ذلك منكم ؛ وقد كان يعلم ذلك غيباً ، فأراد إظهار ما علم
ليجازي على العمل .

فأما الوليجة ، فقال ابن قتيبة : هي البطانة من غير المسلمين ، وهو أن
يتخذ الرجل من المسلمين دخيلاً من المشركين وخليطاً وواذاً ؛ وأصله من
الولوج . قال أبو عبيدة : وكل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة ، والرجل
يكون في القوم وليس منهم فهو وليجة فيهم .

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَمْعُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى
أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ .
إِنَّمَا يَمْعُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ
وَأَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ
الْمُهْتَدِينَ ﴾

قوله تعالى : (ما كان للمشركين أن يعمروا مسجداً لله) قرأ ابن كثير ،
وأبو عمرو : « مسجد الله » على التوحيد ، « إنما يعمروا مسجداً لله » على الجمع .
وقرأ عاصم ، ونافع ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي على الجمع فيهما . وسبب
نزولها أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر فيهم العباس بن عبد المطلب ،
فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فمَيَّرُوهم بالشِّرك ، وجعل علي بن
أبي طالب يوبِّخُ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم ، فقال العباس :
ما لكم تذكرون مساوئنا ونكتمون محاسننا ؟ فقالوا : وهل لكم من محاسن ؟ قالوا :

نعم ، لنحن أفضل منكم أجراً ؛ إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحج الكعبة ، ونسقي الحبيص ، ونفك العاني ، فنزلت هذه الآية ^(١) ، قاله مقاتل في جماعة .

وفي المراد بالعبارة قولان .

أحدهما : دخوله والجلوس فيه . والثاني : البناء له وإصلاحه ؛ فكلاهما محذور على الكافر . والمراد من قوله : (ما كان للمشركين) أي : يجب على المسلمين منعهم من ذلك . قال الزجاج : وقوله : (شاهدين) حال . المعنى : ما كانت لهم عمارته في حال إقرارهم بالكفر ، (أولئك حبطت أعمالهم) لأن كفرهم أذهب ثوابها . فان قيل : كيف يشهدون على أنفسهم بالكفر ، وهم يعتقدون أنهم على الصواب ؟ فنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه قول اليهودي : أنا يهودي ، وقول النصراني : أنا نصراني ، قاله السدي .

والثاني : أنهم نبتوا على أنفسهم الكفر بعدولهم عن أمر النبي ﷺ ، وهو حق لا يخفى على مميز ، فكانوا بمنزلة من شهد على نفسه .

والثالث : أنهم آمنوا بأنبياء شهدوا لمحمد ﷺ بالتصديق ، وحرّضوا على اتّباعه ، فلما آمنوا بهم وكذبوه ، دلّشوا على كفرهم ، وجرى ذلك بجرى الشهادة على أنفسهم بالكفر ، لأن الشهادة هي تبين وإظهار ، ذكرها ابن الأنباري . فان قيل : ماوجه قوله : (إنا نعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) ولم يذكر الرسول ، والإيمان لا يتم إلا به ؟ فالجواب : أن فيه دليلاً على الرسول ، لقوله : (وأقام الصلاة) أي : الصلاة التي جاء بها الرسول ، قاله الزجاج . فان قيل : (فمسي) ترج ، وفاعل هذه المخلص مهتد بلا شك . فالجواب : أن « عسى »

(١) « أسباب النزول » ، للواحي ١٣٩ .

من الله واجبة ، قاله ابن عباس . فان قيل : قد يعمر مساجد الله من ليس فيه هذه الصفات . فالجواب : أن المراد أنه من كان على هذه الصفات المذكورة ، كان من أهل عمارتها ؛ وليس المراد أن من عمرها كان بهذه الصفة .

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (أجعلتم سقاية الحاج) في سبب نزولها ستة أقوال .

أحدها : رواه مسلم في « صحيحه » من حديث النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ ، فقال رجل : ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد [الاسلام إلا] أن أسقي الحاج ، وقال الآخر : ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد [الاسلام إلا] أن أعمر المسجد الحرام ، وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قتلتم ، فزجرهم عمر ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ، وهو يوم الجمعة ، ولكني إذا صليت الجمعة ، دخلت فاستفتيت رسول الله فيما اختلفتم فيه ، فنزلت هذه الآية ^(١) .

(١) د الطبري ، : ١٤/١٦٩ ، ومسلم : ٢٦/١٣ ، وأورده السيوطي في الدر ، ٣/٢١٨

وزاد نسبه لابي داود ، وابن المنذر ، وابن ابي حاتم ، وابن حبان ، والطبراني ، وابي الشيخ ، وابن مردويه .

والثاني : أن العباس بن عبد المطلب قال يوم بدر : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد ، لقد كنا نعمّر المسجد الحرام ونسقي الحاج وتلك العاني^(١) ، فنزلت هذه الآية^(٢) ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أن المشركين قالوا : عمارة بيت الله الحرام ، والقيام على السقاية ، خير ممن آمن وجاهد ، وكانوا يفتخرون بالحرم من أجل أنهم أهله ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطية العوفي عن ابن عباس .

والرابع : أن علياً والعباس وطلحة - يعني سادن الكعبة - افتخروا ، فقال طلحة : أنا صاحب البيت ، يدي مفتاحه ، ولو أشاء بت فيه . وقال العباس : أنا صاحب السقاية ، والقائم عليها ، ولو أشاء بت في المسجد . وقال علي : ما أدري ما تقولون ، لقد صليت ستة أشهر قبل الناس ، وأنا صاحب الجهاد ، فنزلت هذه الآية ، قاله الحسن ، والشعبي ، والقرظي .

والخامس : أنهم لما أمروا بالهجرة قال العباس : أنا أسقي الحاج ، وقال طلحة : أنا صاحب الكعبة فلا نهجر ، فنزلت هذه الآية والتي بعدها ، قاله مجاهد . هكذا ذكر مجاهد ، وإنما الصواب عثمان بن طلحة ، لأن طلحة هذا لم يسلم .

والسادس : أن علياً قال للعباس : ألا تلتحق بالنبي ﷺ ؟ فقال : أأست في أفضل من الهجرة ، أأست أسقي حاج بيت الله وأمر المسجد الحرام ؟ فنزلت هذه الآية والتي بعدها ، قاله مروة الهمداني ، وابن سيرين . قال الزجاج : ومعنى الآية : أجطم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله ؟ فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه . قال الحسن : كان يُنبذ زبيب ، فيسقون

(١) العاني : الأسير .

(٢) « الطبري » ١٤ / ١٧٠ وعلي ابن أبي طلحة لم يدرك ابن عباس .

الحاج في الموسم . وقال ابن عباس : عمارة المسجد : تجميره ، وتخليقه ، فأخبر الله أن أفعالهم تلك لا تنفعهم مع الشرك ، وسماهم ظالمين لشركهم .

قوله تعالى : (أعظم درجة) قال الزجاج : هو منصوب على التمييز . والمعنى : أعظم من غيرهم درجة . والفائز : الذي يظفر بأمنيته من الخير . فأما النعيم ، فهو لين العيش ، والمقيم : الدائم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء) في سبب نزولها خمسة أقوال . أحدها : أنه لما أمر المسلمون بالهجرة ، جعل الرجل يقول لأهله : إنا قد أمرنا بالهجرة ، فمنهم من يسرع إلى ذلك ، ومنهم من يتعلق به عياله وزوجته فيقولون : ننشدك الله أن تدعنا إلى غير شيء ، فيرق قلبه فيجلس معهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنه لما أمر الله المؤمنين بالهجرة ، قال المسلمون : يابني الله ، إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين ، قطعنا آباءنا وعشائرنا ، وذهبت تجارتنا ، وخربت ديارنا ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : أنه لما قال العباس : أنا أسقي الحاج ، وقال طلحة : أنا أحجب الكعبة فلا نهاجر ، نزلت هذه الآية والتي قبلها ، هذا قول قتادة ، وقد ذكرناه عن مجاهد .

والرابع : أن قرأ ارتدوا عن الاسلام ولحقوا بمكة ، فهي الله عن ولايتهم ، وأنزل هذه الآية ، قاله مقاتل .

والخامس : أن النبي ﷺ لما أمر الناس بالجهاز لنصرة خزاعة على قريش ، قال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، نعاونهم على قومنا ؟ فنزلت هذه الآية ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل إن كان آباؤكم ...) الآية ، في سبب نزولها ثلاثة أقوال . أحدها : أنها نزلت في الذين تخلفوا مع عيالهم بمكة ولم يهاجروا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن علي بن أبي طالب قدم مكة ، فقال لقوم : ألا تهاجرون ؟ فقالوا : نقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن سيرين . والثالث : أنه لما نزلت الآية التي قبلها ، قالوا : يا رسول الله ، إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين ، قطعنا آباءنا وعشيرتنا ، وذهبت تجارتنا ، وخربت ديارنا ، فنزلت هذه الآية ، ذكره بعض المفسرين في هذه الآية ، وذكره بعضهم في الآية الأولى كما حكيناه عن ابن عباس . فأما المشيرة ، فهم الأقارب الأدنون . وروى أبو بكر عن عاصم « وعشيرتكم » على الجمع . قال أبو علي : وجهه أن كل واحد من المخاطبين له عشيرة ، فإذا جمعت قلت : عشيرتكم ؛ وحجة من أفرد : أن المشيرة واقعة على الجمع ، فاستغنى بذلك عن جمعها . وقال الأخفش : لا تكاد

المرب تجمع عشيرة : عشيرات ، إنما يجمعونها على عشائر . والاقتراف بمعنى الاكتساب . والترص : الانتظار .

وفي قوله : (حتى يَأْتِيَ الله بأمره) قولان .

أحدهما : أنه فتح مكة ، قاله مجاهد والأكثر ، ومعنى الآية : إن كان المقيم في أهاليكم ، وكانت الأموال التي اكتسبتموها (وتجارة تحشون كسادها) لفرافكم بدمكم (ومساكن ترضونها أحب إليكم) من الهجرة ، فأقيموا غير مثاين حتى تفتح مكة ، فيسقط فرض الهجرة .

والثاني أنه العقاب ، قاله الحسن .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَبِیَوْمٍ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة) أي : في أماكن . قال الفراء : وكل جمع كانت فيه ألف قبلها حرفان وبعدها حرفان لم يُجَرَّ^(١) ، مثل ، صوامع ، ومساجد . وجُري « حنين » لأنه اسم لمذكر ، وهو وادي بين مكة والطائف ، وإذا سُميت ماءً أو وادياً أو جبلاً باسم مذكر لا علّة فيه ، أجريته ، من ذلك : حنين ، وبدر ، وحراء ، وثبير ، ودابق^(٢) . ومعنى الآية : أن الله عز وجل أعلمهم أنهم إنما يفلحون بنصر الله لا بكثرتهم . وفي عددهم يوم حنين أربعة أقوال . أحدها : أنهم كانوا ستة عشر ألفاً ، رواه عطاء عن ابن عباس . والثاني : عشرة آلاف ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

(١) إجراء الاسم عند الكوفيين : صرفه وتنوينه ، وعدم إجرائه : منع صرفه .

(٢) دابق : قرية من قرى حلب .

والثالث : كانوا اثني عشر ألفاً ، قاله قتادة ، وابن زيد ، وابن إسحاق ، والواقدي .

والرابع : أحد عشر ألفاً وخمسمائة ، قاله مقاتل . قال ابن عباس : فقال ذلك اليوم سلمة بن سلامة بن وقش ، وقد عجب لكثرة الناس : لن تُغلب اليوم من قِلَّة ، فسأه رسول الله ﷺ كلامه ، ووكلوا إلى كلمة الرجل ، فذلك قوله : (إذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً) . وقال سعيد بن المسيب : القائل لذلك أبو بكر الصديق . وحكى ابن جرير أن القائل لذلك رسول الله ﷺ . وقيل : بل العباس . وقيل : رجل من بني بكر .

قوله تعالى : (وضاعت عليكم الأرض بما رحبت) أي : برحبها . قال الفراء : والباء ها هنا بمنزلة « في » كما تقول : ضاعت عليكم الأرض في رحبها وبرحبها .

الإشارة إلى القصة

قال أهل العلم بالسيرة : لما فتح رسول الله ﷺ مكة ، تأمر عليه أشراف هوازن وتقيف ، فجاءوا حتى نزلوا أوطاس^(١) ، وأجمعوا المسير إليه ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ ، فلما التقوا أعجبهم كثرتهم فهزموها .

وقال البراء بن عازب : لما حملنا عليهم انكشفوا ، فأكبنا على الغنائم ، فأقبلوا بالسهم ، فانكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ^(٢) . وبعضهم يقول :

(١) أوطاس : واد في ديار هوازن .

(٢) البخاري : ٢٤/٨ ، ومسلم : ١٢١/١٢ .

ثبت مع رسول الله ﷺ يومئذ جماعة من أصحابه منهم أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، والعباس ، وأبو سفيان بن الحارث .

وبعضهم يقول : لم يبق معه سوى العباس وأبي سفيان ، فجعل النبي يقول للعباس : « ناد : يامعشر الأنصار ، يا أصحاب السمرة ، يا أصحاب سورة البقرة » فنادى ، وكان صيِّتاً ، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حُتَّتْ إلى أولادها ، يقولون : يا ليليك ، فنظر النبي ﷺ إلى قتالهم ، فقال : « الآن حمي الوطيس ، أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » ثم قال للعباس : « ناولني حصيات » فناوله ، فقال : « شاهدت الوجوه » ورمى بها ، وقال : « انهزموا ورب الكعبة » ، فقذف الله في قلوبهم الرعب فانهمزموا ^(١) . وقيل : أخذ رسول الله ﷺ كفاً من تراب ، فرماه به فانهمزموا . وكانوا يقولون : ما بقي منا أحد إلا امتلأت عيناه بالتراب ^(٢) .

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ثم أنزل الله سكينته) أي : بعد الهزيمة . قال أبو عبيدة : هي فَمَيْلَةٌ من السكون ، وأنشد :

(١) « مسند أحمد » رقم ١٧٧٥ بنحوه ، ورواه مسلم ١١٥/١٢ - ١١٧ بنحوه أيضاً . وذكره الطبري ١٨٢/١٤ - ١٨٣ ، ورواه الحاكم في « المستدرک » ٣/٣٢٧ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٣/٢٢٤ - ٢٢٥ ، وزاد نسبه لعبد الرزاق ، وابن سعد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

(٢) « مسند أحمد » ٢٨٦/٥ عن أبي عبد الرحمن الفهري ، والطبري في « التفسير » ١٨٥/١٤ ، وخرجه الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٨١/٦ - ١٨٢ : رجاله البزار ، والطبراني ، ورجاله ثقات .

لَّهِ قَبْرٌ غَالِهَا مَاذَا يُجِنُّ لَقَدْ أُجِنَّ سَكِينَةً وَوَقَارًا^(١)
وكذلك قال المفسرون : الأمن والطمأنينة .

قوله تعالى : (وأنزل جنوداً لم تروها) قال ابن عباس : يعني الملائكة .
وفي عدد دم يومئذ ثلاثة أقوال .

أحدها : ستة عشر ألفاً ، قاله الحسن . والثاني : خمسة آلاف ، قاله سميد
ابن جبير . والثالث : ثمانية ، قاله مجاهد ، يعني : ثمانية آلاف . وهل قاتلت الملائكة
يومئذ ، أم لا ؟ فيه قولان .

وفي قوله : (وعذب الذين كفروا) أربعة أقوال .

أحدها : بالقتل ، قاله ابن عباس ، والسدي . والثاني : بالقتل والهزيمة ، قاله
ابن أبي ، ومقاتل . والثالث : بالخوف والحذر ، ذكره الماوردي . والرابع : بالقتل ،
والأسر ، وسي الأولاد ، وأخذ الأموال ، ذكره بعض ناقلي التفسير .

قوله تعالى : (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) أي : يوفقه
للتوبة من الشرك .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ
يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إنما المشركون نجس) قال أبو عبيدة : معناه : قذر . قال
الزجاج : يقال لكل شيء مستقذر : نجس . وقال الفراء : لا تكاد العرب تقول :
نجس ، إلا وقبلها رجس ، فإذا أفردوها قالوا : نجس .

(١) البيت لأبي عريف الكلبي في « مجاز القرآن » ، ٢٥٥/١ ، و « اللسان » : سكن .

وفي المراد بكونهم نجساً ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أنجاس الأبدان ، كالكلب والخنزير ، حكاه الماوردي عن الحسن ، وعمر بن عبد العزيز . وروى ابن جرير عن الحسن قال : من صافحهم فليتوضأ .
والثاني : أنهم كالأنجاس لتركهم ما يجب عليهم من غسل الجنابة ، وإن لم تكن أبدانهم أنجاساً ، قاله قتادة .

والثالث : أنه لما كان علينا اجتنابهم كما تجتنب الأنجاس ، صاروا بحكم الاجتناب كالأنجاس ، وهذا قول الأكثرين ، وهو الصحيح .

قوله تعالى : (فلا يقربوا المسجد الحرام) قال أهل التفسير : يريد جميع الحرم . (بعد عامهم هذا) وهو سنة تسع من الهجرة ، وهي السنة التي حج فيها أبو بكر وقرئت (براءة) . وقد أخذ أحمد رضي الله عنه بظاهر الآية ، وأنه يحرم عليهم دخول الحرم ، وهو قول مالك ، والشافعي . واختلفت الرواية عنه في دخولهم غير المسجد الحرام من المساجد ، فروي عنه المنع أيضاً إلا الحاجة ، والحرم ، وهو قول مالك . وروى عنه جواز ذلك ، وهو قول الشافعي . وقال أبو حنيفة : يجوز لهم دخول المسجد الحرام ، وسائر المساجد .

قوله تعالى : (وإن خفتم عيلة) وقرأ سعد بن أبي وقاص ، وابن مسعود ، والشعبي ، وابن السميع : « عيلة » . قال سعيد بن جبير : لما نزلت (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) شقَّ على المسلمين ، وقالوا : مَنْ يأتينا بطعامنا ؟ وكانوا يقدِّمون عليهم بالتجارة ، فنزلت (وإن خفتم عيلة ..) الآية . قال الأخفش : العيلة : الفقر . يقال : عال يعيل عَيْلة : إذا افتقر . وأعال إعالة فهو

يُعِيل : إذا صار صاحب عيال . وقال أبو عبيدة : العيلة هاهنا مصدر عال فلان : إذا افتقر ، وأنشد :

وما يَدْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وما يَدْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُ ^(١)

وللمفسرين في قوله : « وإن » قولان .

أحدهما : أنها للشرط ، وهو الأظهر .

والثاني : أنها بمعنى « وإذا » ، قاله عمرو بن فايد . قالوا : وإنما خاف المسلمون الفقر ، لأن المشركين كانوا يحملون التجارات إليهم ، ويحيثون بالطعام وغيره . وفي قوله : (فسوف يفتنكم الله من فضله إن شاء) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أنزل عليهم المطر عند انقطاع المشركين عنهم ، فكثير خيرهم ،

قاله عكرمة .

والثاني : أنه أغناهم بالجزية المأخوذة من أهل الكتاب ، قاله قتادة ، والضحاك .

والثالث : أن أهل نجد ، وجرش ، وأهل صنعاء أسلموا ، فحملوا الطعام

إلى مكة على الظهر ، فأغناهم الله به ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (إن الله عليم) قال ابن عباس : عليم بما يصلحكم ، (حكيم)

فيما حكم في المشركين .

(١) البيت لأحيحة بن الجلاح في « مجاز القرآن » لأبي عبيدة ٢٥٥/١ ، و « معاني القرآن » ،

للغراء : ٢٥٥ ، و « جهرة أشعار العرب » ، ١٢٥ ، و « اللسان » و « التاج » ، عيل ، وهو من

قصيدته التي قالها في حرب بينه وبين قومه من الأوس وبني النجار من الخزرج ، قتل فيها

أخوه ، وكانت عنده امرأته سلمى بنت عمرو بن زيد التجارية ، فحذرت قومه ما يحيي

أحيحة وقومه من الأوس ، فضربها حتى كسر يدها وطلقها ، وبعد هذا البيت قرين له :

وما تَدْرِي إِذَا أَجْمَعْتَ أَمْرًا بأيُّ الأَرْضِ يَدْرُكَكَ الْمَقِيلُ

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا
 يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ
 الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ
 سَاغِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله) قال المفسرون : نزلت في اليهود
 والنصارى . قال الزجاج : ومضاهها : لا يؤمنون بالله إيمان الموحدين ، لأنهم أقرؤا
 بأنه خالقهم وأنه له ولد ، وكذلك إيمانهم بالبعث لأنهم لا يقرؤن بأن أهل الجنة
 يأكلون ويشربون . وقال الماوردي : إقرارهم باليوم الآخر يوجب الإقرار بحقوقه ،
 وهم لا يقرؤن بها ، فكانوا كمن لا يقر به .

قوله تعالى : (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) قال سعيد بن جبير :
 يعني الحر والخزير .

قوله تعالى : (ولا يدينون دين الحق) في الحق قولان .

أحدهما : أنه اسم الله ، فالمعنى : دين الله ، قاله قتادة .

والثاني : أنه صفة للدين ، والمعنى : ولا يدينون الدين الحق^(١) ؛ فأضاف

الاسم إلى الصفة . وفي معنى « يدينون » قولان .

(١) قال ابن كثير ٣٤٧/٢ : فهم في نفس الامر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان
 صحيح بأحد من الرسل ، ولا بما جاؤوا به ، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فديما م
 فيه ، لا لأنه شرع الله ودينه ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا ، أقام ذلك
 إلى الايمان بمحمد ﷺ ، لأن جميع الأنبياء بشروا به ، وأمرؤا باتباعه ، فلما جاء وكفروا
 به وهو أشرف الرسل ، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله ،
 بل لحظوظهم وأهوائهم ، فهذا لا ينعهم إيمانهم بيقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم
 وخاتمهم وأكملهم .

أحدهما : أنه بمعنى الطاعة ، والمعنى : لا يطيعون الله طاعةً حقاً ، قاله أبو عبيدة .
والثاني : أنه من : دان الرجل يدين كذا : إذا التزمه . ثم في جملة الكلام قولان .
أحدهما : أن المعنى : لا يدخلون في دين محمد ﷺ ، لأنه فاسخ لما قبله .
والثاني : لا يعملون بما في التوراة من اتباع محمد ﷺ .

قوله تعالى : (حتى يعطوا الجزية) قال ابن الأنباري : الجزية : الخراج المجمعول عليهم ؛ سميت جزية ، لأنها قضاء لما عليهم ؛ أخذ من قولهم : جَزَى يَجْزِي : إذا قضى ؛ ومنه قوله تعالى : (لا تَجْزِي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً) [البقرة : ٤٨] ، وقوله : « ولا تَجْزِي عن أحدٍ بعدك » ^(١) . وفي قوله : (عن يدٍ) ستة أقوال .
أحدها : عن قهر ، قاله قتادة ، والسدي . وقال الزجاج : عن قهر وذل .
والثاني : أنه النقد الباجل ، قاله شريك ، وعثمان بن مقسم .
والثالث : أنه إعطاء المبتدئ بالعطاء ، لا إعطاء المكافئ ، قاله ابن قتيبة .
والرابع : أن المعنى : عن اعتراف المسلمين بأن أيديهم فوق أيديهم .
والخامس : عن إنعام عليهم بذلك ، لأن قبول الجزية منهم إنعام عليهم ، حكاهما الزجاج .

والسادس : يؤدونها بأيديهم ، ولا ينفذونها مع رسلهم ، ذكره الماوردي .

(١) هو قطعة من حديث طويل ، فقد روى البخاري ١٥/١٠ ، ومسلم ٣/١٥٥٣ واللفظ له عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما نبأ به في يومنا هذا (يعني يوم عيد الأضحى) نصلي ، ثم نرجع فننحر ، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ، ومن دبح ، (يعني قبل صلاة العيد) فأفأ هو لحم قدمه لأهله ، ليس من النسك في شيء ، وكان أبو بردة بن نيار (خال البراء ابن عازب) قد ذبح (يعني قبل الصلاة) فقال : « عندي جذعة خير من سنة » فقال : ادبحها ولن تجزي عن أحد بعدك » .

قوله تعالى : (وهم صاغرون) الصاغر : الذليل الحقير .

وفي ما يُكَلِّفُونَهُ من الفعل الذي يوجب صغارهم خمسة أقوال .

أحدها : أن يمشوا بها مُلَبَّيْن ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : أن لا يُحمدوا على إعطائهم ، قاله سلمان الفارسي . والثالث : أن يكونوا قياماً والآخذ جالساً ، قاله عكرمة . والرابع : أن دفع الجزية هو الصغار . والخامس : أن إجراء أحكام الإسلام عليهم هو الصغار .

❦ فصل ❦

واختلف في الدين تؤخذ منهم الجزية من الكفار ، فالمشهور عن أحمد : أنها لا تقبل إلا من اليهود والنصارى والمجوس ، وبه قال الشافعي . ونقل الحسن بن ثواب عن أحمد : أنه من سُبِي من أهل الأديان من العرب والعجم ، فالعرب إن أسلموا ، وإلا السيف ، وأولئك إن أسلموا ، وإلا الجزية ؛ فظاهر هذا أن الجزية تؤخذ من الكل ، إلا من عابدي الأوثان من العرب فقط ، وهو قول أبي حنيفة ، ومالك .

❦ فصل ❦

فأما صفة الدين تؤخذ منهم الجزية ، فهم أهل القتال . فأما الزَّمنُ ، والأعمى ، والمفلوج ، والشيخ الفاني ، والنساء ، والصبيان ، والراهب الذي لا يتخالط الناس ، فلا تؤخذ منهم .

﴿ فصل ﴾

فأما مقدارها ، فقال أصحابنا : على الموسر : ثمانية وأربعون درهماً ، وعلى المتوسط : أربعة وعشرون ، وعلى الفقير المتمثل : اثنا عشر ، وهو قول أبي حنيفة . وقال مالك : على أهل الذهب أربعة دنانير ، وعلى أهل الورق أربعون درهماً ، وسواء في ذلك الغني والفقير . وقال الشافعي : على الغني والفقير دينار ، وهل تجوز الزيادة والنقصان مما يؤخذ منهم ؛ نقل الأثر عن أحمد : أنها تزداد وتنقص على قدر طاقتهم ، فظاهر هذا : أنها على اجتهاد الإمام ورأيه . ونقل يعقوب بن يحنان^(١) : أنه لا يجوز للإمام أن ينقص من ذلك ، وله أن يزيد .

﴿ فصل ﴾

ووقت وجوب الجزية : آخر الحول ، وبه قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : تجب في أول الحول . فأما إذا دخلت سنة في سنة ، فهل تسقط جزية السنة الماضية ؛ عندنا لا تسقط . وقال أبو حنيفة : تسقط . فأما إذا أسلم ، فإنها تسقط بالإسلام . فأما إن مات ؛ فكان ابن حامد يقول : لا تسقط . وقال القاضي أبو يعلى : يحتمل أن تسقط .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

(١) هو يعقوب بن إسحاق بن يحنان أحد تلامذة الإمام أحمد ترجمته في « طبقات

فوله تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمة : « عزيرُ ابن الله » بغير تنوين . وقرأ عاصم ، والكسائي ، ويعقوب ، وعبد الوارث عن أبي عمرو : منوناً . قال مكِّي بن أبي طالب : من نوّن عزيراً رفعه على الابتداء ، و « ابن » خبره . ولا يحسن حذف التنوين على هذا من « عزير » لالتقاء الساكنين . ولا تحذف ألف « ابن » من الخط ، ويكسر التنوين لالتقاء الساكنين . ومن لم ينون « عزيراً » جـله أيضاً مبتدأ ، و « ابن » صفة له ؛ فيُحذف التنوينُ على هذا استخفافاً لالتقاء الساكنين ، ولأن الصفة مع الموصوف كالشيء الواحد ، وتحذف ألف « ابن » من الخط ، والخبر مضمّر تقديره : عزير بن الله نبينا وصاحبنا . وسبب نزولها أن سلام بن مشكم ، ونعمان بن أوفى ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف ، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : كيف تتبّعك وقد تركت قبلتنا ، وأنت لاتزعم أن عزير ابن الله ؟ فنزلت هذه الآية ^(١) ، قاله ابن عباس . وقال ابن عمر ، وابن جريج : إن القائل لذلك فنحاص . فأما العزير ، فقال شيخنا أبو منصور اللغوي : هو اسم أعجمي معرب ، وإن وافق لفظ العربية ، فهو عبراني ؛ كذا قرأته عليه . وقال مكِّي بن أبي طالب : العزير عند كل النحويين : عربي مشتق من قوله : يعزروه . وقال ابن عباس : إنما قالوا ذلك ، لأنهم لما عملوا بغير الحق ، أنساهم الله التوراة ، ونسخها من صدورهم ، فدعا عزير الله تعالى ؛ فعاد إليه الذي نسخ من صدورهم ، ونزل نور من السماء فدخل جوفه ، فأذّن في قومه فقال : قد آتاني الله التوراة ؛ فقالوا : ما أوتيها إلا لأنه ابن الله . وفي رواية أخرى عن ابن عباس : أن يختصر

(١) « الطبري » ٢٠٢/١٤ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٢٢٩/٢ ، وزاد نسبه لابن إسحاق ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عباس .

لما ظهر على بني إسرائيل، وهدم بيت المقدس ، وقتل من قرأ التوراة ، كان عزيز غلاماً ، فتركه . فلما توفي عزيز بابل ، ومكث مائة عام ، ثم بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل ، فقال : أنا عزيز ؛ فكذبوه وقالوا : قد حدثنا آباؤنا أن عزيزاً مات ببابل ، فإن كنتَ عزيزاً فأملل علينا التوراة ؛ فكتبها لهم ؛ فقالوا : هذا ابن الله . وفي الذين قالوا هذا عن عزيز ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم جميع بني إسرائيل ، روي عن ابن عباس . والثاني : طائفة من سلفهم ، قاله الماوردي . والثالث : جماعة كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، وفيهم قولان . أحدهما : فتخاص وجده ، وقد ذكرناه عن ابن عمر ، وابن جريج .

والثاني : الذين ذكرناهم في أول الآية عن ابن عباس . فان قيل : إن كان قول بعضهم ، فلم أضيف إلى جميعهم ؛ فعنه جوابان . أحدهما : أن إيقاع اسم الجماعة على الواحد معروف في اللغة ، تقول العرب : جئت من البصرة على البغال ، وإن كان لم يركب إلا بئلاً واحداً . والثاني : أن من لم يقله ، لم ينكره .

قوله تعالى : (وقالت النصارى المسيح ابن الله) في سبب قولهم هذا قولان . أحدهما : لكونه ولد من غير ذكر .

والثاني : لأنه أحى الموتى ، وأبرأ الكُمه والبُرس ؛ وقد شرحنا هذا المعنى في (المائدة : ١١٠) .

قوله تعالى : (ذلك قولهم بأفواههم) إن قال قائل : هذا معلوم ، فافئدته ؛ فالجواب : أن المعنى : إنه قول بالفم ، لا بيان فيه ، ولا برهان ، ولا تحته معنى صحيح ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (يضاهون) قرأ الجمهور : من غير همز . وقرأ عاصم :

« يضاهئون » . قال ثعلب : لم يتابع عاصماً أحد على الهمز . قال الفراء : وهي لغة . قال الزجاج : « يضاهون » يشابهون قول مَنْ تقدّمهم من كفّرتهم ، فاعما قالوه اتباعاً لمقدّمهم . وأصل المضاهاة في اللغة : المشابهة ؛ والأكثر ترك الهمز ؛ واشتقاقه من قولهم : امرأة ضياء ، وهي التي لا يثبت لها ندي . وقيل : هي التي لا تحيض ، والمعنى : أنها قد أشبهت الرجال . قال ابن الأنباري : يقال : ضاهيت ، وضاهات : إذا شبّهت . وفي (الذين كفروا) هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم عبدة الأوثان ، والمعنى : أن أولئك قالوا : الملائكة بنات الله ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم اليهود ، فالمعنى : أن النصارى في قولهم : المسيح ابن الله ، شابهوا اليهود في قولهم : عزيز ابن الله ، قاله قتادة ، والسدي .

والثالث : أنهم أسلافهم ، نابوهم في أقوالهم تقليداً ، قاله الزجاج ، وابن قتيبة . وفي قوله : (قاتلهم الله) ثلاثة أقوال .

أحدها : أن معناه : لعنهم الله ، قاله ابن عباس . والثاني : قتلهم الله ، قاله أبو عبيدة . والثالث : عاداهم الله ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (أنى يؤفكون) أي : من أين يصرفون عن الحق .

قوله تعالى : (اتخذوا أجبارهم) قد سبق في (المائدة : ٤٤) معنى الأجبار والرهبان . وقد روي عن النبي ﷺ أنه سئل عن هذه الآية ، فقال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلّوه ، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه »^(١) . فعلى هذا المعنى : إنهم جعلهم كالآرباب وإن لم يقولوا : إنهم أرباب .

(١) رواه الترمذي ١٣٦/٢ ، وقال : حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث

عبد السلام بن حرب ، وخطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث . ورواه الطبري ، ٢١٠/١٤ ، —

قوله تعالى : (والْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ) قال ابن عباس : اتخذه ربنا .

﴿ يَرْيَدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْسَوْاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (يريدون أن يطفئوا نور الله) قال ابن عباس : يخمّدوا دين الله بتكذيبهم ، يعني : أنهم يكذبون به ويعرضون عنه يريدون إبطاله بذلك . وقال الحسن وقتادة : نور الله : القرآن والإسلام . فأما تخصيص ذلك بالأفواه ، فلما ذكرنا في الآية قبلها . وقيل : إن الله تعالى لم يذكر قولاً مقروناً بالأفواه والألسن إلا وهو زور .

قوله تعالى : (ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره) قال الفراء : إنما دخلت « إلا » ها هنا ، لأن في الإباء طرفاً من الجحد ، ألا ترى أن « أيت » كقولك : « لم أفعل » ، و « لا أفعل » ، فكأنه بمنزلة قولك : ما ذهب إلا زيد ، قال الشاعر :

فَهَلْ لِي أَمْ غَيْرُهَا إِنْ تَرَكْتُهَا أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ لَهَا ابْنًا^(١)

وقال الزجاج : المعنى : ويأبى الله كل شيء إلا إتمام نوره . قال مقاتل : « يتم نوره » أي : يظهر دينه .

— من طرق عن عدي بن حاتم ، وخرجه السيوطي في « الدر » ٣/٣٣٠ ، وزاد نسبه لابن سعد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « سننه » .

(١) قائله المتلصص ، وهو في « معاني القرآن » للفراء ١/٤٣٣ ، من قصيدة له يرد فيها على من غير أمه مطلقاً :

يسيرني أمي رجال ولا أرى أخا كرم إلا بأن يتكرما
وهي في « غنارات ابن الشجري » ٣١ . وقوله : ابنا ، أراد : ابنا ، فزاد الميم .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾
 قوله تعالى : (هو الذي أرسل رسوله) يعني محمداً ﷺ (بالهدى) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه التوحيد . والثاني : القرآن . والثالث : نبيان الفرائض . فأما دين الحق ، فهو الإسلام . وفي قوله : (ليظهره) قولان .
 أحدهما : أن الهاء عائدة على رسول الله ﷺ ، فالمعنى : ليعلمه شرائع الدين كلها ، فلا يخفى عليه منها شيء ، قاله ابن عباس .
 والثاني : أنها راجعة إلى الدين . ثم في معنى الكلام قولان .
 أحدهما : ليظهر هذا الدين على سائر الملل ^(١) . ومتى يكون ذلك ؟

(١) روى مسلم في « صحيحه » ٢٢١٥/٤ ، عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوى (جمع) لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومنازلها ، وإن أمي سيلن ملكها مازوي لي منها » . وروى الامام أحمد في « المسند » ١٠٣/٤ ، عن تميم الداري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليلفن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بمن عزيز ، أو بذل ذليل ، عزاً يعز به الاسلام ، وذلاً يذل به الكفر » ، وكان تميم الداري يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية . وروى أحمد في « المسند » ٤/٦ ، عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الاسلام بمن عزيز أو ذل ذليل ، إما يزم الله عز وجل فيجعلهم من أهلها ، أو يذلهم فيدينون لها » . وروى مسلم ٢٢٣٠/٤ ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يذهب الليل والنهار حتى تميد اللات والعزى » ، فقلت : يا رسول الله ، إن كنت لأظن حين أنزل الله (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) أن ذلك تاماً ، قال : « إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثم يبعث الله رجلاً طيبة فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، فيبقى من لاخير فيه فيرجعون الى دين آباؤهم » .

فيه قولان . أحدهما : عند نزول عيسى عليه السلام ، فإنه يتبعه أهل كل دين ، وتصير الملل واحدة ، فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام أو أدّوا الجزية ، قاله أبو هريرة ، والضحاك . والثاني : أنه عند خروج المهدي ، قاله السدي . والقول الثاني : أن إظهار الدين إنما هو بالحجج الواضحة ، وإن لم يدخل الناس فيه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَبْغِيُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (إن كثيراً من الأحرار) الأحرار من اليهود ، والرهبان من النصارى . وفي الباطل أربعة أقوال .

أحدها : أنه الظلم ، قاله ابن عباس . والثاني : الرشا في الحكم ، قاله الحسن . والثالث : الكذب ، قاله أبو سليمان . والرابع : أخذه من الجهة المحظورة ، قاله القاضي أبو يعلى . والمراد : أخذ الأموال ، وإنما ذكر الأكل ، لأنه معظم المقصود من المال . وفي المراد بسبيل الله هاهنا قولان .

أحدهما : الإيمان برسول الله ﷺ ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثاني : أنه الحق والحكم .

قوله تعالى : (والذين يكتزون الذهب والفضة) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت عامة في أهل الكتاب والمسلمين ، قاله أبو ذر ، والضحاك .

والثاني : أنها خاصّة في أهل الكتاب ، قاله معاوية بن أبي سفيان .

والثالث : أنها في المسلمين ، قاله ابن عباس ، والسدي .

وفي الكنز المستحقّ عليه هذا الوعيد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ما لم تؤدّ زكاته . قال ابن عمر : كل مال أُدّيتْ زكاته وإن كان تحت سبع أرضين فليس بكنز ، وكل مال لا تؤدّى زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً على وجه الأرض^(١) ، وإلى هذا المعنى ذهب الجمهور . فعلى هذا ، معنى الإنفاق : إخراج الزكاة .

والثاني : أنه ما زاد على أربعة آلاف ، روي عن علي بن أبي طالب أنه قال : أربعة آلاف حققة ، وما فوقها كنز .

والثالث : ما فضل عن الحاجة ، وكان يجب عليهم إخراج ذلك في أول الإسلام ثم نُسح بالزكاة .

فإن قيل : كيف قال : « ينفقونها » وقد ذكر شيئين ؛ فعنه جوابان .

أحدهما : أن المعنى : يرجع إلى الكنوز والأموال .

والثاني : أنه يرجع إلى الفضة ، وحُذِفَ الذهب ، لأنه داخل في الفضة ،

قال الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف^(٢)

يريد : نحن بما عندنا راضون ، وأنت بما عندك راضٍ ، ذكر القولين الزجاج .

(١) أن ابن عمر رواه الطبري ٢١٨/١٤ ، وإسناده صحيح . ورواه بمضاه مالك في « الموطأ » ٢٥٦/١ .

(٢) قاله عمرو بن أمية القيس من بني الحارث بن الخزرج ، جاهلي قديم ، وهو جد عبد الله بن رواحة ، والبيت في « جمهرة أشعار العرب » ٢٣٧ ، وسيبويه ٣٧/١ (منسوباً لقيس بن الخطيم) وهو خطأ ، و « معاني القرآن » ٤٣٤/١ ، و « مجاز القرآن » ٢٥٨/١ ، و « الخزانة » ١٩٠/٢ .

وقال الفراء : إن شئت اكتفيت بأحد المذكورين ، كقوله : (ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً) [النساء : ١١٢] ، وقوله : (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها) [الجمعة : ١١] ، وأنشد :

إني ضمنت لمن أتاني ملجئى وأبى وكان وكنت غير غدور^(١)

ولم يقل : غدورين ، وإنما اكتفى بالواحد لاتفاق المعنى . قال أبو عبيدة : والعرب إذا أشركوا بين اثنين قصرُوا ، فخبّروا عن أحدهما استغناءً بذلك ، وتحقيقاً ؛ لمعرفة السامع بأن الآخر قد شاركه ، ودخل معه في ذلك الخبر ، وأنشد :

فمن يك أمسى بالمدينة رخله فاني وقيارُ بها لغريب^(٢)

والنصب في « قيار » أجود ، وقد يكون الرفع . وقال حسان بن ثابت :

إنَّ شرَّحَ الشباب والشَّعرِ الأملَّ ودَمالمَ بُعَاصَ كانُ جُنُوناً^(٣)

ولم يقل : يعاصيا .

﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ ﴾

قوله تعالى : (يوم يحمى عليها في نار جهنم) أي : على الأموال . قال ابن

(١) البيت غير منسوب في « معاني القرآن » : ٤٣٤/١ ، ونسبه سيويه في « الكتاب » ٣٨/١ للفرزدق .

(٢) قاله ضابئ بن الحارث البرجي وهو في « الأصميات » ١٦ و « سيويه » ٣٨/١ ، و « القرطبي » ٢٤٦/٦ ، و « شواهد المفني » ٢٩٣ و « الخزائن » ٢٢٣/٤ ، و « اللسان » ، و « التاج » : قَبِير .

(٣) ديوانه ٤١٣ ، و « مجاز القرآن » ٢٥٨/١ ، و « القرطبي » ١٢٨/٨ ، و « الجهرة » ٢٠٧/٢ و « اللسان » : شرح ، والشرح : الحد ، أي : غاية ارتفاعه ، يعني بذلك أقصى قوته ونضارته وعنفوانه .

مسعود : والله ما من رجل يُكوى بكنز ، فيوضعُ دينار على دينار ولا درهم على درهم ، ولكن يوسّع جلده ، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته ^(١) . وقال ابن عباس : هي حية تنطوي على جنبيه وجبهته ، فتقول : أنا مالك الذي بخلت به .

قوله تعالى : (هذا ما كنزتم) فيه مخوف تقديره : ويقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أي : عذاب ذلك .

فان قيل : لم خصّ الجباه والجنوب والظهر من بقية البدن ؟

فالجواب : أن هذه المواضع مجوفة ، فيصل الحر إلى أجوافها ، بخلاف اليد والرجل . وكان أبو ذر يقول : بشر الكنازين بكى في الجباه وكى في الجنوب وكى في الظهر ، حتى يلتقي الحر في أجوافهم ^(٢) . وجواب آخر : وهو أن النسي إذا رأى الفقير ، انقبض ؛ وإذا ضمه وإياه مجلس ، ازورّ عنه وولاه ظهره ، قاله أبو بكر الوراق .

(١) الطبري ٢٣٣/١٤ ، وذكره الهيثمي في « الجمع » ٢٩/٧ - ٣٠ وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، وأورده ابن كثير ٣٥٢/٢ من طريق ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً وقال : ولا يصح رفعه والله أعلم ، وخرجه السيوطي في « الدر » ٣٣٣/٣ ، وزاد نسبه لابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ .

(٢) « الطبري » ٢٣٠/١٤ ، وفي « صحيح مسلم » ٦٩٠/٢ ، عن الاخنف بن قيس قال : كنت في نفر من قرش ، فرأى أبو ذر وهو يقول : « بشر الكنازين بكى في ظهورهم يخرج من جنوبهم ، وبكى من قبل أفتائهم يخرج من جباههم ، قال : ثم تنحى قمم ، قال : قلت من هذا ؟ قالوا : أبو ذر ، قال : فقلت إليه ، فقلت : ما هي سمكت تقول قبيل ، قال : ما قلت إلا شيئاً قد سمعته من نبيهم ﷺ ... » وروى مسلم أيضاً ٦٨٢/٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمى عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . . . » .

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ لِلَّذِينَ الْقِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ) قال المفسرون : نزلت هذه الآية من أجل النسيء الذي كانت العرب تفعله ، فربما وقع حجهم في رمضان ، وربما وقع في شوال ، إلى غير ذلك ؛ وكانوا يستحلون المحرم عاماً ، ويحرمون مكانه صفر ، وتارة يحرمون المحرم ويستحلون صفر . قال الزجاج : أعلم الله عز وجل أن عدد شهور المسلمين التي تُعبدوا بأن يحملوه لسنهم : اثنا عشر شهراً على منازل القمر ؛ فجعل حجهم وأعيادهم على هذا العدد ، فتارة يكون الحج والصوم في الشتاء ، وتارة في الصيف ، بخلاف ما يعتمده أهل الكتاب ، فانهم يعملون على أن السنة ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوماً وبعض يوم . وجمهور القراء على فتح عين « اثنا عشر » - وقرأ أبو جعفر : اثنا عشر ، وأحد عشر ، وتسعة عشر ، بسكون العين فيهن .

قوله تعالى : (فِي كِتَابِ اللَّهِ) أي : في اللوح المحفوظ . قال ابن عباس : في الإمام الذي عند الله ، كتبه (يوم خلق السموات والأرض منها أربعة جرم) وفيها قولان .

أحدهما : أنها رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، قاله الأكثرون . وقال القاضي أبو يعلى : إنها سماها حُرماً لمعنيين . أحدهما : تحريم القتال فيها ، وقد كان أهل الجاهلية يعتقدون ذلك أيضاً . والثاني : لتعظيم انتهاك المحارم فيها . أشد من تعظيمه في غيرها ، وكذلك تعظيم الطاعات فيها .

والثاني : أنها الأشهر التي أُجِلَ المشركون فيها للسياحة ، ذكره ابن قتيبة .

قوله تعالى : (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) فيه قولان .

أحدهما : ذلك القضاء المستقيم ، قاله ابن عباس .

والثاني : ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوي ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ) اختلفوا في كناية « فيهم »

على قولين .

أحدهما : أنها تعود على الاثني عشر شهراً ، قاله ابن عباس . فعلى هذا يكون

المعنى : لا تجعلوا حرامها حلالاً ، ولا حلالها حراماً ، كفعل أهل النسي .

والثاني : أنها ترجع إلى الأربعة الحرم ، وهو قول قتادة ، والقراء ؛ واحتج

بأن العرب تقول لما بين الثلاثة إلى العشرة : ثلاث ليالٍ خَلَوْنَ ، وأيام خلون ؛ فإذا

جُزَّتْ العشرة قالوا : خلت ومضت ؛ ويقولون لما بين الثلاثة إلى العشرة : هُنَّ ،

وهؤلاء ؛ فإذا جُزَّتْ العشرة ، قالوا : هي ، وهذه ؛ إرادة أن تُعرف سمة القليل

من الكثير . وقال ابن الأنباري : العرب تعيد الهاء والنون على القليل من العدد ،

والهاء والألف على الكثير منه ؛ والقلَّة : ما بين الثلاثة إلى العشرة ، والكثرة :

ماجاوز العشرة . يقولون : وجهتُ إليك أَكْبُشاً فاذْجَحْهُنَّ ، وكباشاً فاذْجَحْهَا ؛

فلهذا قال : (منها أربعة حرم) ، وقال : (فلا تظلموا فيهم) لأنه يعني

بقوله : « فيهم » الأربعة . ومن قال من المفسرين : إنه يعني بقوله : « فيهم »

الاثني عشر ، فإنه ممكن ؛ لأن العرب ربما جمعت علامة القليل للكثير ، وعلامة

الكثير للقليل . وعلى قول من قال : ترجع « فيهم » إلى الأربعة ؛ يُخرَجُ في

معنى الظلم فيهم أربعة أقوال .

أحدها : أنه المعاصي ؛ فتكون فائدة تخصيص النهي عنه بهذه الأَشهر ، أن شأن المعاصي يَعمُظُ فيها أَشدَّ من تعظيمه في غيرها ، وذلك لفضلها على ماسواها ، كقوله : (وجبريل وميكال) [البقرة : ٩٨] وإن كانا قد دخلا في جملة الملائكة ، وقوله : (فاكهة ونخل وزمان) [الرحمن : ٦٨] وإن كانا قد دخلا في جملة الفاكهة ، وقوله : (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) [البقرة : ١٩٧] وإن كان منهيًا عنه في غير الحج ، وكما أمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى وإن كان مأموراً بالمحافظة على غيرها ، هذا قول الأكثرين .

والثاني : أن المراد بالظلم فيهنَّ فعل النسيء ، وهو تحليل شهر محرَّم ، وتحريم شهر حلال ، قاله ابن إسحاق .

والثالث : أنه البداية بالقتال فيهنَّ ؛ فيكون المعنى : فلا تظلموا أنفسكم بالقتال فيهنَّ إلا أن تُبدؤوا بالقتال ، قاله مقاتل .

والرابع : أنه ترك القتال فيهنَّ ؛ فيكون المعنى : فلا تظلموا فيهنَّ أنفسكم بترك المحاربة لعدوكم ؛ قاله ابن بحر ، وهو عكس قول مقاتل . والسرُّ في أن الله تعالى عَظَّم بعض الشهور على بعض ، ليكون الكفُّ عن الهوى فيها ذريعة إلى استدامة الكف في غيرها تدريجاً للنفس إلى فراق مألوفها المكروه شرعاً .

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ) الجمهور على همز النسيء ومَدِّه وكسر سينه . وروى شبل عن ابن كثير : « النَّسِيءُ » على وزن النَّسْع . وفي

رواية أخرى عن شبل : « النَّسِيْ » مشددة الياء من غير همز ، وهي قراءة أبي جعفر ؛ والمراد بالكلمة التأخير . قال اللفويون : النَّسِيْ : تأخير الشيء . وكانت العرب تحرّم الأشهر الأربعة ، وكان هذا مما تمسّكت به من ملة إبراهيم ؛ فربما احتاجوا إلى تحليل المحرّم للحرب تكون بينهم ، فيؤخّرون تحرّيم المحرّم إلى صفر ، ثم يحتاجون إلى تأخير صفر أيضاً إلى الشهر الذي بعده ؛ ثم تتدافع الشهور شهراً بعد شهر حتى يستدير التحريم على السنّة كلّها ، فكأنهم يستنسون الشهر الحرام ويستقرضونه ، فأعلم الله عز وجل أن ذلك زيادة في كفرهم ، لأنهم أحلّوا الحرام ، وحرموا الحلال (ليواطؤوا) أي : ليوافقوا (عدة ماحرّم الله) فلا يخرجون من تحرّيم أربعة ، ويقولون : هذه بمنزلة الأربعة الحرم ، ولا يبالون بتحليل الحرام ، وتحرّيم الحلال . وكان القوم لا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة إذا اجتمعت العرب للموسم ، قال الفراء : كانت العرب في الجاهلية إذا أرادوا الصّدْرَ عن منى ، قام رجل من بني كنانة يقال له : نعيم بن ثعلبة ، وكان رئيس الموسم ، فيقول : أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ولا يردّ لي قضاء ؛ فيقولون : أنسنا شهراً ؛ يريدون : أخّر عنا حرمة المحرم ، واجعلها في صفر ، فيفعل ذلك . وإنما دعاهم إلى ذلك توالي ثلاثة أشهر حرّم لا يغيّرون فيها ، وإنما كب معاشهم من الإغارة ، فتستدير الشهور كما يبتأ . وقيل : إنما كانوا يستحلّون المحرّم عاماً ، فإذا كان من قابل ردّوه إلى تحرّيمه . قال أبو عبيد : والتفسير الأول أحب إليّ ، لأن هذا القول ليس فيه استدارة . وقال مجاهد : كان أول من أظهر النسْيَ جنادة بن عوف الكناني ، فوافقت حجة أبي بكر ذا القعدة ، ثم حج النبي ﷺ في العام القابل في ذي الحجة ، فذلك حين قال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات

والأرض » ^(١) . وقال الكلبي : أول من فعل ذلك نعيم بن ثعلبة .

قوله تعالى : (يُضِلُّ به الذين كفروا) وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « يَضِلُّ » بفتح الياء وكسر الضاد ، والمعنى : أنهم يكتسبون الضلال به . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « يُضِلُّ » بضم الياء وفتح الضاد ، على ما لم يُسم فاعله . وقرأ الحسن البصري ، وبعقوب إلا الوليد : « يَضِلُّ » بضم الياء وكسر الضاد ؛ وفيه ثلاثة أوجه .

أحدها : يُضِلُّ الله به . والثاني : يُضِلُّ الشيطان به ، ذكرهما ابن القاسم . والثالث : يُضِلُّ به الذين كفروا الناس ، لأنهم الذين سنّوه لهم . قال أبو علي : التقدير : يُضِلُّ به الذين كفروا تابعهم . وقال ابن القاسم : الهاء في « به » راجعة إلى النسيء ، وأصل النسيء : المنسوء ، أي : المؤخّر ، فينصرف عن « مفعول » إلى « فاعل » كما قيل : مطبوع وطبيخ ، ومقدور وقدير ، قال : وقيل : الهاء راجعة إلى الظلم ، لأنّ النسيء كَشَفَ تأويل الظلم ، فجري مجرى المظهر ؛ والأول اختيارنا .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قَلَّيْنَاهُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ قَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

قوله تعالى : (مَالِكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا) قال المفسرون : لما أمر رسول الله

ﷺ بغزوة تبوك ، وكان في زمن عسرة وجذب وحرّ شديد ، وقد طابت الثمار ،

(١) رواه أحمد في « المسند » ٣٧/٥ ، والبخاري ٦/١٠ ، ومسلم رقم ١٦٧٩ وأبو داود

رقم ١٩٤٧ عن أبي بكر رضي الله عنه ، وقد أوردنا الحديث بطوله صفحة (٣٩٥) .

عَظُمَ ذلك على الناس وأحبوا المقام ، فنزلت هذه الآية ^(١) . وقوله : « مالكم » استفهام معناه التوبيخ . وقوله : (انفروا) معناه : اخرجوا . وأصل النفر : مفارقة مكان إلى مكان آخر لأمر هاج إلى ذلك . وقوله : (اننا قلتم) قال ابن قتيبة : أراد : تناقلتم ، فادغم التاء في التاء ، وأحدثت الألف ليسكن ما بعدها ، وأراد : قعدتم . وفي قراءة ابن مسعود ، والأعمش : « تناقلتم » .

وفي معنى (إلى الأرض) ثلاثة أقوال .

أحدها : تناقلتم إلى شهوات الدنيا حين أخرجت الأرض ثمرها ، قاله مجاهد .
والثاني : اطمانتم إلى الدنيا ، قاله الضحاك .

والثالث : تناقلتم إلى الإقامة بأرضكم ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (أرضيتم بالحياة الدنيا) أي : بنعيمها من نعيم الآخرة ، فما يُتمتع به في الدنيا قليل بالإضافة إلى ما يُتمتع به الأولياء في الجنة ^(٢) .

﴿ إِنْ لَا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (إِنْ لَا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ) سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما حنَّهم

(١) « الطبري » ٢٥٣/١٤ ، عن مجاهد ، وذكره السيوطي في « الدر » ٣/٢٣٧ ، وزاد

نسبته لسعيد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ .

(٢) روى مسلم في « صحيحه » رقم (٢٨٥٨) عن المستورد أخي بني فهر قال : قال

رسول الله ﷺ : والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه - وأشار بيمينه

(أحد الرواة) بالسبابة - في اليم ، فلينظر بم ترجع ، ورواه أحمد في « المسند » ٤/٢٢٨ ،

والمنى : ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ، ودوام الآخرة ودوام لذتها

ونعيمها ، إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالأصبع إلى باقي البحر .

على غزو الروم تناقلوا ، فزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس . وقال قوم : هذه خاصة
 فيمن استنفره رسول الله ﷺ فلم ينفر . قال ابن عباس : استنفر رسول الله ﷺ
 حياً من العرب فتناقلوا عنه ، فأُمسك عنهم المطر فكان عذابهم ^(١) . وفي
 قوله : (ويستبدل قوماً غيركم) وعيد شديد في التخلُّف عن الجهاد ، وإعلام بأنه
 يستبدل لنصر نبيه قوماً غير متناقلين . ثم أعلمهم أنهم إن تركوا نصره لم يضروه ،
 كما لم يضروه ذلك إذ كان بمكة . وفي هاء « تضرُّوه » قولان .
 أحدهما : أنها ترجع إلى الله ، والمعنى : لاتضرُّوا الله بترك النفي ، قاله الحسن .
 والثاني : أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ ، فالمعنى : لاتضرُّوه بترك نصره ،
 قاله الزجاج .

﴿ فصل ﴾

وقد روي عن ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، قالوا : نسخ قوله : (إلا
 تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً) بقوله : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) [التوبة : ١٢٢] ،
 وقال أبو سليمان الدمشقي : ليس هذا من المنسوخ ، إذ لا تنافي بين الآيتين ، وإنما
 حكم كل آية قائم في موضعها . وذكر القاضي أبو يعلى عن بعض العلماء أنهم
 قالوا : ليس ها هنا نسخ ، ومتى لم يقاوم أهل الثغور المدو ، ففرض على الناس
 النفي إليهم ، ومتى استنفروا عن إعانة مَنْ وراءهم ، عُدُّ القاعدون عنهم . وقال قوم
 هذا في غزوة تبوك ، ففرض على الناس النفي مع رسول الله ﷺ .

(١) رواه بنحوه أبو داود في « سننه » رقم (٢٥٠٦) وفي سنده نجدة بن نبيع وهو مجهول .
 وأورده السيوطي في « الدرر » ٣/ ٢٣٩ ، وزاد نسبه لابن المنذر ، وأبي الشيخ ، والحاكم
 وصححه ، وابن مردويه ، وإليه في « سننه » .

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إِلَّا تَنْصُرُوهُ) أي : بالنفير معه (فقد نصره الله) إعانة على أعدائه ، (إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) حين قصدوا إهلاكه على ما شرحنا في قوله : (وَإِذْ يَكْرَهُ بَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) [الانتقال : ٣٠] فأعلمهم أن نصره ليس بهم .

قوله تعالى : (ثَانِيَ اثْنَيْنِ) العرب تقول : هو ثاني اثنين ، أي : أحد الاثنين ، وثالث ثلاثة ، أي : أحد الثلاثة ، قال الزجاج : وقوله : (ثَانِيَ اثْنَيْنِ) منصوب على الحال ؛ المعنى : فقد نصره الله أحد اثنين ، أي : نصره منفرداً إلا من أبي بكر ، وهذا معنى قول الشعبي : عاتب الله أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر . وقال ابن جرير : المعنى : أخرجوه وهو أحد الاثنين ، وهما رسول الله ﷺ وأبو بكر . فأما النار ، فهو ثقب في الجبل ، وقال ابن فارس : النار : الكهف ، والنار : نبت طيب الريح ، والنار : الجماعة من الناس ، والفاران : البطن والفرج ، وهما الأجوفان ، يقال : إنما هو عبد غاريته . قال الشاعر :
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَأَنَّ الْفَتَى يَسْعَى لِنَارِيهِ دَائِبًا^(١)
قال قتادة : وهذا النار في جبل بمكة يقال له : نور . قال مجاهد : مكنا فيه ثلاثاً . وقد ذكرت حديث الهجرة في كتاب « الحقائق » . قال أنس بن مالك :

(١) البيت في « اللسان » غور غير منسوب .

أمر الله عز وجل شجرة فنبئت في وجهه رسول الله ﷺ فسترته ، وأمر العنكبوت
فنسجت في وجهه ، وأمر حمامتين وحشيتين فوقتا في فم الغار ، فلما دنوا من الغار ،
عجل بمضهم لينظر ، فرأى حمامتين ، فرجع فقال : رأيت حمامتين على فم الغار ،
فعلت أنه ليس فيه أحد ^(١) . وقال مقاتل : جاء القائف فنظر إلى الأقدام فقال :
هذه قدم ابن أبي قحافة ، والأخرى لا أعرفها ، إلا أنها تشبه القدم التي في المقام .
وصاحبه في هذه الآية أبو بكر ، وكان أبو بكر قد بكى لما مرَّ المشركون على
باب الغار ، فقال له النبي ﷺ « ما ظنك باثنين الله ثالثها » م ^(٢) .

وفي السكينة ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها الرحمة ، قاله ابن عباس . والثاني : الوفاق ، قاله قتادة .
والثالث : السكون والطمأنينة ، قاله ابن قتيبة ، وهو أصح .

وفي هاء « عليه » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى أبي بكر ، وهو قول علي بن أبي طالب ، وابن
عباس ، وحبيب بن أبي ثابت . واحتج من نصر هذا القول بأن النبي ﷺ كان مطمئناً .
والثاني : أنها ترجع إلى النبي ﷺ ، قاله مقاتل .

(١) ابن سعد في « الطبقات » ، ٢٢٩/١ ، عن أبي مصعب المكي قال : أدركت أنس
ابن مالك وزيد بن أرقم والثيرة بن شعبة ، فسمعتهم يتحدثون أن النبي ﷺ ليلة الغار :
أمر الله شجرة ... الحديث . وفي سنده ضعيف ومجهول . وفي مسند أحمد ٨٧/٥ ، من
حديث ابن عباس « فرزوا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت » ، وفي سنده غثان
الجزري لم يوثقه غير ابن حبان .

(٢) البخاري ١٠/٧ ، ومسلم ١٨٥٤/٤ ، دون قوله : وكان أبو بكر قد بكى لما مرَّ
المشركون على باب الغار . وأورده السيوطي في « الدر » وزاد نسبه لابن سعد ، وابن أبي شيبة ،
وأحمد ، والترمذي ، وأبي غوانة ، وابن حبان ، وابن المنذر ، وابن مردويه .

والثالث : أن الهاء هاهنا في معنى تثنية ، والتقدير : فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهَا ، فَاكْتَفَى بِإِعَادَةِ الذِّكْرِ عَلَى أَحَدِهِمَا مِنْ إِعَادَتِهِ عَلَيْهَا ، كَقَوْلِهِ : (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ) [التوبة : ٦٢] ، ذَكَرَهُ ابْنُ الْأَثْبَارِيِّ .

قوله تعالى : (وَأَيُّدُهُ) أي : قَوَّامُهُ ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ بِإِلَّا خِلَافَ . (بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا) وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ . وَمَتَى كَانَ ذَلِكَ ؟ فِيهِ قَوْلَانِ .

أحدهما : يوم بدر ، ويوم الأحزاب ، ويوم حنين ، قاله ابن عباس .
والثاني : لما كان في الغار ، صَرَفَتِ الْمَلَائِكَةُ وَجُوهَ الْكَفَّارِ وَأَبْصَارَهُمْ عَنْ رُؤْيَيْهِ ، قَالَهُ الزَّجَاجُ .

فان قيل : إذا وقع الاتفاق أن هاء الكناية في « أَيُّدُهُ » ترجع إلى النبي ﷺ ، فكيف تفارقها هاء « عَلَيْهِ » وهما متفقتان في نظم الكلام ؟

فالجواب : أن كل حرف يُرَدُّ إِلَى الْأَلْيَقِ بِهِ ، وَالسَّكِينَةُ إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْمُنْزَعُ ، وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ مُنْزَعًا . فَأَمَّا التَّأْيِيدُ بِالْمَلَائِكَةِ ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ : (لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّيْرُوهُ وَتُنَوِّقِرُوهُ) [التفتح : ٨]
يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ ، (وَتُسَبِّحُوهُ) يَعْنِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ .

قوله تعالى : (وَجَمَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى) فِيهَا قَوْلَانِ .

أحدهما : أن كلمة الكافرين الشرك ، جعلها الله السفلى لأنها مقهورة ، وكلمة الله وهي التوحيد ، هي العليا ، لأنها ظهرت ، هذا قول الأكثرين .

والثاني : أن كلمة الكافرين ما قدرُوا بينهم في الكيد به لِيَقْتُلُوهُ ، وكلمة الله أنه ناصره ، رَوَاهُ عَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَالْحَسَنُ ، وَعُكْرَمَةُ ، وَقَتَادَةُ ، وَالضَّحَّاكُ ، وَيَعْقُوبُ : « وَكَلَّمَ اللَّهُ » بِالنَّصْبِ .

قوله تعالى : (والله عزيز) أي : في انتقامه من الكافرين (حكيم) في تدبيره .

﴿ اِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (انفروا خفافاً وثقالاً) سبب نزولها أن المقداد جاء إلى رسول الله ﷺ ، وكان عظيمًا سمينًا ، فشكا إليه وسأله أن يأذن له ، فنزلت هذه الآية ، قاله السدي ^(١) . وفي معنى « خفافاً وثقالاً » أحد عشر قولاً .

أحدها : شيوخاً وشباباً ، رواه أنس عن أبي طلحة ، وبه قال الحسن ، والشعبي ، وعكرمة ، ومجاهد ، وأبو صالح ، وشمس بن عطية ، وابن زيد في آخرين .
والثاني : رجالة وركباناً ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال الأوزاعي .
والثالث : نشاطاً وغير نشاط ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، ومقاتل .

والرابع : أغنياء وفقراء ، روي عن ابن عباس . ثم في معنى هذا الوجه قولان . أحدهما : أن الخفاف : ذوو المسرة وقلّة العيال ، والثقال : ذوو العيال والميسرة ، قاله الفراء . والثاني : أن الخفاف : أهل الميسرة ، والثقال : أهل المسرة ، حكى عن الزجاج .

والخامس : ذوي عيال ، وغير عيال . قاله زيد بن أسلم .

والسادس : ذوي ضياع ، وغير ذوي ضياع ، قاله ابن زيد .

والسابع : ذوي أشغال ، وغير ذوي أشغال ، قاله الحكم .

(١) « أسباب النزول » للواحدي : ١٤١ ، وذكره السيوطي في « الدر » ، ٢٤٦/٣ ،

ونسبه لابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ .

- والثامن : أصحاب ، ومرضى ، قاله مرة الهمداني ، وجويبر .
 والناسع : عزَّاباً ومتأهلين ، قاله يمان بن رباب .
 والعاشر : خفافاً إلى الطاعة ، وتقلاً عن المخالفة ، ذكره الماوردي .
 والحادي عشر : خفافاً من السلاح ، وتقلاً بالاستكثار منه ، ذكره الثعلبي .

❖ فصل ❖

روى عطاء الخراساني عن ابن عباس أن هذه الآية منسوخة بقوله : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) [التوبة : ١٢٢] ^(١) . وقال السدي : نسخت بقوله : (ليس على الضمفاء ولا على المرضى) [التوبة : ٩١] ^(٢) .

قوله تعالى : (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) قال القاضي أبو يعلى : أوجب الجهاد بالمال والنفس جميعاً ، فمن كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لا يصلح للقتال ، فعليه الجهاد بماله ، بأن يعطيه غيره فيغزو به ، كما يلزمه الجهاد بنفسه إذا كان قوياً . وإن كان له مال وقوّة ، فعليه الجهاد بالنفس والمال . ومن كان معدماً عاجزاً ، فعليه الجهاد بالنصح لله ورسوله ، لقوله : (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحو الله ورسوله) [التوبة : ٩١] .

(١) وقد ذهب إلى إحكام الآية ومنع النسخ جماعة ، منهم ابن جرير الطبري ، وأبو سليمان الدمشقي ، وحكى القاضي أبو يعلى عن بعض العلماء أنهم قالوا : ليس هاهنا نسخ ، ومتى لم يقارم أهل التنور المدو ، ففرض على الناس النفير إليهم ، ومتى استغنوا عن إعانة من وراءهم عذر القاعدون عنهم .

(٢) أخرجه السيوطي في الدر ، ٢٤٦/٣ ، من رواية ابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ عن السدي .

قوله تعالى : (ذلك خير لكم) فيه قولان .

أحدهما : ذلك الجهاد خير لكم من تركه والتناقل عنه .

والثاني : ذلك الجهاد خير حاصل لكم . (إن كنتم تعلمون) ما لكم من الثواب .

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (لو كان عرضاً قريباً) قال المفسرون : نزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك . ومعنى الآية : لو كانت مأدعوا إليه عرضاً قريباً . والعرض : كل ما عرض لك من منافع الدنيا ، فالمعنى : لو كانت غنيمة قريبة ، أو كان سفراً قاصداً ، أي : سهلاً قريباً ، لاتبعوك طمعاً في المال (ولكن بعُدَتْ عليهم الشُّقَّةُ) قال ابن قتيبة : الشقة : السفر ؛ وقال الزجاج : الشقة : الغاية التي تُتقصَدُ ؛ وقال ابن فارس : الشقة : مصير إلى أرض بعيدة ، تقول : شقة شاقّة .

قوله تعالى : (وسيحلفون بالله) يعني المنافقين إذا رجعت إليهم (لو استطعنا) وقرأ زائدة عن الأعمش ، والأصمعي عن نافع : « لو استطعنا » بضم الواو ، وكذا ابن وقع ، مثل (لو اطمّعت عليهم) [الكهف : ١٨] ، كأنه لما احتجج إلى حركة الواو ، حركت بالضم لأنها أخت الواو ، والمعنى : لو قدرنا وكان لنا سعة في المال . (يهلكون أنفسهم) بالكذب والنفاق (والله يعلم أنهم لكاذبون) لأنهم كانوا أغنياء ولم يخرجوا .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾

قوله تعالى : (عفا الله عنك لم أذن لهم) كان ﷺ قد أذن لقوم من

المنافقين في التخلُّف لما خرج إلى تبوك ، قال ابن عباس : ولم يكن يومئذ يعرف المنافقين . قال عمرو بن ميمون : انتتان فعلها رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما : إذنه للمنافقين ، وأخذته الفداء من الأسارى ؛ فعاتبه الله كما تسمعون . قال مورق : عاتبه ربُّه بهذا . وقال سفيان بن عيينة : انظر إلى هذا اللطف ، بدأه بالمغو قبل أن يميِّره بالدَّنب . وقال ابن الأَباري : لم يخاطب بهذا لجرم أجرمه ، لكنَّ الله وقَّره ورفع من شأنه حين افتتح الكلام بقوله : (عفا الله عنك) كما يقول الرجل لمخاطبه إذا كان كريماً عليه : عفا الله عنك ، ماصنعت في حاجتي ؟ ورضي الله عنك ، هلاًَّ زرتي .

قوله تعالى : (حتى يتبين لك الذين صدقوا) فيه قولان .

أحدهما : أن معناه : حتى تعرف ذوي المذر في التخلُّف ممن لا عذر له .
والثاني : لو لم تأذن لهم ، لعهدوا وبأن لك كذبهم في اعتذارهم . قال قتادة : ثم إن الله تعالى نسخ هذه الآية بقوله : (فائذن لمن شئتَ منهم) [النور : ٦٢] .
﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنْ مَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾

قوله تعالى : (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله) قال ابن عباس : هذا تمييز للمنافقين حين استأذنوا في القعود . قال الزجاج : أعلم الله عز وجل نية ﷺ أن علامة النفاق في ذلك الوقت الاستئذان .

﴿ فصل ﴾

وروي عن ابن عباس أنه قال : نسخت هذه الآية بقوله : (لم يذهبوا حتى يستأذنوه ...) إلى آخر الآية [النور : ٦٢] . قال أبو سليمان الدمشقي : وليس للنسخ هاهنا مدخل ، لإمكان العجل بالآيتين ، وذلك أنه إنما عاب على المنافقين أن يستأذنوه في القعود عن الجهاد من غير عذر ، وأجاز للمؤمنين الاستئذان لما يمرض لهم من حاجة ، وكان المنافقون إذا كانوا معه فرضت لهم حاجة ، ذهبوا من غير استئذانه .

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولو أرادوا الخروج) يعني المستأذنين له في القعود .
وفي المراد بالمدة قولان .

أحدهما : النية ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : السلاح ، والركوب ، وما يصلح للخروج ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والانبعاث : الانطلاق . والتببط : ردك الإنسان عن الشيء بفعله .
قوله تعالى : (وقيل اقعدوا) في القائل لهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم ألهموا ذلك خذلاناً لهم ، قاله مقاتل . والثاني : أن النبي ﷺ قاله غضباً عليهم . والثالث : أنه قول بعضهم لبعض ، ذكرها الماوردي .

وفي المراد بالقاعدين قولان .

أحدهما : أنهم القاعدون بغير عذر ، قاله ابن السائب .

والثاني : أنهم القاعدون بعذر ، كالنساء والصبيان ، ذكره علي بن عيسى .
قال الزجاج : ثم أعلم الله عز وجل لم كره خروجهم ، فقال : (لو خرجوا فيكم
مازادوكم إلا خبالاً) والخبال : الفساد وذهاب الشيء . وقال ابن قتيبة :
الخبال : الشر .

فإن قيل : كأن الصحابة كان فيهم خبال حتى قيل : (مازادوكم إلا خبالاً) ؟
فالجواب : أنه من الاستثناء المنقطع ، والمعنى : مازادوكم قوة ، لكن أوقموا
بينكم خبالاً . وقيل : سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ لما خرج ، ضرب
عسكره على ثنية الوداع ، وخرج عبد الله بن أبيّ ، فضرب عسكره على أسفل
من ذلك ؛ فلما سار رسول الله ﷺ ، تخلف ابن أبيّ فيمن تخلف من المنافقين ،
فنزلات هذه الآية ^(١) .

قوله تعالى : (ولأوضعوا خلالكم) قال الفراء : الإيضاع : السير بين القوم .
وقال أبو عبيدة : لأسرعوا بينكم ، وأصله من التخلل . قال الزجاج : يقال : أوضعت
في السير : أسرعت .

قوله تعالى : (يبنونكم الفتنة) قال الفراء : يبنونها لكم . وفي الفتنة قولان .
أحدهما : الكفر ، قاله الضحاك ، ومقاتل ، وابن قتيبة .

(١) قال السيوطي في « الدر » ٤٤٧/٣ : وأخرج ابن اسحاق ، وابن المنذر ، عن
الحسن البصري قال : كان عبد الله بن أبيّ ، وعبد الله بن نبتل ، ورفاعة بن زيد
ابن ثابت من عظماء المنافقين ، وكانوا من يكيد الاسلام وأهله ، وفيهم أنزل الله تعالى :
(لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور ...) إلى آخر الآية ، وهي الآية التي بمد هذه .

والثاني : تفريق الجماعة ، وشتات الكلمة . قال الحسن : لا أضمنوا خلاكم
بالنميمة لإفساد ذات بينكم .

قوله تعالى : (وفيكم سمّاعون لهم) فيه قولان .

أحدهما : عيون يتقلون إليهم أخباركم ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والثاني : من يسمع كلامهم ويطيعهم ، قاله قتادة ، وابن إسحاق .

﴿ لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُوَ كَارِهُونَ ﴾

قوله تعالى : (لقد ابتغوا الفتنة) في الفتنة قولان .

أحدهما : الشر ، قاله ابن عباس . والثاني : الشرك ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (من قبل) أي : من قبل غزوة تبوك .

وفي قوله : (وقلّبوا لك الأمور) خمسة أقوال .

أحدها : بَغَوْا لك الغوائل ، قاله ابن عباس . وقيل : إن اثني عشر رجلاً
من المنافقين وقفوا على طريقه ليلاً ليفتكوا به ، فسلبه الله منهم .

والثاني : احتالوا في تشئت أمرك وإبطال دينك ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قال ابن جرير : وذلك كانصرف ابن أبي يوم أحد بأصحابه .

والثالث : أنه قولهم ماليس في قلوبهم .

والرابع : أنه ميلهم إليك في الظاهر ، وممالة المشركين في الباطن .

والخامس . أنه حلفهم بالله (لو استطعنا لخرجنا معكم) ذكر هذه الأقوال

الثلاثة الماوردي .

قوله تعالى : (حتى جاء الحق) يعني النصر (وظهر أمر الله) يعني الإسلام .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَكُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (ومنهم من يقول ائذن لي) سبب نزولها أن رسول الله ﷺ قال للجعد بن قيس : « يا جعد ، هل لك في جيلاد بني الأصفر ، لعلك أن تنم بعض بنات الأصفر » ، فقال : يا رسول الله ، ائذن لي فأقيم ، ولا تفتني بينات الأصفر . فأعرض عنه ، وقال : « قد أذنت لك » ، ونزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس (١) . وهذه الآية وما بعدها إلى قوله : (إنما الصدقات) في المنافقين . قوله تعالى : (ومنهم) يعني المنافقين (من يقول ائذن لي) أي : في القعود عن الجهاد ، وهو الجعد بن قيس . وفي قوله : (ولا تفتني) أربعة أقوال .

أحدها : لا تفتني بالنساء ، قاله ابن عباس ، وجاهد ، وابن زيد .

والثاني : لا تكسبني الإثم بأمرك إيتاي بالخروج وهو غير متيسر لي ، فأثم بالمخالفة ، قاله الحسن ، وقادة ، والزجاج .

والثالث : لا تكفرني بالزامك إيتاي الخروج ، قاله الضحاك .

والرابع : لا تصرفني عن شغلي ، قاله ابن بحر .

قوله تعالى : (ألا في الفتنة سقطوا) في هذه الفتنة أربعة أقوال .

أحدها : أنها الكفر ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : الحرج ، قاله

علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث : الإثم ، قاله قتادة ، والزجاج . والرابع : العذاب في جهنم ، ذكره الماوردي .

(١) أورده السيوطي في « الدر » ٢٤٨/٣ ، من رواية محمد بن إسحاق ، وابن المنذر ، والبيهقي في « الدلائل » من طريقه عن عاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله بن أبي بكر ابن حزم .

﴿ إِنَّ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ . قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَذَلَّتْوَ كُلِّ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ) أي : نصر وغنيمة . والمصيبة : القتل والهزيمة . (يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا) أي : عَمَلْنَا بِالْحَزْمِ فَلَمْ نَخْرُجْ . (وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ) بمصائبك وسلامتهم .

قوله تعالى : (إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ما قضى علينا ، قاله ابن عباس .

والثاني : ما يئس لنا في كتابه من أننا نظفر فيكون ذلك حسنى لنا ، أو نقتل فتكون الشهادة حسنى لنا أيضاً ، قاله الزجاج .

والثالث : لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ما كتب الله لنا من النصر الذي وعدنا ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (هُوَ مَوْلَانَا) أي : ناصرنا .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِمِزَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْذِنَا فَمَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾

قوله تعالى : (هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا) أي : تنتظرون . والحسنيان : النصر والشهادة . (وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِمِزَابٍ مِنْ عِنْدِهِ) في هذا المذاب قولان .

أحدهما : الصواعق ، قاله ابن عباس . والثاني : الموت ، قاله ابن جرير .
قوله تعالى : (أَوْ بِأَيْدِينَا) يعني : القتل .

﴿ قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (أنفقوا طوعاً أو كرهاً) سبب نزولها أن الجد بن قيس قال للنبي ﷺ لما عرض عليه غزو الروم : إذا رأيت النساء افتننت ، ولكن هذا مالي أعينك به ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس ^(١) . قال الزجاج : وهذا لفظ أمر ، ومعناه معنى الشرط والجزاء ، المعنى : إن أنفقتم طائعين أو مكرهين لن يُتَقَبَلَ منكم . ومثله في الشعر قول كثير :

أَسَيْئِي بِنَا أَوْ أَحْسَنِي لَامِلُومَةً لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ ^(٢)
لم يأمرها بالإساءة ، ولكن أعلمها أنها إن أساءت أو أحسنت فهو على عهدنا . قال
الفراء : ومثله (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) [التوبة : ٨٠] .

﴿ وَمَا مِنْهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا
بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ
إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما منهم أن يُقبَلَ منهم نفقاتهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ،
وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « تقبل » بالثاء . وقرأ حمزة ، والكسائي : « يقبل »

(١) « الطبري » ، ٢٩٤/١٤ ، وفي سنده انقطاع .

(٢) البيت لكثير عزة ديوانه ٥٣/١ ، من قصيدته المشهورة ، و « الطبري » ، ٢٩٤/٢ ،

و ٢٩٣/١٤ ، و « معاني القرآن » للفراء : ٤٤١/١ ، يقال : قلاه يقليه قلى ، فهو مقلي : كرهه وأبغضه ، وتقلى : تبغض ، أي : استعمل من القمل أو القول ما يدعو الى بغضه .

بالياء . قال أبو علي : من أثَّ ، فلأن الفعل مسند إلى مؤنَّث في اللفظ ؛ ومن قرأ بالياء ، فلا نه ليس بتأنيث حقيقي ، فجاز تذكيره ؛ كقوله : (فن جاءه موعظة من ربه) [البقرة : ٢٧٥] . وقرأ الجحدري : « أن يَقْبَل » بياء مفتوحة ، « نفقائهم » بكسر التاء . وقرأ الأعمش : « نفقتهم » بغير ألف ، مرفوعة التاء . وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء : « أن يَقْبَل » بالياء « نفقتهم » بنصب التاء على التوحيد . قوله تعالى : (إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ) قال ابن الأنباري : « أن » هاهنا مفتوحة ، لأنها بتأويل المصدر مرتفعة بـ « منهم » ، والتقدير : وما منعهم قبول النفقة منهم إِلَّا كَفَرُوا بِاللَّهِ .

قوله تعالى : (إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى) قد شرحناه في سورة (النساء : ١٤٢) .

قوله تعالى : (وَلَا يَنْفَقُونَ إِلَّا وَمَ كَارَهُونَ) لأنهم يعدُّون الإنفاق مكرماً .

﴿ فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ) أي : لا تستحسن ما أُنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد . وفي معنى الآية أربعة أقوال .

أحدها : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن قتبية . فعلى هذا ، في الآية تقديم وتأخير ، ويكون تعذيبهم في الآخرة بما صنعوا في كسب الأموال وإنفاقها .

والثاني : أنها على نظمها ، والمعنى : ليعذبهم بها في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد ، ففي لهم عذاب ، وللمؤمنين أجر ، قاله ابن زيد .

والثالث : أن المعنى : ليعذبهم بأخذ الزكاة من أموالهم والنفقة في سبيل الله ، قاله الحسن . فعلى هذا ، ترجع الكناية إلى الأموال وحدها .

والرابع : ليعذبهم بسي أولادهم وغنيمة أموالهم ، ذكره الماوردي . فعلى هذا تكون في المشركون .

قوله تعالى : (وترهق أنفسهم) أي : تخرج ، يقال : زهق السهم : إذا جاوز الهدف .

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْزُقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَفَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

قوله تعالى : (ويحلفون بالله إنهم لمكم) أي : مؤمنون ، و (يَفْزُقُونَ) بمعنى يخافون . فأما المَلْجَأُ ، فقال الزجاج : المَلْجَأُ واللَّجَأُ مقصور مهوز ، وهو المكان الذي يُتَحَصَّنُ فيه . والمفارات : جمع مفارة ، وهو الموضع الذي ينور فيه الإنسان ، أي : يستتر فيه . وقرأ سعيد بن جبير ، وابن أبي عملة : « أَوْ مِفَارَاتٍ » بضم الميم ؛ لأنه يقال : أغرت وغررت : إذا دخلت الغور . وأصل مدخل : مدخل ، ولكن التاء تبدل بعد الدال دالاً ، لأن التاء مهموسة ، والدال مجهورة ، والتاء والدال من مكان واحد ، فكان الـكـم من وجه واحد أخف . وقرأ أبي ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء : « أَوْ مُتَدَخِّلًا » برفع الميم ، وبتاء ودال مفتوحتين ، مشددة الخاء . وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران : « مُنْدَخِلًا » بنون بعد الميم المضمومة . وقرأ الحسن ، وابن يعمر ، ويعقوب : « مدخلًا » بفتح الميم وتخفيف الدال وسكونها . قال الزجاج : من قال : « مَدْخَلًا » فهو من دخل يدخل مدخلًا ؛ ومن قال : « مُدْخَلًا » فهو من أدخلته مُدْخَلًا ، قال الشاعر :

الحمد لله مُمَسَّنَا وَمُصْبِحَنَا بِالْخَيْرِ صَبَحْنَا رَبِّي وَمَسَّانَا ^(١)

ومعنى مُدَّخِلٌ وَمُدَّخِلٌ : أنهم لو وجدوا قوماً يدخلون في جملتهم (لَوَلَّوْا)
إليه ، أي : إلى أحد هذه الأشياء (وهم يجمعون) أي : يسرعون إسراعاً لا يرد
فيه وجوههم شيء . يقال : جمع وطمح : إذا أسرع ولم يردَّ وجهه شيء ؛ ومنه
قيل : فرس جموح للذي إذا حمل لم يرده اللجام .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا
وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾

قوله تعالى : (ومنهم من يلمزك في الصدقات) فيمن نزلت فيه قولان .

أحدهما : أنه ذو الخويرة التميمي ، قال لابي صلى الله عليه وسلم يوماً : اعدل يا رسول الله ،
فنزلت هذه الآية ^(٢) . ويقال : أبو الخواصر . ويقال : ابن ذي الخويرة .

والثاني : أنه ثعلبة بن حاطب ، كان يقول : إنما يعطي محمد من يشاء ، فنزلت
هذه الآية . قال ابن قتيبة : « يلمزك » يعيبك ويظعن عليك . يقال : همزت فلاناً
ولمزته : إذا اغتبته وعبته ؛ والآخر كثرون على كسر ميم « يلمزك » . وقرأ يعقوب ،
ونظيف عن قبل ، وأبان عن عاصم ، والقزاز عن عبد الوارث : « يلمزون » [التوبة : ٧٩]
و« يلمزك » [الحجرات : ١١] بضم الميم فيهن . وقرأ ابن السميع : « يلامزك »
مثل : يفاعلك . وقد رواها حماد بن سلمة عن ابن كثير . قال أبو علي الفارسي :
ويبغني أن تكون فاعلت في هذا من واحد ، نحو : طارقت النمل ، وعافاه الله ،
لأن هذا لا يكون من النبي صلى الله عليه وسلم . وقرأ الأعمش : « يلمزك » بتشديد الميم من

(١) البيت لامية بن أبي الصلت في الأغاني ، ١٢٩/٤ ، ود اللسان ، مسا .

(٢) « الطبري » : ٣٠٣/١٤ وإسناده صحيح ، وقصة ذو الخويرة معرة عن سبب النزول
رواها البخاري في صحيحه ، ٤٥٥/٦ ، ومسلم ١٦٥/٧ من طريق الزهري عن أبي سلمة
ابن عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري .

غير ألف ، مثل : يَفْعَلُكَ . قال الزجاج : يقال : لمزت لرجل ألمِزه وألمِزه ، بكسر الميم وضهما : إذا عبته ، وكذلك : هزته أهمزه ، قال الشاعر :

إِذَا لَقَيْتُكَ مُبْدِي لِي مُكَاشِرَةً وَإِنْ تَغَيَّبْتُ كُنْتَ الْهَامِزَ الشَّمْرَةَ^(١)

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ . إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله) أي : قنعوا بما أعطوا . (إنا إلى الله راغبون) في الزيادة ، أي : لكان خيراً لهم . وهذا جواب « لو » ، وهو محذوف في اللفظ .

ثم يبيِّن المستحق للصدقات بقوله : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) اختلفوا في صفة الفقير والمساكين على ستة أقوال .

أحدها : أن الفقير : المتعفف عن السؤال ، والمساكين : الذي يسأل وبه رَمَقَ ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وجابر بن زيد ، والزهري ، والحكم ، وابن زيد ، ومقاتل .

والثاني : أن الفقير : المحتاج الذي به زمانة ، والمساكين : المحتاج الذي لازمانة به ، قاله قتادة .

(١) البيت لزياد الأعجم في « الطبري » ٣٠١/١٤ ، و « مجاز القرآن » ٢٦٣/١ ، و « شواهد الكشاف » ١٥٢ ، و « إصلاح المنطق » ٤٧٥ ، و « الجهرة » لابن دريد ١٨/٣ ، و « القاموس » ٦٦/٦ ، و « اللسان » : همز .

والثالث : الفقير : المهاجر ، والمسكين : الذي لم يهاجر ، قاله الضحاك بن مزاحم ، والنخعي .

والرابع : الفقير : فقير المسلمين ، والمسكين : من أهل الكتاب ، قاله عكرمة .
والخامس : أن الفقير : من له البُلْغَة من الشيء ، والمسكين : الذي ليس له شيء ، قاله أبو حنيفة ، ويونس بن حبيب ، ويعقوب بن السكيت ، وابن قتيبة .
واحتجوا بقول الراعي :

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلْوَبَتُهُ وَفَقَّ الْعِيَالُ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدٌ ^(١)
فَسَمَاءٌ فَقِيرٌ ، وَلَهُ حَلْوَبَةٌ تَكْفِيهِ وَعِيَالُهُ . وقال يونس : قلت لأعرابي : أفتير أنت ؟
قال : لا والله ، بل مسكين ؛ يريد : أنا أسوأ حالاً من الفقير .

والسادس : أن الفقير أمس حاجةً من المسكين ، وهذا مذهب أحمد ، لأن الفقير مأخوذ من انكسار الفقار ، والمسكنة مأخوذة من السكون والخشوع ، وذلك أبان . قال ابن الأنباري : ويروى عن الأصمعي أنه قال : المسكين أحسن حالاً من الفقير . وقال أحمد بن عبيد : المسكين أحسن حالاً من الفقير ، لأن الفقير أصله في اللغة : المفقور الذي نزع فقره من فقر ظهره ، فكأنه انقطع ظهره من شدة الفقر ؛ فصُرف عن مفقور إلى فقير ، كما قيل : مجروح وجريح ، ومطبوخ وطبيخ ، قال الشاعر :

(١) ديوانه ٥٥ ، و د إصلاح الخط ٣٢٦ ، و د الاقتضاب ١١٤ ، والحلوبة : الناقة التي تحلب ، وقوله : وفق العيال ، أي : لها ابن قدر كفايتهم لأفضل فيه عنهم . وقيل : قدر مايقوتهم ، وكل شيء طابق شيئاً فهو وفق له . والسبد : الثمر . وقيل : الوبر . فإذا قيل : ماله سبد ولا لبد ، فمعناه : ماله ذو وبر ولا صوف متلبد ، بكى بها عن الأبل والنم .

كَمَا رَأَى لُبَيْدُ النَّسُورِ تَطَابَرَتْ رَفَعَ الْقَوَادِمَ كَالْفَقِيرِ الْأَعْزَلِ^(١)
قال : ومن الحجة لهذا القول قوله : (وأما السفينة فكانت لمساكين يعملون في
البحر) [الكهف : ٧٩] ، فوصف بالمسكنة من له سفينة تساوي مالا ؛ قال : وهو
الصحيح عندنا .

قوله تعالى : (والعاملين عليها) وهم السعاة لجباية الصدقة ، يُعْطَوْنَ منها
بقدر أجور أمتلهم ، وليس ما يأخذونه بركة .

قوله تعالى : (والمؤلفة قلوبهم) وهم قوم كان رسول الله ﷺ يتألفهم على
الإسلام بما يعطيهم ، وكانوا ذوي شرف ، وهم صنفان : مسلمون ، وكافرون . فأما
المسلمون ، فصنفان ؛ صنف كانت نيئاتهم في الإسلام ضعيفة ، فتألفهم تقوية
لنيئاتهم ، كمُعَيِّنَةُ بن حصن ، والأقرع ؛ وصنف كانت نياتهم حسنة ، فأعطوا
تألفاً لعشائرهم من المشركين ، مثل عدي بن حاتم . وأما المشركون ، فصنفان ؛
صنف يقصدون المسلمين بالأذى ، فتألفهم دفعا لأذام ، مثل عامر بن الطفيل ؛
وصنف كان لهم ميل إلى الإسلام ، تألفهم بالعطية ليؤمنوا ، كصفوان بن أمية .
وقد ذكرت عدد المؤلفة في كتاب « التلقيح » . وحكمهم باقٍ عند أحمد في رواية ،
وقال أبو حنيفة ، والشافعي : حكمهم منسوخ . قال الزهري : لا أعلم شيئا نسخ
حكم المؤلفة قلوبهم .

قوله تعالى : (وفي الرقاب) قد ذكرناه في سورة (البقرة : ١٧٧) .

(١) البيت للبيد ، ديوانه ٢٧٤ ، ود اللسان : فقر ، ود معجم البلدان ٢٧٨/٦ ، ود معجم
مقاييس اللغة ٩٠/٤ ، ود الحيوان ٣٢٦/٦ ، وقوله : كالفقير ، ويروى : كالفقير ، ويروى :
كالكسير . والأعزل : المائل الذنب توصف به الخيل . والقوادم : أربع ريشات في مقدم الجناح ، الواحدة :
قادمة ، والفقير : المكسور الفقار ، وهي ما اقتضد من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى المعجب .

قوله تعالى : (والظالمين) وهم الذين لزمهم الدين ولا يجدون القضاء : قال قتادة : هم ناس عليهم دين من غير فساد ولا إسراف ولا تبذير ، وإنما قال هذا ، لأنه لا يؤمن في حق المفسد إذا قضي دينه أن يعود إلى الاستدانة لذلك ؛ ولا خلاف في جواز قضاء دينه ودفع الزكاة إليه ، ولكن قتادة قاله على وجه الكراهية .

قوله تعالى : (وفي سبيل الله) يعني : الفزاة والمرابطين . ويجوز عندنا ^(١) أن يعطى الأغنياء منهم والفقراء ، وهو قول الشافعي . وقال أبو حنيفة : لا يعطى إلا الفقير منهم . وهل يجوز أن يصرف من الزكاة إلى الحج ، أم لا ؟ فيه عن أحمد روايتان .

قوله تعالى : (وابن السبيل) هو المسافر المتقطع به ، وإن كان له مال في بلده ؛ قاله مجاهد ، وقاتدة ، وأبو حنيفة ، وأحمد . فأما إذا أراد أن ينشئ سفراً ، فهل يجوز أن يعطى ؟ قال الشافعي : يجوز ، وعن أحمد مثله ؛ وقد ذكرنا في سورة (البقرة : ١٧٧) فيه أقوالاً عن المفسرين .

قوله تعالى : (فريضة من الله) يعني أن الله اقترض هذا .

﴿ فصل ﴾

وحد الغني الذي يمنع أخذ الزكاة عند أصحابنا بأحد شيئين : أن يكون مالكا لحسين درهما ، أو عديها من الذهب ، سواء كان ذلك يقوم بكفايته ، أو لا يقوم . والثاني : أن يكون له كفاية ، إما من صناعة ، أو أجرة عقار ، أو عروض

(١) أي : عند الحاجة .

للتجارة يقوم ربها بكفايته . وقال أبو حنيفة : الاعتبار في ذلك أن يكون مالكا لنصاب تجب عليه فيه الزكاة . فأما ذوو القربى الذين تحرم عليهم الصدقة ، فهم بنو هاشم ، وبنو المطلب . وقال أبو حنيفة : تحرم على ولد هاشم ، ولا تحرم على ولد المطلب . ويجوز أن يعمل على الصدقة من بني هاشم وبني المطلب ويأخذ عماله منها ، خلافاً لأبي حنيفة . فأما موالى بني هاشم وبني المطلب ، فتحرم عليهم الصدقة ، خلافاً لمالك . ولا يجوز أن يعطي صدقته مَنْ تَلَزَمَهُ نَفَقَتُهُ ؛ وبه قال مالك ، والثوري . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يعطي والدًا وإن علا ، ولا ولدًا وإن سفل ، ولا زوجة ، ويعطي مَنْ عَدَامَ . فأما الذي ؛ فالأكثر على أنه لا يجوز إعطاؤه . وقال عبيد الله بن الحسن : إذا لم يجد مسلماً ، أعطى الذي . ولا يجب استيعاب الأصناف ، ولا اعتبار عدد من كل صنف ؛ وهو قول أبي حنيفة ، ومالك ؛ وقال الشافعي : يجب الاستيعاب من كل صنف ثلاثة .

فأما إذا أراد نقل الصدقة من بلد المال إلى موضع تُقصر فيه الصلاة ، فلا يجوز له ذلك ، فإن نقلها لم يُجزئه ؛ وهو قول مالك ، والشافعي . وقال أبو حنيفة : يكره نقلها ، وتجزئه . قال أحمد : ولا يعطى الفقير أكثر من خمسين درهماً . وقال أبو حنيفة : أكره أن يعطى رجل واحد من الزكاة مائتي درهم ، وإن أعطيته أجزاء . فأما الشافعي ، فاعتبر ما يدفع الحاجة من غير حد . فإن أعطى من يظنه فقيراً ، فبان أنه غني ، فهل يجزى ؛ فيه عن أحمد روايتان .

﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
قوله تعالى : (ومنهم الذين يؤذون النبي) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن خِذَام بن خالد ، والجُلَّاس بن سويد ، وعبيد بن هلال في آخرين ، كانوا يؤذون رسول الله ﷺ ، فقال بعضهم لبعض : لاتفعلوا ، فانا نخاف أن يبلّغه فيقع بنا ، فقال الجلّاس : بل نقول ماشئنا ، فأما محمد أُذُنُ سامعة ، ثم تأتيه فيصدّقنا ؛ فنزلت هذه الآية ؛ قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن رجلاً من المنافقين يقال له : نَبْتُك بن الحارث ، كان يُم حديث رسول الله ﷺ إلى المنافقين ، فقيل له : لاتفعل ؛ فقال : إنما محمد أُذُن ، لم يَن حديثه شيئاً ، صدقه ؛ نقول ماشئنا ، ثم تأتيه فتحتلف له فيصدقنا ، فنزلت هذه الآية ؛ قاله محمد بن إسحاق ^(١) .

والثالث : أن ناساً من المنافقين منهم جلاس بن سويد ، ووديمة بن ثابت ، اجتمعوا ، فأرادوا أن يقيموا في النبي ﷺ ، وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر ابن قيس ، فحقروه ، فتكلموا وقالوا : لئن كان مايقوله محمد حقاً ، لنحن شر من الخير ، فغضب الغلام ، وقال : والله إن مايقوله محمد حق ، وإنكم لشر من الخير ؛ ثم أتى النبي ﷺ فأخبره ، فدعاهم فسألهم ، فحلفوا أن عامراً كاذب ، وحلف عامر أنهم كذّبوا ، وقال : اللهم لا تفرّق بيننا حتى تبين صدق الصادق ، وكذب الكاذب ؛ فنزلت هذه الآية ، ونزل قوله : (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) ، قاله السدي ^(٢) . فأما الأذى ، فهو عيبه ونقل حديثه . ومعنى (أُذُنٌ) يقبل كل ما قيل

(١) « الطبري » ، ٣٢٥/١٤ ، و « أسباب النزول » ، للواحيدي ١٤٣ ، وأورده السيوطي

في « الدر » ، وزاد نسبه لابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

(٢) « أسباب النزول » ، للواحيدي ١٤٣ عن السدي ، ووأرده « الطبري » ، ٣٢٩/١٤ ، ٣٣٠ عن

قتادة سبباً لنزول الآية التي بعدها (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) ، وأورده السيوطي كذلك في « الدر » ، ٢٥٣/٣ عن قتادة من طريق ابن أبي حاتم ، وابن المنذر ، وعن السدي من طريق ابن أبي حاتم .

له . قال ابن قتبية : الأصل في هذا أن الأذن هي السامعة ، فقيل لكل من صدق بكل خبر يسمعه : أذن . وجهور القراء يقرؤون (هو أذنٌ قُلْ أذنٌ) بالثقل . وقرأ نافع « هو أذنٌ قُلْ أذنٌ خير » باسكان الذال فيها . ومعنى « أذنٌ خيرٌ لكم » أي : أذن خير ، لا أذنٌ شرٌّ ؛ يسمع الخير فيعمل به ، ولا يعمل بالشرِّ إذا سمعه . وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وابن عمر ، وابن أبي عتبة « أذنٌ » بالتثنية « خيرٌ » بالرفع . والمعنى : إن كان كما قلتم ، يسمع منكم ويصدقكم ، خيرٌ لكم من أن يكذبكم . قال أبو علي : يجوز أن تطلق الأذن على الجملة ، كما قال الخليل : إنما سميت الناب من الإبل ، لمكان الناب البازل ، فسميت الجملة كلها به ، فأجروا على الجملة اسم الجارحة لإرادتهم كثرة استعماله لها في الإصغاء بها .

ثم يسن ممن يقبل ، فقال (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) قال ابن قتبية : الباء واللام زائدتان ؛ والمعنى : يصدق الله ويصدق المؤمنين . وقال الزجاج : يسمع ما ينزله الله عليه ، فيصدق به ، ويصدق المؤمنين فيما يخبرونه به . (ورحمةٌ) أي : وهو رحمة ، لأنه كان سبب إيمان المؤمنين . وقرأ حمزة « ورحمةٍ » بالخفض . قال أبو علي : المعنى : أذنٌ خيرٍ ورحمةٍ . والمعنى : مستمعٌ خيرٍ ورحمةٍ .

﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ) قال ابن السائب : نزلت في جماعة من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فلما رجع النبي ﷺ ، أتوا المؤمنين يمتدرون إليهم ، ويخلفون ويمتلتون . وقال مقاتل : منهم عبد الله بن أبي ، حلف لا يتخلف

عن رسول الله ﷺ ، وليكوننَّ معه على عدوه . وقد ذكرنا في الآية التي قبلها أنهم حلفوا أنهم ما نطقوا بالغيب . وحكى الزجاج عن بعض النحويين أنه قال : اللام في « ليرضوكم » بمعنى القسم ، والمعنى : يحلفون بالله لكم ليرضينكم . قال : وهذا خطأ ، لأنهم إنما حلفوا أنهم ما قالوا ما حكي عنهم ليرضوا باليمين ، ولم يحلفوا أنهم يرضون في المستقبل . قلت : وقول مقاتل يؤكد ما أنكره الزجاج ، وقد مال إليه الأخفش .

قوله تعالى : (واللهُ ورسولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ) فيه قولان .

أحدهما : بالتوبة والإجابة . والثاني : بترك الطعن والغيب .

فإن قيل : لم قال : « يُرْضَوْهُ » ولم يقل : يرضوها ؟ فقد شرحنا هذا عند قوله : (ولا ينفقونها في سبيل الله) [التوبة : ٣٤] .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمُوا) روى أبو زيد عن المفضل « أَلَمْ تَعْلَمُوا » بالتاء . (أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ) فيه قولان .

أحدهما : من يخالف الله ، قاله ابن عباس .

والثاني : من يعادي الله ، كقولك : من يُجَانِبِ اللَّهَ ورسوله ، أي : يكون في حدِّ ، واللهُ ورسوله في حدِّ .

قوله تعالى : (فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ) قرأ الجمهور : « فَأَنَّ » بفتح الهمزة . وقرأ أبو رزين ، وأبو عمران ، وابن أبي عملة : بكسرهما . فن كسر ، فعلى الاستثناف بعد الفاء ، كما تقول : فله نار جهنم . ودخلت « إِنَّ » مؤكدة . ومن قال :

« فَأَنَّ لَهُ » فاعلم أعاد « أَنَّ » الأولى تأكيداً ؛ لأنه لما طال الكلام ، كان إعدادتها أوكد .

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَاتَحْذَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (يحذر المنافقون) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المنافقين كانوا يعبون رسول الله ﷺ فيما ينهم ، ويقولون : عسى الله أن لا يفشي سرنا ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد .

والثاني : أن بعض المنافقين قال : لوددت أني جُلدت مائة جلدة ، ولا ينزل فينا شيء . يفضحنا ، فنزلت هذه الآية ، قاله السدي ^(١) .

والثالث : أن جماعة من المنافقين وقفوا للنبي ﷺ في ليلة مظلمة عند مرجعه من تبوك ليفتكوا به ، فأخبره جبريل عليه السلام ، ونزلت هذه الآية ، قاله ابن كيسان .

وفي قوله : (يحذر المنافقون) قولان .

أحدهما : أنه إخبار من الله عز وجل عن حالهم ، قاله الحسن ، وقادة ، واختاره ابن القاسم .

والثاني : أنه أمر من الله عز وجل لهم بالحدز ، فتقديره : ليحذر المنافقون ، قاله الزجاج . قال ابن الأثاري : والعرب ربما أخرجت الأمر على لفظ الخبر ، فيقولون : يرحم الله المؤمن ، ويمذب الكافر ؛ يريدون : ليرحم وليعذب ، فيسقطون اللام ، ويَجْزُوْنَهُ مجرى الخبر في الرفع ، وهم لا ينوون إلا الدعاء ؛ والدعاء مضارع للأمر .

(١) « أسباب النزول » للواحيدي ١٤٣ .

قوله تعالى : (قل استهزؤا) هذا وعيد خرج مخرج الأمر تهديداً .

وفي قوله : (إن الله يخرج الماحذرون) وجهان :

أحدهما : مظهر ما يُستَهزؤون . والثاني : ناصر مَنْ تَحذرون ، ذكرهما الماوردي .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤْنَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ . إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولئن سألتهم) في سبب نزولها ستة أقوال .

أحدها : أن جَدَّ بن قيس ، ووديمة بن خدام ، والجُهَيْر بن مُخَنِم ، كانوا يسرون بين يدي رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك ، فجعل رجال منهم يستهزآن برسول الله ﷺ ، والثالث يضحك مما يقولان ولا يتكلم بشيء ، فنزل جبريل فأخبره بما يستهزؤون به ويضحكون ؛ فقال لعمار بن ياسر « اذهب فسلهم عما كانوا يضحكون منه ، وقل لهم : أحرقكم الله » فلما سألهم ، وقال : أحرقكم الله ؛ علموا أنه قد نزل فيهم قرآن ، فأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ ، وقال الجُهَيْر : والله ما تكلمت بشيء ، وإنما ضحكت تعجباً من قولهم ؛ فنزل قوله : (لا تعتذروا) يعني جَدَّ بن قيس ، ووديمة (إن يُعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ) يعني الجُهَيْر (نَعَذِّبْ طَائِفَةً) يعني الجَدَّ ووديمة ، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس . والثاني : أن رجلاً من المنافقين قال : مارأيت مثل قرائنا هؤلاء ، ولا أرغب بطوناً ، ولا أكذب ، ولا أجبن عند اللقاء ؛ يعني رسول الله ﷺ وأصحابه ؛ فقال له عوف بن مالك : كذبت ، لكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ ؛

فذهب ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ؛ فجاء ذلك الرجل ، فقال : يا رسول الله ،
 إنما كنا نخوض ونلعب ، هذا قول ابن عمر ، وزيد بن أسلم ، والقرظي .
 والثالث : أن قوماً من المنافقين كانوا يسرون مع رسول الله ﷺ ، فقالوا :
 إن كان ما يقول هذا حقاً ، لنحن شرٌّ من الحمير ؛ فأعلم الله نبيه ما قالوا ، ونزلت
 (ولئن سألتهم) ، قاله سعيد بن جبير .

والرابع : أن رجلاً من المنافقين قال : يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا
 وكذا ، وما يُدريه ما النيب ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد .
 والخامس : أن ناساً من المنافقين قالوا : يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور
 الشام وحصونها ، هيهات ؛ فأطاع الله نبيه على ذلك ، فقال نبي الله ﷺ :
 « احبسوا علي الرُّكْب » ، فأتاهم ، فقال : « قلم كذا وكذا » ، فقالوا : إنما كنا
 نخوض ونلعب ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة ^(١) .

والسادس : أن عبد الله بن أبيّ ، ورهطاً معه ، كانوا يقولون في رسول الله
 وأصحابه ما لا ينبغي ، فإذا بلغ رسول الله ﷺ قالوا : إنما كنا نخوض ونلعب ،
 فقال الله تعالى : (قل) لهم (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) ، قاله الضحاك .
 فقوله : (ولئن سألتهم) أي : عما كانوا فيه من الاستهزاء (ليقولنَّ إنما كنا
 نخوض ونلعب) أي : نلهو بالحديث . وقوله : (قد كفرتم) أي : قد ظهر
 كفركم بعد إظهاركم الإيمان ؛ وهذا يدل على أن الجِدَّ واللَّعب في إظهار كلمة
 الكفر سواء .

قوله تعالى : (إن يُعْذَرَ عن طائفة منكم) قرأ الأكثرون « إن يُعْذَرَ »

(١) الطبري ، ٣٣٤/١٤ ، و « أسباب النزول » ، للواحيدي ١٤٣ - ١٤٤ ، وذكره

السيوطي في « الدر » ، ٣٥٤/٣ من رواية ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ .

زاد المسير ٣ م (٣٠)

بالباء ، « تُعَذِّبُ » بالتاء . وقرأ حاصم غير أبان « إِنْ نَعَفُ » ، « تُعَذِّبُ » ، بالنون فيها ونصب « طائفة » ، والمعنى : إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ بِالتَّوْفِيقِ لِلتَّوْبَةِ ، نَعَذِّبُ طَائِفَةً بِتَرْكِ التَّوْبَةِ . وقيل : الطائفتان هاهنا ثلاثة ؛ فاستهزأ اثنان ، وضحك واحد . ثم أُنْكَرَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ مَا سَمِعَ . وقد ذكرنا عن ابن عباس أسماء الثلاثة ، وأن الضاحك اسمه الجُهَيْرُ ، وقال غيره : هو غُخْشِي بن خُمَيْرٍ . وقال ابن عباس ومجاهد : الطائفة : الواحد فما فوقه . وقال الزجاج : أصل الطائفة في اللغة : الجماعة ؛ ويجوز أن يقال للواحد : طائفة ، يراد به : نفس طائفة . قال ابن الأثيري : إذا أُريدَ بالطائفة الواحد ، كان أصلها طائفاً ، على مثال : قائم وقاعد ، فتدخل الهاء للمباغة في الوصف ، كما يقال : راوية ، علامة ، نصابة . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما فرغ من تنزيل (برائة) حتى ظننا أن لن يبقى منا أحد إلا سينزل فيه شيء .

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْتِرُونَ
بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ
فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ
اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ . كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ
قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ
بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِعْتُمْ
كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْخَاسِرُونَ . أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ
وَإِدْرِ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ

رُسِّلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) قال ابن عباس : بعضهم على دين بعض . وقال مقاتل : بعضهم أولياء بعض ، (يأمرؤن بالئكر) وهو الكفر ، (وينهون عن المروف) وهو الإيمان . وفي قوله : (ويقبضون أيديهم) أربعة أقوال .

أحدها : يقبضونها عن الإتفاق في سبيل الله ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد . والثاني : عن كل خير ، قاله قتادة . والثالث : عن الجهاد في سبيل الله . والرابع : عن رفعها في الدعاء الى الله تعالى ، ذكرها الماوردي .

قوله تعالى : (نسوا الله فنسيهم) قال الزجاج : تركوا أمره ، فتركهم من رحمته وتوفيقه . قال : وقوله : (هي حسبهم) أي : هي كفاية ذنوبهم ، كما تقول : عذبتك حسب فعلك ، وحسب فلان ما نزل به ، أي : ذلك على قدر فعله . وموضع الكاف في قوله : (كالذين من قبلكم) نصب ، أي : وعدكم الله على الكفر به كما وعد الذين من قبلكم . وقال غيره : رجع عن الخبر عنهم إلى مخاطبتهم ، وشبههم في العدول عن أمره بمن كان قبلهم من الأمم الماضية .

قوله تعالى : (فاستمتعوا بخلاقيهم) قال ابن عباس : استمتعوا بنصيبتهم من الآخرة في الدنيا . وقال الزجاج : بحظهم من الدنيا .

قوله تعالى : (وخضتم) أي : في الطعن على الدين وتكذيب نبيكم كما خاضوا . (أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا) لأنهم لم يقبل منهم ، وفي الآخرة ، لأنهم لا يثابون عليها ، (وأولئك هم الخاسرون) بفوت الثواب وحصول العقاب .

قوله تعالى : (وقوم إبراهيم) قال ابن عباس : يريد نمرود بن كنعان (وأصحاب مدين) يعني قوم شعيب . (والمؤتفكات) قرى لوط . قال الزجاج : وم جمع مؤتفكة ، اتفكت بهم الأرض ، أي : انقلبت . قال : ويقال : إنهم جميع من أهلك ، [كما] يقال : للهالك : انقلبت عليه الدنيا .

قوله تعالى : (أنتم) يعني هذه الأمم (رسلهم بالبينات) فكذبوا بها ، (فما كان الله ليظلمهم) قال ابن عباس : ليسلكهم حتى يبعث فيهم نبياً ينذرهم ، والمعنى أنهم أهلكوا باستحقاقهم .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرُسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

قوله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) أي : بعضهم يوالي بعضاً ، فهم يد واحدة ، يأمرون بالإيمان ، وينهون عن الكفر .

قوله تعالى : (في جنات عدن) قال أبو عبيدة : في جنات 'خذ' ، يقال : عدن فلان بأرض كذا ، أي : أقام ؛ ومنه : المعدن ، وهو في معدن صدق ، أي : في أصل ثابت . قال الأعشى :

وإن تستضيفوا إلى حِلْمِهِ تُضافوا إلى راجع قد عدن^(١)

(١) ديوانه ١٧ ، و د مجاز القرآن ، ٢٦٤/١ ، و الطبري ، ٣٥٠/١٤ ، و د اللسان وزن . واستضاف إليه : لجأ إليه عند الحاجة .

أي : رزين لا يُستخف . قال ابن عباس : جنات عدن ، هي بُطنان الجنة ، وبُطنانها : وسطها ، وهي أعلى درجة في الجنة ، وهي دار الرحمن عز وجل ، وسقفها عرشه ، خلقها يده ، وفيها عين التسليم ، والجنان حولها محدقة بها .

قوله تعالى : (ورضوان من الله أكبر) قال ابن عباس : أكبر مما بوصف . وقال الزجاج : أكبر مما هم فيه من النعيم .

فان قيل : لم كان الرضوان أكبر من النعيم ؟ فنه جوابان .

أحدهما : أن سرور القلب برضى الرب نعيم يختص بالقلب ، وذاك أكبر من نعيم الأكل والشرب . وفي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « يقول الله عز وجل لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا ومالنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك ، فيقول : أفلا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ قال : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم أبداً » (١) .

والثاني : أن الموجب للنعيم الرضوان ، والموجب ثمرة الموجب ، فهو الأصل .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

قوله تعالى : (جاهد الكفار والمنافقين) أما جهاد الكفار ، فبالسيف . وفي

جهاد المنافقين قولان .

أحدهما : أنه باللسان ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والضحاك ، والربيع بن أنس .

والثاني : جهادهم بأقامة الحدود عليهم ، روي عن الحسن ، وقتادة .

(١) رواه البخاري في « صحيحه » ، ٣٦٣/١١ - ٣٦٤ ، ومسلم ٢١٧٦/٤ .

فان قيل : إذا كان رسول الله ﷺ قد أمر بجهادهم وهو يعلم أعيانهم ، فكيف تركهم بين أظهر أصحابه فلم يقتلهم ؟
 فالجواب : أنه إنما أمر بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام عليها ، فأما من إذا أطلع على كفره ، أنكر وحلف وقال : إني مسلم ، فانه أمر أن يأخذه بظاهر أمره ، ولا يبحث عن سره .

قوله تعالى : (واغلاظ عليهم) قال ابن عباس : يريد شدة الانتهاز لهم ، والنظر بالبغضة والمقت . وفي الهاء والميم من « عليهم » قولان .
 أحدهما : أنه يرجع إلى الفريقين ، قاله ابن عباس .
 والثاني : إلى المنافقين ، قاله مقاتل .

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

قوله تعالى : (يحلفون بالله ما قالوا) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .
 أحدها : أن رسول الله ﷺ ذكر المنافقين فعابهم ؛ فقال الجلاس بن سويد : إن كان ما يقول على إخواننا حقاً ، لنحن شرٌّ من الحمير . فقال عامر بن قيس : والله إنه لصديق ، ولأنتم شرٌّ من الحمير ؛ وأخبر رسول الله ﷺ بذلك ، فأتى الجلاس فقال : ما قلت شيئاً ، فحلفا عند المنبر ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وذهب إلى نحوه الحسن ، ومجاهد ، وابن سيرين .

والثاني : أن عبد الله بن أبيّ قال : والله اثن رجعا إلى المدينة ، ليُخرجن الأعرض منها الأذل ، فسمعه رجل من المسلمين ، فأخبر رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه ، فجعل يحلف بالله ما قال ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة .

والثالث : أن المنافقين كانوا إذا خلّوا ، سبّوا رسول الله ﷺ وأصحابه ، وطعنوا في الدين ؛ فقتل حذيفة إلى رسول الله ﷺ بعض ذلك ، فحلفوا ما قالوا شيئا ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك . فأما كلمة الكفر ، فهي سبهم رسول الله ﷺ ، وطعنهم في الدين . وفي سبب قوله : (وهموا بما لم ينالوا) أربعة أقوال .
أحدها : أنها نزلت في ابن أبيّ حين قال : اثن رجعا إلى المدينة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثاني : أنها نزلت فيهم حين همّوا بقتل رسول الله ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، قال : والذي همّ رجل يقال له : الأسود . وقال مقاتل : هم خمسة عشر رجلا ، همّوا بقتله ليلة العقبة .

والثالث : أنه لما قال بعض المنافقين : إن كان ما يقول محمد حقا ، فنحن شرّ من الخير ؛ وقال له رجل من المؤمنين : لأنتم شرّ من الخير ، همّ المنافق بقتله ؛ فذلك قوله : (وهموا بما لم ينالوا) ، هذا قول مجاهد .

والرابع : أنهم قالوا في غزوة تبوك : إذا قدمنا المدينة ، عقدنا على رأس عبد الله بن أبيّ تاجا نباهي به رسول الله ﷺ ؛ فلم ينالوا ما همّوا به .

قوله تعالى : (وما تقموا إلا أن أغناهم الله) قال ابن قتيبة : أي : ليس ينقمون شيئا ، ولا يتعرفون من الله إلا الصنع ، ومثله قول الشاعر :

مَانَقَمَ النَّاسُ مِنْ أُمِّيَّةٍ إِلَّا أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا^(١)

(١) البيتان لعبد الله بن قيس الرقيات ديوانه : ٤ ، ود الكامل : ٤٨ ، ودر طبقات فحول الشعراء . —

وَأَنَّهُمْ سَادَةُ الْمُلُوكِ وَلَا تَصْلَحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ
وهذا ليس مما يُنقم ، وإنما أراد أن الناس لا ينقمون عليهم شيئاً ، وكقول النابغة :
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ بِيَهِنٌ قُلُوبٌ مِّنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ ^(١)
أي : ليس فيهم عيب . قال ابن عباس : كانوا قبل قدوم النبي ﷺ المدينة في
ضنك من معاشهم ، فلما قدم عليهم ، غنموا ، وصارت لهم الأموال . فعلى هذا ،
يكون الكلام عامّاً . وقال قتادة : هذا في عبد الله بن أبي . وقال عروة : هو
الجلال بن سويد ، قُتل له مولى ، فأمر له رسول الله ﷺ بديته ، فاستغنى ؛
فلما نزلت (فَاَن يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ) قال الجلاس : أنا أتوب إلى الله .

قوله تعالى : (وَإِنْ يَتُوبُوا) أي : يعرضوا عن الإيمان . قال ابن عباس :
كما تولى عبد الله بن أبي ، (يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا) بالقتل ، وفي
الآخرة بالنار .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ
وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ) في سبب نزولها أربعة أقوال .
أحدها : أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، أتى رسول الله ﷺ فقال :
يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً ، فقال : « ويحك يا ثعلبة ، قليلٌ تؤدي
شكره » ، خير من كثير لا يطيقه » قال : ثم قال مرة أخرى ، فقال : « أما ترضى
أن تكون مثل نبي الله ؟ فوالذي نفسي بيده ، لو شئتُ أن تسير معي الجبال

— ٥٣٣ ود مجاز القرآن ١/ ١٧٠ ، ود الأغاني ٤/ ١٦٠ ، ود غريب القرآن : ١٩٠ ،

ود السمع ٢٩٥ ، ود شواهد المغني ٢١١ ود الخزانة ٣/ ٢٦٨ .

(١) ديوانه ١١ ، ود مختار الشعر الجاهلي ١٦١ ، ود المعجم ٤٥/ ٢ ، ود الصناعتين ٤٠٨ .

ذهباً وفضة ، لسارت » فقال : والذي بعثك بالحق ، لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً ، لأؤتين كل ذي حق حقه . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارزق ثعلبة مالاً » فاتخذ غنماً ، فممت ، فضاعت عليه المدينة ، فتحنى عنها ، ونزل وادياً من أوديتها ، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ، ويترك ماسواهما . ثم نمت ، حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، ثم نمت ، فترك الجمعة . فسأل عنه رسول الله ﷺ ، فأخبر خبره ، فقال : « يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة » وأنزل الله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة) [التوبة : ٩] ، وأنزل فرائض الصدقة ؛ فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة ، وكتب لهما كتاباً يأخذان الصدقة ، وقال : « مُرّاً بعلبة ، وبفلان » رجل من بني سليم ، فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة ، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ ؛ فقال : ماهذا إلا جزية ، ماهذه إلا أخت الجزية ، ما أدري ماهذا ، انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلي . فانطلقا ؛ فأخبر السلمي ، فاستقبلها بخيار ماله ، فقالا : لا يجب هذا عليك ؛ فقال : خذاه ، فان نفسي بذلك طيبة ؛ فأخذا منه . فلما فرغا من صدقتها ، مرّاً بعلبة ، فقال : أروني كتابكما ، فقال : ماهذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى أرى رأيي ، فانطلقا ، فأخبر رسول الله ﷺ بما كان ، فنزلت هذه الآية إلى قوله : (بما كانوا يكذبون) ، وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة ، فخرج إلى ثعلبة ، فأخبره ؛ فأنى رسول الله ، وسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال : « إن الله قد منعني أن أقبل منك صدقتك » ؛ فجعل يحثو التراب على رأسه . فقال : « هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني » . فرجع إلى منزله ، وقبض رسول الله ، ولم يقبل منه شيئاً ، فلما ولي أبو بكر ، سأله أن يقبل منه ، فأبى . فلما ولي عمر ، سأله أن يقبل منه ، فأبى . فلما ولي عثمان ، سأله أن يقبلها ؛ فقال : لم يقبلها رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر ، فلم يقبلها ؛

وهلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه . روى هذا الحديث القاسم عن أبي أمامة الباهلي ^(١) . وقال ابن عباس : مرّ ثعلبة على مجلس ، فأشهدهم على نفسه : لئن آتاني الله من فضله ، آتيت كل ذي حق حقه ، وفعلت كذا وكذا . فأناه الله من فضله ، فأخلف ما وعد ؛ فقص الله علينا شأنه .

والثاني : أن رجلاً من بني عمرو بن عوف ، كان له مال بالشام ، فأبطأ عنه ، فجهد له جهداً شديداً ، فحلف بالله لئن آتانا من فضله ، أي : من ذلك المال ، لأصدقن منه ، ولأصلن ، فأناه ذلك المال ، فلم يفعل ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس . قال ابن السائب : والرجل حاطب بن أبي بلتعة .

والثالث : أن ثعلبة ، ومُعْتَب بن قُشَيْر ، خرجا على ملا ، فقالا : والله لئن رزقنا الله لنصدقن . فلما رزقها ، بخلا به ، فنزلت هذه الآية ، قاله الحسن ، ومجاهد .

والرابع : أن نبتل بن الحارث ، وجدّ بن قيس ، وثعلبة بن حاطب ، ومُعْتَب بن قشير ، قالوا : لئن آتانا الله من فضله لنصدقن . فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك .

فأما التفسير ، فقوله : (ومنهم) يعني المنافقين (من عاهد الله) أي : قال : عليّ عهد الله (لنصدقن) الأصل : لتصدقن ، فأدغمت التاء في الصاد لقربها منها .

(١) د الطبري ، ٣٧١/١٤ - ٣٧٢ وخرجه الهيثمي في « المجمع » ٣١/٧ - ٣٢ وقال : رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألطفي وهو متروك . وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج أحاديث الكشاف » : رواه الطبراني ، والبيهقي في « الدلائل » ، و « الشعب » ، وابن أبي حاتم ، والطبري ، وابن مردويه ، كلهم من طريق علي بن يزيد الألطفي عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة ، وقال : وهذا إسناد ضعيف جداً .

(وَاَتُكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) أي : لنعملنَّ ما يعمل أهل الصلاح في أموالهم من صلة الرحم والإففاق في الخير . وقد روى كَهْمَسٌ عن مَعْبِدِ بْنِ نَابِتٍ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ نَوَّهَ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَلَمْ يَنْكَلُمُوا بِهِ ؛ أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِ : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ) ؟

﴿ فَلَمَّا آتَتْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾
قوله تعالى : (فلما آتاهم من فضله) أي : ما طلبوا من المال (بخلوا به) ولم يفوا بما عاهدوا (وتولَّوا وهم معرضون) عن عهدهم .

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾
قوله تعالى : (فأعقبهم) أي : صيَّر عاقبة أمرهم النفاق .

وفي الضمير في « أعقبهم » قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الله ، فالمعنى : جازاهم الله بالنفاق ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : أنها ترجع إلى البخل ، فالمعنى : أعقبهم بخلفهم بما نذروا نفاقاً ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمُوا) يعني المنافقين (أن الله يعلم سِرَّهُمْ) وهو ما في

نفوسهم (ونجواهم) حديثهم بينهم .

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (الذين يلزمون المطوعين) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أنه لما نزلت آية الصدقة ، جاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لَغَنِيٌّ عن صاع هذا ، فنزلت هذه الآية ^(١) ، قاله أبو مسعود ^(٢) .

والثاني : أن عبد الرحمن بن عوف جاء بأربعين أوقية من ذهب ، وجاء رجل من الأنصار بصاع من طعام ؛ فقال بمض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء ، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع ، قاله ابن عباس ^(٣) . وفي هذا الأنصاري قولان .

أحدهما : أنه أبو خيثمة ، قاله كعب بن مالك . والثاني : أنه أبو عقيل . وفي اسم أبي عقيل ثلاثة أقوال .

أحدها : عبد الرحمن بن بِيْجَان ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ ويقال : ابن بِيْجَان ؛ ويقال : سِيْجَان ^(٤) . وقال مقاتل : هو أبو عقيل بن قيس . والثاني : أن اسمه الجَبْنَاب ، قاله قتادة .

والثالث : الحُبَاب . قال قتادة : جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف ، وجاء عاصم

(١) « الطبري » ٣٨٨/١٤ ، والبخاري ٢٢٤/٣ ، و ٢٤٩/٨ ، ومسلم ١٠٥/٧ ، و « أنساب النزول » للواحدى ١٤٦ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٢٦٢/٣ وزاد نسبه لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « المعرفة » .

(٢) في الأصل : ابن مسعود ، وكذا جاء في « الدر » وهو خطأ ، والتسويب من المراجع التي ذكرت في التعليق السابق ، وأبو مسعود : هو أبو مسعود الأنصاري البصري ، واسمه عتبة بن عمرو بن ثعلبة ، صاحب رسول الله ﷺ شهد العقبة .

(٣) « الطبري » ٣٨٢/١٤ ، وأورده السيوطي في « الدر » وزاد نسبه لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

(٤) انظر « فتح الباري » ٢٤٩/٨ ، فقد استوفى الحافظ ابن حجر الكلام على أبي عقيل هذا .

ابن عدي بن المَجْلان بمائة وَسَق من تمر . و (يلهزون) بمعنى يسيبون . و (المطوعين) أي : المتطوعين ، قال الفراء : أدغمت التاء في الطاء ، فصارت طاءً مشددة . والجُهد لغة أهل الحجاز ، ولغة غيرهم الجُهد . قال أبو عبيدة : الجُهد ، بالفتح والضم سواء ، ومجازه : طاقتهم . وقال ابن قتيبة : الجُهد : الطاقة ؛ والجُهد : المشقة . قال المفسرون : عُني بالمطوعين عبدُ الرحمن ، وعاصم ، وبالثنين لا يجدون إلا جهدهم : أبو عقيل . وقوله : (سخر الله منهم) أي : جازاهم على فعلهم ، وقد سبق هذا المعنى .

﴿ اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ اَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) سبب نزولها : أنه لما نزل وعيد اللامزين قالوا : يا رسول الله استغفر لنا ، فنزلت هذه الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « سوف أستغفر لهم أكثر من سبعين ، لعل الله يغفر لهم » ؛ فنزل قوله : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) [المنافقون : ٦] ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وظاهر قوله : « استغفر لهم » الأمر ، وليس كذلك ؛ إنما المعنى : إن استغفرت ، وإن لم تستغفر ، لا يُغْفَر لهم ، فهو كقوله : (أنفقوا طوعاً أو كرهاً) [التوبة : ٥٣] ، وقد سبق شرح هذا المعنى هناك ، هذا قول المحققين . وذهب قوم إلى أن ظاهر اللفظ يعطي أنه إن زاد على السبعين ، رجي لهم النفران . ثم نسخت بقوله : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) .

فإن قيل : كيف جاز أن يستغفر لهم ، وقد أخبر بأنهم كفروا ؟

فالجواب : أنه إنما استغفر لقوم منهم على ظاهر إسلامهم من غير أن يتحقق خروجهم عن الإسلام ، ولا يجوز أن يقال : علم كفرهم ثم استغفر .

دأن قيل : ما معنى حضر العدد بسبعين ؟

فالجواب : أن العرب تستكثر في الآحاد من سبعة ، وفي العشرات من سبعين .

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾

قوله تعالى : (فرح المخلفون بمقعدهم) يعني المناقين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك . والمخلف : المتروك خلف من مضى . « بمقعدهم » أي : بعودهم . وفي قوله : (خلاف رسول الله) قولان .

أحدهما : أن معناه : بعد رسول الله ﷺ ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : أن معناه : مخالفة رسول الله ﷺ ، وهو منصوب ، لأنه مفعول له ، فالمعنى : بأن قعدوا لمخالفة رسول الله ﷺ ، قاله الزجاج . وقرأ ابن مسعود ، وابن عمر ، والأعمش ، وابن أبي عتبة : « خَلَفَ رسول الله » ، ومعناها : أنهم تأخروا عن الجهاد .

وفي قوله : (لا تنفروا في الحر) قولان .

أحدهما : أنه قول بعضهم لبعض ، قاله ابن إسحاق ، ومقاتل .

والثاني : أنهم قالوه للمؤمنين ، ذكره الماوردي . وإنما قالوا هذا ، لأن الزمان كان حينئذ شديد الحر . (قل نار جهنم أشد حرا) لمن خالف أمر الله .

وقوله : (يفتقون) معناه : يعلمون . قال ابن فارس : الفقه : العلم بالشيء . تقول :

فَقِيتُ الْحَدِيثَ أَفْقِيَهُ ؛ وكل علم بشيء : فقه . ثم اختص به علم الشريعة ، ف قيل لكل

عالم بها : فقيه . قال المصنف : وقال شيخنا علي بن عبيد الله : الفقه في إطلاق اللغة :

الفهم ، وفي عرف الشريعة : عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال

المكلفين ، بنحو التحليل ، والنحریم ، والإيجاب ، والإجزاء ، والصحة ، والفساد ، والغرم ، والضمان ، وغير ذلك . وبعضهم يختار أن يقال : الفقه : فهم الشيء .
وبعضهم يختار أن يقال : علم الشيء .

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءَ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (فليضحكوا قليلاً) لفظه لفظ الأمر ، ومعناه التهديد .
وفي قلّة ضحكهم وجهان .

أحدهما : أن الضحك في الدنيا ، لكثرة حزنها وهومها ، قليل ، وضحكهم فيها أقل ، لما يتوجه إليهم من الوعيد .
والثاني : أنهم إنما يضحكون في الدنيا ، وبقاؤها قليل . (وليكوا كثيراً)
في الآخرة . قال أبو موسى الأشعري : إنّ أهل النار ليكون الدموع في النار ،
حتى لو أُجريت السفن في دموعهم لجرت ، ثم إنهم ليكون الدم بعد الدموع ، فمثل
ماهم فيه فايّبكي .

قوله تعالى : (جزاء بما كانوا يكسبون) أي : من النفاق والمعاصي .

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ
فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ
رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾

قوله تعالى : (فإن رجعتك الله) أي : ردك من غزوة تبوك إلى المدينة (إلى
طائفة) من المنافقين الذين تخلفوا بغير عذر . وإنما قال : (إلى طائفة) لأنه ليس
كل من تخلف عن تبوك كان منافقاً . (فاستأذنوك للخروج) معك إلى النزو ،

(قل لن تخرجوا معي أبداً) إلى غزاة ، (إنكم رضيتم بالقعود) عني (أول مرة) حين لم تخرجوا إلى تبوك . وذكر الماوردي في قوله : (أول مرة) قولين . أحدهما : أول مرة دُعيت . والثاني : قبل استئذانكم .

فأما الخالفون ، فقال أبو عبيدة : الخالف : الذي خلف بعد شاخص ، فقام في رحله ، وهو الذي يتخلف عن القوم . وفي المراد بالخالفين قولان .

أحدهما : أنهم الرجال الذين تخلّفوا لأعذار ، قاله ابن عباس . والثاني : أنهم النساء والصبيان ، قاله الحسن ، وقادة .

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تصل على أحد منهم) سبب نزولها : أنه لما توفي عبد الله ابن أبيّ ، جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ ، فقال : أعطني قيصك حتى أكفنه فيه ، وصل عليه ، واستغفر له . فأعطاه قيصه ؛ فقال : آذني أصلي عليه ، فأذنه ؛ فلما أراد أن يصلي عليه ، جذبه عمر بن الخطاب ، وقال : أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين ؟ فقال : « أنا بين خيرتين : (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) [التوبة : ٨١] أفصلي عليه ، فنزلت هذه الآية ^(١) ، رواه نافع عن ابن عمر . قال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : « ما يُعْثَنِي عنه قيصي من عذاب الله تعالى ، والله إني لأرجو أن يُسَلِّمَ به ألف من قومه » ^(٢) . قال الزجاج : فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج

(١) « الطبري » ٤٠٦/١٤ ، والبخاري ١١٠/٣ ، و ٢٥١/٨ - ٢٥٥ ، ومسلم ١٢١/١٧ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٢٦٦/٣ ، وزاد نسبه لابن أبي حاتم ، وابن المنذر ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » .

(٢) « الطبري » ٤١٠/١٤ ، والسيوطي في « الدر » ٢٦٦/٢ .

لمَّا رَأَوْهُ يَطْلُبُ الْإِسْتِغْفَارَ بِنُوبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَرَادَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ . فَأَمَّا قَوْلُهُ : « مِنْهُمْ » فَانَّهُ يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ . وَقَوْلُهُ : (وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) قَالَ الْمَفْسُورُونَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، إِذَا دُفِنَ الْمَيِّتَ ، وَقَفَ عَلَى قَبْرِهِ وَدَعَا لَهُ ^(١) ؛ فَهِيَ عَنْ ذَلِكَ فِي حَقِّ الْمُنَافِقِينَ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَاهُ : لَا تَتَوَلَّ دَفْنَهُ ؛ وَهُوَ مِنْ قَوْلِكَ : قَامَ فُلَانٌ بِأَمْرِ فُلَانٍ ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ .

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ . وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ . رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمَظِيمُ ﴾

قوله تعالى : (وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ) سبق تفسيره [التوبة : ٥٥] .

قوله تعالى : (وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ) هذا عامٌّ في كلِّ سورة . وقال مقاتل : المراد بها سورة (براءة) .

(١) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال : « استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت » فانه الآن يسأل ، رواه أبو داود رقم (٣٢٢١) وهو حديث صحيح ، وفيه دلالة على مشروعية الاستغفار للميت عند الفراغ من دفنه ، وسؤال التثبيت له ، أي : أن يثبت الله في الجواب ، وفيه دلالة على سؤال القبر ، وقد ورد في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة .

قوله تعالى : (أن آمنوا) أي : بأن آمنوا . وفيه ثلاثة أوجه .
أحدها : استديعوا الإيمان . والثاني : افعلوا فقل من آمن . والثالث : آمنوا
بقلوبكم كما آمنتم بالسنتكم ، فلي هذا يكون الخطاب للمنافقين .
قوله تعالى : (استأذنك) أي : في التخلف (أولو الطَّوْلِ) يعني الغنى ، وهم
الذين لا عذر لهم في التخلف . وفي « الخوالم » قولان .

أحدهما : أنهم النساء ، قاله ابن عباس ، وبجاهد ، وقتادة ، وشمر بن عطية ،
وابن زيد ، والفراء . وقال أبو عبيدة : يجوز أن تكون الخوالم هاهنا النساء ،
ولا يكادون يجمعون الرجال على تقدير فواعل ، غير أنهم قد قالوا : فارس ، والجميع :
فوارس ، وهالك [في قوم] هوالك . قال ابن الأنباري : الخوالم لا يقع إلا على النساء ،
إذ العرب تجمع فاعلة : فواعل ؛ فيقولون : ضاربة ، وضوارب ، وشاة ، وشواتم ؛
ولا يجمعون فاعلاً : فواعل ، إلا في حرفين : فوارس ، وهوالك ؛ فيجوز أن
يكون مع الخوالم : المتخلفات في المنازل . ويجوز أن يكون : مع المخالفات
العاصيات . ويجوز أن يكون : مع النساء العجزة اللاتي لا مدافعة عندهن .

والقول الثاني : أن الخوالم : خساس الناس وأدنياؤهم ؛ يقال : فلان خالفة
أهله : إذا كان دونهم ، ذكره ابن قتيبة ؛ فأما « طَبَعَ » ، فقال أبو عبيدة : معناه : ختم .
و « الخيرات » جمع خيِّرة . والمفسرين في المراد بالخيرات ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الفاضلات من كل شيء ، قاله أبو عبيدة . والثاني : الجواري
الفاضلات ، قاله المبرِّد . والثالث : غنائم الدنيا ومنافع الجهاد ، ذكره الماوردي .
﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ
كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
قوله تعالى : (وجاء المعذِّرون) وقرأ ابن مسعود : « المعتذرون » . وقرأ ابن

عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن يعمر ، ويعقوب « المَعْذِرُونَ » بسكون العين وتخفيف الذال . وقرأ ابن السميع « الماْذِرُونَ » بألف . قال أبو عبيدة : المَعْذِرُونَ من يَمْذِرُ وليس بجادٍّ ، وإنما يَمْرِضُ بما لا يفعله ، أو يُظهر غير ما في نفسه . وقال ابن قتيبة : يقال : عَذَرْتُ في الأمر : إذا قَصَّرْتُ ، وأَعَذَرْتُ : جَدَدْتُ . وقال الزجاج : من قرأ « المَعْذِرُونَ » بتشديد الذال ، فتأويله : المعتذرون الذين يعتذرون ، كان لهم عذر ، أو لم يكن ، وهو هاهنا أشبه بأن يكون لهم عذر ، وأنشدوا :
إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا

وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَذَرَ^(١)

أي : فقد جاء بعذر . ويجوز أن يكون « المَعْذِرُونَ » الذين يَمْذِرُونَ ، يوهمون أن لهم عذراً ، ولا عذر لهم . ويجوز في النحو : المَعْذِرُونَ ؛ بكسر العين ، والمَعْذِرُونَ ؛ بضم العين ، غير أنه لم يُقرأ بهما ، لأن اللفظ بهما يثقل . ومن قرأ « المَعْذِرُونَ » بتسكين العين ، فتأويله : الذين أعذروا وجاءوا بعذر . وقال ابن الأنباري : المَعْذِرُونَ هاهنا : المعتذرون بالعذر الصحيح . وأصل الكلمة عند أهل النحو : المعتذرون ، فحوّلت فتحة التاء إلى العين ، وأبدلت الذال من التاء ، وأدغمت في الذال التي بعدها ، فصارتا ذالاً مشددة . ويقال في كلام العرب : اعتذر : إذا جاء بعذر صحيح ، وإذا لم يأت بعذر . قال الله تعالى : (قل لا تعتذروا) فدل على فساد المذر ، وقال لييد :

وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَذَرَ

(١) البيت للييد ديوانه ٢١٤ و د مجاز القرآن ، ١٦/١ ، و د الطبري ، ١١٩/١ ، و د الأغاني ، ٩٨/١٤ ، و د مشكل القرآن ، ١٩٨ ، و د رسالة النفران ، ٤٢٩ ، و د المقدم الفريد ، ٤٩/١ ، و د الخزانة ، ٢١٧/٢ ، و د اللسان ، عذر . وقوله اعتذر هنا ، بمعنى أعذر أي : بلغ أقصى الناية في المذر .

أي : فقد جاء بعذر صحيح . وكان ابن عباس يقرأ « المذِّرُونَ » ويقول : لمن
الله المذِّرِينَ . يريد : لمن الله المقصِّرِينَ من المنافقين وغيرهم . والمُذِّرُونَ : الذين
يأتون بالعذر الصحيح ؛ فبان من هذا الكلام أن لهم عذراً على قراءة من خفف .
وهل يثبت لهم عذر على قراءة من شدد ؛ فيه قولان .

قال المفسرون : جاء هؤلاء ليؤذَنَ لهم في التخلُّف عن تبوك ، فأذن لهم
رسول الله ﷺ ، وقرء آخرون من المنافقين بغير عذر وإظهار علة ، جرأة على
الله تعالى .

﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَا عَلَى
الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا
مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا
وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ . إِنَّمَا
السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَا رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا
مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ليس على الضعفاء) اختلفوا فيمن نزلت على قولين .
أحدهما : أنها نزلت في عائذ بن عمرو وغيره من أهل العذر ، قاله قتادة .
والثاني : في ابن مكتوم ، قاله الضحاك .
وفي المراد بالضعفاء ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم الزمى والمشايع الكبار ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .
والثاني : أنهم الصغار .

والثالث : المجانين ؛ سموا ضعافاً لضعف عقولهم ، ذكر القولين الماوردي .
والصحيح أنهم الذين يضمفون لزمانة ، أو عمى ، أو سِنَّ ، أو ضَمَف في الجسم .
والمرضى : الذين بهم أَعْلَال مانعة من الخروج للقتال ، و (الذين لا يجدون) هم
المُقِلِّثُونَ ، والخرج : الضيق في القعود عن الغزو بشرط النصح لله ورسوله ،
وفيه وجهان .

أحدهما : أن المعنى : إذا برثوا من النفاق .

والثاني : إذا قاموا بحفظ الذراري والمنازل .

فان قيل بالوجه الأول ، فهو يعم جميع المذكورين . وإن قيل بالثاني ،
فهو يخص المقتلَيْن . وإنما شُرط النصح ، لأن من تخلف بقصد السعي بالفساد ،
فهو مذموم ؛ ومن النصح لله : حث المسلمين على الجهاد ، والسعي في إصلاح ذات
بينهم ، وسائر ما يعود باستقامة الدين .

قوله تعالى : (ماعلى المحسنين من سبيل) أي : من طريق العقوبة ، لأن
المحسن قد سد بأحسنه باب العقاب .

قوله تعالى : (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) نزلت في البكائين ، واختلف
في عددهم وأسمائهم ؛ فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هم ستة : عبد الله
ابن مغفل ، وصخر بن سلمان ، وعبد الله بن كعب الأنصاري ، وعُليّة بن زيد
الأنصاري ، وسالم بن مُمير ، وتعلبة بن عنة^(١) ، أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم ،
فقال : « لا أجد ما أحملكم عليه » فانصرفوا باكين^(٢) . وقد ذكر محمد بن سعد
كاتب الواقدي مكان صخر بن سلمان : سلمة بن صخر ، ومكان تعلبة بن عنة :

(١) ضبطه الخافظ في « الاصابة » بالدين المهملة ، كما في الأصل ، وفي الطبري بالعين المعجمة .

(٢) سيرة ابن هشام ٥١٨/٢ ، بنحوه والسيوطي في « الدر » ٢٦٧/٢ .

عمرو بن عنمة . قال : وقيل منهم معقل بن يسار . وروى أبو إسحاق عن أشياخ له أن البكتّائين سبعة من الأنصار : سالم بن عمير ، وعلية بن زيد ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب ، وعمرو بن الحُمام بن الجوح ، وعبد الله بن مغفل . وبعض الناس يقول : بل ، عبد الله بن عمرو المزني ، وعرباض بن سارية ، وهري ابن عبد الله أخو بني واقف . وقال مجاهد : نزلت في بني مقرن ، وهم سبعة ؛ وقد ذكرهم محمد بن سعد ، فقال : النعمان بن عمرو بن مقرن . وقال أبو خيثمة : هو النعمان بن مقرن ، وسويد بن مقرن ، ومعقل بن مقرن ، وسنان بن مقرن ، وعقيل بن مقرن ، وعبد الرحمن بن مقرن ، وعبد الرحمن بن عقيل بن مقرن . وقال الحسن البصري : نزلت في أبي موسى وأصحابه .

وفي الذي طلبوا من رسول الله ﷺ أن يحملهم عليه ثلاثة أقوال . أحدها : أنه الدواب ، قاله ابن عباس . والثاني : الزاد ، قاله أنس بن مالك . والثالث : النعال ، قاله الحسن .

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (يعتذرون إليكم) قال ابن عباس : نزلت في المنافقين ، يعتذرون إليكم إذا رجعت من غزوة تبوك ، فلا تعذروهم فليس لهم عذر . فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون ، فقال الله تعالى : (قل لا تعتذروا) لن نصدقكم ، قد أخبرنا الله أنه ليس لكم عذر (وسيرى الله عملكم ورسوله) إن عملكم خيراً وتبتم من

تَخْلَفُكُمْ (ثم تُردُّونَ) بعد الموت (إلى عالم الغيب والشهادة) فيخبركم بما كنتم تعملون في السر والعلانية .

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَهُمْ بِهِمْ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (سيحلفون بالله لكم) قال مقاتل : حلف منهم بضعة وثمانون رجلاً ، منهم جد بن قيس ، ومعتب بن قشير .
قوله تعالى : (لتعرضوا عنهم) فيه قولان .
أحدهما : لتصفحوا عن ذنبهم .

والثاني : لأجل إعراضكم . وقد شرحنا في (المائدة : ٩٠) معنى لرجس .
﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِنُرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (يحلفون لكم لترضوا عنهم) قال مقاتل : حلف عبد الله بن أبي للنبي ﷺ : لا أتخلف عنك ، ولا أكوننَّ معك على عدوك ؛ وطلب منه أن يرضى عنه ، وحلف عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعمر بن الخطاب ، وجعلوا يترضون النبي ﷺ وأصحابه ، وكان رسول الله ﷺ قال لما قدم المدينة : لا تجالسوم ولا تكلموهم « (١) .

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(١) أخرجه السيوطي في « الدر » ٢٦٨/٣ ، من طريق ابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، عن السدي بنحوه .

قوله تعالى : (الأعراب أشد كفراً) قال ابن عباس : نزلت في أjarib أسد وغطفان وأعراب من حول المدينة ، أخبر الله أن كفرهم وثقاتهم أشد من كفر أهل المدينة ، لأنهم أقسى وأجنى من أهل الحضر .

قوله تعالى : (وأجدر ألا يعلموا) قال الزجاج : « أن » في موضع نصب ، لأن الباء محذوفة من « أن » ، المعنى : أجدر بترك العلم . تقول : جدير أن تفعل ، وجدير بأن تفعل ، كما تقول : أنت خليف بأن تفعل ، أي : هذا الفعل ميسر فيك ، فإذا حذفت الباء لم يصلح إلا بـ « أن » ، وإن أتيت بالباء ، صلح بـ « أن » وغيرها ، فتقول : أنت جدير بأن تقوم ، وجدير بالقيام . فإذا قلت : أنت جدير القيام ، كان خطأ ، وإنما صلح مع « أن » لأن « أن » تدل على الاستقبال ، فكأنها عوض من المحذوف . فأما قوله : (حدود ما أنزل الله) فيعني به الحلال والحرام والفرائض . وقيل : المراد بالآية أن الأعم في العرب هذا .

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا) إذا خرج في الغزو ، وقيل : ما يدفعه من الصدقة (مغرمًا) لأنه لا يرجوه ثوابًا . قال ابن قتبية : المغرم : هو الغرم والخسر . وقال ابن فارس : الغرم : ما يلزم أدائه ، والغرام : اللزوم ، وسمي الغريم لإلحاحه . وقال غيره : الغرم : التزام ما لا يلزم .

قوله تعالى : (ويتربص) أي : ويتنظر (بكم الدوائر) أي : دوائر الزمان بالمكروه ، بالموت ، أو القتل ، أو الهزيمة . وقيل : ينتظر موت الرسول ﷺ ، وظهور المشركين .

قوله تعالى : (عليهم دائرة السوء) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بضم السين .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحزمة ، والكسائي : « السَّو » بفتح السين ؛ وكذلك قرئوا في سورة (الفتح : ٦) ، والمعنى : عليهم يعود ما ينتظرونه لك من البلاء . قال الفراء : وفتح السين من السَّو هو وجه الكلام . فمن فتح ، أراد المصدر من : سَوَّاهُ سَوًّا وَمَسَاءَةً . ومن رفع السين ، جعله اسماً ، كقولك : عليهم دائرة البلاء والعذاب . ولا يجوز ضم السين في قوله : (ما كان أبوكِ امرأ سَوًّا) [مريم : ٢٨] ولا في قوله : (وظننتم ظن السَّو) [النوح : ١٢] لأنه ضدُّ لقولك : رجلٌ صِدْقٌ . وليس للسوء هاهنا معنى في عذاب ولا بلاء ، فيضم .

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُوْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِذْخِلَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ومن الأعراب من يؤمن بالله) قال ابن عباس : وهم من أسلم من الأعراب ، مثل جُهيْنة ، وأسلم ، وغِفَار .
وفي قوله : (ويتخذ ما ينفق) قولان .

أحدهما : في الجهاد . والثاني : في الصدقة . فأما القربات ، فجمع قُرْبَة ، وهي : ما يقرب العبد من رضى الله وعفته . قال الزجاج : وفي القربات ثلاثة أوجه : ضم الرأ ، وفتحها ، وإسكانها . وفي المراد بصلوات الرسول قولان .
أحدهما : استغفاره ، قاله ابن عباس .

والثاني : دعاؤه ، قاله قتادة ، وابن قتيبة ، والزجاج ، وأنشد الزجاج :
عليك مثل الذي صليتِ فاغتَمِصِي نَوْماً ، فَإِنَّ لِحْنَبِ الْمَرْءِ مَضْطَجَعاً^(١)

(١) البيت لأعشى قيس من قصيدة يمدح بها هوزة بن علي الحنفي ، ديوانه ١٠٩ واللسان : ص ١ .

قال : إن شئت قلت : مثل الذي ، ومثل الذي ؛ فالأول أمرٌ لها بالدعاء ، كأنه قال : ادعي لي مثل الذي دعوت . والثاني بمعنى : عليك مثل هذا الدعاء .

قوله تعالى : (أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمة ، والكسائي : « قربةٌ لهم » خفيفة . وروى ورش ، وإسماعيل ابن جعفر عن نافع ، وأبان ، والمفضل عن عاصم : « قُرْبَةٌ لهم » بضم الراء . وفي المشار إليها وجهان .

أحدهما : أن الهاء ترجع إلى نفقتهم وإيمانهم والثاني : إلى صلوات الرسول .

قوله تعالى : (سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ) قال ابن عباس : في جنته .

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

قوله تعالى : (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ) فيهم ستة أقوال .

أحدها : أنهم الذين صلوا إلى القبوتين مع رسول الله ﷺ ، قاله أبو موسى الأشمري ، وسعيد بن المسيب ، وابن سيرين ، وقتادة .

والثاني : أنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يعة الرضوان ، وهي الحديبية ، قاله الشنبي .

والثالث : أنهم أهل بدر ، قاله عطاء بن أبي رباح .

والرابع : أنهم جميع أصحاب رسول الله ﷺ ، حصل لهم السبق بصحبته .

قال محمد بن كعب القرظي : إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ وأوجب لهم الجنة محسنهم ومسيئهم في قوله : (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ) .

والخامس : أنهم السابقون بالموت والشهادة ، سبقوا إلى ثواب الله تعالى ،

ذكره الماوردي .

والسادس : أنهم الذين أسلموا قبل الهجرة ، ذكره القاضي أبو يعلى .
 قوله تعالى : (من المهاجرين والأنصار) قرأ يعقوب : « والأنصار » برفع الراء .
 قوله تعالى : (والذين اتَّبَعُوهم بإحسان) من قال : إن السابقين جميع الصحابة ،
 جمل هؤلاء تابعي الصحابة ، وهم الذين لم يصحبوا رسول الله ﷺ . وقد روي
 عن ابن عباس أنه قال : والذين اتَّبَعُوهم بإحسان إلى أن تقوم الساعة . ومن قال :
 هم المتقدمون من الصحابة ، قال : هؤلاء تبعوه في طريقهم ، واقتدوا بهم في
 في أفعالهم ، ففضل أولئك بالسبق ، وإن كانت الصعبة حاصلة للكل . وقال عطاء :
 اتباعهم إيام بإحسان : أنهم يذكرون محاسنهم ويترحمون عليهم .
 قوله تعالى : (تجري تحتها الأنهار) قرأ ابن كثير : « من تحتها » فزاد
 « من » وكسر التاء الثانية .

قوله تعالى : (رضي الله عنهم) يعم الكل . قال الزجاج : رضي الله أفعالهم ،
 ورضوا ما جازاهم به .

﴿ وَمِنْ حَوْلِكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
 مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا نَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ
 ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (ومن حولكم من الأعراب منافقون) قال ابن عباس : مُزَبَّنة ،
 وَجْهِيَّة ، وَأَسْلَم ، وَغِفَار ، وَأَشْجَع ، كان فيهم بعد إسلامهم منافقون . قال مقاتل :
 وكانت منازلهم حول المدينة .

قوله تعالى : (ومن أهل المدينة مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ) قال ابن عباس : مرنوا
 عليه وثبتوا ، منهم عبد الله بن أبيّ ، وجَدّ بن قيس ، والجلال ، ومعتب ،

وَوَحَّوْح ، وَأَبُو عَامِرِ الرَّاهِب . وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : عَتَوَا وَمَرَرُوا عَلَيْهِ ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ : تَمَرَّدَ فُلَانٌ ، وَمِنْهُ : شَيْطَانٌ مَرِيدٌ .

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ : (وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا) ، وَلَيْسَ يُجُوزُ فِي الْكَلَامِ : مِنْ الْقَوْمِ قَعَدُوا ؛ فَغَنَى ثَلَاثَةُ أَجْوِبَةٍ .

أَحَدُهُنَّ : أَنْ تَكُونَ « مِنْ » الثَّانِيَةِ مَرْدُودَةً عَلَى الْأُولَى ؛ وَالتَّقْدِيرُ : وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مُنَاقِقُونَ ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ « مَرَدُوا » .

وَالثَّانِي : أَنْ يَكُونَ فِي الْكَلَامِ « مَنِ » مُضْمَرٌ ، تَقْدِيرُهُ : وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَنِ مَرَدُوا ؛ فَأُضْمِرْتُ « مَنِ » ، لِدَلَالَةِ « مَنِ » عَلَيْهَا ، كَقَوْلِهِ : (وَمَا مِنْهُ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ) [الصَّافَاتُ : ١٦٤] يُرِيدُ : إِلَّا مَنْ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ؛ وَعَلَى هَذَا يَنْقُطِعُ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ : « مُنَاقِقُونَ » .

وَالثَّلَاثُ : أَنْ « مَرَدُوا » مُتَعَلِّقٌ بِمُنَاقِقِينَ ، تَقْدِيرُهُ : وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مُنَاقِقُونَ مَرَدُوا ، ذَكَرَ هَذِهِ الْأَجْوِبَةَ ابْنُ الْأَثَرِيِّ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (لَا تَعْلَمُهُمْ) فِيهِ وَجْهَانِ .

أَحَدُهُمَا : لَا تَعْلَمُهُمْ أَنْتَ حَتَّى تُعْلِمَكَ بِهِمْ . وَالثَّانِي : لَا تَعْلَمُ عَوَاقِبَهُمْ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ) فِيهِ عَشْرَةُ أَقْوَالٍ .

أَحَدُهَا : أَنَّ الْعَذَابَ الْأَوَّلَ فِي الدُّنْيَا ، وَهُوَ فَضِيحَتُهُمْ بِالنِّفَاقِ ، وَالْعَذَابُ

الثَّانِي : عَذَابُ الْقَبْرِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . قَالَ : وَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ جُمُعَةٍ خَطِيبًا ،

فَقَالَ « يَا فُلَانُ أَخْرِجْ فَإِنَّكَ مُنَاقِقٌ ، وَيَا فُلَانُ أَخْرِجْ »^(١) فَفَضَحَهُمْ .

(١) « الطَّبْرِي » ٤٤١/١٤ - ٤٤٢ وخَرَجَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي « الْمَجْمَعِ » ٣٣/٧ ، وَقَالَ : رَوَاهُ

الطَّبْرَانِيُّ فِي « الْأَوْسَطِ » . وَفِيهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُتَقَزِّي ، وَهُوَ ضَعِيفٌ . وَأُورِدَهُ

السَّيُوطِيُّ فِي « الدَّرِّ » وَزَادَ نَسْبَتَهُ لِبْنِ أَبِي حَاتِمٍ ، وَأَبِي الشَّيْخِ ، وَابْنُ مَرْدُودِيهِ .

والثاني : أن العذاب الأول : إقامة الحدود عليهم ، والثاني : عذاب القبر ؛ وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أن أحد المذابين : الزكاة التي تؤخذ منهم ، والآخر : الجهاد الذي يؤمّرون به ، قاله الحسن .

والرابع : الجوع ، وعذاب القبر ، رواه شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال أبو مالك .

والخامس : الجوع والقتل ، رواه سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والسادس : القتل والسبي ، رواه معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد . وقال ابن قتيبة : القتل والأسر .

والسابع : أنهم عذبوا بالجوع مرتين ، رواه خصيف عن مجاهد .

والثامن : أن عذابهم في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد ، وفي الآخرة بالنار ، قاله ابن زيد .

والتاسع : أن الأول : عند الموت ، تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ، والثاني : في القبر بمنكر ونكير ، قاله مقاتل بن سليمان .

والعاشر : أن الأول بالسيف ، والثاني عند الموت ؛ قاله مقاتل بن حيان .

قوله تعالى : (ثم يُردُّون إلى عذاب عظيم) يعني عذاب جهنم .

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) اختلفوا فimen نزلت على قولين .

أحدهما : أنهم عشرة رهط تخلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فلما

دنا رجوع رسول الله ﷺ ، أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد . فلما رآهم رسول الله ﷺ ، قال « من هؤلاء » ؟ قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك ، فأقسموا بالله لا يطلقون أنفسهم حتى تطلقهم أنت وتعذرهم ، فقال « وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقهم ، رغبوا عني وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين » فنزلت هذه الآية ^(١) ، فأرسل إليهم فأطلقهم وعذرهم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . وروى العوفي عن ابن عباس أن الذين تخلّفوا كانوا ستة ، فأوثق أبو لبابة نفسه ورجلان معه ، وبقي ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم فلما نزلت هذه الآية ، أطلقهم رسول الله ﷺ وعذرهم ^(٢) . وروى أبو صالح عن ابن عباس أنهم كانوا ثلاثة : أبو لبابة بن عبد المنذر ، وأوس ابن ثعلبة ، ووديمة بن خذام الأنصاري . وقال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وزيد ابن أسلم : كانوا ثمانية . وقال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا سبعة .

والثاني : أنها نزلت في أبي لبابة وحده . واختلفوا في ذنبه على قولين .

أحدهما : أنه خان الله ورسوله بأشارته إلى بني قريظة حين شاوروه في النزول على حكم سعد أنه الذبيح ، وهذا قول مجاهد ^(٣) ، وقد شرحناه في (الأفعال : ٢٧) .

(١) « الطبري » ٤٤٧/١٤ - ٤٤٨ و « أسباب النزول » ، للواحدي ١٤٨ وأورده السيوطي في « الدر » ٢٧٢/٣ ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » .

(٢) « الطبري » ٤٤٨/١٤ - ٤٤٩ والسيوطي في « الدر » ٢٧٢/٣ ، وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

(٣) « الطبري » ٤٥١/١٤ ، والسيوطي في « الدر » ٢٧٢/٣ ، ونسبه لابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في « الدلائل » عن مجاهد مختصراً . وعن سعيد ابن المسيب مطولاً ونسبه للبيهقي .

والثاني : أنه تخلفه عن تبوك ^(١) ، قاله الزهري . فأما الاعتراف ، فهو الاقرار بالشيء عن معرفة . والاعتراف بالذنب أدعى إلى صدق التوبة والقبول .
 قوله تعالى : (خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) قال ابن جرير : وُضِعَ الواوُ مكان الباء ، والمعنى : بآخر سيء ، كما تقول : خلطت الماء واللبن .
 وفي ذلك العمل قولان .

أحدهما : أن العمل الصالح : ماسبق من جهادهم ، والسيء : التأخر عن الجهاد ، قاله السدي .

والثاني : أن العمل الصالح : توبتهم ، والسيء : تخلفهم ، ذكره الفراء .
 وفي قوله : « عسى » قولان .

أحدهما : أنه واجب من الله تعالى ، قاله ابن عباس .
 والثاني : أنه ردبدهم بين الطمع والإشفاق ، وذلك بصد عن اللهو والإهمال .
 ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾
 قوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة) قال المفسرون : لما تاب الله عز وجل على أبي لبابة وأصحابه ، قالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا فتصدق بها عنا ، فقال

(١) د الطبري ، ٤٥٢/١٤ ، وقال : وأولى الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال : نزلت هذه الآية في المرتفين بخطأ فعلهم في تخلفهم عن رسول الله ﷺ وتركهم الجهاد معه ، والخروج لنزو الروم حين شخص الى تبوك ، وأن الذين نزل ذلك فيهم جماعة ، أحدهم أبو لبابة . وقال ابن كثير ٣٨٥/٢ ، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين ، إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين الخاطئين المنلوين .

« ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً » فزلت هذه الآية ^(١) .

« وفي هذه الصدقة » قولان .

أحدهما : أنها الصدقة التي بذلوها تطوعاً ، قاله ابن زيد ، والجمهور . والثاني : الزكاة ، قاله عكرمة .

قوله تعالى : (تطهرهم) وقرأ الحسن « تطهرهم بها » بحزم الراء . قال الزجاج : يصلح أن يكون قوله « تطهرهم » نمناً للصدقة ، كأنه قال : خذ من أموالهم صدقة مطهرة . والأجود أن يكون للنبي ﷺ ، المعنى : فانك تطهرهم بها . فـ « تطهرهم » بالجزم ، على جواب الأمر ، المعنى : إن تأخذ من أموالهم ، تطهرهم : ولا يجوز في « تزكيتهم » إلا إثبات الباء ، اتباعاً للمصحف . قال ابن عباس : « تطهرهم » من الذنوب ، « وتزكيتهم » : تصلحهم . وفي قوله : (وصلّ عليهم) قولان . أحدهما : استغفر لهم ، قاله ابن عباس . والثاني : ادع لهم ، قاله السدي . قوله تعالى : (إن صلواتك) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم « إن صلواتك » على الجمع . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم « إن صلاتك » على التوحيد . وفي قوله : (سكن لهم) خمسة أقوال . أحدها : طمأنينة لهم أن الله قد قبّل منهم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وقال أبو عبيدة : تثبت وسكون . والثاني : رحمة لهم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث : قُرْبَة لهم ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والرابع : وقَار لهم ، قاله قتادة . والخامس : تركية لهم ، حكاه الثعلبي . قال الحسن ، وقتادة : وهؤلاء سوى الثلاثة الذين خَلَفُوا .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ
الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ السَّوَّابُ الرَّحِيمُ . وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ
عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ) قرأ الجمهور « يعلموا » بالياء .
وروى عبد الوارث « تعلموا » بالياء . وقوله : (يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) قال أبو عبيدة :
أي : من عبيده ، تقول : أخذته منك ، وأخذته عنك .

قوله تعالى : (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) قال ابن قتيبة : أي : يقبلها . ومثله (خذ
المعروف) [الاعراف : ١٩٩] أي : اقبله .

قوله تعالى : (وَقُلْ اْعْمَلُوا) قال ابن زيد : هذا خطاب للذين تابوا .
﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ
عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ) وقرأ نافع ، وحمة ، والكسائي « مرجوون »
بغير همز . والآية نزلت في كعب بن مالك ، ومُرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ،
وكانوا فيمن تخلف عن تبوك من غير عذر ، ثم لم يبالغوا في الاعتذار كما فعل
أبولبابة وأصحابه ، ولم يوتقوا أنفسهم بالسواري ؛ فوقف رسول الله ﷺ أمرهم ،
ونهى الناس عن كلامهم ومغالطتهم حتى نزل قوله : (وعلى الثلاثة الذين خلفوا)
[التوبة : ١١٨] . قال الزجاج : « وآخرون » عطف على قوله : « ومن أهل المدينة » ،
فالمنى : منهم منافقون ، ومنهم (آخرون مرجوون) أي : مؤخرون ؛ و « إِمَّا »
زاد السير ٣ م (٣٢)

لوقوع أحد الشيتين ، والله تعالى عالم بما يصير إليه أمرهم ، لكنه خاطب العباد بما يعلمون ، فالمعنى : ليكون أمرهم عندكم على الخوف والرجاء .

قوله تعالى : (والله عليم حكيم) أي : عليم بما يؤول إليه حالهم ، حكيم بما يفعله بهم .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (والذين اتخذوا مسجداً) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وطاسم ، وحمزة ، والكسائي : « والذين » بواو ، وكذلك هي في مصاحفهم . وقرأ نافع ، وابن عامر : « الذين » بغير واو ، وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة والشام . قال أبو علي : من قرأ بالواو ، فهو معطوف على ما قبله ، نحو قوله : (ومنهم من هاهد الله) [التوبة : ٧٥] ، (ومنهم من يلزمك) [التوبة : ٥٨] ، (ومنهم الذين يؤذون النبي) [التوبة : ٦١] ، والمعنى : ومنهم الذين اتخذوا مسجداً . ومن حذف الواو ، ففعل وجهين .

أحدهما : أن يضر - ومنهم الذين اتخذوا - كقوله : أكفرتم ، المعنى : فيقال لهم : أكفرتم .

والثاني : أن يضر الخبر بعد ، كما أضمر في قوله : (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام) [الحج : ٢٥] ، المعنى : ينتقم منهم ويمدّبون . قال أهل التفسير : لا اتخذ بنو عمرو بن عوف مسجداً قباه ، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ ، فاتاهم ، فصلّى فيه ؛ حسدهم إخوانهم بنو غنم بن عوف ، وكانوا من منافقي الأنصار ، فقالوا : نبني مسجداً ، ونرسل إلى رسول الله فيصلي

فيه ، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ؛ وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية وتنصر ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، عاداه ، فخرج إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن أعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح ، وابنوا لي مسجداً ، فاني ذاهب إلى قيصر فآتي بجند الروم فأخرج محمداً وأصحابه ، فبنوا هذا المسجد إلى جنب مسجد قباء ؛ وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً : خذام بن خالد ومن داره أخرج المسجد ، ونبتل بن الحارث ، ويجاد بن عثمان ، وثملة بن حاطب ، ومعتب بن قشير ، وعباد بن حنيفة ، ووديع بن ثابت ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، وجارية بن عامر ، وابناه يزيد ^(١) ومجمع ؛ وكان مجتمع إمامهم فيه ، ثم صلحت حاله ، وبجرح جد عبد الله بن حنيفة ، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ : « ما أردت بما أرى » ؛ فقال : والله ما أردت إلا الحسنى ، وهو كاذب . وقال مقاتل : الذي حلف مجتمع . وقيل : كانوا سبعة عشر ؛ فلما فرغوا منه ، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنا قد ابتدئنا مسجداً لذي الملّة والحاجة والليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي فيه ؛ فدعى بقميصه ليلبسه ، فنزل عليه القرآن وأخبره الله خبرهم ، فدعا معن بن عدي ، ومالك بن الدخشم في آخرين ، وقال : « انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدموه وأحرقوه » ، وأمر به رسول الله ﷺ أن يتخذ كناسةً تلقى فيها الجيف ^(٢) . ومات أبو عامر بالشام وحيداً غريباً .

فأما التفسير ، فقال الزجاج : « الدين » في موضع رفع ، المعنى : ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً . و « ضراراً » انتصب مفعولاً له ، المعنى : اتخذوه للضرار والكفر والتفريق والإرصاد . فلما حذفت اللام ، أفضى الفعل فنصب . قال المفسرون :

(١) كذا الأصل يزيد ، والذي في الطبري وسيرة ابن هشام ، وابن كثير ، و « الدر » : زيد .

(٢) « الطبري » ، ٤٦٨/١٤ ، وأورده السيوطي بنحوه في « الدر » ٣/٢٧٧ .

والضرار بمعنى المضارة لمسجد قباء ، (وكفراً) بالله ورسوله (وتفريقاً بين المؤمنين) لأنهم كانوا يصلون في مسجد قباء جميعاً ، فأرادوا تفريق جماعتهم ، والإيراد : الانتظار ، فانتظروا به مجيء أبي عامر ، وهو الذي حارب الله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار . (وليحلفنَّ إن أردنا) أي : ما أردنا (إلا الحسنى) أي : ما أردنا بابتناؤه إلا الحسنى ؛ وفيها ثلاثة أوجه .

أحدها : طاعة الله . والثاني : الجنة . والثالث : فعل التي هي أحسن من إقامة الدين والاجتماع للصلاة . وقد ذكرنا اسم الخالف .

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾

قوله تعالى : (لا تقم فيه) أي : لا تصل فيه أبداً . (لمسجد أُسِّسَ على التقوى) أي : بني على الطاعة ، وبناء المتقون (من أول يوم) أي : منذ أول يوم . قال الزجاج : « من » في الزمان ، والأصل : منذ ومذ ، وهو الأكثر في الاستعمال . وجائز دخول « من » لأنها الأصل في ابتداء الغاية والتبويض ، ومثله قول زهير :
لِمَنْ الدِّيارُ بِقِئَةِ الْحِجْرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ شَهْرٍ^(١)
وقيل : معناه : من مَرَّ حِجَجٍ ومن مَرَّ شهر . وفي هذا المسجد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة الذي فيه منبره وقبره . روى سهل بن سعد أن رجلين اختلفا في عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أُسِّسَ على

(١) ديوانه ٨٦ و « مختار الشعر الجاهلي » ٢٦٣ وروى الأصمعي : ومن دهر . قوله : من شهر ، أراد : من شهر . وأقوين : خلون . والقيئة : أعلى الجبل ، أو هي الجبل الذي ليس بمشتر .

البقوى ، فقال أحدهما : هو مسجد الرسول ، وقال الآخر : هو مسجد قباء ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال « هو مسجدي هذا »^(١) وبه قال ابن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأبو سعيد الخدري ، وسعيد بن المسيب .

والثاني : أنه مسجد قباء ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وقتادة ، وعروة ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، والضحاك ، ومقاتل .
والثالث : أنه كل مسجد بني في المدينة ، قاله محمد بن كعب .

قوله تعالى : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) سبب نزولها أن رجالاً من أهل قباء كانوا يستنجون بالماء ، فنزلت هذه الآية ، قاله الشعبي^(٢) . قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية ، أتاهم رسول الله ﷺ فقال « ما الذي أئني الله به عليكم » فقالوا : إنا نستنجي بالماء^(٣) . فلي هذا ، المراد به الطهارة بالماء . وقال أبو العالية : أن يتطهروا من الذنوب .

﴿ أَفَمَنْ أَتَّسَّ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَّسَّ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارٍ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (أفمن أتس بنيانه) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحزمة ،

(١) « الطبري » ٤٧٩/١٤ ، وأحمد في « المسند » ٣٣١/٥ ، ومسلم ١٠١٥/٢ بنحوه وخرجه الهيثمي في « المجمع » ٣٤/٧ ، وقال : رواه كلُّه أحمد ، والطبراني باختصار ، ورجالها رجال الصحيح .

(٢) « الطبري » ٤٨٧/١٤ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٢٧٨/٣ .

(٣) السيوطي في « الدر » ٢٧٨/٣ ، بنحوه ، ونسبه للطبراني ، وأبي الشيخ ، والحاكم ،

وابن مردويه .

والكسائي « أسس » بفتح الألف في الحرفين جميعاً وفتح النون فيها . وقرأ نافع ، وابن عامر « أسس » بضم الألف « بنيائه » برفع النون . والبنيان مصدر يراد به المبنى . والتأسيس : إحكام أس البناء ، وهو أصله ، والمعنى : المؤسس بنيانه متقياً يخاف الله ويرجو رضوانه خير ، أم المؤسس بنيانه غير متقٍ ؟ . قال الزجاج : وشفا الشيء : حرقه وحده . والشفا مقصور ، يكتب بالألف ، ويشى شفوان . قوله تعالى : (جرف) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي « جُرْف » مثقلاً . وقرأ ابن عامر ، وحمة ، وأبو بكر عن عاصم : « جُرْف » ساكنة الراء . قال أبو علي : فالضم الأصل ، والإسكان تخفيف ، ومثله : الشغل والشغل . قال ابن قتيبة : المعنى : على حرف جرف هائر . والجرف : ما يجرف بالسيول من الأودية . والهاثر : الساقط . ومنه : تهوّر البناء وانهار : إذا سقط . وقرأ ابن كثير ، وحمة « هار » بفتح الهاء . وأمال الهاء نافع ، وأبو عمرو . وعن عاصم كالقراءتين .

قوله تعالى : (فانهار به) أي : بالبانى (في نار جهنم) . قال الزجاج : وهذا مثل ، والمعنى : أن بناء هذا المسجد كبناء على جرف جهنم يتهوّر بأهله فيها . وقال قتادة : ذكر لنا أنهم حفروا فيه حفرة ، فرؤي فيها الدخان . قال جابر : رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان .

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (لا يزال بنيانهم) يعني : مسجد الضرار (الذي بنوا ريبة في قلوبهم) وفيها ثلاثة أقوال :

أحدها : شككاً ونفاقاً ، لأنهم كانوا يحسبون أنهم محسنون في بنائه ، قاله ابن عباس ، وابن زيد .

والثاني : حسرة وندامة ، لأنهم ندموا على بنائه ، قاله ابن السائب ومقاتل .

والثالث : أن المعنى : لا يزال هدم بنيانهم حزازة وغيظاً في قلوبهم ، قاله السدي ، والمبرد .

قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبَهُمْ) قرأ الا كثرون : « إِلَّا » وهو حرف استثناء . وقرأ يعقوب « إِلَى أَنْ » فجعله حرف جر . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « تَقْطَعُ » بضم التاء . وقرأ ابن عامر ، وحزمة ، وحفص عن عاصم : « تَقْطَعُ » بفتح التاء ثم في المعنى قولان . أحدهما : إِلَّا أَنْ يَمُوتُوا ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة في آخرين . والثاني : إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا توبة تقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تقريظهم ، ذكره الزجاج .

﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِنْدَ اللَّهِ حَقُّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ قوله تعالى : (إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ) سبب نزولها أن الأنصار

لما بايعت رسول الله ﷺ ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلاً ، قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ماشئت ، فقال « أَشْرَطَ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَأَشْرَطَ لِنَفْسِي أَنْ تَتَمَنَّوْنِي مِمَّا تَتَمَنُّونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ » ، قالوا : فإذا

فملنا ذلك ، فما لنا ؟ قال : « الجنة » قالوا : ربح البيع ، لا تقيل ولا نستقيل ، فأنزلت (إن الله اشترى ...) الآية ، قاله محمد بن كعب القرظي ^(١) . فأما اشتراء النفس ، فبالجهاد .

وفي اشتراء الأموال وجهان . أحدهما : بالإِنفاق في الجهاد . والثاني : بالصدقات . وذكر كثرُ الشراء ها هنا مجاز ، لأن المشتري حقيقة هو الذي لا يملك المشتري ، فهو كقوله : (من ذا الذي يُقرض الله) [البقرة : ٢٤٥] . والمراد من الكلام أن الله أمرهم بالجهاد بأنفسهم وأموالهم ليُجازيهم عن ذلك بالجنة ، فعبّر عنه بالشراء لئلا تضمن من عوض ومعوض . وكان الحسن يقول : لا والله ، إن في الدنيا مؤمن إلا وقد أخذت يمينه . وقال قتادة : ثامنهم والله فأعلى لهم .

قوله تعالى : (فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم « فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » فاعل ومفعول . وقرأ حمزة ، والكسائي « فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ » مفعول وفاعل . قال أبو علي : القراءة الأولى بمعنى أنهم يَقْتُلُونَ أَوْلًا وَيُقْتَلُونَ ، والأخرى يجوز أن تكون في المعنى كالأولى ، لأن المعطوف بالواو يجوز أن يراد به التقديم ؛ فإن لم يقدر فيه التقديم ، فالمعنى : يقتل من بقي منهم بعد قتل من قُتل ، كما أن قوله : (فما وهنوا لما أصابهم) [آل عمران : ١٤٦] ما وهن من بقي بِقَتْلِ من قُتل . ومعنى الكلام : إن الجنة عوض عن جهادهم ، قَتَلُوا أَوْ قُتِلُوا . (وعدأ عليه) قال الزجاج : نصب « وعدأ » بالمعنى ، لأن معنى قوله (بأن لهم الجنة) : (وعدأ عليه حقاً) ، قال : وقوله : (في التوراة والإنجيل) يدل على أن أهل كل ملة أمروا بالقتال ووعدوا عليه الجنة .

(١) « الطبري » ، ٤٩٩/١٤ ، والسيوطي في « الدر » ، ٣/٢٨٠ .

قوله تعالى : (ومن أوفى) أي : لأحد أوفى بما وعد (من الله) . (فاستبشروا)

أي : فافرحوا بهذا البيع .

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ
السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ
لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (التائبون) سبب نزولها : أنه لما نزلت التي قبلها ، قال رجل :

يا رسول الله ، وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس . قال الزجاج : يصلح الرفع هاهنا على وجوه . أحدها : المدح ، كأنه قال : هؤلاء التائبون ، أو هم التائبون . ويجوز أن يكون على البدل ، والمعنى : يقاقل التائبون ؛ فهذا مذهب أهل اللغة ، والذي عندي أنه رفعٌ بالابتداء ، وخبره مضمّر ، المعنى : التائبون ومن ذكر معهم لهم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا إذا لم يقصدوا ترك الجهاد ولا العناد ، لأن بعض المسلمين يجزئ عن بعض في الجهاد .

وللمفسرين في قوله : « التائبون » قولان . أحدهما : الراجعون عن الشرك

والنفاق والمعاصي . والثاني : الراجعون إلى الله في فعل ما أمر واجتناب ما حظر .

وفي قوله : (العابدون) ثلاثة أقوال . أحدها : المطيعون لله بالعبادة ، قاله

أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : المقيمون الصلاة ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : الموحّدون ، قاله سعيد بن جبير .

قوله تعالى : (الحامدون) قال قتادة : يحمدون الله على كل حال .

وفي السائحين أربعة أقوال .

أحدها : الصائمون ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة في آخرين . قال الفراء : ويرى أهل النظر أن الصائم إنما سمي صائماً تشبيهاً بالسائح ، لأن السائح لازاد معه ؛ والعرب تقول للفرس إذا كان قائماً لاعلف بين يديه : صائم ، وذلك أن له قوتين ، غدوة وعشية ، فشبه به صيام الآدي لتسحره وإفطاره . والثاني : أنهم الغزاة ، قاله عطاء . والثالث : طلاب العلم ، قاله عكرمة . والرابع : المهاجرون ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (الراكعون الساجدون) يعني في الصلاة . (الأمرون بالمعروف) وهو طاعة الله . (والناهون عن المنكر) وهو معصية الله .

فان قيل : ماوجه دخول الواو في قوله : « والناهون » ؟ فنه جوابان .

أحدهما : أن الواو إنما دخلت هاهنا لأنها الصفة الثامنة ، والعرب تعطف بالواو على السبعة ، كقوله : (وثامنهم كلبهم) [الكهف : ٢٢] وقوله في صفة الجنة : (وفتحت أبوابها) [الزمر : ٧٣] ، ذكره جماعة من المفسرين .

والثاني : أن الواو إنما دخلت على الناهين لأن الأمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر في حال أمره ، فكان دخول الواو دلالة على أن الأمر بالمعروف لا يتفرد دون النهي عن المنكر كما يتفرد الحامدون بالحمد دون السائحين ، والسائحون بالسياحة دون الحامدين في بعض الأحوال والأوقات .

قوله تعالى : (والحافظون لحدود الله) قال الحسن : القائمون بأمر الله .

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للعشر كين) في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أن أبا طالب لما حضرته الوفاة ، دخل عليه رسول الله ﷺ ، وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : « أي عم ، قل معي : لا إله إلا الله ، أحاج لك بها عند الله » ، فقال أبو جهل وابن أبي أمية : يا أبا طالب ، أرغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكتمان ، حتى قال آخر شيء كلمهم به : أنا على ملة عبد المطلب . فقال النبي ﷺ « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » ، فنزلت (ما كان للنبي والذين آمنوا ...) الآية ، ونزلت (إنك لا تهدي من أحببت) [القصص : ٥٦] ، أخرجه البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه ^(١) . وقيل : إنه لما مات أبو طالب ، جعل النبي ﷺ يستغفر له ، فقال المسلمون : ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ولذوي قرابتنا ، وقد استغفر إبراهيم لأبيه ، وهذا محمد يستغفر لعمه ؟ فاستغفروا للعشر كين ، فنزلت هذه الآية . قال أبو الحسين بن المنادي ^(٢) : هذا لا يصح ، إنما قال النبي ﷺ لعمه « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » قبل أن يموت ،

(١) « الطبري » ، ١٤ / ٥١٠ ، وأحمد في « المسند » ، ٥ / ٣٣ ، والبخاري ٣ / ١٧٦ - ١٧٧ ، و ٨ / ٢٥٨ و ٨ / ٣٨٩ ، ومسلم ١ / ٢١٣ - ٢١٦ ، وأورده السيوطي في « الدر » ، ٣ / ٢٨٢ وزاد نسبه لابن أبي شيبة ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » .

(٢) هو أحمد بن جعفر بن محمد أبو الحسين بن المنادي (٢٥٦ - ٣٣٦ هـ) عالم بالتفسير والحديث من أهل بغداد . قال ابن الجوزي : من وقف على مصنفاته علم فضله واطلاعه ، ووقف على فوائد لا توجد في غير كتبه ، جمع بين الرواية والدراسة ، ولا حشو في كلامه ، آخر من روى عنه محمد بن فارس اللغوي ، من كتبه « اختلاف المدد » و « دعاء أنواع الاستعاذات من سائر الآفات والمآفات » .

وهو في السياق ، فأما أن يكون استغفر له بعد الموت ، فلا ، فانقلب ذلك على الرواة ، وبقي على انقلابه .

والثاني : أن النبي ﷺ مرَّ بقبر أمه آمنة ، فتوضأ وصلى ركعتين ، ثم بكى ، فبكى الناس لبكائه ، ثم انصرف إليهم ، فقالوا : ما الذي أبكاك ؟ فقال : « مرت بقبر أمي فصليت ركعتين ، ثم استأذنت ربي أن أستغفر لها ، فنُهِيت ، فبكيت ، ثم عدت فصليت ركعتين ، واستأذنت ربي أن أستغفر لها ، فزُجرت زجراً ، فأبكاني » ، ثم دعا براحله فركبها ؛ فاسار إلا هُنَيْأة ، حتى قامت الناقة لنقل الوحي ؛ فنزلت (ما كان للنبي والذين آمنوا) والآية التي بعدها ، رواه بريدة عن رسول الله ﷺ ^(١) .

والثالث : أن رجلاً استغفر لأبويه ، وكانا مشركين ، فقال له علي بن أبي طالب : أتستغفر لهما وهما مشركان ؟ فقال : أؤلم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ فذكر ذلك عليّ للنبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية والتي بعدها ، رواه أبو الخليل عن عليّ عليه السلام ^(٢) .

والرابع : أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : يائي الله ، إن من آباءنا من كان يحسن الجوار ، ويصل الرحم ، ويفك العاني ، ويوفي بالذمم ، أفلا

(١) « الطبري » ٥١٢/١٤ مختصراً ، وأحمد في « مسنده » ٣٥٩/٥ ، ومسلم ٦٧١/٢ ، بتمامه ، وأورده السيوطي في « الدر » ٢٨٤/٣ عن ابن مردويه .

(٢) « الطبري » ٥١٤/١٤ ، ٥١٥ ، وأحمد في « المسند » رقم ٧٧١ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٢٨٢/٣ وزاد نسبته للطائلي ، وابن أبي شيبة ، والترمذي ، والنسائي ، وأبو يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » والفضاء في « المختارة » .

نستغفر لهم ؟ فقال : « بلى ، والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه » ، فنزلت هذه الآية ، ويُسَنُّ عذر إبراهيم ، قاله قتادة ^(١) . ومعنى قوله : (من بعد ماتين لهم أنهم أصحاب الجحيم) أي : من بعد ما بان أنهم مانوا كفاراً . قوله تعالى : (إلا عن موعدة وعدها إياه) فيه قولان .

أحدهما : أن إبراهيم وعد أباه الاستغفار ، وذلك قوله : (سأستغفر لك ربي) [مريم : ٤٧] ، وما كان يعلم أن الاستغفار للمشركين محظور حتى أخبره الله بذلك . والثاني : أن أباه وعده أنه إن استغفر له آمن ؛ فلما تبين لإبراهيم عداوة أبيه لله تعالى بموته على الكفر ، ترك الدعاء له . فعلى الأول ، تكون هاء الكناية في « إياه » عائدة على آزر ، وعلى الثاني ، تعود على إبراهيم . وقرأ ابن السميع ، ومعاذ القاري ، وأبو نهيك : « وعدها أباه » بالباء . وفي الأوهام ثمانية أقوال .

أحدها : أنه الخاشع الدعاء المتضرع ، رواه عبد الله بن شداد بن الهاد عن النبي ﷺ .

والثاني : أنه الدعاء ، رواه زرارة عن عبد الله ، وبه قال عبيد بن عمير .

والثالث : الرحيم ، رواه أبو العبيد بن العاصري عن ابن مسعود ، وبه قال الحسن ، وقتادة ، وأبو ميسرة .

والرابع : أنه الموقن ، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، والضحاك .

والخامس : أنه المؤمن ، رواه العوفي ، ومجاهد ، وابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والسادس : أنه المستح ، رواه أبو إسحاق عن أبي ميسرة ، وبه قال سعيد ابن المسيب ، وابن جبير .

والسابع : أنه التأوّه لذكر عذاب الله ، قاله الشعبي . قال أبو عبيدة : مجاز أوّاه مجاز فعّال من التأوّه ، ومعناه : متضرّع شفقاً وفرقاً ولزوماً لطاعة ربه ، قال المُثَقَّب :

إذا ماقتُ أرحلُها ليل تأوّه آهة الرجل الحزين^(١)

والثامن : أنه الفقيه ، رواه ابن جريج عن مجاهد . فأما الجليم ، فهو الصفوح عن الذنوب .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۚ . إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخْفِي وَيُخْفِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

قوله تعالى : (وما كان الله ليضل قوماً ...) الآية ، سبب نزولها : أنه لما نزلت آية الفرائض ، وجاء النسخ ، وقد غاب قوم وهم يعلمون بالأمر الأول مثل أمر القبلة والحر ، ومات أقوام على ذلك ، سألوها رسول الله ﷺ عن ذلك ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وقال قوم : المعنى أنه يبين أنه لم يكن ليأخذهم بالاستنفار للمشركين قبل تحريمه ، فإذا حرّمه ولم يعتصموا عنه ، فقد ضلوا . وقال ابن الأنباري : في الآية حذف واختصار ، والتأويل : حتى

(١) البيت في الطبري ، ٥٣٤/١٤ ، و د الفضليات ، ٢٩١ ، و د مجاز القرآن ،

٢٧٠/١ ، و د طبقات فحول الشعراء ، ٢٣١ ، و د السمط ، ٥٦ ، و د القرطبي ، ٢٧٦/٨ ، و د اللسان ، : أوّه .

يَتَّبِعِينَ لِمَ مَا يَتَّقُونَ ، فلا يتقونه ، فمَنْ ذَلِكَ يَسْتَحِقُّونَ الضَّلَالُ ؛ فحذف ما حذف
ليبيان معناه ، كما تقول العرب : أمرتك بالتجارة فكسبت الأموال ؛ يريدون :
فتجرت فكسبت .

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ
اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ
مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (لقد تاب الله على النبي) قال المفسرون : تاب عليه من إذنه
للمنافقين في التخلُّف . وقال أهل الممانى : هو مفتاح كلام ، وذلك أنه لما كان
سبب توبة التائبين ، ذكر معهم ، كقوله : (فَأَنَّ اللَّهَ مُخِصَّةُ الرُّسُلِ)
[الانفال : ٤١] .

قوله تعالى : (الذين اتبعوه في ساعة المسرة) قال الزجاج : هم الذين اتبعوه
في غزوة تبوك ، والمراد بساعة المسرة : وقت المسرة ، لأن الساعة تقع على كل
الزمان ، وكان في ذلك الوقت حرًّا شديدًا ، والقوم في ضيقة شديدة ، كان الجبل
بين جماعة يعتقبون عليه ، وكانوا في فقر ، فربما اقتسم التمرة اثنان ، وربما مص
التمررة الجماعة ليشربوا عليها الماء ، وربما نحروا الإبل فشربوا من ماء كروشها من
الحر . وقيل لعمر بن الخطاب : حدثنا عن ساعة المسرة ، فقال : خرجنا إلى تبوك
في قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ، حتى
إن الرجل ليذهب يلتمس الماء ، فلا يرجع حتى يظن أن رقبتة ستقطع ، وحتى
إن الرجل لينحر بميره فيمصر فرثه فيشربه ، ويجعل ما بقي على كعبه . فقال
أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً ، فادع لنا . قال : « تحب

ذلك « قال : نعم . فرفع يديه ، فلم يرجعها حتى قالت السماء ^(١) ، فلوثوا ما منكم ، ثم ذهبنا ننظر ، فلم نجد لها جاوزت العسكر ^(٢) .

قوله تعالى : (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) قرأ حمزة ، وحفص عن عاصم : « كاد يزيغ » بالياء . وقرأ الباقر بالناء . وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال . أحدها : تميل إلى التخلف عنه ، وهم ناس من المسلمين هموا بذلك ، ثم لحقوه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن القلوب مالت إلى الرجوع للشدة التي لقوها ، ولم تنزع عن الإيمان ، قاله الزجاج .

والثالث : أن القلوب كادت تزيغ تلقاً بالجهد والشدة ، ذكره الماوردي . قوله تعالى : (ثم تاب عليهم) كرر ذكر التوبة ، لأنه ليس في ابتداء الآية ذكر ذنبهم ، فقدم ذكر التوبة فضلاً منه ، ثم ذكر ذنبهم ، ثم أعاد ذكر التوبة . ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

قوله تعالى : (وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا) وقرأ أبو رزين ، وأبو مجلز ، والشعمي ، وابن يعمر : « خالفوا » بألف . وقرأ معاذ القاري ، وعكرمة ، وحيد :

(١) قالت السماء ، أي ، أقبلت بالسحاب .

(٢) الطبري ، ٤٤١/١٤ - ٥٤٢ وخرجه الميثمي في « المجمع » ، ١٩٤/٦ - ١٩٥ وقال : رواه البزار والطبراني في « الأوسط » ، ورجال البزار ثقات . وذكره السيوطي في « الدرر » ٢٨٦/٣ وزاد نسبه لأبن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبي نعيم والبيهقي في « الدلائل » ، والضياء في « المختارة » .

« خَلَفُوا » بفتح الخاء واللام المخففة . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو العالية : « خَلَفُوا » بفتح الخاء واللام مع تشديدها . وهؤلاء هم المرادون بقوله : (وآخرون مُرْجَوْنَ) وقد تقدمت أسماؤهم [التوبة : ١٠٦] . وفي معنى « خَلَفُوا » قولان .

أحدهما : خَلَفُوا عن التوبة ، قاله ابن عباس ، وبجاهد . فيكون المعنى : خَلَفُوا عن توبة الله على أبي لبابة وأصحابه إذ لم يخضعوا كما خضع أولئك .
والثاني : خَلَفُوا عن غزوة تبوك ، قاله قتادة . وحديثهم مندرج في توبة كعب بن مالك^(١) ، وقد رويتها في كتاب « الحداثق » .

قوله تعالى : (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) أي : ضاقت مع سَمْعَهَا ، وذلك أن المسلمين مُنِعُوا من معاملتهم وكلامهم ، وأُصْرُوا باعتزال أزواجهم ، وكان النبي ﷺ مُعْرِضاً عنهم . (وضاقت عليهم أنفسهم) بالهمز والنعم . (وظنوا) أي : آيَنُوا (أَنْ لَاحِلْجاً) أي : لامتصم من الله ومن عذابه إلا هو . (ثم تاب عليهم) أعاد التوبة تأكيذاً ، (ليتوبوا) قال ابن عباس : ليستقيموا . وقال غيره : وفَقَّهم للتوبة ليدوموا عليها ولا يرجعوا إلى ما يظلمها . وسئل بعضهم عن التوبة النصوح ، فقال : أن تضيق على النائب الأرض ، وتضيق عليه نفسه ، كتوبة كعب وصاحبيه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾
قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أنها نزلت في قصة الثلاثة المتخلفين .

(١) حديث كعب بن مالك رواه البخاري : ٨٦/٨ ، ومسلم : ٢١٢٠/٤ .

والثاني : أنها في أهل الكتاب . والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى
اتقوا الله في إيمانكم بمحمد ﷺ وكونوا مع الصادقين .
وفي المراد بالصادقين خمسة أقوال .
أحدها : أنه النبي ﷺ وأصحابه ، قاله ابن عمر .

والثاني : أبو بكر وعمر ، قاله سعيد بن جبير ، والضحاك . وقد قرأ ابن
السميع ، وأبو المتوكل ، ومعاذ القاري : « مع الصَّادِقَيْنِ » بفتح القاف وكسر
النون على التثنية .

والثالث : أنهم الثلاثة الذين خلفوا ، صدقوا النبي ﷺ عن تأخيرهم ، قاله السدي .
والرابع : أنهم المهاجرون ، لأنهم لم يتخلفوا عن رسول الله ﷺ في الجهاد ،
قاله ابن جريج . قال أبو سليمان الدمشقي : وقيل : إن أبا بكر الصديق احتج بهذه
الآية يوم السقيفة ، فقال : يامعشر الأنصار ، إن الله يقول في كتابه : (للفقراء
المهاجرين الذين أُخْرِجُوا) إلى قوله : (أولئك هم الصادقون) [الخضر : ٨] من
هم ، قالت الأنصار : أنتم هم . قال : فإن الله تعالى يقول : (اتقوا الله وكونوا
مع الصادقين) فأمركم أن تكونوا معنا ، ولم يأمرنا أن نكون معكم ، فنحن
الأمراء وأنتم الوزراء .

والخامس : أنه عام ، قاله قتادة . و « مع » بمعنى : « مِنْ » ، وكذلك
هي في قراءة ابن مسعود : « وكونوا من الصادقين » .

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ
يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً ﴾

إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ صَاحِبُ إِنْ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ .
وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا
كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

قوله تعالى : (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب) قال ابن عباس :
يعني : مزينة ، وجبينة ، وأشجع ، وأسلم ، وغفار ، (أن يتخلّفوا عن رسول الله)
في غزوة غزاها ، (ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) لا يرضوا لأنفسهم بالخلف
والدّعة ورسول الله في الحرّ والمشقة . يقال : رغبت بنفسي عن الشيء : إذا
ترفّعت عنه .

قوله تعالى : (ذلك) أي : ذلك النهي عن التخلّف (بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ)
وهو العطش (ولا نصب) وهو التعب (ولا مخصة) وهي المجاعة (ولا يتألون
من عدو نبلاً) أسراً أو قتلاً أو هزيمة ، فأعلمهم الله أنه يجازيهم على جميع ذلك .
قوله تعالى : (ولا ينفقون نفقة صغيرة) قال ابن عباس : تمرّة فا فوقها .
(ولا يقطعون وادياً) مقبلين أو مدبرين (إلا كتب لهم) أي : أثبت لهم أجر
ذلك . (ليجزيهم الله أحسن) أي : بأحسن (ما كانوا يعملون) .

❦ فصل ❦

قال شيخنا علي بن عبيد الله : اختلف المفسرون في هذه الآية ، فقالت طائفة :
كان في أول الأمر لا يجوز التخلّف عن رسول الله ﷺ حين كان الجهاد يلزم
الكل ؛ ثم نسخ ذلك بقوله : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) [التوبة : ١٢٢] ؛

وقالت طائفة : فرض الله تعالى على جميع المؤمنين في زمان النبي ﷺ أن لا عذر له الخروج معه لشيثين .

أحدهما : أنه من الواجب عليهم أن يَقُوه بأنفسهم .

والثاني : أنه إذا خرج الرسول فقد خرج الدين كله ، فأُمرُوا بالنظاھر لثلاثا يقلّ العدد ، وهذا الحكم باقٍ إلى وقتنا ؛ فلو خرج أمير المؤمنين إلى الجهاد ، وجب على عامة المسلمين متابعتة لما ذكرنا . فلي هذا ، الآية محكمة . قال أبو سليمان : لكل آية وجهها ، وليس للنسخ على إحدى الآيتين طريق .

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما كان المؤمنون اينفروا كافة) في سبب نزولها أربعة أقوال . أحدها : أنه لما أنزل الله عز وجل عيوب المنافقين في غزوة تبوك ، قال المؤمنون : والله لا نتخلّف عن غزوة يفرّوها رسول الله ﷺ ولا سرية أبداً . فلما أرسل السرايا بعد تبوك ، نفر المسلمون جميعاً ، وتركوا رسول الله وحده ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن رسول الله ﷺ لما دعا على مضر ، أجديت بلادهم ؛ فكانت القبيلة منهم مُتَقَبِّلٌ بأسرها إلى المدينة من الجُهد ، ويظهرون الإسلام وهم كاذبون ؛ فضيّقوا على أصحاب رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أن ناساً أسلموا ، وخرجوا إلى البوادي يعلّمون قومهم ، فنزلت :

(إِلَّا تَنفَرُوا يَمُذِّبِكُمْ) [التوبة : ٣٩] ، فقال ناس من المنافقين : هلك من لم ينفر من أهل البوادي ، فنزلت هذه الآية ، قاله عكرمة .

والرابع : أن ناساً خرجوا إلى البوادي يعلِّمون الناس ويهدونهم ، ويصيرون من الحطب ما ينتفعون به ؛ فقال لهم الناس : ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا ؛ فأقبلوا من البادية كلهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد . قال الزجاج : ولفظ الآية لفظ الخبر ، ومعناها الأمر ، كقوله : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) [التوبة: ١١٣] ، والمعنى : ينبغي أن ينفر بعضهم ، ويبقى البعض . قال الفراء : ينفر وينفر ، بكسر الفاء وضما ، لغتان . واختلف المفسرون في المراد بهذا النفر على قولين .

أحدهما : أنه النفر إلى العدو ، فالمعنى : ما كان لهم أن ينفروا بأجمعهم ، بل تنفر طائفة ، وتبقى مع النبي ﷺ طائفة . (ليتفقوا في الدين) يعني الفرقة القاعدين . فاذا رجعت السرايا ، وقد نزل بعدهم قرآن أو تجدّد أمر ، أعلمهم به وأنذروهم به إذا رجعوا إليهم ، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس .

والثاني : أنه النفر إلى رسول الله ﷺ ، بل تنفر منهم طائفة ليتفق هؤلا الذين ينفرون ، ولينذروا قومهم المتخلفين ، هذا قول الحسن ، وهو أشبه بظاهر الآية . فلي القول الأول ، يكون نفر هذه الطائفة مع رسول الله ﷺ إن خرج إلى غزاة أو مع سراياه . وعلى القول الثاني ، يكون نفر الطائفة إلى رسول الله ﷺ لاقتباس العلم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَآمَنَ الَّذِينَ

آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ .
أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ
وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٥﴾

قوله تعالى : (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) قد أمر بقتال الكفار على العموم ،
وإنما يُبتدأ بالأقرب فالأقرب . وفي المراد بمن يلهم خمسة أقوال .

أحدها : أنهم الروم ، قاله ابن عمر . والثاني : قريظة ، والنضير ، وخيبر ،
وفدك ، قاله ابن عباس . والثالث : الديلم ، قاله الحسن . والرابع : العرب ، قاله
ابن زيد . والخامس : أنه عام في قتال الأقرب فالأقرب ، قاله قتادة . وقال
الزجاج : في هذه الآية دليل على أنه ينبغي أن يقاتل أهل كل ثمر الذين يلونهم .
قال : وقيل : كان النبي ﷺ ربما تخطى في حربه الذين يلونه من الأعداء ليكون
ذلك أهيبَ له ، فأمر بقتال من يليه ليُسْتَنَّ بذلك . وفي الغلظة ثلاث لغات :
غلظة ، بكسر النين ؛ وبها قرأ الأكثرون . وغلظة ، بفتح النين ، رواها جيلة
عن عاصم . وغلظة ، بضم النين ، رواها المفضل عن عاصم . ومثلها : جِنُوة
وجَذوة وجُنُوة ، ووجنة ووجنة ووجنة ، ورِغوة ورِغوة ورِغوة ، ورِوبة
ورِوبة ورِوبة ، وقِسوة وقِسوة وقِسوة ، وإلوة وإلوة وإلوة ، في اليمين . وشاة
لُجبة ولُجبة ولُجبة : قد ولى لبنا . قال ابن عباس في قوله « غلظة » : شجاعة .
وقال مجاهد : شدة .

قوله تعالى : (فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا) هذا قول المناققين
بعضهم لبعض استهزاء بقول الله تعالى . (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) لأنهم

إِذَا صَدَّقُوا بِهَا وَعَمِلُوا بِمَا فِيهَا ، زَادَتْهُمْ إِيمَانًا . (وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) أَي : يَفْرَحُونَ
بَنَزُولِهَا . (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أَي : شَكٌّ وَتَفَاقُ .

وفي المراد بالرجس ثلاثة أقوال .

أحدها : الشك ، قاله ابن عباس . والثاني : الإثم ، قاله مقاتل . والثالث :
الكفر ، لأنهم كلما كفروا بسورة زاد كفرهم ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (أُولَا يَرُونَ) يعني المناققين . وقرأ حمزة : « أُولَا تَرُونَ » بالتاء
على الخطاب للمؤمنين . وفي معنى (يُفْتَنُونَ) ثمانية أقوال .

أحدها : يَكْذِبُونَ كَذِبًا أَوْ كَذِبَيْنِ يُضِلُّونَ بِهَا ، قاله حذيفة بن اليمان .
والثاني : يَنَاقِقُونَ ثُمَّ يَوْمِنُونَ ثُمَّ يَنَاقِقُونَ ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .
والثالث : يُبْتَلَوْنَ بِالْفَزْوِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قاله الحسن ، وقناة .

والرابع : يُفْتَنُونَ بِالسَّنَةِ وَالْجُوعِ ، قاله مجاهد .

والخامس : بِالْأَوْجَاعِ وَالْأَمْرَاضِ ، قاله عطية .

والسادس : يَنْقُضُونَ عَهْدَ مَرَّةٍ أَوْ مَرَّتَيْنِ ، قاله يمان .

والسابع : يَكْفُرُونَ ، وذلك أنهم كانوا إِذَا أَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا تَكَلَّمُوا
بِهِ إِذْ خَلَوْا ، عَلِمُوا أَنَّهُ نَبِيٌّ ، ثُمَّ يَأْتِيهِمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ : إِنَّمَا بَلَغَهُ هَذَا عَنْكُمْ ،
فَيُشْرِكُونَ ، قاله مقاتل بن سليمان .

والثامن : يُفْضَحُونَ بِأَظْهَارِ تَفَاقِهِمْ ، قاله مقاتل بن حيان .

قوله تعالى : (ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ) أَي : مِنْ تَفَاقِهِمْ . (وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ)

أَي : يَسْتَبْرُونَ وَيَتَمَعَّطُونَ .

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾
 قوله تعالى : (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ) قال ابن عباس :
 كانت إذا أنزلت سورة فيها عيب المنافقين ، وخطبهم رسول الله ﷺ وعرض
 بهم في خطبته ، شق ذلك عليهم ، ونظر بعضهم إلى بعض يريدون الحرب ، يقولون :
 (هل يراكم من أحد) من المؤمنين إن قمتم ؛ فإن لم يرههم أحد ، خرجوا من
 المسجد . قال الزجاج : كأنهم يقولون ذلك إيماء لئلا يعلم بهم أحد ، (ثم انصرفوا)
 عن المكان ، وجأز عن العمل بما يسمعون . وقال الحسن : ثم انصرفوا على عزم
 التكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به .

قوله تعالى : (صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) قال ابن عباس : عن الإيمان . وقال الزجاج :
 أضلَّهم مجازاة على فعلهم .

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) قرأ الجمهور بضم الفاء . وقرأ
 ابن عباس ، وأبو العالية ، والضحاك ، وابن محيصن ، ومحبوب عن أبي عمرو :
 بفتحها . وفي المضمومة أربعة أقوال .

أحدها : من جميع العرب ، قاله ابن عباس ؛ وقال : ليس في العرب قبيلة
 إلا وقد وكلت رسول الله ﷺ .

والثاني : ممن تعرفون ، قاله قتادة .

والثالث : من نكاح لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية ، قاله جعفر الصادق .

والرابع : بشر مثلكم ، فهو آكد للحجة ، لأنكم تفقهون عمن هو مثلكم ،
قاله الزجاج . وفي المفتوحة ثلاثة أقوال .

أحدها : أفضلكم خلُقًا . والثاني : أشرفكم نسبًا . والثالث : أكثركم طاعة
لله عز وجل .

قوله تعالى : (عزيز عليه ما عنيتُم) فيه قولان .

أحدهما : شديد عليه ما شقَّ عليكم ، رواه الضحاك عن ابن عباس . قال
الزجاج : شديد عليه عنيتكم والعنت : لقاء الشدة .

والثاني : شديد عليه ما آثمتكم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

قوله تعالى : (حريص عليكم) قال الحسن : حريص عليكم أن تؤمنوا .

قوله تعالى : (بالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) قال ابن عباس : سماه باسمين من أسمائه .
وقال أبو عبيدة : « رؤوف » فعول ، من الرأفة ، وهي أرق من الرحمة ؛ ويقال :
« رؤف » ، وأنشد :

ترى للمؤمنين عليك حقاً كفعل الوالد الرؤف الرحيم^(١)
وقيل : رؤوف بالمطيعين ، رحيم بالمذنبين .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

قوله تعالى : (فإن تولَّوا) أي : أعرضوا عن الإيمان (فقل حَسْبِيَ اللَّهُ)
أي : يكفيني (رب العرش العظيم) . وقرأ ابن محيصن : « العظيم » برفع

(١) البيت لجبريل ديوانه : ٥٠٨ ، و « مجاز القرآن » ، ١/١٧١ ، و « اللسان » ،
و « التاج » : رأف ، و « الخزانة » ، ٢/١٦٨ .

الميم . وإنما خص العرش بالذكر ، لأنه الأعظم ، فيدخل فيه الأصغر . قال
أبي بن كعب : آخر آية أنزلت (لقد جاءكم رسول...) إلى آخر السورة ^(١) .

تم - بعون الله تبارك وتعالى - الجزء الثالث من « زاد المسير في
علم التفسير » ويليه الجزء الرابع وأوله :
تفسير سورة (يونس)



(١) « الطبري » ٥٨٨/١٤ - ٥٨٩ ، والحاكم في « المستدرک » : ٣٣٨/٢ ، و« المسند » :
١١٧/٥ وفي سنده علي بن زيد بن جدعان . قال الهيثمي في « المجمع » ٣٦/٧ : وهو ثقة
سماه الحفظ وبقية رجاله ثقات ، ورواه أحمد في « المسند » : ١٣٤/٥ بأطول منه عن عمر
ابن شقيق عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب ، ورجاله
ثقات خلا عمر بن شقيق فإنه مجهول .